كوديرلوس دي لاكلو

العلاقات الخطرة

بين الجنسين

ترجمة

أديب مروّه

الطبعة الاولى
كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٩

twitter @baghdad_library

كوديه لوس دي لاكلو

العلاقات الخطرة
بين الجنسين

نقلها إلى العربية ووضع مقدمتها
أديب مروه

منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت

للمترجم :

مسارح وابطال
مجموعة قصص وتمثيليات

تأشيرة الى أوروبا
دراسات وانطباعات

المسألة (ترجمة)
تأليف هنري البيغ

قريبا :

تماثيل حية
قصص تمثيلية هزلية

twitter @baghdad_library

« لقد اردت ان اترك اثرا يظل داويا
فوق الارض حتى بعد مغادرتي اياها »

« لاكلو »

كوديرلوس دي لاكلو

مؤلف العلاقات الخطرة

١٧٤١ – ١٨٠٣

twitter @baghdad_library

مقدّمة

بقلم المترجم

ليس كتاب « العلاقات الخطرة » « Les Liaisons dangereuses » لمؤلفه كوديرلوس دي لا كلو، بالكتاب الجديد ، كما انه ليس بالكتاب القديم. بل يمكن القول انه كتاب جديد قديم في آن واحد ...

فهو جديد نظراً للضجة التي أثيرت حوله اخيراً في فرنسا إثر ظهور فيلم سينمائي استمدت قصته منه، وجعل الناس يستفيقون عليه بعد ان كادوا ينسونه فيقبلون على مطالعته وكأنه صدر حديثاً لاول مرة ، مما حمل ثلاثة دور نشر على التسابق الى نشره بمئات الالوف من النسخ .

وهو قديم في الواقع لانه نشر لأول مرة عام ١٧٨٢ – اي قبل اعلان الثورة الفرنسية الكبرى بسبعة اعوام – بعد ان صمم مؤلفه على الاتيان «بأثر يظل داوياً فوق الارض حتى بعد ان يكون قد غادرها »

وأحسب انه كان للمؤلف ما اراد ... اذ حين نشرت هذه الرواية لأول مرة على يد الناشر ديران نيفي Durand Neveu في باريس تبرأ منها واضطر الى تأكيد اختلاق حوادثها كما سنرى في المقدمة التي وضعها بنفسه للكتاب . وقد اثارت الرواية عند صدورها فضيحة ونجاحاً هائلين ، وتخاطف القراء النسخ القليلة الاولى التي صدرت منها – وكان عددها الفان فقط – في مدى ايام معدودة . ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا صدرت احدى وخمسون طبعة من رواية دي

لاكلو هذه ، مع ان مؤلفاته الاخرى من سياسية وغيرها – هذا اذا اعتبرنا «العلاقات الخطرة» لا تمت الى السياسة بصلة – لم تلق ابداً مثل هذا النجاح ، بل على العكس بقيت مغمورة جداً ، حتى ليصح القول ان دي لاكلو لم يعش إلا ليؤلف «العلاقات الخطرة» التي كانت اهم اثر انتجه في حياته . وقد ترجم هذا الكتاب ، ونقلت قصته الى معظم لغات العالم حتى انه ترجم اخيراً الى اللغة الروسية رغم ما عرف عن السوفيات من تحفظ تجاه الآثار « الجريئة» التي ينقلونها الى لغتهم في العهد الحاضر .

ولقد قيل عن رواية دي لاكلو انها تمثل في ميدان الاخلاج الغرامية وطبائع الحب ما يمثله كتاب «الامير» لمكيافيلّي في ميدان الاخلاق السياسية في القرن السادس عشر .

ولكن من هو دي لاكلو هذا؟ وما سبب قيمة روايته هذه التي اثيرت حولها كل هذه الضجة ؟

قبل ان نستعرض الرواية ينبغي علينا ان نتحدث قليلاً عن مؤلفها ، ونعرف نبذة عن حياته وعن العصر الذي عاش فيه .

ولد بيير أمبرواز– فرانسوا كوديرلوس دي لاكلو في مدينة أميان بفرنسا في ١٨ تشرين الاول سنة ١٧٤١ ، وبعد ان انهى دراساته بنشاط ، اتجه نحو الجندية والتحرط في سلاح المدفعية ، وكان ان صعد سلم الترقية سريعاً ، وانتقل من حامية الى حامية : من تول الى ستراسبورغ إلى غرينوبل الى بيزانسون ، الى فالانس ، وفي سنة ١٧٧٩ عمل تحت ادارة المركيز دي مونتالامبير على تشييد تحصينات جزيرة اكس . وفي سنة ١٧٨١ طلب منحه اجازة ، فأصدر في ربيع سنة ١٧٨٢ روايته هذه « العلاقات الخطرة » التي احدثت دوياً كدوي القنبلة في مجتمع تلك الأيام ، وكان عمره حينئذ ٤١ سنة ، وهو برتبة كابتين .

وفي سنة ١٧٨٤ تزوج من فتاة كانت قد حملت منه سفاحاً هي الآنسة ديبريه ، وأصبح خلال الثورة الفرنسية التي اعلنت سنة ١٧٨٩ من عملاء الحزب الاورليانزي، ثم سجن مرتين بسبب علاقاته بدوق اورليان، وكان ان اطلق سراحه

twitter @baghdad_library

في النهاية ، وعينه بونابرت في جيش الرين بايطاليا برتبة جنرال مدفعية . وتوفي دي لاكلو بمدينة تارانت في ٥ أيلول سنة ١٨٠٣

وقد اشتهر بطموحه الذي لا حد له وطباعه المتحررة ، ولا غرو فهو يمثل باخلاقه عصراً منحلاً مفعماً بالمتناقضات ... وكان متأثراً بجان جاك روسو الذي يدعو الى تحرر الانسان من ربقة العادات والتقاليد والعيش بين احضان الطبيعة. ولعل كتاب « الاعترافات» لروسو كان له تأثير بالغ في شخصية دي لاكلو، لأنه يكثر من الاستشهاد به وبمؤلفه في كثير من المناسبات ، كما انه حذا في طريقة كتابة روايته هذه حذو روسو في روايته «هيلوييز الجديدة » إذ صاغها بقالب الرسائل كما سيرى القارىء .

وقد خلف دي لاكلو آثاراً جمة غير « العلاقات الخطرة » فعالج المسرحية والرواية ، وكتب المقالات السياسية والانتقادية ، ووضع المحاضرات والابحاث الاخلاقية الاجتماعية ، ونظم بعض القصائد الخفيفة ، ولكنها منيت جميعها بالاخفاق التام، واعتبرت من الآثار القليلة الشأن ، وهي في مستوى ضعيف جداً.

ولذلك فان « العلاقات الخطرة » هي الاثر الوحيد ذو القيمة الفنية الممتازة الذي وضعه دي لاكلو ، مع انه لا يخلو من هنات واخطاء شتى من حيث الاسلوب واللغة ، والقواعد النحوية ، مما اشار اليه كثير من النقاد ومدرسي الأدب على مرّ العصور ..

ولعل ما اثارته رواية «العلاقات الخطرة » عند صدورها من ضجة واهتمام لدى الرأي العام عائد الى ان النفوس كانت في ذلك العصر تغلي بالثورة والنقمة على لويس السادس عشر وحاشيته وبطانته من اصحاب الالقاب النبيلة من كونت ومار كيز ودوق وفيكونت وشيفالييه (فارس) الخ .. فاذا بهذه الرواية تؤجج تلك الثورة ، بما صورته من فساد وفجور هذه الفئة من القوم ، وكان ان انقسم الجمهور إزاءها بين مؤيد لها محبذ لصدورها وبين مستنكر لها ناقم عليها بسبب ما حوته من تصوير اباحي وانتهاك لحرمة الدين * ، وحمى الفضيلة والاخلاق !

* يهمني ان أشير هنا الى أني خففت واستبدلت جميع العبارات التي قد تتضمن أو ما يفهم

ثم طغت الاحداث السياسية على ضجة الرواية ، لا سيما بعد انفجار الثورة ، وبجيء نابليون في ما بعد .. وكان ان تحولت «العلاقات الخطرة» إلى اثر أدبي كلاسيكي يُدرّس في الكليات والجامعات من بين مواد الادب الفرنسي ، شأنها في ذلك شأن سائر الآثار المتمردة التي يطفح بها ادب القرن الثامن عشر ، لأنها في عرف المدرسين تشكل ، رغم جرأتها ، اثراً بارزاً من الاثار التي صورت الحياة الفرنسية ، او بالاحرى حياة طبقة من طبقات الشعب الفرنسي في نهاية ذلك القرن اصدق تصوير . وقد رسمت رواية دي لا كلو بالذات صورة صادقة عن عادات وتقاليد واخلاق مجتمع ذلك العصر الزاخر بالاحداث ، والذي كان بمثابة نقطة تحول في تاريخ فرنسا لا بل وتاريخ أوروبا جمعاء .

وهكذا فالرواية التي نحن بصددها الآن هي – اذن – رواية ادبية كلاسيكية قديمة ، موضوعة في متناول طلاب كليات الادب في الجامعات ، وهي من المواد المقررة التي يطلب اليهم ان يطلعوا عليها ويدرسوها لاستجلاء كنوز الادب الفرنسي الكلاسيكي واكتناه اسراره وغوامضه .

ولذلك لم نجد غضاضة في نقلها الى اللغة العربية بسبب ما أثارته وما زالت تثيره من ضجة في غابر الايام وحاضرها . وبسبب ما يشتم منها من معاني سياسية عميقة يستشفها القارىء الفطن من خلال الصور الخلاعية الجريئة التي يرسمها المؤلف ببراعة .

ولا غرابة إذن ان يكون الفيلم السينمائي الذي استمد المخرج روجيه فاديم قصته من هذه الرواية اخيراً قد اثار بدوره في عصرنا هذا ضجة لا تقل عما احدثه صدور الرواية نفسها لأول مرة ، مما حمل الحكومة الفرنسية الراهنة على التدخل بالأمر ، وبحث القضية في مجلس وزاري ، مما يرد تفصيله في الكلمة التي علق بها شيخ الصحافة العربية الاستاذ محمد التابعي على هذا الفيلم خلال مقال افتتاحي من مجلة « آخر ساعة » المصرية ، وقد اثبتنا كلمة التابعي بعد هذه المقدمة نظراً

منها أي مساس بالدين وبحرمة رجاله وشعائره ، دون ان يقلل ذلك من شأن الرواية وسياقها ،لاسباب لا تخفى على احد .

twitter @baghdad_library

لالتصاقها بقيمة الرواية ، وما تلقيه من ضوء على الأثر الذي احدثته في النفوس .

وانه لمما يبعث على الاستغراب حقاً ان يكون جمهور اليوم في فرنسا قد اثار حول فاديم ، الضجة نفسها التي اثارها جمهور الامس حول دي لاكلو . كل ذلك لان فاديم شاء ان يكون امينا في نقل احداث الرواية وعقدتها الى عصرنا الحاضر فوق الشاشة البيضاء ، فاعتبر البعض ان في فيلمه هـذا تعريضاً بالطبقة الحاكمة الحالية بفرنسا ... لان الرواية في الاصل بتصويرها مباذل النبلاء ، تتضمن تهجماً غير مباشر على الطبقة الحاكمة المستهترة في ذلك العهد . وقد دافع فاديم عن نفسه بقوله انما هو في هذا الفيلم يروي تاريخاً من التاريخ لا التاريخ الراهن .

وبالفعل فهو لم يفعل سوى انه نقل قصة كتاب مباح تتداوله الايدي منذ حوالي قرنين من الزمن الى السينما الحديثة .

وفي الواقع ان من شأن ابطال دي لاكلو ان يثيروا فضيحة وصدمة في كل عصر ومكان . فقد كانوا « تقدميين » ولكن على طريقتهم الخاصة ، لانهم كانوا داعرين فاسقين ! وما قيمة الفاسق في مجتمع خاضع للاعتبارات الدينية التي تفرض على نسائه الاحترام الدقيق لمظاهر الفضيلة ؟ وما هو الفسق ان لم يكن التهجم الوقح على هذا المجتمع ؟

بيد ان دي لاكلو قد اوضح موقفه من هذه القضية بصورة لا تقبل الجدل ، وذلك في « الخطاب » الذي ردّ به على سؤال « اكاديمية شالون سيرمارن » حول « احسن الطرق لاتقان تربية النساء » . وقد اجاب على ذلك بقوله : « ليست هناك اية طريقة لاتقان تربية النساء ، وما دامت العبودية ترسف في كل مكان فلا مجال للتربية . فالتربية هي تنمية الملكات والمواهب ، وتوجيه هذه الملكات نحو الفائدة الاجتماعية . واذا عمدنا ، بدلاً من توجيه هـذه الملكات نحو الفائدة الاجتماعية ، الى نشرها لكي نطويها على نفسها في ما بعد ، فاننا بذلك نكون قد أتقنا الغريزة ، وهذه ليست تربية بل حرماناً » .

ثم يصيح دي لاكلو قائلاً : ايتها النساء ، اقتربن مني ، وتعالين اصغين إليّ ، تعالين لتتعلمن كيف انكن ولدتن رفيقات للرجل ، فاذا بكن تغدون عبدات له

وكيف انكن سقطتن الى هذه الحالة المشينة ، فاذا بكن تستمرأنها وتتذوقنها ، كما لو كانت هي حالتكن الطبيعيـــة ، وكيف انكن جُردتن من درجاتكن شيئاً فشيئاً ، بسبب تعودكن على العبودية ، فأصبحتن تفضلن الرذائل السهلة على الفضائل الصعبة القاسية بالنسبة للكائن الحر المحترم . »

والمهم في الأمر ان دي لاكلو يبرر في النهاية انحراف بعض النساء ، بسبب ظلم المجتمع . ويدعو المجتمع الى الأخذ بيـد المرأة ، وتحريرها من عبوديتها ، وجعلها مساوية للرجال . مع تقوية ملكاتها ومواهبها وتوجيهها الوجهة الصالحة نحو خير المجتمع .

ولقد سجل المظهر الرئيسي للمشكلة الاخلاقية التي يثيرها كتاب « العلاقات الخطرة » الكاتب الشهير فرانسوا مورياك في كتابه « الفريسيون » حيث قال : ان انحرافاتنا الفردية المسكينة التي نطلق عليها إسم « الشر » ليس بينها وبين هذه الرغبة في تحطيم نفس من النفوس شيء مشترك ... فروح الشر كما عُرفت في القرن الثامن عشر ووصفت في « العلاقات الخطرة » ما زالت كما اعلم جيداً تتنفس على بعد بضعة امتار من كنيستي . »

ومع ذلك فان كثيرين من الكتاب والنقـــاد دافعوا عن موقف دي لاكلو وهنأوه على جرأته ، ومنهم ف. هـ. ديبيدور الذي لم يتردد، ضمن كتابه «المرآة الشفافة » في التنويه « بالقيمة المطهّرة للآثار القوية التي تحلل دون شفقة الانسان بعد تجريده حقيقة من أية اشارة الى الخالق . وان هذه الآثار هي نادرة جداً ... لأن اولئك الذين يملكون الشجاعة على البقـــاء في وضع خانق يفرضه غياب الخالق أو مـا يحل محله هم قلة نادرة . (لقد عجز رامبو نفسه عن ذلك) فهناك لاروشفوكو و « العلاقات الخطرة »،و « مزورو العملة » لاندريه جيد ، واخيراً كتاب سارتر « الابواب المقفلة » « Huis clos » الذي يرسم بقـــوة جافة تحبس الانفاس صورة هذه الصحراء القاحلةمن الرمال والالماس التيهي عالم دون إلـه».

ونحن هنا لسنا في معرض الدفاع عن لاكلو وكتابه هـــذا كما اننا لسنا في موقف التعرض له بخير أو بشر. بل اننا ننقله كماهو الى العربية كأثر بارز من آثار

twitter @baghdad_library

الادب الفرنسي القديم الذي قـــد يهم الكثيرين الاطلاع على كنوزه ودقائقه ، تاركين للقارىء ان يحكم عليه وحده، وأن يستخلص بعد مطالعته اياه ما يشاء من عظة أو عبرة أو صدمة .

اذ ليس من الضروري ان يكون التاريخ الادبي لكل امـة من الامم حافلاً فقط بالروائع الاخلاقية والآثار الفاضلة ،بل أن في ادب كل امة – حتى في الادب العربي نفسه – نماذج من الآثار التي قد تختلف في مجونهـا وجرأتها ولا أخلاقيتها حسب طباع هذه الامة والعصور التي مرت بها،ومع ذلك فهي ان قلت او كثرت تشكل حيزاً هاماً من هذا الادب لا يجوز للمثقف الحصيف اغفاله او اهمـــال الاطلاع عليه .

والامثلة في تاريخ الادب العربي على ذلك كثيرة نكتفي بالاشارة منها هنـا إلى اشعار امرىء القيس الجنسية ، ومعلقة النابغة الذبياني في المتجردة، وقصائد ابي نؤاس الغلامية الخلاعية ، وحتى « الف ليلة وليلة » نفسها التي تعتـــبر من اروع آثار العرب بنظر الغرب لا تخلو من مشاهد جنسية اباحية متعددة .

ونحن مع ذلك لا نستطيع التبرؤ من هذه الآثار او حذفها من تاريخنا الادبي ، بل على العكس نجد انه لا بد لنا من دراستها وتفحصها ، لأنها تعطي صورة حية عن طبيعة الحياة في عصورنا الخوالي. وكلما كان الاديب او الشاعر صادقاً في التصوير ورسم الاحاسيس والمشاعر كلما كان أدبه خالداً ، وكان لهذا الادب قيمته الخاصة التي يتميز بها .

من جهة النظر المتجردة هذه ينبغي على القارىء ان ينظر الى هذه الرواية التي ننقلها اليوم لأول مرة الى العربية ، على انها – كما قلنا – تصور الحياة في عهد من عهود التاريخ الفرنسي . واذا كان في هذه الرواية ما يثير ويصدم فلا شأن لنـا بذلك ، بل كل غايتنا هي ان ننقل بأمانة اثراً ادبياً ثميناً احدث وما زال يحدث ضجة كبرى بين الناس وحسبنا ذلك كدليل على ما له من قيمة واهمية ، وهـذا ما يخوله بنظرنا ان يكون جديراً بالاطلاع لتقصي اسباب تلك الضجة .

اديب مروة

تعليق التابعي
على فيلم « العلاقات الخطرة »

« كتب الصحافي العربي الكبير الاستاذ محمد التابعي التعليق التالي على فيلم « العلاقات الخطرة » الذي استمدت قصته من هذه الرواية في مجلة « آخر ساعة » القاهرية بتاريخ ٢١ اكتوبر ١٩٥٩ ننقله بحرفيته لأنه يلقي ضوءاً على التأثير الذي احدثته هذه القصة وما زالت تحدثه بين الناس ».

...واطمئنوا فالمخرج المذكور فرنسي وليس عربياً واسمه روجيه فاديم ... وصناعته مخرج ومنتج سينمائي . والنقاد لا ينكرون عليه كفاءته ومواهبه الفنية ولكنهم يأخذون عليه انه استغل هذه المواهب في اكتشاف الفتيات الجميلات والتزوج منهن – واحدة بعد الاخرى – ثم عرض مفاتن اجسامهن العارية في « افلام » يخرجها لحسابه !..

وكانت بريجيت باردو أو (ب . ب .) كما تسمى الآن .. كانت زوجة له ثم طلقت منه . ولكن بعد ان اظهرها في عدة افلام .. او اظهر جسمها العاري حتى من ورقة التوت !

وعلى كل حال فان ب . ب . اصبحت من اهم الصادرات الفرنسية . بل هي اليوم اكثر اهمية لفرنسا ولوزارة ماليتها والاقتصاد الفرنسي من شركة رينو للسيارات ومن محال كريستيان ديور وشاباريللي ومولييه وكارفن للازياء .. لأن ارباح افلام بريجيت باردو تأتي لفرنسا بملايين الدولارات التي تزيد كثيراً على ما تربحه فرنسا من بيع سياراتها وعطورها في امريكا .

twitter @baghdad_library

وزوجة روجيه فاديم الحالية فتاة دنماركية شقراء اسمها (انيت ستروبرج) وقد اظهرها اخيراً زوجها تاجر الاجسام العارية في فيلم اسمه (العلاقات الخطرة) وعرض الفيلم فعلاً في بعض دور السينما في الشانزيليزيه ...

ثم أوقف عرضه بأمر من مجلس رقابة السينما لان اعضاء المجلس الموقر رأوا أن الفيلم فاضح الى حد كبير ...

وقرر المجلس رفع الامر الى وزير الاستعلامات مسيو روجيه فرى .

وشاهد الوزير الفيلم وقرر ان يعرض الامر على الخبراء ...

وهؤلاء الخبراء من زملائه الوزراء

وهكذا وفي جلسة خاصة عقدت في منتصف الليل ... عرض الفيلم على الوزراء جاك سوستيل (لشئون الصحراء) وادمون ميشليه (للعدل) وموريس كوف ده مورفيل (للخارجية) ومدير بوليس باريس مسيو موريس بابون

وبينما كانت هذه الجلسة الوزارية تستعرض الفيلم وتستمتع بمحاسن جسم الشابة الدانماركية الحسناء ... كانت ألوف من الباريسيين تحاصر ابواب دور السينما في الشانزيليزيه وتطالب برؤية الفيلم الممنوع عرضه ...

***

وأمسك السادة الوزراء الفرنسيون بالعصا من وسطها واصدروا قرارهم وهو السماح بعرض الفيلم في فرنسا امام الكبار الذين تجاوزوا سن ١٦ .

وعدم السماح بتصدير الفيلم خارج فرنسا .

وقيل في هذا ان الحكمة في هذا المنع ليست حماية الآداب في الاقطار الاجنبية وانما الحكمة هي حماية سمعة فرنسا في الخارج لان في قصة الفيلم المذكور تشويهاً وخدشاً لسمعة الجمهورية الخامسة ؟ .

* * *

وانقسم الرأي العام ... وأصبح فيلم (العلاقات الخطرة) حديث الساعة .

بعضهم احتج على السماح بعرض الفيلم في فرنسا . وقال انه اذا كان الفيلم خادشاً لسمعة فرنسا في الخارج فاولى به ان يمنع كذلك في داخل فرنسا .. لأن

سمعة فرنسا تهم الفرنسيين قبل ان تهم الاجانب .

وآخرون احتجوا باسم الفن وحرية الفن ونادوا بان فرنسا كانت دائماً مهد الحريات جميعاً ... وطالبوا بعرض الفيلم بدون قيد وشرط ...

***

ويرى المارة في حي الشانزيليزيه طوابير تمتد نحو كيلومترين امام أبواب دور السينما التي يعرض فيها الفيلم ...

طوابير من الذين ينتظرون دورهم للدخول ومشاهدة الفيلم المذكور .

وأما مسيو روجيه فاديم مخرج ومنتج الفيلم فانه يخشى أن لا تغطى ايرادات الفيلم نفقاته بسبب منعه من التصدير الى الخارج .

ولكنه يعزي نفسه ويقول : على كل حال سوف استطيع ارساله الى الخارج بعد سقوط هذه الجمهورية الخامسة !

محمد التابعي

twitter @baghdad_library

عنوان الكتاب في الأصل

العلاقات الخطرة

أو

رسائل مستقاة من أحد المجتمعات

ومنشورة لتنوير بعض المجتمعات الأخرى

بقلم

مسيو ك. د. ل. ك.

« لقد رأيت عادات هذا العصر
فنشرت هذه الرسائـــل »

جان جاك روسو

(من مقدمة « هيلويز الجديدة »)

تحذير من الناشر *

نظن ان من الواجب تحذير الجمهور ـ رغم عنوان هذا المؤلّف، ورغما يقوله المؤلّف في مقدمته ـ من اننا لا نضمن صحة هذه المجموعة من الرسائل ، ولدينا اسباب قوية تجعلنا نعتقد انها ليست سوى مجرد رواية .

ويبدو لنا فضلاً عن ذلك ان المؤلف الذي حاول أن يبدو اقرب ما يكون الى الحقيقة ، قد حطم هذه الحقيقة بنفسه ودون حذاقة ، بسبب العصر الذي جعل هذه الاحداث التي ينشرها الآن تدور فيه . وبالفعل فإن كثيراً من الاشخاص الذين أبرزهم على المسرح هم من ذوي الاخلاق السيئة الفاسدة بحيث نجد من المستحيل الافتراض انهم عاشوا في قرننا هذا : قرن الفلسفة ، وقد جعلت الاضواء المنتشرة من جميع الجهات – كما يعلم كل منا – جميع الرجال شرفاء وجميع النساء متواضعات متحفظات !

في رأينا اذن أنه لو كانت لهذه المغامرات الواردة في هذا المؤلّف اساس من الصحة، لما كانت جرت حوادثها الا في امكنة أو عصور اخرى. ونحن نستنكر على المؤلف ان يكون قد تجرأ فأبرز طبائع واخلاقاً غريبة عنا ، في ازيائنا وعاداتنا . منجذباً ظاهرياً بالأمل في إثارة المزيد من الاهتمام ، عن طريق تقربه الشديد من عصره وبلاده .

---

* مقدمة كتبها ناشر الكتاب عند صدوره لاول مرة في باريس سنة ١٨٧٢ وقد شاء كما نلاحظ ان ينفي صحة حوادث الكتاب لاسباب لا تخفى على القارىء وذلك دفعاً لنقمة الجماهير عليه ، وتفادياً لانتقاد الاخلاقيين . « المترجم »

twitter @baghdad_library

ولكي نصون على الأقل – ما دام الأمر يتعلق بنا – القارىء السريع التصديق، من اية مفاجأة في هذا الصدد، فإننا ندعم رأينا هذا بقوة المنطق ونعرضه بكل ثقة . لأن هذا الرأي يبدو لنا منتصراً لا يحتاج الى جدل . ذلك ان ذات الاسباب لا ينتج عنها الا ذات التأثيرات ، ولذلك لا نشاهد مطلقاً اليوم آنسة يبلغ دخلها ستين الف ليرة تجعل من نفسها راهبة ، كما لا نرى ابداً رئيسة صبية فاتنة تموت من شدة الحزن .

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب ـ أو بالأحرى هذه المجموعة من الرسائل التي ربما سيجدهـــا القارىء ضخمة جداً ـ لا يضم الا أقل عدد ممكن من الرسائل التي تشكل المراسلة الكاملة التي أُخذت عنها. وقد كُلِّفتُ بوضعها موضع الترتيب من قبل الاشخاص الذين وصلت اليهم ، وكنت اعلم ان الغاية من ذلك هي نشرها ، فـــلم اطلب مكافأة على جهودي سوى السماح لي بحذف ما لا اجده مناسباً . لقد جهدت بألا أحتفظ بـــالفعل الا بالرسائل التي بدت لي ضرورية ، ان كان من حيث مجرى الأحداث أو مـــن حيث تطور الطباع . واذا أضفنا الى هذا العمل ، تنسيق الرسائل وترتيبها ، وهو ترتيب اتبعت فيه دائماً المحافظة على التسلسل التاريخي ، وابداء بعض الملاحظات القصيرة النـادرة التي لا ترمي في معظمهـــا الا الى الإشارة لمصادر بعض الاستشهادات أو تبرير بعض الحذف الذي سمحت لنفسي به ، لتبين لنا مدى المساهمة الضئيلة التي قمت بها في هذا المؤلَّف ، ولم تتعدَّ مهمتي ذلك *

لقد اقترحت اجراء تبديلات أوسع ، وكلها تقريباً متعلقة بصفاء العبـارة أو الأسلوب الذي لا يخلو من أخطاء كثيرة. كما رغبتُ في أن يُؤْذَنَ لي باختصار

---

* ينبغي ان ألفت النظر الى انني حذفت وبدلت جميـع اسماء الاشخاص الذين تتعلق بهم هذه الرسائل ، فاذا كان بين الاسماء الجديدة التي وضعتها مكان الاسماء الاصليـة ما يخص بعضهم ، فان ذلك من قبيل الخطأ الصادر من جانبي ، وهو ما ينبغي عـدم التعويل عليه (المؤلف)

twitter @baghdad_library

بعض الرسائل الطويلة ، وبينها ما يعالج بصورة منفصلة ودون صلة تقريباً ، مواضيع غريبة الواحد عن الآخر . وان هذا العمل الذي لم يؤذن لي به ، ما كان ليكفي بدون ريب لإعطاء قيمة الى هذا الأثر ، بل لكان على الأقل ازال قسماً من هناته .

لكنني جوبهت بأن هذه الرسائل هي ما يُراد اطلاع الناس عليها وليس نشر كتاب مستمد منها . وانه لما يجافي الحقيقة أو الواقع أن يكون الأشخاص الثمانية أو العشرة الذين اشتركوا بها قد كتبوا جميعهم رسائلهم باسلوب ذي صفاء متعادل . وان ما تصورته يدل على انه ليس هناك احد على العكس قد ارتكب اخطاء جسيمة ، وانه ليس عرضة للانتقاد .

ولقد رُدّ عليّ أيضاً بأن أي قارىء متعقل سيتوقع اكيداً العثور على اخطاء في مجموعة من رسائل بعض الناس الخاصة . لأنه في جميع المجموعات التي نشرت حتى الآن لمختلف المؤلفين المحترمين وحتى لبعض اعضاء الاكاديمية ، لم نجد احداً منهم بمنجى عن هذا المأخذ. غير ان هذه الأسباب لم تقنعني . ووجدتها — كما لم أزل اجدها ايضاً — ان من الأسهل ابداءها بدلاً من تلقيها . ولكنني لم اكن السيد المطلق التصرف . وكان أن استسلمت للأمر . انما احتفظت بحق الاحتجاج والتصريح بأن ذلك لم يكن من رأيي ، وهذا ما افعله الآن .

أما في ما يتعلق بالقيمة التي قد تكون لهذا الكتاب ، ولعله ليس من حقي ان اعبر عنها ، فان رأيي لا ينبغي ولا يستطيع ان يؤثر في رأي احد . ومع ذلك فاولئك الذين يرتاحون قبل البدء باحدى المطالعات لمعرفة ماذا ستتضمنه ، بإمكانهم ان يستمروا ، اما الآخرون فمن الافضل لهم ان يبدأوا رأساً بقراءة الكتاب نفسه ، فسيعلمون ما فيه الكفاية .

ان ما استطيع قوله اولاً هو انه لو كنت استطيع نشر هذه الرسائل كما اشتهي ، لكنت مع ذلك ابعد ما اكون عن توقع نجاحها ، وأرجو ألا يؤخذ هذا الصدق من جانبي على انه تواضع يتلاعب به المؤلف . إذ اعلن بالصراحة نفسها بأنه لو لم تبدُ لي هذه المجموعة جديرة بأن تعرض على الجمهور ، لما شغلت

تفسي بها . فلنجرب اذن التوفيق بين هذا التناقض الظاهر .

ان قيمة اي كتاب تتألف من منفعته ومتعته ، لابل من الاثنتين معاً حين يكون ثمة مجال للتأويل ، ولكن النجاح الذي لا يدل ابداً على القيمة ، ينتج غالباً عن اختيار الموضوع اكثر من تنفيذه ، وعن مجموعة الاهداف التي يرمي اليها اكثر من الطريقة التي تعالج بها هذه الاهداف. بينما يسود هذا المولّف المتضمن كما يدل عليه عنوانه مجموعة رسائل مجتمع بالذات، اختلاف في المصالح مما يضعف مصلحة القارىء ، وفضلاً عن ذلك فان جميع المشاعر التي وردت فيه ، لا تستطيع ان تثير - بسبب كونها متكلفة ومتخفية - إلا رغبة في الفضول هي دائماً اقل من رغبة العاطفة ، لأن رغبة العاطفة تميل نحو التسامح ، وتدع الأخطاء الموجودة في التفاصيل تبرز وتظهر .

ولكن ما يعوض عن هذه الهنات او عن قسم منها الميزة التي تتفرد بها طبيعة هذا المؤلّف : أقصد تنوع الاساليب، وهي ميزة يتوصل اليها الكاتب بكل صعوبة ، ولكنها هنا تتمثل من تلقاء نفسها ، وهي تنقذ على الأقل ضجر الرتابة .

إن كثيرين يستطيعون ان يجدوا عدداً كبيراً من الملاحظات ، جديدة أو معروفة قليلاً ، وهي مبعثرة هنا وهناك في هذه الرسائل . وهذا ايضاً كما اعتقد كل ما يمكن ان يؤمل من متع ، بعد الحكم عليها بكثير من الموهبة .

اما فائدة هذه الرسائل التي قد تكون موضع جدل ، فانها تبدو لي مع ذلك سهلة الاستنتاج . وفي رأيي على الاقل انها تسدي خدمة للاخلاق بكشفها عن الوسائل التي يستخدمها اولئك الذين لا اخلاق لهم لإفساد أصحاب الاخلاق الفاضلة . وأعتقد أن هذه الرسائل تستطيع ان تساهم بفعالية في تحقيق هذه الغاية . ويمكن العثور فيها ايضاً على البرهان والمثل عن حقيقتين هامتين قد يُظن انهما مجهولتان لقلة ما تستعملان وهما: الاولى ان كل امرأة توافق على استقبال رجل عديم الاخلاق في مجتمعها ، تنتهي بأن تصبح ضحيته ، والاخرى ان كل أم تتعذب لكون شخص آخر يتمتع بثقة ابنتها هي ام غير محترسة . وأن الفتيان

twitter @baghdad_library

والفتيات يستطيعون ان يتعلموا من هذا الكتاب ان الصـــداقة التي يقدمها لهم الاشخاص عديمو الاخلاق بسهولة ليست إلا كميناً خطراً وحاسماً بالنسبة لسعادتهم وفضيلتهم . ومع ذلك فان الافراط في الثقة ، وهو دائماً قريب من الخير ، يبدو لي هنا ممـــا يخشى شأنه كثيراً . ومع انـه لم يخطر في بالي أن أنصح الشبان والشابات بقراءة هذا الكتاب ، فان ما يبدو لي اكثر أهمية ، هو ابعـــاد أية مطالعة من هذا النوع عنهم . .

ان الفترة التي تكف فيها هذه القراءة عن ان تكون خطرة ، وتصبح مفيدة ، قد حددتها لي أمّ ممتازة بالنسبة لبنات جنسها ، اذ قالت لي : « أعتقـــد ، بعد قراءة مخطوطة هذه الرسائل ، انني أسدي أجلّ خدمـة الى ابنتي ، بتقديم هذا الكتاب اليها يوم زواجها » . واذا كانت جميع الامهات يفكرن مثل هذه السيدة فأني سأهنىء نفسي إلى الأبد لكوني احسنت في نشره .

ولكن مع اعتمادي على هـذا الافتراض المشجع ، فان نجاح هذا الكتاب لا يبدو لي مضموناً ، بل يخيل لي دائماً انه سيعجب عدداً قليلاً من الناس ، فالرجال والنساء المفسودون ، يجدون من صالحهم أن يتهجموا عليه لأنه قد يؤذيهم . وبما ان البراعة لا تنقصهم ، فلربما سيثيرون ضده المتحنبلين المتزمتين الذين يفزعهم مشهد الاخلاق الساقطة التي لا يُخشى من نشرها .

اما من يزعمون بانهم اصحاب فكر قوي ، فإنهم لا يأبهون ابـداً لامرأة تقية فاضلة إلا من حيث انها تمثـــل الانثى . بينما سيغضب الاتقياء الورعون لرؤيتهم انهيار الفضيلة ويتأسفون لكون الدين لا يظهر تشدداً كافياً .

ومن ناحية ثانية فان الاشخاص ذوي الاذواق المرهفة سيتقززون من الاسلوب الشديد السهولة الكثير الاخطاء في عدد كبير من هـــذه الرسائل ، بينما سيجد القراء – الذين تجذبهم فكرة ان كل مطبوع هو ثمرة جهد – في بعض الرسائل طريقة مؤلمـة لمؤلف يظهر وراء الشخصية التي يجعلها تتحدث .

واخيراً سيقال – ربما بصورة عامة – ان لا قيمة لكل شيء الا في مكانه ، وانه اذا كان الاسلوب المنقح جيداً لأحد المؤلفين سينزع عادة جمال رسائل مجتمع

معين بالذات ، فان ما ورد في هذه الرسائل من اهمال يغدو بمثابة اخطاء حقيقية ويجعلها لا تغتفر حين تسلم للطبع .

اني اعترف بصدق ان جميع هـــذه المآخذ يمكن ان يكون لهـا اساس : واعتقدايضاً انني أجد من السهل الرد عليها، لا بل دون أن أتجاوز طول المقدمة، ولكن ينبغي ان نشعر انه اذا كان من الضروري الرد على كل شيء. فهذا يعني أن الكتاب لا يستجيب لأيه فائدة . وانني لو حكمت على الأمور بمثل هذا المنطق لكنت حذفت في آن واحد المقدمة والكتاب .

twitter @baghdad_library

القسم الأول

١

من سيسيل فولانج الى صوفي كارني

في مدرسة ... الداخلية للبنات

باريس في ٣ آب ؟؟ ١٧

ترين ، يا صديقتي الطيبـــة ، انني أفي بوعدي ، وان القبعات وطراطيرها لا تستغرق كل وقتي ، بل يظل عنـــدي الوقت الكافي دوماً لأتحدث اليك ، لقد شاهدت من الزينات والحلى هذا النهار وحده اكثر مما رأيت خلال السنوات الاربع التي قضيناها معاً . وأعتقد ان زميلتنا الرائعة تانفيل سينتابها حزن شديد عندأول زيارة لي حيث انوي دعوتها. اذ طالما تباهت علينا كل مرة حضرت لرؤيتنا وهي ترتدي أفخر الملابس . لقد استشارتني أمي في كل شيء ، ولم تعـد تعاملني كالسابق عندما كنت طالبة داخلية ، فلي الآن خادمة خاصة بي ، كما ان لديّ غرفة ومقصورة أتمتع بهما وحدي، وانني اكتب اليك الآن فوق مكتب جميل جداً تسلمت مفتاحه ، وأستطيـع ان احتفظ في داخله بكل ما أشاء . وقد قالت لي أمي انني سأراها كل يوم عند نهوضها من النوم ، وحسبي ان أكون قد اكملت زينتي لـكي نتناول الغداء . لاننا سنكون دوماً وحدنا ، وعندئذ ستعين لي امي كل يوم الساعة التي ينبغي عليّ فيها ان أذهب لملاقاتها بعد الظهر.

اما بقية الوقت فأنا حرة التصرف ، ولديّ قيثارتي ورسومي وكتبي كما كان الحال في المدرسة ما عدا أنه لا توجد هنا المديرة بيربيتو لكي تقرعني ، وان الامر متوقف علي وحدي لـكي لا أعمل شيئاً. وبما انه ليس معي صوفيتي العزيزة لكي نتحدث ونضحك ، فإنني أفضل ان أُشغل نفسي بشيء ما .

twitter @baghdad_library

الساعة الآن لم تبلغ الخامسة بعد ، وليس عليّ أن أذهب لمقابلة أمي إلا في السابعة : وهذا وقت كاف لو كان عنـــدي ما أحدثك به ! لكنهم حتى الآن لم يحدثوني عن شيء ، ولولا الاستعدادات التي يجب أن أقوم بهـــا ، والعاملات الكثيرات اللواتي يحضرن كلهن من اجلي ، لكنت اعتقـدت انهم لا يفكرون بتزويجي ، وان القضية لا تتعدى ثرثرة بوابـة المدرسة جوزفين . مع ان امي قالت لي غالباً أن البنت يجب ان تبقى في المدرسة الداخلية حتى يحين موعد زواجها ، وبا انها اخرجتني منها ، فلا بد ان تكون جوزفين على حق .

انني ارى عربة فاخرة تتوقف عند الباب ، وقد طلبت إليّ أمي الآن بأن أوافيها حالاً . فاذا كان هذا هو الرجل المنتظر..؟ ؟ فانني لم ارتد ملابسي بعد ، وأشعر بيدي ترتجف وقلبي يخفق . لقد سألت خادمتي عما اذا كانت تعلم من هو الذي يمكن ان يكون عنـــد امي ، فقالت لي : انه السيد ش . . . ثم ضحكت ! آه ! اعتقد أنه هو . سأعود حتماً بعد قليل لأروي لك ماذا يكون قـــد حدث . واليكِ دوماً إسمه . يجب عليّ ألا أجعلهم ينتظروني طويلاً . الوداع ، وإلى فرصة قصيرة .

كم ستسخرين من سيسيل المسكينة ! آه ! لقد كنت حييّة جداً . ولكنك لو كنتِ مكاني لكان وقع لك ما وقع لي . اذ حين دخلت على أمي ، رأيت رجلاً يرتدي طقماً أسود ، واقفاً إلى جانبها . فحييته بقدر ما استطعت ، وبقيت في مـكاني دون ان اتمكن من الحراك . انك لتتصورين كم تفحصته ! وقال لوالدتي وهو يحييني : « انها يا سيدتي آنسة لطيفة عذبة جداً ، وانني أشعر اكثر من اي وقت مضى بقيمة عطفك » .اعتراني ازاء هذا الاطراء الايجابي ارتجاف لم استطع معه ان املك نفسي ، وعثرت على مقعد وثير فجلست عليه وانا حمراء مرتبكة من شدة الخجل ، ولم يمضِ على جلوسي إلا هنيهة قصيرة حتى جاء هـذا الرجل يركع عند ركبتي .وعندئذ اضاعت سيسيلتك المسكينة صوابها ، وكنت كما قالت أمي مذعورة جداً . فنهضت وأنا اطلق صرخة حادة ... كما لو انهـــا الرعد .

وانفجرت امي ضاحكة وهي تقول : ماذا بكِ ؟ اجلسي ، وناولي قدمكِ الى الرجل » . وبالفعل، يا صديقتي العزيزة ، لقد كان الرجل صانع أحذية ! انني لا استطيع أن أصور لك مبلغ خجلي ، لحسن الحظ لم يكن هناك سوى أمي . أعتقد انني حين أتزوج لن استعين ابداً بهذا الحذّاء . ان هذه الحكاية تختلف كثيراً عما كنت افكر بأن أرويه لك .

اعترفي معي اذن باننا ها نحن اصبحنا عالمات . الوداع ، الساعة الآن هي قرابة السادسة ، وها هي خادمتي تقول لي بأن عليّ ان ارتدي ملابسي ، الوداع يا صوفيتي العزيزة ، احبكِ كما لو كنت في المدرسة .

لا اعلم بواسطة من سأبعث اليكِ بهذه الرسالة ، ولذلك سأنتظر مجيء جوزفين .

٢

من المركيزة دي ميرتاي إلى الفيكونت دي فالمون

في قصر ...

باريس في ٤ آب ؟؟ ١٧

عُد يا عزيزي الفيكونت ... عد : ماذا تفعل ؟ وماذا يمكن ان تفعل عند عمة عجوز اورثت أملاكها إلى سواك ؟ تعال في الحال ، انني بحاجة اليك . فلقد ساورتني فكرة رائعة ، وأود أن اعهد اليك بتنفيذها . هذه الكلمات يجب ان تكفي . وانه ليشرفني جداً اختياري هذا . عليك ان تأتي بسرعة ، وتتلقى اوامري على ركبتيك . ولكنك لن تستغل طيبتي وتسامحي ، حتى بعد أن استغنيت عن استخدامها. وفي حالة وجود كراهية دائمة ،أو تسامح مفرط ، فان سعادتك تأبى الا ان تفوز طيبتي وتسامحي على ما سواهما . أنني لأرغب اذن في اطلاعك على مشاريعي ، ولكن اقسم لي بوصفك فارساً امينا انك لن تنساق في مغامرة اخرى قبل ان تحقق هذه المغامرة التي اعرضها عليك الآن ، وهي جديرة ببطل : لانك بذلك ستخدم الحب والانتقام . وستكون مغامرة أخرى تضيفها الى سجل مذكراتك. اجل مذكراتك ،لأنني أتمنى لو تُطبع في يوم من الايام

twitter @baghdad_library

واتعهد بكتابتها . لكن لندع هذا الآن ، ولنعد الى ما يشغل تفكيري .

أن السيدة دي فولانج ستزوج ابنتها سيسيل ، ومـــا زال الأمر سراً حتى الآن ، ولم تطلعني عليه إلا بالأمس . ومن تعتقد انهـــا اختارت كصهر ؟ انـه الكونت دي جيركور . من كان يظن بأنني سأصبح ابنة عم جيركور ؟ إنني في حالة يرثى لها من الاستياء والنقمة بسبب ذلك ... ثم ألم تحزر بعد ؟

آه تباً للتفكير الثقيل ! أفتكون قد عفوت عن مغامرته لكي يتولى منصب الادارة؟ وأنا الا ينبغي علي ان اشتكي منه؟.. يا لك من ظالم قاسي القلب !(*) لكنني أهدىء نفسي ، لأنّ الأمل بأن انتقم لنفسي يعيد البشاشة الى روحي.

لقد كنتَ متبرماً مئة مرة، وأنا ايضاً ، من الاهتمام الذي يبذله جيركور من اجل المرأة التي سيمتلكها ، ومن أجل الزهو الاخرق الذي يجعـــله يعتقد أنه سيتجنب المصير المحتوم . انت تعرف ميله السخيف نحو الفتيات المتخرجات من الاديرة ، واقتناعه المبرم – وهذا لما هـــو أشد سخفاً ايضاً – بتحفظ الشقراوات . وبالفعل فأنني اراهن أنه – رغم ايراد الستين ألف ليرة التي تملكها الصغيرة ابنة دي فولانج – ما كان ليسعى ابداً الى هذا الزواج لو كانت هي سمراء أو لو لم تكن قد تلقت تعليمها في الدير . فلنبرهن له اذن على أنـــه ليس سوى أخرق أحمق . وسيصبح كذلك في يوم من الايام . ليس هذا ما يشغلني الآن ، بل المضحك انه بدأ من هنا . وكم سنتسلى في اليوم التـــالي حين نسمعه يزهو بنفسه حتماً ؛ ثم ، اذا تمكنت أنت من تدوير عقل هذه الفتاة الصغيرة ، فستكون هناك طامة كبرى اذا لم يغدُ جيركور كغيره اضحوكة باريس.

الخلاصة ان بطلة هذه الرواية الجديدة تستحق كل عنايتك ، فهي حقاً جميلة، وليس لها من العمر سوى خمسة عشر عاماً ، وهي بمثابة برعم الورد ، ولكنهـا

(*) لكي نفهم هذه العبارة ، ينبغي ان نعلم ان الكونت دي جيركور كان قد تخلى عن حب الماركيزة دي ميرتاي لكي يعشق الرئيسة ... التي فضلت عليه الفيكونت دي فالمون . وفي تلك الفترة تعلقت الماركيزة والفيكونت احدهما بالآخر . وبما ان هذه المغامرة هي عادية جداً وهي سابقة في احداثها للفترة التي تجري فيها الحوادث الحالية فقد رأينا من المناسب حذف جميع الرسائل المتعلقة بها .

خرقاء في الحقيقة الى أبعد حدود الخرق .

انها ليست متكلفة ابداً . ولكنكم انتم معشر الرجال لا تخشون ابداً هذه الناحية . وفضلاً عن ذلك فإن لهانظرة مشهية تغري بكثير من الوعود، اضف الى ذلك انني انصحك بها ، وليس عليك الا ان تشكرني وتطيعني .

ستصلك هذه الرسالة غداً صباحاً . وأصر على ان تكون عندي غداً في الساعة السابعة . انني لن استقبل احداً إلا في الثامنة حتى ولو كان الشيفالييه الحاكم : فليس عنده عقل لمثل هذه القضية الكبرى . أرأيت ان الحب لا يعميني . وفي الساعة الثامنة ساعيد لك حريتك ، على ان تعود في العاشرة لكي تتعشى مع الفتاة الحلوة ، لأن الأم والبنت ستتعشيان عندي . الوداع ، الساعة الآن الثانية عشرة ونيف ، وقريباً لن اشغل نفسي بكم .

٣

من سيسيل فولانج إلى صوفي كارني

في مدرسة... الداخلية للبنات

باريس في ٤ آب ؟؟١٧

لا أعلم بعد شيئاً يا صديقتي الطيبة . لقـــد كان هناك عدد كبير من القوم مدعوين للعشاء عند أمي . وعلى الرغم من الاهـتمام الذي أبديته في تفحص الرجال بصورة خاصة ، فلقد ضجرت كثيراً . وقد حدّق بي الرجال والنساء وجميع القوم طويلاً ،ثم أخذوا يتهامسون في ما بينهم. وكنت ألاحظ جيداً انهم يتحدثون عني . وهذا ما جعلني اصطبغ بالاحمرار دون ان استطيـع تفـادي ذلك . كم كنت اتمنى العكس ، إذ لاحظت حـين كانوا ينظرون إلى النساء الاخريات أنّ هؤلاء لم يكنّ يصطبغن بالاحمرار ، أو لعل الأحمر الذي يصبغن به انفسهن كان يحول دون رؤية الأحمرار الذي يثيره الارتباك فيهن . لأنه ينبغي ان يكون من الصعب جـــداً عدم الاصطباغ بالاحمرار حين يحدق فيك رجل دون ان يريم .

twitter @baghdad_library

لكن مـا اقلقني اكثر من ذلك هو عدم معرفـة ماذا يفكرون به نحوي . اظن انني سمعت مع ذلك مرتين او ثلاثاً كلمة « جميلة »، ولكني سمعت ايضـاً بوضوح كلمة « خرقاء » . لا بد ان يكون ذلك صحيحاً ، لأن المرأة التي قالت ذلك هي قريبة وصديقة لأمي ، ويظهر أنها ابدت فوراً كثيراً من الصداقـة نحوي . وهي الشخص الوحيـد الذي حدثني قليـلاً في السهرة وسنتعشى عندها غداً .

وسمعت ايضاً بعد العشاء رجلاً – وانا متأكدة انه كان يتحدث عني – يقول لآخر : « ينبغي تركها لكي تنضج ، وسنرى ذلك هـذا الشتاء » . لعل هذا الشخص هو الذي يريد ان يتزوجني: ولكن الأمر لن يتم اذن إلا بعد أربعة شهور! انني لأتمنى ان اتعرف جيداً على ذلك .

هذه هي جوزفين، انها تقول لي أنها متعجلة، وأود مع ذلك ان اروي لك ايضاً إحدى التصرفات الخرقاء التي صدرت عني. آه اعتقد ان تلك السيدة على حق .

بعد العشاء ، اخـذ القوم يلعبون الورق ، فجلست بالقرب من والدتي ، ولا ادري ماذا حدث فكان إن غبت في سبات عميق على الأثر، ولم افق الا على صوت قهقهات صارخة ، ولست أدري اذا كانوا يضحكون عليّ ، ولكنني اظن ذلك . وكان ان اذنت لي والدتي بالانصراف ، فبعثت بذلك السرور في نفسي ، تصوري ان الساعة كانت قـد تجاوزت الحادية عشرة . الوداع يا صوفيتي العزيزة أحبي دائمـاً سيسيلتك ، واؤكد لك ان العالم ليس مسلياً بالقـدر الذي كنا نتخيله .

٤

من الفيكونت دي فالموي الى المركيزة دي ميرتاي

في باريس

قصر ... في ٥ آب ؟؟ ١٧

أوامرك شيقة ، وطريقتك في اصدارها هي اكثر لطفاً ايضاً . اذ تجعلـين المرء يستعذب الاستبداد . وليست هذه اول مرة كما تعلمين آسف فيها لأن اكون

عبدك . ومهما كنت ظالماً قاسي القلب، فانني اتذكر دوماً بـــلذة الوقت الذي كنت تشرفينني خلاله بصفات اكثر نعومة ورقة . انني لأود غالباً ان استحقها من جديد ، وان اتوصل معك الى ضرب مثل على الثبات امام العالم . ولكن هناك مصالح أهم من ذلك تستدعينا كلا الاثنين؛ فالغزو هو رائدنا ويجب علينا أن نسلك طريقه : ولعلنا في نهاية مطافنا سنلتقي أيضاً. لانك – ولنقل ذلك دون ان تغضبي ، يا ميركيزتي الحسناء – تتبعينني بخطى متساوية. وما دمنا، مهما انفصلنا عن سعادة العـــالم ، نبشر بالأيمان ، كل منا من جهة ، فانك كما يبدو لي ، في هذه المهمة الغرامية قد سبقتني بالتبشير شوطاً بعيداً . انني أعرف حميتك وحماسك اللاهب ، واذا كان هذا الرب كالآخر ، يحكم علينا حسب أعمالنا ، فستصبحين يوماً ما شفيعة احدى القرى الكبرى . ان هذه اللهجة الصوفية تدهشك ،اليس كذلك ؟ ولكنني منذ ثمانية أيام لا أسمع ولا أتحدث لهجة سواهـــا . انني ، في سبيل اتقانها ، اجد نفسي مضطراً لعصيانك .

لا تغضبي ، بل أصغي اليّ ، انت يا مستودع جميـــع اسرار قلبي ، أود أن اسرّ اليك بأكبر مشروع وضعه مغامر حتى الآن في حياته . ماذا تعرضين عليّ ؟ اغراء فتاة صغيرة لم تر شيئاً ، ولا تعرف شيئاً ، ستستسلم إليّ دون دفـــاع ، وسيسكرها أول ثناء، وسيدفعها الفضول نحوي اكثر مما يدفعها الحب؟ عشرون غيري يستطيعون أن ينجحوا في هذا المضمار مثلي . ولكن المهمة التي تشغلني الآن ليست من هذا الطراز ، ان نجاحها يضمن لي قدراً من المجد مساوياً للذّة، وان الاكليل الذي سيتوج حبي محتار بين الآس والغار أو بالأحرى سيجمعهما معاً لـكي يحتفل بانتصاري .

وانت ايضاً يا صديقتي الحسناء ، ستنعمين باحترام مقدس ، وستقولين بحماس: «هذا هو الرجل الموافق لقلبي» .

انت تعرفين الرئيسة تورفيل * وورعها وحبها الزوجي ومبادئها التقشفية .

---

* المقصود بالرئيسة هنا زوجة رئيس المحكمة ، اذ تقضي التقاليد في فرنسا بأن تمنح الزوجة عادة لقب الزوج . كما ان القاضي الذي يشغل منصب رئيس المحكمـــة القضائية يطلق عليه لقب الرئيس فقط . (المترجم)

twitter @baghdad_library

وهي الآن هدف هجومي . وهي العدو الجدير بي . والغـــاية التي اطمح الى بلوغها .

« واذا كان في امتلاكها لن احصل على الجائزة .

فسيكون لي على الاقل شرف السعي اليها » .

بالامكان الاستشهاد بابيات رديئة حين تكون لشاعر كبير (*) .

ستعلمين اذن ان الرئيس هو في بورغونيه بسبب دعوى كبيرة . (آمل ان اخسره دعوى اخرى اكثر اهمية) وان على زوجته التي لا تتعزى ان تمضي هنا طوال مدة هذا الترمل المحزن : قداس كل يوم ، بعض الزيارات الى فقراء الناحية ، وصلوات من الصباح حتى المساء ونزهات خلوية ، ومحادثات ورعة مع عمتي العجوز : تلك هي كل متعها الوحيدة ، وانني اهيىء لها متعاً اكثر فعالية ، لقد قادني ملاكي الرحيم الى هنا من أجل سعادتها وسعادتي . إنه أعمى القلب ! ولذلك آسف لأن اضحي باربع وعشرين ساعـــة في مجاملات عادية . وكم اكون مخطئاً اذا اضطررت للعودة الى باريس . لحسن الحظ لا بدّ ان يكون هناك أربعة اشخاص للتسلي بلعبة الويسك ** . وبما انه لا يوجد هنا سوى كاهن الناحيـة فإن عمتي الخالدة قد حملتني على ان اضحي من اجلها ببضعة ايام ، وانت تحزرين بانني وافقت ، ولا يمكن ان تتصوري كم اخذت تدللني منذ تلك اللحظة ، وكم هي فخورة برؤيتي اذهب لصلواته وقداسه بانتظام . وهي لا تشك بالألوهية التي اعبدهـا .

وها أنذا منذ اربعة أيام مأخوذ بهوايـــة قوية . انت تعرفين كيف أرغب بحيويـــة ، وكيف افترس العقبات ، ولكن مـا تجهلينه هو كم ان العزلة تشحذ الرغبة . ليست ثمة سوى فكرة واحدة ، تسيطر عليّ نهاراً واحلم بها ليلاً . إنني بحاجة شديدة لامتلاك هذه المرأة لكي انقذ نفسي من مهزلة كوني عاشقاً : لأن المرء لا يقود رغبة معاكسة . آه أيتها اللذة العارمة كم

---

* من قصيدة لروسو .

** نوع من العاب الورق .

أتضرع اليك من أجل سعادتي وراحتي ، وكم نحن سعداء لكون النساء يدافعن عن أنفسهن دفاعاً سيئاً ! والا لما كنا ازاءهن سوى عبيد خجولين . ينتابني الآن شعور الاعتراف بالجميل للنساء السهلات مما يقودني بطبيعة الحال الى الركوع عند قدميك : طالباً اليك الصفح . وبذا أختم الآن هذه الرسالة الطويلة ، الوداع يا صديقتي الحسناء . ودون حقد .

٥

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون في قصر ...

باريس في ٧ آب ؟؟ ١٧

هل تعلم أيها الفيكونت ان كتابك على جانب كبير من الوقاحة النادرة . ولو شئت لكنت غضبت . ولكنه برهن لي بوضوح على انك فقدت صوابك ، وهذا وحده ما انقذك من استنكاري . أنا الصديقة الكريمة الحساسة أنسى أهانتي لكي لا أشغل نفسي الا بالخطر الذي يداهمك. ومهما كان التفكير بتعقل مضجراً ، فإنني أفعل ذلك نظراً لما انت بحاجة اليه في الوقت الحاضر .

أنت تمتلك الرئيسة تورفيل ! يا له من هوى فجائي موقت سخيف ! انني اكتشف هنا جيداً سوء تفكيرك الذي لا يعرف ان يشتهي غير ما يعتقد انه صعب المنال . من تكون اذن هذه المرأة ؟ تقاطيع منتظمة اذا شئت ولكنها دون اي تعبير . مكوّنة بصورة متوسطة ، ولكن دون دلال وغنج : دائماً جاعلة نفسها مثار ضحك من جراء تلك الربطات التي تضعها على صدرها ، ثم جسمها الذي يرتفع حتى الذقن !. أقول لك كصديقة ، لا حاجة بك الى امرأتين من هذا النوع لكي تجعلانك تفقد كل اعتبارك . هل تذكر اذن ذلك اليوم الذي كانت الرئيسة تجمع فيه الحسنات في سان روش وقد شكرتني جداً لكوني اتحت لك هذا المشهد ؟ انني ما زلت اراها امامي وهي تكاد تتعثر في كل خطوة ، وتحمر خجلاً عند كل تحية . من قال حينئذ انك ستشتهي هذه المرأة؟... هيا يا فيكونت

twitter @baghdad_library

أحمَّر خجلاً الآن ، وعد إلى نفسك ، اعدك بأن احفظ السر .

ثم لاحظ المحاذير التي تنتظرك ! من هـــو الخصم الذي ستحاربه ؟ زوج ! ألا تشعر بنفسك مذلولاً عند هذه الكلمة وحدها . وأي عـــار سيلحقك لو أخفقت . هذا مع العلم ان النجاح لن يمنحكاي شرف . وأقول زيادة على ذلك، لا تؤمل في اية لذة . وهل هناك لذة مع المفرطات في الاحـــتراس في ما يختص بالعفة ؟ اني اعـني بذلـــك ذوات النية الحسنة : المتحفظات حتى في أوج اللذة . اللواتي لا يقدمن لك إلا نصف الاستمتاع . إن الاستسلام الكامـــل من اعماق النفس، وهذا الجنون في الشهوة حيث تتطهر اللذة عن طريق الافراط فيها ، وتلك الطاقات في الحب والغرام ليست معروفـــة لدى هؤلاء النساء . انني اتنبأ لك حق في أسعد الافتراضات بأن رئيستك تعتقد انها فعلت كل شيء من اجلك اذا عاملتك كزوجها ؛ وفي انعم المنـاغشات الزوجية الحميمـة يكون هناك فقط اثنان . وهذا لما هو أسوأ ايضاً . فإن متحصنتك تقية ورعة من نوع التقى الذي تتحلى به بعض السيدات الطيبات فيجعلهن في طفولة دائمـة . لعلك تتغلب على هذه العقبة ، ولكن لا تتباهى بتحطيمها ، فـاذا انتصرت على حبها للخالق فلن تنتصر على خوفها من الشيطان . وحين تحتضن خليلتك بين ذراعيك ستشعر بقلبها يخفق ، لا من شدة الحب بـل من شدة الوجل . لعلك لو عرفت هذه المرأة من قبل ، هل كان بإمكانك ان تفعل معها شيئاً ؟ انها الآن في الثانية والعشرين، وهاقد مضى عليهاحوالي سنتين وهي متزوجة . صدقني أيها الفيكونت انه حين تكون المرأة قد امتلأت يجب تركها وشأنها ، فلن تصبح الا مبتذلة .

اذن من أجل هذا الهدف السخيف ترفض اطاعتي ، وتدفن نفسك في قبر عمتك وتقلع عن القيام بالمغامرة الاكثر متعة والتي خلقت لكي تشرفك . بأية سخرية يجب أن يظل جيركور متفوقـاً بالميزة عليك ؟ اسمع ، اني احدثك دون مزاح: انني في الوقت الحـاضر اميل للاعتقاد بأنك لا تستحق سمعتك ، وانني اميل بصورة خاصة لأن اسحب ثقتي منك . ولن آلف ابداً ان اروي اسرار عشيق السيدة تورفيل .

اعلم مع ذلك ان الصغيرة فولانج قد ادارت رأس بعضهم ، فالشاب دانسني أصبح يجن بها. وقد غنّى معها، وهي بالفعل تغني أحسن من أية تلميذة داخلية عادة . وعليها ان يكررا الغناء معاً مزدوجين ، واعتقد أنها ستقع من تلقاء نفسها في الايقاع الموحد . لكن دانسني هذا مازال ولداً، وسيضيع وقته في ممارسة الحب الجنسي دون أن يصل إلى شيء . والفتـاة الصغيرة من جهتها هي فظة نفور . وفي جميع الاحوال سيكون ذلك دائماً اقل متعة مما ستكون قد وفرته انتَ لها .

انني متكدرة جداً . وسأتشاجر اكيداً مع عشيقي الفارس حين وصوله . انني سأنصحه بأن يكون مترفقاً ، وفي مثل هذه الحالة لن يكلفني شيء انفصالي عنه. انا متأكدة انه لو كان عندي ذهن صافٍ لكي اتركه الآن، فسيكون في حالة يرثى لها من اليأس. وليس هناك ما يسليني كاليأس الغرامي. وسيدعوني غدّارة او مخاتلة . ان هذه الكلمة بعد كلمة قاسية تعتبر اكثر نعومة على اذن امرأة، وهي اقل صعوبة في استحقاقها . سأهتم جدياً بهذا الانفصال . **وهذا** ما ستكون انت سببه . انني اضع تبعته على ضميرك ، الوداع تذكرني في صلوات رئيستك .

٦

من الفيكونت دي فالمون إلى المركيزة دي ميرتاي في باريس

قصر ... في ٧ آب ؟؟ ١٧

ليست ثمة امرأة على الاطلاق لا تسيء استخـدام السلطان الذي عرفت امتلاكه ... وأنتِ أيضاً ... أنتِ التي دعوتك غالباً صديقتي الواسعة الصدر ترفضين أن تكوني هذه الصديقة ، ولا تخشين من مهاجمتي في عقر عواطفي ! بأية خطوط تجسرين على رسم السيدة دي تورفيل ؟ وأي رجل لا يدفع حياتـه ثمناً لهذه الجرأة المهينة ؟ إن مثل هذه الشراسة لا تليق بإمرأة مثلك . ولذلك أرجوك ألا تزجي بي في مثل هذه التجارب القاسية . فلن اتزحزح عن موقفي . فباسم الصداقة ، انتظري حتى اكون قد نلت هذه المرأة ، اذا كنتِ تريدين أن

twitter @baghdad_library

تتقوّلي علينا . أفلا تعلمين أن للمتعة وحدها الحق في إزالة لثام الحب ؟

ولكن ماذا أقول ؟ هل هي بحاجة إلى خيال ؟ كلا ، فلكي تكون معبودة يكفي ان تكون هي نفسها . أنت تأخذين عليها انها لا تتأنق كثيراً . انني اعتقد ذلك : لأن كل زينة تفسدها ، وان كل ما يسترهـا يؤذي بهاءها ، فهي في مباذلها تبدو حقيقة فاتنة رائعة . وبفضل الحرارات المرهقـــة التي تشعر بها ، وبفضل غلالة رقيقة من القماش البسيط استطيع ان ارى قوامها الملفوف اللدن . وبفضل قميص واحد من الموسلين يغطي صدرها ، استطاعت انظاري الخفيـــة الخارقة أن تلتقط اشكال جسدها المفعمة بالبهجة . انت تقولين انه ليس لوجهها اي تعبير ، ولكن ماذا تريدينها ان تعبر اثناء الفترات التي لا يتحدث فيها احد الى قلبها ؟ كلا ، بدون شك ، انها لا تملك كنسائنا المغناجات ، هـذه النظرة الكاذبة التي تسحرنا في بعض الأحيان ، ثم تخدعنا دائماً . انها لا تعرف ان تغطي فراغ جملة من الجمل بابتسامة مدروسة . وعلى الرغم من ان لها اجمـل اسنان في العالم ، فانها لا تضحك الا مما يسليها حقاً . ولكن ينبغي مشاهدتها كيف تمثل صورة الحبور البريء الصريح في الالعاب الماجنة ، وكما لو كانت بالقرب من مسكين تريد مساعدته فان نظرتها تُفعم بالفرح الصافي والطيبة المنعشة . يجب رؤيتها كيف يرتسم على وجهها — عند اقل كلمة ثناء او مداعبة — هذا الارتباك المؤثر من جراء تواضع ليس مصطنعاً البتة . انهـــا تقية ورعة ، ولذلك تحكمين عليها بأنها باردة ودون حيوية . ولكني اعتقد خلاف ذلك . فيا للحساسية المدهشة التي تتمتع بها والتي تشيعها حتى نحو زوجها وتحب دائماً كائناً يظل غائباً . ماذا يمكن ان تطلبي دليلاً أقوى من ذلك ؟ وقـد استطعت مع ذلك أن أحصل على دليل آخر .

لقد قدتُ نزهتها في طريق كان علينا خلاله اجتياز خندقاً ، ومعانها رشيقة جداً فهي شديدة الحياء . (وتعلمين جيداً ان أية امرأة تقية تخشى ان تقفز فوق خندق) وكان لا بد أن تعهد بنفسها إليّ . وأمسكت بـــين ذراعي هذه المرأة المتواضعة ، وقـــد جعلتها استعداداتنا ومرور عمتي العجوز تضحك من أعماق

قلبها : ولكن ما ان امسكتُ بها حتى اشتبكت أذرعنا بطبيعة الحال بصورة اعتباطية ، فضغطت نهدها فوق صدري ، وشعرت خلال هذه الفترة القصيرة بقلبها يخفق سريعاً. وكان ان اصطبغ وجهها بهذه الحمرة اللطيفة ، وأنبأني ارتباكها المتواضع أن قلبها قد خفق بالحب وليس من الخوف . وقد انخدعت عمتي مثلك وأخذت تقول : ان البنت قد اعتراها الخوف. ولكن سذاجة هذه البنت اللذيذة لم تسمح لها بالكذب فقالت: «آه .. كلا ، ليس بسبب ذلك ! » . لقد أضاءت هذ الكلمة الوحيدة بصيرتي . ومنذ تلك اللحظة حل الأمل الناعم محل القلق القاسي . سأنال هذه المرأة ، وسأخطفها من زوجها الذي يمتهنها . وسأجرؤ على أن أستلبها من الاله نفسه الذي تعبده . يا لها من متعة أن أكون في آن واحد هدفاً لتبكيت ضميري ومنتصراً عليه . اني بعيد كل البعد عن الرغبة في تحطيم الاحكام المسبقة التي تحاصرها وتقتنع بها . بل ستضاف هذه الاحكام الى سعادتي ومجدي. فلتؤمن بالفضيلة ولكن يجب ان تضحي لي بها. ولترعبها اخطاؤها دون ان تتمكن من ايقافها . ومهما كانت مضطربة من جراء مخاوف لا تحصى ، فلا بدّ من ان تنساها وتهزمها وهي بين ذراعي ، وان رضيتْ بأن تقول لي : «اعبدك» فهي وحدها من بين جميع النساء التي ستكون جديرة بلفظ هـــذه الكلمة . وسأكون حقيقة عندئذ الرب الذي ستفضله .

لنكن حسني النية . ففي ترتيباتنا الباردة السهلة ، نجد انّ ما نسميه السعادة لا يكاد يكون سوى اللذة . ماذا سأقول لك ؟ لقد اعتقدت بأن قلبي قد ذوى ، ولم اعد اجد في نفسي سوى الحواس البهيمية ، واخذت اشكو شيخوخة مبكرة . ولكن السيدة دي تورفيل اعادت لي اوهام الشباب اللذيذة . وبقربهـــا لست بحاجة إلى أن ابلغ ذروة المتعة لكي اكون سعيداً .

إنما الشيء الوحيد الذي يخيفني هو الوقت الذي ستستغرقه مني هذه المغامرة . لأني لا استطيع ان اترك شيئـاً للمصادفة ، واني استطيع ان اتذكر كثـــيراً مجازفاتي ولكني لا اقدر على وضعها موضع التطبيق . ولكي اغدو حقيقة سعيداً يجب ان تمنحني نفسها ، وليس الأمر سهلاً .

twitter @baghdad_library

انني متأكد بأنك تعجبين بحذري ، فلم ألفظ بعد كلمـــة حب ، ولكننا وصلنا إلى كلمـــات الثقة والاهتمام . ولكي اخدعهـا اقل مـــا يمكن ، أخذتُ احذرها بصورة خاصة من تأثير الكلمات التي تستعيدها ، حدثتها بنفسي ، كما لو كنت اتهم نفسي ، عن بعض طباعي المعروفة . وستضحكين لو رأيتها بأية سذاجة كانت تعظني . انها تريد كما تقول ان تهديني . وهي لا تشك حتى الآن ماذا ستكلفهاهذه المحاولة . ولعلها أبعد ما تكون عن التفكير بأنها حين «تترافع (وهذه هي كلمتها) عن الذنوب التي ارتكبتها » فهي تتحـــدث سلفاً عن قضيتها . وقد ساورتني هذه الفكرة بالأمس خلال احدى مواعظها . ولم استطع ان امتنع عن لذة مقاطعتها لأؤكد لها انها تتحدث كأحد الانبياء .

الوداع يا صديقتي الحسناء جداً ، أترين انني لم أدع نفسي دون موارد .

بالمناسبة ، هذا الفارس المسكين هل انتحر من القنوط ؟ بالحقيقة انك في وضع أسوأ مني . وانت تريدين مع ذلك اذلالي لأن عندي كرامة .

٧

من سيسيل فولانج الى صوفي كارني

في مدرسة ... الداخلية للبنات

في ٧ آب ؟؟ ١٧

انني اذا لم اخبرك شيئاً عن زواجي ، فذلك لأنني لم اعلم عنه شيئاً اكثر مما علمته في اول يوم . أني أعوِّد نفسي على عدم التفكير به . واجد نفسي مرتاحة لهذا النمط الخاص بي من الحياة . انني ادرس كثيراً غنائي وقيثارتي. ويبدو انني اشد حباً لهما منذ ان اصبحت بدون مدرسين. او بالاحرى منذ ان اصبح لدي مدرس افضل . ألا وهو السيد الفارس دانسني . ان هذا الشاب الذي حدثتك عنه وغنيت معـــه في بيت السيدة ميرتاي ، يتلطف بالحضور الى هنا كل يوم فيغني معي ساعات طويلة ... انه لطيف الى أبعد حد . فهو يغني كملاك ، ويؤلف ألحاناً جميلة جداً يضع لها بنفسه الكلمات . ومن المؤسف ان يحمل لقب

فارس مالطة . ويبدو لي انه اذا تزوج فستكون زوجته سعيدة جداً . وهو ذو نعومة شيقة . ولا يبدو عليه أبداً انه يوجّه أيّ اطراء ، ومع ذلك فان كل ما يقوله يطري . رغم انه ينتقدني باستمرار ان كان في الموسيقى اوغيرها من الامور . ولكنه يمزج انتقاداته بكثير من الاهتمام والمرح بحيث أجد من المستحيل عدم تقدير ذلك من جانبه . انما حين ينظر اليك فقط تشعرين بأنه يقول لك شيئاً لطيفاً . وهو يضيف الى كل ذلك ميزة الملاطف جداً . فمثلاً كان مدعواً بالامس لحضور حفلة موسيقية كبرى ولكنه فضل ان يبقى طوال السهرة عند والدتي . وهذا ما امتعني جداً . وحين لا يكون هناك ، لا يتحدث معي أحد فأتضجر . وعلى العكس فهو حين يكون نغني ونتحدث معاً . إن لديه دائماً ما يحدثني بـه . إنه مع السيدة دي ميرتاي الشخصان الوحيدان اللذان أجدهما لطيفين . لكن الوداع ياصديقتي العزيزة لقد وعدت بأن أغني اليوم لحناً خفيفاً على القيثارة وهو صعب جداً ، ولا أريد أن اخل بوعدي . وسأنكب على الدراسة حتى يأتي .

٨

من السيدة الرئيسة دي تورفيل الى السيدة دي فولانج

٩ آب ؟؟ ١٧

لا يمكن للمرء ان يكون اكثر حساسية مني يا سيدتي بالنسبة للثقة التي توليني إياها ، ولا أكثر اهتماماً مني في ما يتعلق بزواج الآنسة دي فولانج . ولذلـــك أتمنى لها من كل روحي سعادة لا أشك ابداً في انها لا تستحقها ، وانني اعتمد من أجل ذلك على عنايتك . انني لا اعرف البتة الكونت دي جيركور ، ولكن بما انه تشرف باختيارك ، فلا استطيع ان آخذ عنه إلا فكرة مشجعة . واكتفي يا سيدتي بأن اتمنى لهذا الزواج نجاحاً سعيداً مماثلاً لزواجي الذي هو ايضـاً ثمرة جهودك والذي كلما مضى عليه يوم يجعلني اضيفه إلى اعترافي بجميلك . انني لآمل بأن تكون سعـــادة الآنسة ابنتك تعويضاً عن السعادة التي وفرتهـا لي ، كما آمل بأن تكون افضل صديقاتي اسعد الامهات .

twitter @baghdad_library

انا متأسفة باخلاص ، لعدم تمكني من تقديم هـذه التهنئة الصادقة بنفسي شخصياً ، ومن التعرف في الوقت نفسه إلى الآنسة دي فولانج كما اتمنى ذلك من كل قلبي ، غير انني بعد ان اختبرت عواطفك الكريمة كأم ، يحق لي أن اتوقع قيام صداقة وطيدة معها كشقيقة ، انني لأرجوكِ يا سيدتي ان تتفضلي فتطلبي اليها ذلك من قبلي ، بانتظار ان اصبح جديرة بصداقتها .

انني اعتزم البقاء في الريف طيلة مدة غياب السيد دي تورفيل وقد اغتنمت هذه المناسبة لكي اتمتع واستفيد من مجتمع السيدة دي روزموند المحترم . فهذه السيدة هي دائماً ممتعة ، ولم يفقدها عمرها الكبير شيئاً ، اذ مـــا زالت تحتفظ بكامل ذاكرتها ومرحها . وان جسدها وحده هو في الثمانين ، بينما تفكيرها مازال في العشرين .

ان ما يضفي ايضاً البهجة على عزلتنا هذه وجود ابن اخيهـــا الفيكونت دي فالمون هنا وقد شاء ان يكرس لنـــا بضعة ايام من وقته ، ولم اكن أعرفه إلا بالشهرة ، وهي شهرة لم تكن تشجعني على التعرف به ، ولكن يبدو لي انه أفضل منها . حيث لا تفسده هنا دوامة الناس . وهو يتحدث عن تعقل بسهولة مدهشة ، ويلوم نفسه على اخطـائه بسذاجـة نادرة . ويتحدث معي بكثير من الثقة ، وانني أعطه بكثير من القساوة . وانتِ التي تعرفينه جيداً توافقين معي على انها ستكون هداية حسنة اقوم بها . ولكني لا اشك ابداً - رغم وعوده - في أن ثمانية ايام يقضيها في باريس ستنسيه جميع عظاتي . ان الاقامة التي يمكثها هنا ستكون بمثابة عزوف عن مسلكه المعتاد ، واعتقد بعد ان رأيت طريقة معيشته ان احسن ما يفعله هو ألا يفعل شيئاً البتة . انه يعلم اني منهمكة بالكتابة اليك ، ولذلك كلفني بأن اقدم اليك احتراماته . فتفضلي ايضاً بقبول احتراماتي بما أعهده فيك من طيبة ، ولا ترتابي ابداً بالعواطف الصادقة التي لي الشرف بأن اكون الخ . . .

٩

من السيدة دي فولانج الى الرئيسة دي تورفيل
في قصر ...

باريس في ١١ آب ?? ١٧

انني لم اشك مطلقاً يا صديقتي الحسناء الشابة ، لا في الصداقة التي تكنينها لي ولا في الاهتمام المخلص الذي تبدينه نحو كل ما يتعلق بي . وليس لتوضيح هذه النقطة ما ارجو ان اكون على تفاهم معك إلى الابد ، فأرد على كتابك ، ولكن اظن اني لا استطيع منـــع نفسي من التحدث اليك بصدد الفيكونت دي فالمون .

اعترف بأنني لم اكن انتظر ان أجد ابداً هـذا الإسم في رسائلك . وبالفعل ماذا يمكن ان يكون هناك من صفـة مشتركة بينك وبينه ؟ انت لا تعرفين هذا الرجل لكي تأخـــذي فكرة عن روح رجل فاسق ؟ انت تحدثينني عن سذاجته النادرة ؟ آه ، اجل ان سذاجة دي فالمون يجب ان تكون بالفعل نادرة جداً ، لأنه اكثر زيفاً وخطراً مما هو لطيف وجذاب ، دائماً منذ شبابه الكبير . وهو لم يلق اية كلمة دون ان يكون لديه مشروع ما . ولم يكن لديه ابـــداً اي مشروع دون أن يكون هدفه غير شريف او مجرم . أنت تعرفينني يا صديقتي . وتعلمين أن التسامح ليس افضل مـــا استعذبه من بين الفضائل التي أسعى للحصول عليها . وهكذا فلو كان فالمون قـد اندفع وراء نزوات طائشة ، ولو كان ككثيرين غيره قد انجذب وراء اخطاء عمره ثم اخذ يستنكر مسلكه فإنني سأرثي لشخصه ، وسأنتظر بصمت الوقت الذي يعود فيصبح فيه موضع احترام الناس الشرفاء . ولكن فالمون ليس من هـــذا الطراز . ذلك ان مسلكه هو نتيجة مبادئه . فهو يعرف ان يحسب بدقة كل ما يمكن لرجل أن يسمح لنفسه بارتكاب آثام دون ان يتورط فيها . ولكي يكون قاسيـــاً لئيماً دون خطر فقد اختار النساء كضحايا له . انني لا اتوقف لكي أعدّ لك اولئك

twitter @baghdad_library

النساء اللواتي اغراهن ، ولكن كم عدد اللواتي استطعن الافلات منه ؟ وبفضل الحياة العاقلة المعتزلة التي تعيشينها ظلت هذه المغامرات الفاضحة بعيدة عنك . انني لا استطيع أن اروي لك شيئاً منها لأنها تجعلك ترتجفين رعباً .

ولكن نظراتك الصافية كروحك ستتلوث بأمثال هذه اللوحات والمشاهد . انني لمتأكدة بأن فالمون لن يكون خطراً عليك ، ولذلك لست بحاجة الى مثل هذه الاسلحة لكي ادافع عنك . والشيء الوحيد الذي يجب ان اقوله لك ، هو ان جميع النساء اللواتي احاطهن بعنايته ، ان كان قد نجح معهن ام لا ، ليس لديهن ما يشتكين منه . ولكن الماركيزة دي ميرتاي وحدها تشكل استثناء لهذه القاعدة العامة ، فهي الوحيدة التي استطاعت ان تقاومه وتقيد شراسته .

اعترف ان هذه الناحية من حياتها تشرفها اكثر من أي شيء آخر بنظري : وهي تكفي لتبريرها تماماً بنظر الجميع من بعض المتناقضات التي أخذت عليها في مطلع ترملها .

ومهما يكن يا صديقتي الحسناء فإن العمر والاختبار ولا سيما الصداقة تسمح لي بأن ألفت نظرك إلى أنه بدأ الناس يلاحظون غياب فالمون عن المجتمع ، وهم اذا علموا انه بقي بعض الوقت كشخص ثالث بين عمته وبينك ، فإن سمعتك تصبح ملك يديه ، وهذه اكبر نكبة تصيب امرأة . ولذا انصحك إذن بأن تحملي عمته على عدم ابقائه مدة اطول . أما اذا اصرّ على البقاء ، فاعتقد ان عليك ألا تتردي في ترك المكان له . ولكن لماذا سيبقى ؟ وماذا يفعل في هذا الريف ؟ حبذا لو عملت على مراقبة حركاته وسكناته فانا متأكدة بأنك ستكتشفين أنه لم يتخذ هذا الملجأ إلا من اجل مؤامرة ما يعدها في النواحي ، ولكن عند استحالة معالجة الشر ، فلنكتفِ اذن بأن نحصّن انفسنا ضده .

الوداع يا صديقتي الحسناء . ها إن زواج ابنتي سيتأخر قليلاً . فالكونت دي جيركور الذي كنا ننتظره بين يوم وآخر ، قد أبلغني بأن من المستحيل عليه أن يتغيب عن فيلقه قبل الشتاء لان فيلقه سيمر بجزيرة كورسيكا وان هناك تحركات حربية . وهذا ما يغيظني ، ولكن ذلك يجعلني أؤمل بأننا

سنسر في الاجتماع بك في حفلة العرس، وقد كنت متكدرة بأن يجري دون حضورك. الوداع ، انني دوماً المخلصة لك ، تحياتي للسيدة روزموند التي احبها دائماً بقدر ما تستحق .

١٠

من المركيزة دي ميرتاي إلى الفيكونت دي فالمون في قصر ...

باريس في ١٢ آب ؟؟ ١٧

هل انت ناقم عليّ ايها الفيكونت ام انك قد توفيت ؟ إذ ان مـــا يشبه الموت كثيراً هو انك بتّ لا تعيش إلا من اجل رئيستك ! ان هذه المرأة التي اعادت اليك أوهام الشباب ، ستعيد اليك قريباً صفاتك السخيفة . وها انت قد اصبحت الآن خجولاً مستعبداً ، ممـــا يساوي بنظرك كونك عاشقاً. انك تقلع عن مجازفتك السعيدة، ثم تتصرف دون مبادىء ، تاركاً كل شيء للمصادفة، او بالأحرى للنزوات الطائشة . افلا تتذكر ان الحب هو كالطب ، اي انه فن مساعدة الطبيعة فقط ؟ ارأيت اني اهزمك بأسلحتك. ولكنني لا أفخر بذلك، لأنني أهزم بالفعل رجلاً منطرحاً على الارض : انت تقول لي ، ينبغي ان تمنحك نفسها . اجل بدون شك ينبغي ذلك. ولكن هل ستمنحك نفسها كالأخريات ؟ مع الفرق ان الأمر سيتم رغم ارادتهـــا . ولكن لكي تصل في النهاية الى منحك نفسها فالطريقة الصحيحة هي أن تباشر في اخذها ... ان هـــذا التمييز السخيف هو من هذيان الحب . اقـــول الحب لأنك عـاشق ، واذا قلت خلاف ذلك اكون قد خدعتك ، واخفيت عنـــك مرضك . اذن قل لي ايها العـــاشق الفاتر . هؤلاء النساء اللواتي امتلكتهن هـل تظن انـك اغتصبتهن ؟ ولكن مهما كانت الرغبة التي عندنا في منح انفسنـا ، ومهما كنا متعجلات فلا بد ايضاً من وجود مبرر . وليس هناك اكثر مـــلائمة لنا من ذلـك الذي يبدو لنا بأنـه يستسلم للقوة . وبالنسبة لي أعـــترف بأن مما

twitter @baghdad_library

يلذ لي كثيراً هو الهجوم السريع المركز حيث يتلاحق كل شيء بنظام وسرعة ولا يضعنا أبداً في موقف من الحرج والارتباك لكي نتدارك انفسنا من تصرف طائش اخرق كان ينبغي لنـــا على العكس ان نستفيد منه ، ثم يحسن ان يحتفظ بمظهر العنف حتى في الاشياء التي نمنحهـــا ، ويعرف ان يطري ببراعة هوايتينا المفضلتين : مجد الدفاع ولذة الانكسار .

اعترف هنا أن هذه الموهبة النادرة اكثر مما يُظن ، قـد أدخلت السرور دائماً على نفسي ، رغم انها لم تجذبني ، وقد اتيح لي في بعض الاحيان أن اجعلها مكافأتي الوحيدة ، كما يحدث في مبارياتنا القديمة حيث الجمال يساوي القيمـــة والبراعة .

ولكنك انت ، انت الذي لم تعـــد انت ، تتصرف كما لو كنت تخـاف الفوز . منذ متى تتنزهان في النهار وفوق سبل محفورة بالخنادق ؟ فيا صديقي ، حين يريد احدهم الوصول عليه ان يستخدم خيول المركز والطريق الكبير . ولكن لندع هذا الموضوع الذي يثير نقمتي بقدر مـا يحرمني من متعة رؤيتك . أكتب لي على الاقل في اغلب الاحيان اكثر مما تفعل الآن ، واطلعني على مدى تقدمك . هل تعلم ان ثمانية ايام قد مضت وهـذه المغامرة تشغلك ، وانك قد اهملت اصدقاءك .

أنك تشبه بهذه المناسبة الناس الذين يبعثون بانتظام اخبار اصدقائهم المرضى ، ولكنهم لا يسألون عن رد الجواب . لقـد ختمت رسالتك الاخيرة بسؤالي عما اذا كان الفارس قدمات . ولكنني لن اجيب ، وانت لن تقلق لذلك . ألا تعلم ابداً ان عشيقي هو صديقك بالروح ؟ ولـكن اطمئن انه لم يمت البتة ، واذا ما حدث ذلك فسيكون بسبب الافراط في بهجته ، هذا الفارس المسكين كم هو حنون رقيق القلب ! كم هو مخلوق للحب ! كم يعرف ان يشعر بحيوية ! ان رأسي يدور من اجله . وبالفعل فان السعادة الكاملة التي يجدها في ان يكون محبوباً مني ، يجعلني اتعلق به حقيقة .

مثلاً ، ذلك اليوم الذي اخبرتك فيه اني سأسعى لكي نفـــترق عن بعضنا

البعض ، كم جعلته يشعر بالسعادة ! مع أني كنت مهتمة جدياً بالوسائل التي تجعله يقنط مني حين بلغني نبأ وصوله . ولكني لم ألقه ابداً أحسنَ مما كان عليه . بإمكانك ان تعتبر ذلك عن تعقل أو دلع ، وكان ان استقبلته بترحاب ، وكان يأمل ان يمضي معي ساعتين قبل ان افتح بابي لجميع الناس . فقلت له انني خارجة . فسألني الى اين سأذهب ،فرفضت أن اقول له . ولما أصرّ اجبته : الى المكان الذي لن تكون فيه . ومن حسن حظه أنه بقي منذهلاً لهذا الجواب، لأنه لو قال كلمة واحدةلتلتها لا محالة مشاجرة بيننا تكون قد أدتالى الانفصال الذي صمَّمتُ عليه . ولكني دهشت لصمته ، وألقيت نظرة عليه لأرى شكل وجهه ، فوجدت فوق هذا الوجه الرائع تلك التعاسة العميقة والحنونة في آن واحد ، والتي توافق انت نفسك على ان من الصعب مقاومتها. وهكذا نتج عن السببنفسه التأثير نفسه. وكان ان انهزمت مرة ثانية. ومنذ تلك اللحظة لم اعد اهتم إلا بالوسائل التي تجنبه ان يجدني على خطأ . وقلت له بلهجة ارق انيخارجة لقضية هامة، لا بل وهي قضية تتعلق بك . ولكن لا تستجوبني . سأتعشى في بيتي . فعد إليّ ، وسأطلعك على ما ترغب ، وعندئذ عاوَدُهُ الكلام ولكني لم اسمح له باستخدامه ، واضفت قائلة : انني متعجلة دعني الآن ، والى هذا المساء، فقبَّل يدي وخرج .

وقررت في الحال لكي اعوضه عما بدر مني ، او ربما لكي اعوض نفسي ايضاً ان اجعله يتعرف إلى « بيتي الصغير » الذي لا يشك به مطلقاً . فدعوت خادمتي الامينة فيكتوار ، وقلت لها اني اشعر بصداع وانا بالنسبة لجميع زواري نائمة . وبقيت اخيراً وحدي، وبينما كانت هي تتنكر بلباس خادم بواب اخذت أنا أتزين بلباس خادمة. ثم استدعيت علىالأثر عربة خيلعند الباب الصغير المحاذي للحديقة ، وانطلقنا فيها . ووصلت إلى ذلك المعبد المخصص للحب . فتناولت غلالة رقيقة أنيقة لبستها فوق جسدي العاري ، وهي غلالة لذيذةمن استنباطي لا تدع مجالاً لرؤية شيء، ولكنها مع ذلك تجعل المرء يستشفُّ كل شيء تحتها... وسأعدك بصنع نموذج منها لرئيستك حين تجعلها جديرة بأرتدائها !

twitter @baghdad_library

وبعد هذه الاستعدادات ، وفيما كانت فيكتوار تهتم بالتفاصيل الاخرى ، اخذت أقرأ فصلاً من رواية صوفا ورسالة من هيلويز ، وحكايتين من لافونتين ، وذلك لدوزنة مختلف الانغام التي سأتذوقها . وفي هذه الاثناء وصل فارسي الى بابي وهو يبدي الاستعجال الذي اشتهر به دائماً . ولكن خادمي رفض إدخاله ، وابلغه أني مريضة . وكان هـذا أول حادث معكر ... ثم سلمه في الوقت نفسه ورقة مني ، لم تكن مكتوبة بخط يدي ، وذلك حسب طريقتي الحذرة . ففتحها وقرأ فيها بخط فيكتوار : « الساعة التاسعة تماماً في البولفار ، امام المقاهي . » فذهب الى هناك . حيث جاءه خادم صغير لا يعرفه ، او ظن على الأقل انه لا يعرفه ، لأن هذا الخادم كانت هي فيكتوار نفسها ، فأبلغه بأن عليه ان يصرف عربته ، ثم يتبعه . وقد أدت كل هذه التدابير العاطفية الى إلهاب رأسه ، والرأس الملتهب لا يضر مطلقاً . واخيراً وصل ، فأحدثت له المفاجأة ومعاطاة الهوى متعة لا حد لها . ولكي اتيح له الوقت كي يستعيد أنفاسه اخذنا نتنزه فترة من الوقت في الحرش ، ثم اصطحبته الى البيت . فرأى أولاً مائدة لشخصين ، ثم سريراً معداً . ومضينا حتى الصالون الصغير الذي كان في احلى زينته . وهناك بعد نصف تفكير ، ونصف عاطفة ، احطته بذراعي ، وتركت نفسي اسقط عند ركبتيه ، وقلت له : « آه يا صديقي أنني لكي اهيىء لك مفاجأة هذه الفترة ، اعتب على نفسي كثيراً لكوني اسأت اليك ظاهرياً في احدى لحظات النزق ، ولكوني استطعت لحظة أن أستر قلبي من نظراتك . فسامحني لذنوبي ، اريد ان اكفر عنها بالافراط في الحب » . انك لتتصور كم كان تأثير هذا الخطاب الغرامي فيه . فأنهضني ومنحني العفو فوق ذلك السرير العثماني الذي سجلنا فوقه بحبور وبالطريقة نفسها انفصالنا الخالد .

وبما انه كانت امامنا ست ساعات لنقضيها معاً ـ وقد صممت على ان اكرس له كل هذا الوقت أيضاً بلذة ـ اخذت أخفف من غلوائه ، وأقود تنقلاته ، وحل الغنج اللطيف محل النعومة والحنان . ولا أظن انني بذلت في حياتي مثل هذه العناية لكي أعجبه ، كما لم أكن أشد سروراً من نفسي مما كنت عليه في تلك الفترة .

وبعد العشاء كنت تارة طائشة وطوراً عاقلة ، وأحياناً مجنونة ، وحساسة ،وفي بعض الاحيان فاسقة ، وكنت ألتذ في اعتباره كسلطان في قلب سَراياه بحيث رحت أمثّل على التوالي ادوار جواريه المفضلات . وبالفعل فإن مداعباتـــه المتكررة ـرغم ان المرأة التي كانت تتلقاها هيواحدة ـ جعلته يعتقد ان امامه كل مرة خليلة جديدة .

وأخيراً حين طلع النهار ، كان لا بد من ان نفترق .ومهما قال ، ومهما فعل لكي يثبت لي العكس ، فقـــد كان يشعر بالحاجة المماثلة لي أكثر مما كان لديه من رغبة . وكوداع أخير ، أخذت لدى خروجنا ، مفتاح هذا البيت السعيد ووضعته بين يديه وقلت : انني لم احصل عليه إلا من أجلك ، ومن العـدل أن تكون مطلق التصرف به : فمن حق المضحي أنيتصرف بالمعبد».وبهذه البراعة تفاديت الملاحظات التي أثارتها فيه ملكية مشبوهة دوماً لبيت صغير . وانا اعرفه جيداً لأكونمتأكدة انه لن يستخدمه إلا من أجلي ، أما اذا خطر لي عن نزق ان اذهب اليه دونه ، فلدي مفتاح آخر مماثل . وهو يريد بكل قوة ان يأتي يوم لكي يعود اليه ، ولكني ما زلت احبه كثيراً بحيث لا أريـد أن استهلكه سريعاً. اذ يجب الا أسمح لنفسي بالافراط إلا مع الاشخاص الذين اريد التخلص منهم قريباً . انه لا يعلم ذلك ولكني من اجـــل سعادته اعلم عني وعنه .

الاحظ ان الساعـــة الآن هي الثالثة صباحاً ، وقـــد كتبت مجلداً ، بعد ان كان في نيتي ان اكتب كلمة قصيرة . تلك هي لذة الصداقـــة الوثيقة . وهي التي تجعلني اشعر بأنك انت الذي أحب اكثر من الجميع ، ولكن الفارس في الحقيقة يعجبني اكثر .

١١

من السيدة الرئيسة تورفيل الى السيدة دي فولانج في باريس

قصر ... في ١٣ آب ؟؟١٧

twitter @baghdad_library

لقـــد أفزعني كتابك الصارم يا سيدتي ، ولحسن الحظ أجـــد هنا اسباباً للأمن اكثر مما تجدين، فلا تثيري مخاوفي. ويبدو أن هذا المخيف السيد فالمون الذي كان مثار الرعب لجميع النساء ، قد القى اسلحته المميتة قبل ان يدخـــل هذا القصر . وهو أبعد ما يكون عن إعداد أية مشاريع ، كما لا مجال هنا لأية اغراءات ، وان صفة الرجل الملاطف التي يعترف له بها اعداؤه قد زالت تقريباً هنا، لكي لا تحل محلها سوى صفة الفتى الطيب الساذج . وهـذا هو هواء الريف كما يبدو الذي احدث هذه المعجزة . وان ما استطيع ان اؤكده لك هو مع انه دائماً معي ـ ويبدو أنه يستمرىء صحبتي ـ لم تصدر منه أية كلمة تشبه الحب ، حتى ولا احدى هذه الجمل التي يسمح جميـع الرجال لأنفسهم بقولها دون ان يكون عندهم مثله ما يجب لكي يبرروها . انه لا يفرض ابداً مثل هذا التحفظ الذي تضطر كل امرأة تحترم نفسها الى الظهور به اليوم لكي تتجنب الرجال الذين يحيطون بها . وهو لا يعرف ان يستغلّ ما يوحيه من حبور ومرح . إنـه ربما يميل قليلاً الى الاطراء في حديثه ، ولكنه يستطيع بكثير من اللباقة ان يمزج التواضع مع الاطراء ، واخيراً لو كان عندي أخ لكنت تمنيتُ ان يكون مظهره كمظهر السيد دي فالمون هنا. لعل كثيرات من النساء يرغبن في نيل بعض الملاطفات منه ، وانا اعترف انني مدينة له بكثير من عرفان الجميل لأنه عرف ان يحكم عليّ جيداً فلم يخلط بيني وبينهن .

ان هذه الصورة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي رسمتِها لي عنه . وعلى الرغم من ذلك فان كلتا الصورتين قد تكونان متشابهتين لو حددنا زمن كل منهما . وهو نفسه يعترف بأنه اقترف كثيراً من الاخطاء . ولكنني لم اقابل في حياتي إلا قليلاً من الرجال الذين يتحدثون مع نساء شريفات بمثل هذا الاحترام ، لا بل اقول حتى بمثل هذا الحماس تقريباً . لقد أعلمتِني على الأقل أنه في هذا الموضوع لا يخاتل ابداً ، وان تصرفه مع السيدة دي ميرتاي كان دليلاً على ذلـــك . انه يحدثنا عنها باستمرار ، وهو يثني دوماً عليها أحر الثناء ، وبشكل يـــدل على تعلق حقيقي بها . وكنت اعتقد ، قبل وصول رسالتك الاخيرة ، ان ما كان

يطلق عليه اسم صداقة بينهما ليس في الواقـع الا حباً . ولكنني أؤاخذ نفسي الآن على هذا الحكم الجائر الذي اخطأت فيه ، بحيث بذل هو نفسه مجهـداً قوياً لكي يبرره. واعترف ان ما بدر من جانبه من اخلاص شريف لم اعتبره الا لباقة ورهافة حس . انا لست متأكدة على كل حال ! ولكن يبدو لي انّ من يستطيع أن يحتفظ بمثل هذه الصداقة الدائمة نحو امرأة محترمة جداً ، ليس هو بالفاسق الذي لا يُرجى إصلاحه . انني اجهل على الأقل اذا كان المسلك العاقـل الذي ينتهجه هنا ما هو إلا ستاراً لما قد يحيكه من مؤامرات في النواحي كما تفترضين . وبالفعل توجد حولنا بعض النساء اللطيفات ، ولكنه لا يخرج الا قليلاً ، باستثناء الصباح حيث يقول أنه يذهب الى الصيد ، وفي الحقيقة من النادر ان يعـود من صيده محملاً بالطرائد . بيد أنه يؤكد عدم براعته في هذه الرياضة . الخلاصة ان ما يفعله في الخارج لا يهمني . واذا كنت سأرغب في معرفة ذلك فلكي اكوّن عنه فكرة اخرى تجعلني اوافقك على رأيك ، أو أجعلك توافقين على رأيي .

أما بصدد ما تقترحين علي من حمله على تقصير اقامته هنا ، فمن الصعب كما يبدو لي ان أجرؤ على طلب ذلك من عمته ، لا سيما انها تحبه كثيراً . ومع ذلك أعدك بان اتقدم بهذا الطلب إما الى عمته واما اليه نفسه ، ولكن من قبيـل الاحترام فقط ، لا من قبيل الحاجة الى اغتنام الفرصة . أما في ما يتعلـق بي ، فقد سبق لي أن ابلغت زوجي السيد دي تورفيل عزمي على البقاء هنا حتى موعد عودته . وسيكون مندهشاً — عن حق — فيما لو بدّلت رأيي بمثل هذه السرعة .

تلك هي يا سيدتي توضيحاتي الطويلة . ولكني أعتقد أن من واجبي — خدمة للحقيقة — أن اؤدي شهادة صالحة في حق السيد دي فالمون ، وهي شهادة يبدو لي انك بحاجة ماسة للاطلاع عليها . وانني لست أقل حساسية منك ازاء الصداقة التي أملت عليك نصائحك . وانا مدينة اليها ايضاً في ما وجهتِه إليّ من لطيف العبارات بمناسبة تأخر زواج الآنسة ابنتك ، اشكرك جداً بإخلاص ، ولكن مهما كان السرور الذي وعدت نفسي به لتمضية هذه اللحظات معك ، فـانني اكرسه من كل قلبي للرغبة في ان اعرف انها هي بدورها سعيدة ، وكيف لا

twitter @baghdad_library

تستطيع ان تكون اكثر سعادة بالقرب من أم جديرة بمحبتها واحترامها . إنني اشاطرها هاتين العاطفتين اللتين تجعلانني اتعلق بك ، وارجوك ان تتفضلي بقبول تأكيدهما . واسلمي الخ ..

١٢

من صوفي (كذا) فولانج الى المركيزة دي ميرتاي
(مذكرة صغيرة)

في ١٣ آب ؟؟ ١٧

والدتي متوعكة يا سيدتي ولن تخرج ابداً ، وينبغي أن اكون الى جانبها . وهكذا فلن يكون لي شرف مرافقتك الى دار الاوبرا ، واؤكد انني آسفة لعدم كوني معك أشد من أسفي لعدم مشاهدة الحفلة . ارجو ان تكوني مقتنعة جداً بذلك . انني احبك كثيراً ! هلا تفضلت بأن تبلغي الفارس دانسني ، بأنني لم اتسلم المجموعة التي حدثني عنها ، وانه لو شاء ان يحضرها لي غداً ، فسيبعث في نفسي كل سرور . اما اذا حضر اليوم ، فأخشى أن يُقال له بأننا لسنا موجودين ، ذلك ان والدتي لا ترغب في استقبال أحد . وآمل ان تكون بخير غداً .

لي الشرف ، يا سيدتي ، ان أكون ... الخ ..

١٣

جـــواب

في ١٣ آب ؟؟ ١٧

لقد تكدرتُ جداً يا حسنائي ، لكوني حُرمتُ من متعة رؤيتك ، كما تكدرت للسبب الذي نتج عنه هذا الحرمان . آمل ان تتجدد هذه المناسبة مرة اخرى . سأتولى تنفيذ رغبتك لدى الفارس دانسني الذي سيغتمُّ اكيداً هو ايضاً عندما يعلم أن والدتك مريضة . اذا شاءت ان تستقبلني غداً سأحضر لأكون

الى جانبها ، وأرجو أن نهاجم بلعبة الورق (البيكية) – هي وانا – الفارس دي بيلروش * . واذا فزنا بدراهمه أم لم نفز ، فإننا سنفوز حتماً بلذة الاستمتاع بصوتك وانت تغنين مع استاذك اللطيف . وها انا اضمن حضوري وحضور الفارسين المجليين . الوداع ، يا جميلتي ، تحياتي الى عزيزتي السيدة دي فولانج ، اقبلك بحنان .

١٤

من سيسيل دي فولانج الى صوفي كارني

في مدرسة ... الداخلية للبنات

باريس في ١٤ آب ؟؟ ١٧

لم اكتب اليك بالأمس ، يا عزيزتي صوفي. ولكن ذلك لم يكن بسبب اللهو ، كوني متأكدة . اذ أن والدتي كانت مريضة ، ولم افارقها طوال النهار ، وفي المساء حين تركتها ، لم تكن عندي رغبة في شيء . فنمت سريعاً لكي اتأكدمن ان ذلك النهار قد انتهى ، إنني لم أقض ابداً نهاراً اطول منه ، ليس لأنني لا احب والدتي ، ولكن لا أدري ماذا اصابني ، فقد كان عليَّ ان اذهب إلى دار الأوبرا مع السيدة دي ميرتاي ، كما ان الفارس دانسني كان سيحضر. وانت تعلمين جيداً أن هذين الشخصين هما اللذان احبهما اكثر مما أحب أحداً غيرهما . وعندما حانت الساعة التي كان يجب ان اكون معهما شعرت بقلبي ينقبض رغماً عني . وكنت مستاءة من كل شيء . وبكيت ، بكيت دون أن أتمكن من وقف دموعي ... لحسن الحظ كانت أمي قد نامت ، ولم تستطع ان تراني. انا متأكدة بأن الفارس دانسني كان متكدراً هو الآخر، ولكنه تسلى بمشاهدة الحفلة وجميع الناس : وهذا يختلف عن وضعي تماماً .

أن والدتي في صحة جيدة اليوم ، وستزورنا السيدة دي ميرتاي مع شخص

---

* هو الفارس نفسه الذي ورد ذكره في رسائل السيدة دي ميرتاي

twitter @baghdad_library

آخر والفارس دانسني : ولكنها تصل دوماً متأخرة . وانه لما يبعث على الملل الشديد ان يبقى المرء وحيداً مدة طويلة . الساعة الآن لا تتجاوز الحادية عشرة. وسأعزف على القيثارة ، ثم ان ترتيب زينتي سيستغرق مني بعض الوقت ، لأنني أريد ان أبدو فاتنة اليوم، أعتقد ان الرئيسة بيربيتو على حق حين كانت تقول ان الفتاة تغدو محبة للتبرج ما ان تدخل المجتمع ، ولم تتملكني ابداً رغبة مثل هذه الايام في أن أظهر جميلة . وأجد انني لست على قسط من الجمال كما كنت اظن. ثم اننا ازاء النساء اللواتي يضعن الأحمر، نفقد كثيراً من جمالنا. فالسيدة دي ميرتاي مثلاً ، يجدها الرجال كما ألاحظ جيداً أجمل مني . وهذا لا يسوءني ، لأنها تحبني كثيراً ، وتؤكد ان الفارس دانسني يجدني اجمل منها . وهذا إنصاف منها أن تقول لي ذلك . وقد كانت مرتاحة جداً بصحبتي . ولكنني لا أفهم جيداً لماذا تمحضني مثل هذه المحبة . وهو ... آه ... انه يثير الغبطة في نفسي . وحسبي أن أنظر اليه لكي يجعلني جميلة ، وسأنظر اليه دائماً لولا أنني أخشى من مقابلة نظراته .

وفي كل مرة يحدث لي ذلك اشعر بالارتباك، وهذا ما يؤلمني، ولكن لا بأس. الوداع يا صديقتي العزيزة ، سأبدأ الآن في زينتي ، احبك دائماً كالعادة .

١٥

من الفيكونت دي فالمون الى المار كيزة دي ميرتاي

دائماً قصر ... في ١٥ آب ؟؟ ١٧

انه لإنصاف من جانبك ان لا تدعيني ومصيري البائس . فالحياة التي أقضيها هنا هي حقيقة متعبة لشدة راحتها ورتابتها التافهة . وحين قرأت رسالتك وأطلعت على تفاصيل نهارك الممتع ، كدت أغري نفسي عشرين مرة لكي اخلق حجة من الحجج وأحضر الى زيارتك فأجثو عند قدميك ، طالباً إليك منحي خيانة لفارسك الذي – بعد كل شيء – لا يستحق سعادته . هل تعلمين انك جعلتني أغار منه ؟ انت تحدثينني عن انفصال أبدي ؟ آه ... انني أجحد هذا

القسم الذي صدر في لحظة جنون ، وقد كان يجب ألا نكون جديرين به ما دمنا لا نتمكن من المحافظة عليه . دعي لي الأمـل بأن اعود فأستعيد هذه اللحظات التي نستطيع فيها ان نرسخ السعادة دون أن نقيدها بمساعـدة الاوهام : إذ بعد ان نكون قد نزعنا لثام الحب ، نلزمه بأن يضيء بشعله الملذات التي يغار منها . كم أتمنى لو يتاح لي ، وأنا بين ذراعيك ، الانتقام من الغيظ غـــير المقصود الذي سببته لي سعادة الفارس ! انني مستاء كل الاستياء ـ واعترف لـــك بذلك ـ عندما افكر بأن هذا الرجل قـد حظي بغبطة لا أستطيع ان انالها ، دون ان يشغل تفكيره ، ودون أن يبذل أقل عناء ، منساقاً فقط وراء غريزة قلبه . آه ... انني سأعكر عليه هذه الغبطة ... عديني بأن اعكرهـا ... وانت نفسك ألست ساخطة لانك تجهدين نفسك بعدم خيانته ، بينما هو أسعد منك ؟ انت تظنينه مقيداً بسلاسلك بينما انت المقيـدة بسلاسله ، فهو ينام ملء جفونه فيما انت تأرقين من اجل ملذاته ، وماذا تفعلين اكثر لو كنت جارية له ؟

إصغي إليّ ، يا صديقتي الحسناء ، لو كنت توزعين نفسك بين عدة اشخاص ، فلن تكون لديّ اية غيرة ، ولا أجد عندئذ في عشاقك إلا خلفاء للفاتح الاسكندر ، اي سيظلون عاجزين عن الاحتفاظ فيما بينهم بكل هذه الامبراطورية التي كنت اسود فيها وحدي ، ولكن ان تمنحي نفسك بكليتك الى واحد منهم ، وان يكون ثمة رجل آخر سعيداً مثلي ؟ فهذا ما لا أطيقه . ولا تأمـلي بأن أتحمله . فإما ان تستعيديني ، واما ان تختاري لك رجلاً آخر ، وأرجو ألا تخوني ، بسبب نزوة خاصة ، الصداقة المصونة التي أقسمنا عليها .

وهذا بدون شك يكفي لأن يكون لديّ مـا اشكوه من الحب . أرأيت انني اتفق معك في الرأي ، فأعترف باخطائي . وبالفعل اذا كان الحب هو عدم التمكن من العيش دون امتلاك ما نرغبه ، والتضحية من أجـــله بوقتنا وملذاتنا وحياتنا ، فإنني حقيقة لعاشق . ولكنني لم أتقدم بعد خطوة واحدة ، ولن يكون عندي ما اخبرك به في هـذا الصدد ، لولا أن ثمة تطوراً غريباً اخذ يشغل عليّ تفكيري ، ولا ادري ما اذا كان عليّ أن اخشى أو آمل .

twitter @baghdad_library

انت تعرفين خادمي ، فهو كنز من الدسائس والمكائـــد ، وهو حقيقة ممثل كوميدي حقيقي. وتفهين جيداً ان التعليمات الموجهة إليه تقضي بأن يكون عاشقاً للخادمة وان يُسكر الناس وقد كان الخبيث أسعد مني حظاً، اذ نجح مع معشوقته ونال أربه منها . ولكنه اكتشف ان السيدة دي تورفيل قد كلّفت احد اعوانها بأن يستحصل على معلومات عن مسلكي ، لا بل وأن يقتفي اثري خلال غدواتي وتنقلاتي التي اقوم بها عند الصباح ، على قدر الامكان دون ان يلفت النظر . فما عسى تدبر هذه المرأة في الخفـــاء ؟ وهكذا تجرؤ الأشد تواضعاً من جميع النساء على القيـــام بأعمال لا نكاد نسمح لانفسنا بها ! أقسم لك على ذلك ..ولكن قبل ان افكر بالانتقام لنفسي من هذه الحيلة النسائية ، فلنهتم بالوسائل المؤدية إلى تحويل هذه الحيلة لصالحنا . فحتى الآن لم يكن لهذه الغدوات التي تشتبه بها أي هدف. فينبغي أذن ان أجعلها تهدف إلى غرض ما. وهذا ما يستحوذ على اهتمامي. انني اتركك الآن لكي افكر بذلك . الوداع يا صديقتي الحسناء .

١٦

من سيسيل فولانج إلى صوفي كارني

باريس في ١٥ آب ؟؟١٧

آه ، يا عزيزتي صوفي ، اليك بالاخبار ؟ لعله ينبغي عليّ الا أطلعك عليها : ولكن يجب أن اتحدث عنها مع أحد . وهو ميل اقوى من إرادتي. فهذا الفارس دانسني.. يشغل افكاري دائماً بحيث لا استطيع الكتابة..ولا اعرف بماذا ابدأ. فمنذ ان حدثتك عن تلك السهرة الجميلة * التي قضيتها عنـد والدتي معه ومع السيدة دي ميرتاي لم اتحدث اليك أبداً . ذلك انني لا أريد ان أخبر احداً بالأمر .

---

* لم نتمكن من العثور على الرسالة التي تتحدث فيها عن تلك السهرة ، ولكن المعتقد انها تلك التي اقترحتها السيدة دي ميرتاي وتحدثت عنها في الرسالة السابقة الى سيسيل فولانج .

ولكنني كنت أفكر بـــه على الدوام لأنه منذ ذلك الحين أصبح كئيباً ، كئيباً جداً الى درجة آلمتني. وحين سألته عن السبب رفض ان يقول لي . ولكنني كنت ارى جيداً انه كئيب . واخيراً كان بالامس أشد كآبة من المعتـاد . ولم يمنعه ذلـــك من ان يغني معي حسب العادة . غير انـه كان في كل مرة ينظر إليّ أشعر بانقباض يعصر قلبي . وبعد ان فرغنا من الغناء ، أدخـل قيثارتي في قالبها . ثم حمل الي المفتاح ، ورجاني ان اعزف في المساء حين اكون وحدي . ولم اشك في شيء ، لأنني لا أرغب في الشك . ولكنه الحّ علي بذلك كثيراً حتى قبلت في النهاية. وكانت لديه اسبابه .وبالفعل حين انصرفت الى غرفتي ،وخرجت خادمتي . فتحت القيثارة ، فوجدت بين اوتارها رسالة مطوية كانت منه . آه لو تعلمين كل ما اطلعني عليه ! وما ان تلوت رسالته حتى شعرت بفيض بالـــغ من السرور قطع علي كل تفكير بأي شيء آخر . فأعـدت تلاوتها اربع مرات حالاً . ثم احتفظت بها في مكتبي . واصبحت احفظها عن ظهر قلب . وحـين رقدت لم استطع لفرط ما كررت تلاوتها ان انام . ومـا أن أقفل عيني حتى أراه أمامي يقول لي بنفسه كل ما قرأته في رسالته . ولم يتطرق النعاس الى جفني إلا في ساعة متأخرة من الليل . وقد عدت فتناولت رسالته لكي اعيد قراءتهـا وانا في سريري. فقبلتها كما لو كانت ... ولعل من الإثم تقبيل رسالة بهذه الطريقة ولكنني لم استطع منع نفسي من ذلك .

والآن يا صديقتي العزيزة ، إنني مغتبطة جداً ولكنني حائرة في آن واحد . لأنه ينبغي اكيداً ألا ارد على هذه الرسالة . وانا اعلم جيداً ان ذلك غير لائق ولكنه مع ذلك يطلب مني جواباً . واذا لم اجب فأنا متأكدة بأنه سيزداد ايضاً حزناً وغماً . وهذا شيء تعيس بالنسبة له ! فماذا تنصحينني ؟ لكنك لا تعرفين اكثر مني .

انني اشعر برغبة شديدة في ان اتحدث بذلك الى السيدة دي ميرتاي التي تحبني كثيراً . واتمنى بأن اسري عنه ولكنني لا اريد ان اقوم بعمل مشين . إذ طالما أوصينا بأن نكون طيبي القلب . ولكن حُذر علينا ان نتبع ما يُوحى به

twitter @baghdad_library

الينا حين يكون الأمر متعلقاً برجل ... فيا للتعاسة ! ان هذا ليس انصافاً على الاطلاق . أليس الرجل هو قريبنا كالمرأة واكثر ؟. ثم أليس لنا آباؤنا كامهاتنا ، واشقاؤنا كشقيقاتنا ؟ ويبقى هناك اخيراً علاوة على ذلك الزوج . ومع ذلك فاذا اتيت امراً منكراً ، فقد يكوّن السيد دانسني نفسه فكرة سيئة عني . آه ... افضّل ان يبقى كثيباً . ثم انه سيكون لدي الوقت الكافي لكي افكر بالأمر فهو لم يكتب إلي الا بالأمس. ولست مجبرة على الكتابة اليوم : وهكذا سأقابل السيدة دي ميرتاي هذا المساء . واذا لم تخنّي الشجاعة فسأروي لها كل شيء . واذا قمت بما ستشيره عليّ، فلن يكون ثمة ما أؤاخذ به نفسي . ثم لعلها قد تشير علي بأنني استطيع ان اكتب اليه قليلاً لكيلا اجعله تعيساً . آه انني في حالة يرثى لها .

الوداع يا صديقتي الطيبة ، قولي لي دائماً ماذا تقترحين .

١٧

من الفارس دانسني إلى سيسيل فولانج

في ١٨ آب ؟؟ ١٧

قبل أن أندفع ، يا آنستي ، — ماذا أقول — في المتعة او الحاجة للكتابة اليك ، أبدأ راجياً اليك أن تصغي اليّ . اذ اني أحسُّ بحاجة الى الترفق وسعة الصدر لكي أجرؤ على التصريح لك بعواطفي . لأنني لو أردت ان أبررها لما كان ثمة جدوى من ذلك — فماذا أفعل — بعد كل شيء — سوى ان أظهر لك تأثيرك فيّ ؟ وماذا لدي لأقوله لك سوى ان نظراتي ، وارتباكي، ومسلكي ، لا بل وحتى حالة صحتي ، قد قالت لك ذلك قبلي . ولماذا تغضبين من شعور جعلته انت يولد ؟ أما وقد انبثق هذا الشعور عنكِ فانتِ جديرة بأن يقدّم اليك . واذا كان ملتهباً كروحي فهو نقي كروحك . فهل هي جريمة اذا كنتُ قد عرفتُ أن أقدر وجهك الفاتن ، ومواهبك الجذابة ، وشمائلك المشرقة ، وهذه السذاجة المؤثرة التي تضفي قيمة لا تقدَّر على صفاتك الثمينة ؟ كلا بدون شك .

ولكن قبل ان اكون مُلاماً ، يمكن ان اكون تعيساً . وهـذا هو المصير الذي ينتظرني فيما لو رفضتِ قبول تقديري . فهو اول ما صـــدر عن قلبي . ولولاكِ لكنتُ ما ازال مرتاحاً ولكن ليس سعيداً . إذ ما ان رأيتك حتى فرَّت الراحة مني ، وأصبحت سعادتي متزعزعة . ومع ذلك فانت تعجبين من تعاستي ، وتسألينني عن السبب : لقد ظننت في بعض الاحيان انها ستشجيك . قولي كلمة واحدة ، وستصبح سعادتي صنع يديك . ولكن قبل ان تلفظيها فكّري بأن كلمة واحدة ايضاً تستطيع ان تهدم تعاستي . كوني اذن الحكم في مصيري ، وعن طريقك سأكون سعيداً الى الابد أو تعيساً إلى الابد . وبين أية أيـد أعز من يديك استطيع ان أعلق أهمية أعظم على مصيري ؟

أختتم كما بدأت مستصرخاً رفقك وسعة صدرك . لقد سألتك ان تصغي إليَّ واني لأتجرأ أكثر فاتوسل اليك أن تجيبي على رســـالتي . وان رفضت ذلك فستجعليني اعتقد أنني اهنتك . ولكن قلبي كفيل بأن يثبت لك ان احترامي لك معادل لحبي .

ملاحظة — تستطيعين ان تستخدمي الوسيلة نفسها التي استخدمتها في ايصال هذا الكتاب اليك لكي تردي عليّ وهي تبدو مضمونة سهلة .

١٨

من سيسيل فولانج الى صوفي كارني

باريس في ٢١ آب ؟؟ ١٧

ماذا يا صوفي ، انت تستنكرين سلفاً ما سأفعله ؟ لقد كنت في قلق شديد ، وها انت الآن تضاعفين حدته ايضاً . تقولين بأنه من الواضح وجوب عدم الرد . ولكنك تتحدثين على هواك ثم انت لا تعرفين ماذا يجري . ولست هنـا لكي تنظري . انا متأكدة بأنـــك لو كنت مكاني ، لفعلت مثلي . من المؤكد بصورة عامة وجوب عدم الرد ، وقد لاحظتِ في رســـالتي اليك امس انني لا أبغي الاجابة ، ولكنني لا أعتقد ان هناك احداً وجد نفسه في مثل حالتي .

twitter @baghdad_library

ثم انني مضطرة لأن اقرر وحدي ، فالسيدة دي مـيرتاي التي كنت انتظر رؤيتها ، لم تأتِ . وكل شيء يتألب ضـــدي . فهي التي كانت السبب في تعرفي اليه . ولم أره دائماً ولم اتحـدث اليه إلا وهو معها تقريباً . وهذا لا يعني بأنني حاقدة عليها، ولكنها تتخلى عني في ادق فترات الارتباك، انني استحق الرثاء .

تصوري انه حضر امس كالمعتـــاد . وكنت مضطربة اشد الاضطراب الى درجة لم اجرؤ معها على النظر اليه. ولم يتسنَّ له ان يتكلم معي لأن والدتي كانت حاضرة ، وكنتُ اشك جيداً بأنه سيتكدر حـــين سيرى انني لم اكتب اليه . ولم اكن اعرف ماذا يجب ان افعل . ثم سألني بعد فترة وجيزة اذا كنت اريد ان يذهب لاحضار قيثارتي وكان قلبي يخفق بسرعة . فلم اجد بداً من الرد عليه بالايجاب . وحين عاد كان الحال اسوأ . ولم انظر اليه سوى لحظة قصيرة . ولم يكن هو ينظر إلي ايضاً ، ولكنه كان يبدو كما لو كان عليلاً . وقد آلمني ذلك جداً. واخذ ينظّم اوتار القيثارة ، ثم اعادها اليّ وهو يقول : آه يا آنستي !... ولم يقل لي سوى هاتين الكلمتين ولكن بلهجة جعلتني ازداد انفعالاً . واخذت اعزف على قيثارتي دون ان اعرف ماذا افعل. وسألتني امي اذا كنا سنغني ام لا ، فاعتذر هو قائلاً انه متوعك قليلاً. اما انا فلم يكن عندي أي عذر ، وكان لا بد من ان اغني . وكم تمنيت ألا يكون لديَّ صـوت . فاخترت عن قصد لحناً لا اعرفه . إذ كنت متأكـدة انني لا استطيع ان اغني اي لحن ، وربما سيُلاحَظ عليَّ شيئاً ما . لحسن الحظ حضرت في هذه الاثناء احدى الزائرات، فتوقفتُ عن الغناء وطلبت اليه اعـادة قيثارتي إلى موضعها ، وكنت خائفة من ان ينصرف في الوقت ذاته ولكنه عاد .

وفيما كانت والدتي تتحدث مع السيدة التي حضرت لزيارتها اردت ان انظر اليه لحظة ما ، فقابلتُ نظراته . وكان من المستحيل عـــلي ان اشيح ببصري عنها . ولاحظت بعد قليل دموعه تتساقط. واضطر الى ان يدير وجهه الى الوراء لكي لا يُرى . وفي الوقت نفسه لم استطع بدوري ان املك نفسي ، وشعرت بأنني سأبكي ايضاً . فخرجت وكتبت حالاً بقلمي على قطعة ورق : « لا تكن

تعيساً الى هـذا الحد ، ارجوك ، أعدك بأنني سأجيبك . » من المؤكد انك لا تستطعين ان تقولي ان في ذلك مـــا يسوء . ثم ان الامر كان فوق طاقتي . ووضعت ورقتي بين اوتار القيثارة كما وضع قبلاً رسالته ، وعدت الى الصالون فشعرتُ انني اكثر ارتياحاً . وما ان خرجت الزائرة حتى أعلنت رغبـــتي في استئناف درسي على القيثارة . ورجوته أن يذهب لاحضارها وبدا عليه انه لم يكن يشك في الأمر. ولكنه حـــين عاد ، كان ظاهر الغبطة والسرور ، وعندما أمسك بالقيثارة قبالتي ، وقف بطريقة لا تدع لوالدتي مجالاً في أن ترانا ، فتناول يدي وضغط عليها ... ولكن بطريقة !... ولم يطل بي الأمر سوى لحظـــة حتى سحبتها منه ، وهكذا لا أجد ما أؤاخذ نفسي عليـه من جرائه .

والآن يا صديقتي العزيزة، ترين جيداً أنني لا أستطيع اعفاءنفسي من الكتابة إليه ، بعد ان وعدته بذلك ، ثم لن أعمد إلى أثارة شجونه من جديـــد . لأنني اكابد اكثر مما يكابد . ولو كان في ذلك ما يسيء إلى احد لما كنت فعلته. ولكن ما هوالإثم في الكتابة، حين تكون الغاية منها منع انسان من ان يكون تعيساً؟ إن ما يحيرني هو أنني لااعرف كيف اكتب رسالتي هذه ، ولكنه سيشعر حتماً ان الذنب ليس ذنـبي . ثم انني متأكدة ان كل ما يصدر عني سيدخـــل السرور عليه .

الوداع يا صديقتي العزيزة ، إذا وجدت انني على خطـــأ عرفيني بذلك . ولكنني لا أظن . وكلمـا قرب موعـد الكتابة اليه اشعر بقلبي يخفق بحيث لا اجد لذلك مبرراً مع انه ينبغي عليّ ان اكتب لأنني وعدته . الوداع .

١٩

من سيسيل فولانج الى الفارس دانسني

باريس في ٢١ آب

لقد كنت كئيباً جداً يا سيدي بالأمس . وقد آلمتني تعاستك أشد الألم بحيث

twitter @baghdad_library

تركتُ نفسي اعدك بالاجابة على رسالتك التي وجهتها اليّ . ولكنني اشعر الآن بألم اشد مما ينبغي : ومع ذلك بما انني وعدتك فلا أريد أن أخلّ بوعدي. وهذا ما يجب ان يثبت لك الصداقة التي اكنّها لك . أما وقد أيقنتَ من ذلك الآ ن فإنني آمل ألا تسألني المزيد. وارجو ايضاً الا تخبر احداً بأنني كتبت اليك، لأنني اكيداً سألام ، وقد يسبب لي ذلك كثيراً من الغم . وآمل بصورة خـاصة الا تكوّن انت ايضاً فكرة سيئة عني ، مما سيشجيني اكثر من كل شيء . واستطيع ان اؤكد لك بأنني لم أقم بهذه المجاملة مع احد غيرك . أتمنى ألا تعـود فتصبح كئيباً كما كنت ، مما سيزيل مني كل سرور أحسُّه عند رؤيتك. أرأيت يا سيدي انني اتحدث اليك بإخلاص . وانني لا اتمنى اكثر من ان تدوم صداقتنا الى الأبد . لكنني ارجوك ألا تكتب اليّ ابداً .

لي الشرف سيدي بأن اكون الخ ...

٢٠

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون *

باريس في ١٩ آب ؟؟ ١٧

آه ايها الماكر ، إنك تتملقني ، خشية ان اسخر منك . ولكن ها أنذا اعفو عنك ، فأنت تكتب الي كثيراً من الحماقات بحيث ينبغي ان اسامحك على التعقل الذي تلزمك به رئيستك . لا اظن ان فارسي سيكون اوسع صدراً مني . فهو لا يوافق على تجديد عقدنا ، ولا على وجود ما يسر في فكرتك الجنونية . ومـع ذلك فقد ضحكت منها كثيراً. وكنت حقيقة غاضبة لكوني مضطرة لأن اضحك وحدي ، ولو كنت هنا لما عرفت إلى اين تكون قد قادتني هذه البهجة. ولكن كان لدي وقت للتفكير ، فتسلحت بالصرامة . ولا يعني هذا اني أرفض طلبك

* هذه الرسالة التي ترد على الرسالة الخامسة عشرة تلاقت مع الرسالتين ١٧و١٨ ، وقد فضلت ان اضعها بعدهما لكي يعرف القارىء وضع الفيكونت دي فالمون حـين تلقاهـا .

قطعاً ، ولكنني أرجىء الأمر الى حين ، وانا على حق في ذلك . ربما سأضع في ذلك شيئاً من الزهو . ولكن متى انغمسنا في المقامرة فلا نعلم ابداً متى نتوقف . سأكون امرأة تقيّدك من جديـــد ، وتجعلك تنسى رئيستك ، واذا كنت ، انا الفاحشة ، سأجعلك تتقزز من الفضيلة ، فيـا لها من فضيحة كبرى . ولتفادي هذا الخطر ، اليك بشروطي :

ما ان تمتلك ورِعَتَك الحسناء ، وتستطيع أن تقدّم لي برهاناً على ذلك ، بادر حالاً بالحضور الي . وانا لك . اظنك لا تجهل انه في القضايا الهامة لا تقوم اية براهين ثابتة إلا كتابياً . وعن طريق هذا الاجراء ، سأشعر من ناحية أنني بمثابة مكافأة بدلاً من ان اكون بمثابة تعزية ، وهذه الفكرة تعجبني اكـثر من غيرها . ومن ناحية ثانية سيكون نجاحك بمثابة مقبلات تسهل سبل الخيـانة . إحضر إذن . احضر في اقرب فرصة ، حامـلاً اليّ شهادة على انتصارك ، وانا تواقة بالفعل لمعرفة ماذا يمكن لهذه المرأة الفاضلة ان تكتب بعد مرورهـا بهذه المرحلة ، وبأي ستار ستغطي عملها بعد ان تكون قد رفعت كل ستار عـــن شخصها . والامر متوقف عليك اذا وجدت بأنني أضع ثمناً مرتفعاً جـداً لكي تحظى بي . ولكنني انذرك بأنني لن اخفض السعر .وبالانتظـــار يا عزيزي الفيكونت ، ألا ترى من الأصلح لي ان اظل وفية لفارسي ، وأن اتسلى بجعـله سعيداً ، رغم ما يثيره ذلك في نفسي من الحزن والغيظ .

وخلال ذلك لو كنتُ على قسط اقل من الاخلاق لكان وجد كما اظن أن له خصماً خطيراً : الا وهي الصغيرة فولانج . وأنا مشغوفة بهذه الفتاة كل الشغف. وهو هيام حقيقي : فإما انني مخطئة واما انها ستغدو من أبرز نسائنـا . انني أشهد قلبها الصغير ينمو ويتفتح ، وهو مشهد رائع . وقـــد اصبحت الآن تحب فارسها دانسني ، وهي من جراء ذلك في فورة عارمة . ولكنها لا تدرك الحب . وهو ايضاً ، رغم كونه شديد الكلف بها ـ اذ أنه مـــا زال خجولاً بسبب صغر سنه ـ لا يجرؤ على تعليمهـــا شيئاً كثيراً . وكلاهما يكنان لي الحب الشديد ، وينحاني ثقتهما . والصغيرة بصورة خـــاصة

twitter @baghdad_library

تشعر برغبة قوية في ان تطلعني على سرها ، ومنـــذ بضعة ايام لاحظت أنها مهمومة جداً ، وقد كان بامكاني ان أسدي اليها خدمة كبرى بمساعدتها قليلاً ، ولكنني لا أنسى انها طفلة ولا أريد ان اورط نفسي . وقـــد حدثني دانسني بوضوح اكثر ، ولكنني بالنسبة اليه قررت موقفي ، وهو انني لا أريـــد ان اسمع شيئاً عن هذه القصة . اما الصغيرة ، فإنني غالبـــاً ما اميل الى اتخاذها تلميذتي ، وهي خدمة اريد ان اسديها الى جير كور الذي يتيح لي وقتاً كافياً لذلك بسبب غيابه الآن في جزيرة كورسيكا حتى شهر تشرين الاول ، وفي نيتي أن استغل هـــذا الوقت ، لكي أقدم اليـــه امرأة ناضجة التكوين بدلاً من تلميذة بريئة كما يريدهـــا . ويا له من اطمئنان سخيف لدى هذا الرجل الذي يجسر على النوم ملء جفونه بينما هنـــاك امرأة تشكوه ، ولم تثأر بعد لنفسها منه . آه لو كانت هذه الصغيرة هنا الآن ، لكنت اعلم ماذا سأقول لها . .

الوداع يا فيكونت ، مساء الخير ، اتمنى لك كل نجاح ، ولكن تقدم أذن ، وفكر اذا لم تنل هذه المرأة ، بأن النساء الاخريات سيحمررن خجلاً لكونهن نلنك .

٢١

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

قصر . . . في ١٨ آب ؟؟ ١٧

واخيراً يا صديقتي الحسناء قمت بخطوة إلى الامام ، ولكنها خطوة كبرى ، وهي اذا لم تكن قد أوصلتني بعد الى الهدف ، الا انها جعلتني اعرف على الأقل انني سائر في طريقي اليه ، وقد ازالت عني الخوف من ان اكون قد ضللت السبيل.

فلقد اعلنت اخيراً حبي ، وعلى الرغم من انني قوبلت بصمت مطبق ، الا انني حصلت على جواب ربما اقل غموضاً ولكنه اكثر غبطة. ولكن يجب الا نستبق الاحداث ، ولنبدأ من الاول .

انت تذكرين انها عمدت الى اقتفاء اثري . وهكـذا رأيت ان اجعل هذه الوسيلة الفاضحة تتحول الى عمـــل خيري عام ، واليك ماذا فعلت . فقـــد كلفت خادمي الوفي ان يعثر لي في النواحي المجـاورة على بعض البؤساء الذين هم بحاجة الى المساعدة . ولم تكن هـذه بالمهمة الصعبة . إذ أبلغني بعد ظهر أمس أنه سيجري هذا الصباح حجز اثاث عائلة فقيرة بكامله بعـد ان عجزت عن دفع الضريبة المفروضة. وكان ان تأكدت انه لا توجد بين افراد هذه العائلة اية امرأة أو ابنة يمكن ان يجعل عمرها او وجهها عملي موضع شبهة ، وحين وصلتني هذه المعلومات اعلنت عند العشاء عن عزمي على الذهاب الى الصيد في اليوم التالي . وهنا ينبغي ان انصف رئيستي : فقد ندمت بدون شك بينها وبين نفسها على الاوامر التي أصدرتها بملاحقتي ، ولكن بما انها لم تقوَ على هزم فضولها فقد عمدت الى معاكسة رغبتي . وقالت ان الجو سيكون حاراً جـــداً ، وانني أجازف بجعل نفسي مريضاً ، وانني لن اصطاد أيـــة طريدة ، وسأتعب نفسي بدون جدوى . واثناء هـــذه المحاورة كانت عيناهـــا ربما تتكلمان اكثر مما تريد ان تقول ، وجعلتني أفهم انها ترغب في أن اقتنع بهـــذه الاسباب الصالحة ، ولكنني شئت ألا اتراجع، كما تتوقعين ، وقاومت محاضرتها القصيرة ضد الصيد والصيادين. وهكذا خيّمت غمامة صغيرة من المشادة على طول السهرة، وعلى هذا الوجه السماوي . وخشيت في أحدى اللحظات ان تكون قـد ألغت اوامرها بتتبع خطاي، ولم احسب حساباً لشدة فضول المرأة، وهكذا اخطأت الحساب ، إذ طمأنني خادمي في المساء نفسه ،ورقدت مرتاحاً .

ولدى بزوغ النهار نهضت وذهبت . ولم اكد ابتعد سوى خمسين خطوة عن القصر حتى لاحظت ان جاسوسها يتبعني . فتوغلت في الحقول ومضيت اصطاد وانا متجه نحو القرية المقصودة ولا هدف لي في طريقي سوى جعل الرجل يركض ورائي ، وقد كان المسكين لا يجرؤ على اتباع طريقي نفسه ، بل يضطر الى المشي ثلاثة اضعاف ما أمشيه. وكان ان اعتراني حر شديد ، فجلست ارتاح فوق حجر عند جذع شجرة. وقد بلغت به الوقاحة ان تبعني حتى دغل قريب على بعد عشرين

twitter @baghdad_library

خطوة مني وجلس هو ايضاً .. وقـــد خطر لي في احدى اللحظات ان أوجه اليه طلقة بندقية ، رغم انها لا تضم سوى حبات صغيرة من «الخردق» ، الا انها كانت كافية لاعطائه درساً عن اخطار الفضول . ولحسن حظه تذكرت انه مفيد لي لا بل وضروري لخطتي ، وهذا ما أنقَذَه .

وكان ان وصلت الى القرية فشاهـدت جمعاً من الناس وسمعت لغطاً بينهم . فسألت عن القضية فروي لي الحادث الذي كنت على بينه منه. فاستدعيت محصل الضرائب ، واستولت علي نوبة كرم فدفعت له بنبل ستاً وخمسين ليرة كان لولاها سيحيل خمسة اشخاص الى اليأس ويجعلهم دون مأوى . وبعد ان قمت بهذا العمل البسيط تستطيعين أن تتصوري كم كان تأثيره العظيم في نفوس الناس الذين أحاطوا بي في شبه جوقة وهم يسبغون عليّ مظاهر التكريم والتقدير ، وكم سالت دموع الاعتراف بالجميل من قبل كبير هذه الاسرة، مزينة وجه هذا الشيخ الوقور ، بينما كانت امارات اليأس قبل لحظات تجعله يبدو بصورة مرعبة . وكنت اتفحص هذا المشهد حين جاء فلاح آخر اصغر سناً يقود بيده امرأة وولدين ، فتقـدم نحوي بخطوات عاجلة وقال للقوم: «لنجثو جميعاً امام هذه الصورة المرسلة من عند الله» . وفي اللحظة نفسها احاطت بي العائلة نفسها ، وقد ركعت حولي عند اقدامي ، وهنا أعترف بتخاذلي ، اذ ما لبثت عينـــاي ان ترقرقتا بالدموع ، وشعرت في نفسي بحركة لا شعورية ولكنها لذيذة ممتعـــة . واميل الى الاعتقاد ان هناك حقيقة لذة في عمل الخير ، وبعد كل شيء فان من نطلق عليهم اسم المحسنين ليس لهم في الواقع فضل كبير حسب ما يقولون. ومهما يكن فقد وجدتُ من الانصاف ان ادفع لهؤلاء مقابل المتعة التي وفروها لي ، وكانت ما تزال معي عشر ليرات ذهبية اخرى ، فمنحتهم اياها . وهنا عادوا فشكروني من جديـد ولكن ليس بالدرجة نفسها من الحرارة : فقد كان عملي الاول الضروري قد احدث التأثير الكبير الحقيقي ، اما ما تلاه فلم يكن سوى تعبير بسيط من الاعتراف بالجميل والتعجب لهذه التبرعات الفائضة .

وفي الاثناء كنت اشبه وسط هذه الابتهالات الثرثارة من الشكر وعرفان

الجميل ، بطل مأساة في مشهد النهاية. ولاحظي ان جاسوسي الامين كان موجوداً بين هذا الحشد، وبذلك حققت هدفي : فانصرفت من بينهم وعدت الى القصر . وهنأت نفسي على هذا الاستنباط الهائل اذ أن هذه المرأة تساوي بنظري اكثر من عشر ليرات ذهبية ، اكون قد دفعتها مقدماً دون ان يكون هناك ما اؤاخذ نفسي عليه .

نسيت ان اقول لك انني لكي استغل كل شيء لصالحي طلبت الى هؤلاء القوم الطيبين ان يصلوا الى الله من اجلي كي ينجح مشاريعي . وسترين ما اذا كانت صلواتهم قد استجيبت في قسم منها. ولكنها انني أتبلغ الآن ان العشاء جاهز، وسيفوت الاوان إذا تأخرت في ارسال هذه الرسالة اليك ، ولذلك فالبقية تأتي في الرسالة القادمة . وانا حانق لذلك ، لأن البقية هي أفضل ما في هذه الحادثة. الوداع يا صديقتي الحسناء ، انك تسلبين مني لحظة التمتع برؤيتها .

٢٢

من السيدة دي تورفيل الى السيدة دي فولانج

قصر ... في ١٨ آب ؟؟ ١٧

ستكونين حتماً مسرورة يا سيدتي لأن تتعرفي الى احدى نواحي صفات السيد دي فالمون التي تتناقض كثيراً ، كما يبدو لي ، مع جميع تلك التي صوروه لك بها . وانه لمن المؤلم جداً ان نأخذ فكرة سيئة عن اي كان ، ومن المكدّر الا نجد سوى المساوىء لدى اولئك الذين يتمتعون بالمزايا اللازمة لتحبيب الناس بالفضيلة . واخيراً لعلك تودين أن تحتاجي الى سعة الصدر والتسامح لكي تضطري الى اعادة النظر في حكمك القاسي ، واليك الأسباب التي اعتمدت عليها في حكمي عليه .

فلقد قام هذا الصباح باحدى تلك الجولات التي يمكن أن تهدف كما هو مفروض الى وجود مشروع ما يُعِدّه في الضواحي ، كما خطرتْ لك الفكرة . وهي

twitter @baghdad_library

فكرة ألوم نفسي على انني التقطتهـــا بكثير من الاهتمام . ولحسن حظه — او بالأحرى لحسن حظنا ، لأن ذلك ينقذنا من ان نكون ظالمين — كان على احـد خدمي ان يسلك الطريق ذاتها التي سلكها . ومن هنا كان ان أشبعتُ فضولي الذميم ، لا بل السعيد . وقد اعلمني هذا الخادم ان السيد دي فالمون قد عثر في قرية ... على عائلة بائسة أُلْقِيَ الحجز على اثاثها لعجزها عن دفع ديونها،فسارع ليس فقط الى دفع الدين المطلوب عن هؤلاء الناس المساكين على الفور ، بـل الى التبرع لهم بمبلغ كبير من المال . وقد كان خادمي شاهد عيان لهذا العمل الخيري النبيل . ونقل اليّ ان الفلاحين كانوا يتحدثون في ما بينهم ان خادم السيد فالمون قد استقى بالأمس معلومات عن الذين يكونون محتاجين من سكان القرية او هم بحاجة الى المساعدة . واذا كان الامر كذلك ، فان ما قام به ليس شفقة عابرة ، املتها عليه المناسبة ، بل خطة مدروسة لعمل الخير ، او هي الرغبة في عمل الخـير . وهذه اجمل فضيلة لدى اجمل النفوس. وهو عمل سواء كان مصادفة أو خطـــة مقصودة ، يعتبر شريفاً يستحق صاحبه عليه الثناء والتقدير . وان رواية هـذا النبأ وحده لي قد أثر في نفسي كثيراً حتى بكيت . واضيف الى ذلك ، ودائماً من قبيل الانصاف،انني حين حدثته عن هذا العمل الذي لم يخبرني به على الاطلاق، اخذ يدافع عن نفسه ، وبدا كمن لا يعلق عليه سوى قيمة ضئيلة ، وهذا ما جعل لعمله قيمة مضاعفة بنظري نظراً لتواضعه .

والآن قولي لي يا صديقتي المحترمة اذا كان السيد دي فالمون بالفعل رجـــلاً فاسقاً دون وازع . واذا كان حقاً من هذا النوع ثم يتصرف هذا التصرف ، فماذا يبقى للناس الشرفاء ؟ ماذا ! هل يشاطر الاشرار الصالحين في لذة عمـــل الخير المقدسة ؟ وهل يسمح الله لاسرة فاضلة ان تتلقى على يد فـاجر أثيم مساعدات يعود الفضل فيها للعناية الالهية ؟ وهل يمكن ان يكون مسروراً بأن يسمع من افواه نقية طاهرة مدائح وبركات توجه الى رجل محكوم عليه بالهلاك الابدي ؟ كلا . بل افضّل الاعتقاد بأن الخطايا الطويلة ليست أبدية . ولا استطيع ان اصدق بأن من يعمل الخير هو عدو الفضيلة. وان السيد دي فالمون ليس مثلاً آخر

على خطر العلاقات وانني اتوقف عند هذه الفكرة التي تعجبني. اجل ، فهي من ناحية يمكن ان تستخدم لكي تبرره في ذهنك ، ومن ناحية ثانية تجعلني اكثر تمسكاً بالصداقة الثمينة التي تربطني بك على مدى الحياة .

سنذهب عما قليل – السيدة دي روزموند وانا – لزيارة تلك الاسرة الشريفة البائسة ، لكي نضيف مساعداتنا المتأخرة الى مساعدات السيد دي فالمون ، وسنصطحبه معنا لكي نتيح لهؤلاء القوم الطيبين متعة رؤية من احسن اليهم مرة ثانية . وهذا ما اعتقد كل ما تركه لنا لنفعله .

٢٣

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي مرتاي

قصر ... في ١٩ آب ؟؟ ١٧ الساعة الثالثة صباحاً .

تركتك في رسالتي الماضية عند عودتي الى القصر ، وهاأنذا استأنف روايتي :

بعد ان نظفت نفسي قليلاً من وعثاء الرحلة، توجهت الى الصالون حيث كانت حسنائي مشغولة بالتطريز ، بينما كان كاهن الناحية يقرأ في صحيفة امام عمتي العجوز . فجلست قرب الحسناء. واذا بها توجه الي نظرات اكثر لطفاً من المعتاد لا بل اكثر حنانا وشغفاً تقريباً مما جعلني استنتج ان خادمها قد اطلعها على مهمته . وبالفعل لم تستطع حسنائي الفضولية ان تحتفظ طويلاً بسرها . فكان ان قاطعت دون وجل الكاهن المحترم وقالت : « وانا ايضاً عندي خبر هام » ثم روت حالاً مغامرتي في القرية بكل دقائقها الصحيحة مما يشرف حقاً جاسوسها الامين . وتتصورين كم حاولت ان اظهر تواضعي . ولكن من يستطيع ان يوقف امرأة تقوم باطراء من تحبه دون ان ترتاب في الامر ؟ وتركتها اذن على سجيتها . حتى ليقال انها كانت وكأنها تلقي خطاباً تقريظياً في مدح قديس من القديسين . وخلال هذا الوقت كنت اراقب ، ليس دون امل ، كل ما يوحي بالحب : من نظرة حية ، وحركة اصبحت اكثر حرية ، وبصورة خاصة لهجة صوتها الذي أصبح

twitter @baghdad_library

يعبر عن انفعال قلبها ، وهي الشديدة الحساسية. ومـــا كادت تنتهي من رواية مغامرتي والثناء على عملي ، حتى قالت لي عمتي : تعال يا ابن اخي لكي أقبلك . وشعرت حينئذ أن الواعظة الجميلة لا تستطيع أن تمنع نفسها من تقبيلي هي ايضاً. ومع ذلك شاءت أن تتهرب ، ولكنها كانت بعد قليل بين ذراعي. وكانت ابعد من أن تكون لديها قوة على المقاومة ، بل بقيتْ عندها فقط قوة على أن تتمالك نفسها. وكلما راقبت هذه المرأة كلما بدت لي مرغوبـــة . ثم سارعت بالعودة إلى نسيجها، واستأنفت التطريز . ولكنني ، لاحظت جيداً ان يدها المرتجفة لم تسمح لها ان تستمر في عملها .

وبعد الغداء رغبت هي وعمتي في الذهاب لرؤية المساكـــين الذين ساعدتهم « بكل تدين » . وانني اريحك من وصف هذا المشهد الثاني من عرفـان الجميل والمديح . وكان ان شاء قلبي ـ الذي عصرته ذكرى لذيذة ـ استعجال لحظـة العودة إلى القصر ، واثنـاء العودة كانت رئيستي اكثر شروداً من المعتاد ، فلم تنبس ببنت شفة . وقد لذتُ أنا بدوري بالصمت ايضاً لأن فكري كان مشغولاً بايجاد الخطط لاستغلال التأثير الذي تركه حادث اليوم في نفسها. وكانت السيدة دي روزموند تتحدث وحدهـــا ، ولا تتلقى منا سوى اجوبة مقتضبة نادرة . ولا بد ان نكون قد أضجرناها: وهكذا نفذتُ المشروع ونجحت. وحين ترجَّلنا من العربة ، قصدت العجوز غرفتها وتركتنا وحدنا ـ حسنائي وانا ـ في صالون ذي نور خافت ، وهي ظلمة ناعمة تنشط الحب الخجول .

ولم اجد صعوبة في توجيه الحديث إلى حيث أريـــد . وقد ساعدني حماس الواعظة اللطيفة على ذلك اكثر من براعتي. وقالت لي وهي تصوب نحوي نظراتها العذبة : « حين يكون الانسان جديراً إلى هذا الحد بعمل الخير كيف يستطيع ان يمضي حياته في عمل الشر » ؟ فقلت لها : « أنني لا أستحق هذا الثناء ولا هذا التوبيخ ، ولا أفهم كيف انك لم تسبري غوري مع انـك على جانب كبير من الذكاء ، فهل ان ثقتي قد أضرَّت بي عندك ؟ انك لجديرة بها كل الجدارة ، حتى لا أستطيع أن ارفض منحك اياها . انك تجدين مفتاح سلوكي في طبيعة سهلة جداً

لسوء الحظ . اذ كنت هناك محاطاً بأناس لا اخلاق لهم، فقلدت رذائلهم . ولعلي بذلت شيئاً من عزة النفس لكي أتفوق عليهم . أما وقد انجذبت بأمثولة الفضائل دون ان آمل في بلوغ مرتبتك فقـــد حاولت على الاقل أن أحذو حذوك . ولعل العمل الذي تثنين عليه الآن سيفقد كل قيمتـه بنظرك لو عرفت السبب الحقيقي . (ترين يا عزيزتي كم كنت هنا قريباً من الحقيقة) واستطردت قائلاً : إن الفضل في كون هؤلاء المساكين قد نالوا مساعدتي لا يعود إلي انا، بل اليك انت ، وحين تعتقدين انك شاهدت عملاً يستحق الثنـاء فإنني لم أحاول به إلا البحث عن وسيلة تثـير الاعجاب ، ويجب ان اقول الحقيقـــة ، لم اكن سوى الوكيل الضعيف على ألوهية اعبدهـــا فيك (هنا حاولت ان تقـاطعني ، ولكني لم أدع لهـا ذلك) ثم اضفت : وفي هـــذه اللحظة ذاتهـا لا يفلت سري مني إلا من قبيـل التخاذل ، لأنـــه اقوى مني . قـــد وعدت نفسي بأن اكتمه ، وكنت اجد سعادة في ان اقدم لفضائلك ولمغرياتك احتراماً صافياً طاهراً ستجهلينه دائماً ، ولكنه قاصر عن الخداع ، وحين يكون تحت انظاري مثل على هذه البراءة ، لا استطيع الا ان الوم نفسي تجاهك على مراءاة مذنبة . لا تعتقدي انني اهينك بأمل مجرم ، بل سأكون تعيساً ، وانا اعلم ذلك . ولكن عذابي سيكون عزيزاً عليّ . اذ يثبت لي مدى الافراط في الحب ، وهـــا انذا القي عند أقدامك ، وفي صدرك آلامي الابدية ، وسأغترف منهـــا القوة على المكابدة من جديد ، وسأجد فيها الطيبة الرؤوفة المشفقة ، وسأعتقد ان نفسي قد عُزّيت فيما لو رثيت لحالي . آه انت التي أعبدك . اصغي إليّ وارثي لحالي . اغيثيني » . وفي تلك الاثناء كنت اجثو عند ركبتيها وكنت اعصر يديها بين يدي ، ولكنها سحبتهما حالاً ، وعقدتهما فوق عينيها وقالت بلهجة يائسة : «آه ! يا لي من تعيسة ! » ثم انفجرت باكية . ولحسن الحظ ، كنت قدانسقت في سرد عواطفي الى درجة اخذت معها ابكي انا ايضـــاً ، فاستعدت يديها وغسلتهما بدموعي ، وقد كانت هذه المراعاة ضرورية جداً ، لانها كانت شديدة الانشغال بألمها بحيث انها ما كانت لتكتشف شدة ألمي لو لم اعثر على هذه الوسيلة كي أنبئها

twitter @baghdad_library

به ، فنجحتُ ـ فضلاً عن ذلك ـ في التأمل بحرية بهذا الوجه الفاتن الذي زاده جاذب الدموع القوي جمالاً ، والتهب رأسي ، وكدت افقد السيطرة على نفسي الى درجة اشتهيت معها اغتنام الفرصة .

فما هو اذن تخاذلنا ؟ وما هو سلطان الظروف اذا كنت انا نفسي ، قد نسيت خططي ، وخاطرت بأن اضيّع ـ عن طريق انتصار سابق لأوانه ـ فتنة المعارك الطوال وتفاصيل هزيمة قاسية ؟ اجل ، لقد انجذبتُ برغبة شـــاب ، فكدت اعرّض غازي السيدة دي تورفيل الى جني تفاهة نيل امرأة بالزائـــد كثمرة لجهوده . آه. فلتقبل، ولكن فلتعارك دون ان تكون لديها قوة على الانتصار ولتكن لديها قوة على المقاومة ، ولتتذوق بحرية شعور ضعفها ، ولتكن مضطرة الى ان تعترف بضعفها . ولندع الصياد في ارض الغـــير يقتنص الغزال الذي فاجأه .

انه مشروع رائع أليس كذلك ؟ ولكنني قد كنت في ذلك الوقت متأسفاً لعدم تطبيقه ، لولا ان المصادفة جاءت في محلها فأغاثتني من عدم احتراسي .

إذ سمعنا حركة ووقع خطوات شخص قادم الى الصالون ففزعت السيدة دي تورفيل ونهضت مسرعة فأمسكت بأحد المشاعل وخرجت ، وكان لا بد من تركها تفعل . فاذا بهذا الشخص ليس الا احد الخدم . وما ان اطمأنيت الى ذلك حتى تبعتها ، ولم اكد اخطو بضـع خطوات ، وتشعر هي بي حتى استولى عليها شعور بالخوف ، فألقت بنفسها داخل غرفتها ، واقفلت الباب وراءهـا . ولحقت بها ولكن البـــاب كان موصداً من الداخل ، ومنعت نفسي من ان اطرق الباب عليها . اذ لو فعلت ذلك لكنت اتحتُ لها فرصة المقاومة بسهولة . وهنا خطرت لي فكرة حسنة وبسيطة وهي ان انظر عبر فتحـــة القفل . فرأيت المرأة المعبودة راكعة على ركبتيها وهي سابحة في دموعهـــا تصلي بوجل . فهل هناك إله اقوى من الحب ؟

انها تبحث الآن عبثاً عن مساعدة خارجية. ولكنني انا الذي سأقود مصيرها.

وبعد ان شعرتُ بأنني قمت بما فيه الكفـاية اليوم ، انصرفت إلى غرفتي ،

واخذت اكتب اليك . وتوقعتُ ان اراها عنـد العشاء ، ولكنها اعلنت انها وجدت نفسها متوعكة ، والتزمت الفراش . وارادت السيدة دي روزموند أن تصعد لتراها ، ولكن المريضة الخبيثة ابلغتها انها مصابة بصداع قوي لاتستطيع معه ان ترى احداً . انك لتتصورين كم كانت السهرة بعد العشاء قصيرة جداً ، وكان ان اصبت انا الآخر بصداع ، فانسحبت إلى غرفتي ، وكتبت اليها رسالة طويلة اشكو فيها هذه الصرامة ، ثم نمت وانا أنوي ان اسلمها اياها هذا الصباح ، ولكنني لم انم جيداً كما تلاحظين من تاريخ هذه الرسالة ، فنهضت واعدتُ قراءة رسالتي فلاحظت انني لم اراقب نفسي ، وانني وضعتُ من الحماس اكثر من الحب . ومن النقمة اكثر من الكآبة ، وكان لا بد من اعادة كتابتها من جديد . ولا بد ايضاً من ان اكون اكثر هدوءاً .

ها انني اشاهد الآن بزوغ النهار ، وآمل بأن يجعل انتعاش الفجر النوم يدب إلى جفوني . سأذهب إلى السرير عما قليل ، ومهما كان سلطان هـذه المرأة علي قوياً ، اعدك بألا اشغل نفسي كثيراً بها وبأن يظل عندي وقت للتفكير فيك .

الوداع يا صديقتي الحسناء .

٢٤

من الفيكونت دي فالمون إلى السيدة دي تورفيل

في ١٩ آب ؟؟ ١٧

آه ، يا سيدتي ، تنازلي من قبيل الشفقة فهدئي من اضطراب روحي . تنازلي فأبلغيني ما إذا كان ينبغي ان آمل او أخاف ، أما وقـد وضعتُ نفسي بين الافراط في السعادة وبين الافراط في سوء الحظ ، فإن القلق هو همٌّ قتّال . لماذا حدثتك ؟ لماذا لم اعرف ان اقاوم المتعة المتسلطة عليّ والتي حملتني على الاعتراف امامك بافكاري ! لقد كنت سعيداً لأن اعبدك بصمت ، وامتع على الأقل بحبي وبهذا الشعور الطاهر الذي لا يعكر صفوه ابداً مظهر ألمك ، وكان ذلك كافياً

twitter @baghdad_library

لارضاء غبطتي . ولكن مصدر السعادة هذا اصبح مصدراً لليأس والقنوط . مُنذ ان شاهدتُ دموعك تسيل، ومنذ ان سمعتُ هذه العبارة القاسية: «آه يا لي من تعيسة » ستظل كلماتك يا سيدتي تدوي طويلاً في قلبي ،وأي قدر ذلك الذي جعل أرقّ العواطف لا يمكن ان توحي اليك إلا بالذعر والهـــول ؟ وما هو هذا الخوف ؟ آه انه ليس ممـــا يُشاطر : ان قلبك الذي اسأتُ معرفته ، ليس مخلوقاً للحب . بينما قلبي الذي تتجنين عليه باستمرار هو الوحيـد الحساس لذلك ، أما قلبك فهو دون رحمة . واذا لم يكن كذلك لما كنت رفضتِ منـح كلمة مؤاساة للمسكين الذي حدثك عن لواعجه ، ولما كنت منعت نفسك من نظراته ، عندما لا تكون لديه اية متعة سوى ان يراك ، ولما كنت جعلت قلقهُ لعبةً قاسية ، بابلاغك اياه انك مريضة دون أن تسمحي له أن يطمئن على حالتك . بل لكنتِ شعرتِ بأن تلك الليلة نفسها التي لم تكن بالنسبـة لك سوى اثنتي عشر ساعة من الراحة ، كانت بالنسبة له قرناً من الآلام .

من اين، قولي لي، استحققت هذه القساوة المؤسفة؟ انني لا اخشى أن تتخذك حَكَماً عليَّ : ماذا فعلتُ سوى انني استسلمتُ لشعور تلقائي، أوحاه لي الجمال ، وبررته لي الفضيلة ، وهو مقرون دوماً بالاحترام . لقد كان الاعتراف البريء به ناتجاً عن تأثير الثقة ، وليس عن تأثير الأمل . فهل تخلّين بهذه الثقة التي انت نفسك – كما بدا لي – سمحت لي بها ، والتي اعتمدتُ عليها دون تحفظ . كلاَّ لا اصدق ذلك . وإلا لافترضتُ وجود خطأ من جانبـــك ، ان قلبي ليثور لفكرة وجود خطأ واحد فيك . انني استنكر مآخذي ، واستطيع ان اكبتها لا ان افكر بها ، آه دعيني اعتقد أنك كامـــلة . وهذه هي اللذة الوحيدة التي تبقى لي . برهني لي بأنك كاملة ، بايلائي عنايتك الكريمـة ، واي بائس ساعدتِه ، كان بحاجة للمساعدة أشد مما أنا عليه اليوم ؟ لا تـدعيني أعيش في الجنون الذي دفعتني انتِ اليه . بل اعيريني عقلك بعد ان سلبتِ مني العقل والقلب . وبعد ان اصلحتني، اكملي معروفك فأنيري أمامي سبيلي .

لا أريد ان اخدعك، فسوف لا تتوصلين الى التغلب على حبي . بل سترشدينني

كيف اعمل على تصفيته ، وذلك عن طريق توجيه خطواتي ، واملاء أقوالي ، وبذلك ستنقذينني على الأقل من خوفي التعيس من ألا اعجبك ، فأزيلي بصورة خاصة هذا الخوف اليائس. وقولي لي انك سامحتني، وانك تشفقين عليّ، واكدي لي سعة صدرك وحلمك . وسوف لا يكون لديك كل ما اطمع فيه من هذا الحلم، بل اطلب فقط ما انا بحاجة اليه الآن . فهل ترفضين ذلك ؟

الوداع يا سيدتي ، تقبلي بكل اخلاص عواطفي الصادقة التي لا تقلل ابداً من احترامي الشديد لك .

٢٥

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

في ٢٠ آب ؟؟ ١٧

اليك نشرة اخبار الامس .

في الساعة الحادية عشرة قصدت عمتي السيدة دي روزموند، وكان ان دخلت تحت اشرافها الى غرفة المريضة التي كانت ما تزال راقدة ، وكانت عيناها ذابلتين جداً . واظن انها هي ايضاً لم تنم جيداً مثلي . واغتنمت فرصة ابتعاد السيدة دي روزموند قليلاً لكي اسلمها رسالتي فرفضت ان تأخذها . ولكنني تركتها على السرير ، ورحت اقرّب كرسيي بكل تأدب من عمتي العجوز التي شاءت ان تكون قرب « ولدها » : وكان لا بد من اخفاء الرسالة لكي نتجنب الفضيحة . وقالت المريضة دون حذاقة إنها تشعر بحرارة خفيفة كما تظن . وهنا عمدت السيدة دي روزموند الى جس نبضها وهي تشيد بمعلوماتي الطبية . وكان ان اضطرت مريضتي الحسناء الى تحمل حزن مضاعف لكي تسلمني ذراعها وتشعر أن كذبتها الصغيرة ستكتشف. وبالفعل تناولت يدها فضغطها باحدى يدي بينما اخذت اداعب باليد الاخرى ذراعها البض الممتلىء. ولكن الخبيثة لم تستجب لهذه الحركة ، وهذا ما جعلني اقول لنفسي وانا اسحب يدي «ليس هناك حتى اقل انفعال»

twitter @baghdad_library

وقد شككت بأن نظراتها كانت صارمة جداً، ولكنني لكي اقاصصها، لم أحاول لحظة واحدة في ما بعد أن اقابل نظراتها...

وقالت انها تريد أن تنهض، فتركناها وحدها . ثم ظهرت في وقت الغداء ، وكانت كئيبة جداً ، واعلنت انها لن تذهب لكي تتنزه ، وفهمتُ من ذلك انه لن تتاح لي مناسبة التحدث اليها .

وشعرت هنا انه لا بد من إطلاق زفرة ونظرة ألم . ومما لا شك فيه أنها كانت تنتظر ذلك . اذ كانت هذه هي اللحظة الوحيدة في النهار التي أتوصل فيها إلى مقابلة نظراتها . ومهما كانت عاقلة جداً ، فان لديها هي الأخرى حيلها الصغيرة كأية امرأة اخرى. ووجدتُ فرصة لكي اسألها «اذا كانت قد تلطفت بإبلاغي تقرير مصيري » وفوجئت قليلاً حين سمعتها تقول : « اجل يا سيدي لقد كتبت اليك » . وكنت تواقاً للحصول على هذه الرسالة . ولكنها لم تسلمني اياها إلا في المساء حين انصرفت الى غرفتها. ولا ادري اذا كان ذلك عن حيلة أو عدم حذاقة او عن حياء ، وها انذا أرسلها اليك الآن ومعها مسودة رسالتي ، فاقرأي واحكمي ولاحظي بأي زيف بارع تؤكد لي بأنه لا يوجد لديها أي حب على الاطلاق ، بينما انا متأكد من العكس . ثم ستشكو اذا خدعتها فيما بعد ، بينما لا تخشى أن تخدعني قبلاً ؟ فيا صديقتي الحسناء أن ابرع رجل في العالم لا يستطيع إلا أن يدرك جيداً المرأة الحقيقية. ومع ذلك يجب أن نصدق كل هذا الهراء ، ونتعب أنفسنا من اليأس، لأن هذه السيدة تحب ان تمثل دور الصرامة ! وهي وسيلة لكي تثأر من هذه الخباثة !..آه ... كم انا بحاجة الى صبر وجلد ... الوداع ... لديّ ايضاً ما اكتبه .

وبالمناسبة ، أرجو ان تعيدي الي رسالة قاسية القلب ، اذ قد يحدث في ما بعد أن تطلبها كثمن مقابل هذه « المنغصات » . ويجب ان اكون مستعداً لكل طارىء حسب الاصول .

لم احدثك عن الصغيرة دي فولانج ، وسنأتي على ذكرها في اول فرصة .

٢٦

من الرئيسة تورفيل الى الفيكونت دي فالمون

١٩ آب ؟؟ ١٧

من المؤكد يا سيدي انك ما كنت لتحصل على اية رسالة مني ، لولا أن تصرفي الاحمق مساء أمس حملني على انأخوض معك اليوم فيتفسير لهذا الموقف. أجل لقد بكيت ، وانا اعترف بذلك ، كما أن العبارة التي تذكرني بها بكل عناية ربما تكون قد افلتت مني . دموع وكلمات ، لقد لاحظت كل شيء ، ولا بد إذن من ان اوضح لك الامر .

لقد اعتدتُ الا أوحي إلا عواطف شريفة، وألا اسمع سوى اقوال استطيع ان اصغي اليها دون ان أحمر خجلاً وان اتمتع نتيجة لذلك باطمئنانداخلي اجرؤ على القول أني جديرة به . وهكذا لا اعرف ان اخفي او اكافح الانطباعات التي اشعر بها . فالتعجب والارتباك اللذان أوقعتني بهما طريقتك اثارا فيَّ كثيراً من الخوف من جراء موقف لا ينبغي ابداً ان يكون مخلوقاً لي . ولعل الفكرة الثائرة بأن أرى نفسيمماثلة للنساء اللواتي تحتقرهن « ومعاملَةً ايضاً بخفة مثلهن، اثارت دموعي ، وجعلتني اقول عن حق كما اعتقد انني تعيسة . ان هذه العبارة التي تجدها قوية جداً ، ستكون ضعيفة جداً ايضاً لو ان لدموعي وكلامي سبباً آخر . او لو انني ـ بدلاً من ان استنكر مشاعر ينبغي ان تهينني ـ خشيت ان اشاطرهـا .

كلا يا سيدي ، ليس لديّ هذا الخوف . ولو كان عندي منه لكنت هربت منك مئات الفراسخ، ولكنت ذهبت ابكي في صحراء ما ، تعاسة التعرف اليك. ولعله ايضاً رغم تأكدي بأنني لا احبك مطلقاً ، ولن احبك ابداً لعلي حسناً فعلت لو اتبعت نصائح اصدقائي ، ولم اتركك تقترب مني .

لقد اعتقدتُ – وهذا هو خطأي الوحيد – انك ستحترم امرأة شريفة لا تطلب سوىان تجدك كما انت، وان تنصفك،وكان اندافعت عنكبينما انت تهينها

twitter @baghdad_library

بامنياتك المجرمة . انك لا تعرفني ، كلا يا سيدي انت لا تعرفني جيداً . والا لما كنتَ اعتقدت بأنك تستطيع ان تجعل من اخطائـــك حقاً من حقوقك : وبما انك القيت علي اقوالاً كان ينبغي عليَّ ألاّ اسمعها ، فقدكانعليكألاّتسمح لنفسك كما ظننت ان تكتب إليّ رسالة كان يجب ألاّ اقرأها : ثم انت تطلب مني « ان اوجّـــه خطاك ، وأملي عليك اقوالك » .اذن يا سيدي ان الصمت والنسيان هما النصحيتان اللتان اجد من الانسب ان اسديها اليك ،واللتان يجب عليك ان تتبعهما. وعندئذ يكون لك الحق فعلاً في انتنال تسامحي ، ولايتوقف الأمر الا عليك لكي تحصل حتى على عرفاني بالجميل...ولكن كلا ، لن اتقدم ابداً بأي طلب الى من لم يحترمني ابداً ، والى من اساء استغلال هنائي ودعتي . انت تجبرني على ان اخشاك ، وربما على ان اكرهك . ولكنني لا اريـد ذلك . ولا أريد ان ارى فيك سوى ابن شقيق اعز صديقاتي . انني أرفع صوت الصداقة مكان الصوت العام الذي تُتَّهم به . لقـد أفسدت كل شيء ، واتكهن بأنك لا تريد ان تتدارك شيئاً .

انني اصرُّ يا سيدي على ان اعلن لك ان عواطفك تهينني . وان الاعتراف بها يسيء اليَّ . وبصورة خاصة انك تحملني –دون ان يأتي يوم اشاطرك اياها – على الا اراك ابداً اذا لم تسدل على هـذه القضية صمتاً يبدو من حقي ان انتظره لا بل وارجوه منك . انني اعيد اليك طيه الرسالة التي كتبتها لي ، وآمل بأن تتفضل باعادة هـذه الرسالة اليَّ ، وسأكون حقيقة مستاءة اذا بقي اي أثر من آثار حادث كان يجب الا يكون . لي الشرف بأن اكون الخ ...

٢٧

من سيسيل فولانج الى السيدة دي ميرتاي

في ١٣ آب ؟؟ ١٧

يا الهي كم انت طيبة القلب ، يا سيدتي ، وكم تشعرين جيداً بأنه من الاسهل

عليّ ان اكتب اليك بدلاً من ان احـدثك ! ذلك ان ما سأقوله لك هو صعب جداً . ولكنك انت صديقتي ، أليس صحيحاً ؟ آه ، اجـــل ياصديقتي الطيبة سأحاول ألا يكون عندي وجل ، ثم اني بحاجة اليك والى نصائحك ! فأنا الآن في همٍّ مقيم . ويبدو لي ان الجميع يحزرون ما افكر به ، لا سيما حين يكون هو هنا ، اذ احمر خجلاً ما ان ينظروا اليّ وبالأمس حين شاهدتني ابكي ، فلأني كنت اريد ان اتحدث اليك . وحين سألتني عما بي ، تدفقت دموعي رغماً عني . ثم لم استطع ان امنع نفسي منها . ولذلك ما كنت لأتمكن من قول اية كلمة ، ولولاك لكانت امي لاحظت ما بي . وماذا ستكون عليه حالتي حينئذ ؟ وهكذا اقضي الآن حياتي ، لا سيما منذ اربعة ايام .

ففي ذلك اليوم يا سيدتي ، اجل في ذلك اليوم كتب لي الفارس دانسني : آه اؤكد لك انني حين وجدت رسالته لم اعرف ابداً ماذا كانت . ولكن لكي لا اكذب عليك ، لا استطيع القول انني لم اكن مسرورة بقراءتها ، هـــل فهمت ؟ لقـــد كنت افضل ان اكون حزينة طول حيـــاتي لو لم يكتب الي ، ولكنني اكنت اعلم جيداً انه يجب الا اقول له ذلـــك . واستطيع ان اؤكد لك ايضاً انني قلته وكنت متكدرة : ولكنه يقول ان ذلك كان اقوى من ارادته ، وانا اصدقه في ذلك . لأنني كنت قد قررت الا ارد عليه ، ولكنني لم استطع ان امنـع نفسي من ذلك . آه ... لم اكتب اليه الا مرة واحـــدة ، لا بل كان القصد من كتابتي ان اطلب اليه كي لا يكتب إلي ابداً ، ولكنه رغم ذلك ما زال يكاتبني دائماً . وبما انني لا ارد عليه فقد لاحظت انه كئيب ، وهذا ما يسوءني اكثر : بحيث انني لا اعرف مـــاذا افعل ، وماذا سأغدو . انني بالفعل ادعو الى الرثاء .

قولي ، ارجوك ، يا سيدتي ، هل من الإثم ان ارد على رسائله بين وقت وآخر إلى ان يتعهد هو نفسه بألا يكتب الي وان يبقى كما كنا سابقاً ؟ لأنـه لو استمر الحال كذلك بالنسبة لي فلا ادري ماذا ساصبح . فمثلاً حين تلوت رسالته الاخيرة ، بكيت طويلاً دون توقف . وانا متأكدة انني اذا لم أرد عليه ايضاً ، فسيؤلمنا

twitter @baghdad_library

ذلك كل الألم .

سأبعث اليك برسالته أو بنسخة عنها ، وبإمكانك ان تحكمي ، وسترين ان ما يطلبه مني ليس فيه ما يسوء . ومع ذلك اذا وجدتِ ان الأمر لا يليق ، فسأعدك بمنع نفسي من ذلك. ولكنني اعتقد انك تفكرين مثلي وان لا غضاضة في هذا العمل .

بالمناسبة أسمحي لي يا سيدتي ان اطرح عليك هذا السؤال : طالما قيل لي أنني أرتكب خطيئة اذا احببت احداً . فلماذا ؟ إن ما يحملني اوجه اليك هذا السؤال هو ان الفارس دانسني يدّعي انه لا إثم في ذلك ابداً ، وان جميع الناس تقريباً يحبون ، واذا كان ما يقوله صحيحاً فإنني لا افهم لماذا سأكون الوحيدة التي تمنع نفسها من ذلك . ام ان الحب ليس مشيناً الا بحق الآنسات ؟ لأنني سمعت والدتي نفسها تقول ان السيدة د ... تحب السيد م ... ولم تكن تتحدث عن ذلك كما لو انه حادث اثيم . ومع ذلك فأنا متأكدة انها ستغضب عليّ اذا ارتابت فقط بصداقتي للسيد دانسني . وهي تعاملني دائماً كطفلة . ولا تقول لي شيئاً . كنت أظن انها حين اخرجتني من المدرسة فلكي تزوجني ، ولكن ليس هناك شيء من هذا القبيل في الوقت الحاضر كما يبدو لي . ليس لانني قلقة لهذا السبب كلا . اؤكد لك . بل أنتِ بوصفك الصديقة الحميمة لوالدتي تعرفين ربما ماذا حدث ، واذا كنت تعرفين ارجو ان تطلعيني عليه .

هذا يا سيدتي كتاب طويل ، ولكن بما انك وعدتني بأن تكتبي اليّ ، فقد اغتنمت الفرصة لكي أقول لك كل شيء ، وانني معتمدة على صداقتك .

لي الشرف بأن اكون الخ ...

٢٨

من الفارس دانسني الى سيسيل فولانج *

في ٢٣ آب ؟؟١٧

ماذا يا آنستي ؟ اما زلت ترفضين الردّ على رسائـــلي ! ولا شيء يمكن أن يحننك علي ؟ ان كل يوم يمضي يصطحب معه الأمل الذي جاء به . فما هي اذن هذه الصداقة التي توافقين على قيامها بيننا، اذا لم تكن هي نفسها قوية الى درجة تجعلك تشعرين بآلامي ؟ ثم كيف تدعك باردة هادئة ، بينما تجعلني اعاني جميع الآلام القاسية التي لا استطيع اخماد نارها ؟ واذا كانت لا توحي اليك بالثقة ، إليست كافية اذن لأن تثير شفقتك ؟ ماذا ! صديقك يتعذب ولا تفعلين شيئـاً لاغاثته ؟ انه لا يطلب منك سوى كلمة واحدة ، وانت تمنعينها عنه ؟ ثم تريدين ان يكتفي بشعور ضعيف ، وتخشين ان تكرري له التطمينات ؟

انت لا تريدين ان تكوني ناكرة الجميل ، كما قلت بالأمس ، آه ! صدقيني يا آنستي ان الرغبة في دفع ثمن الحب بعملة الصداقة ، لا تكون بسبب الخوف من نكران الجميل ، بل بسبب الشك في قيمة هذه الصداقة نفسها . ومع ذلك لا أجرؤ على التحدث اليك عن عاطفة لا يمكن الا ان تكون عبئاً عليك . واذا كانت لا تهمك ، يجب علي ان أكتبها داخـــل نفسي بانتظار ان اتعلم كيفية التغلب عليها . انني أشعر كم ان هذا العمل هو صعب . أنني لا إكبت نفسي ، لأني بحاجة إلى جميع قواي ، وسأطرق جميع الابواب ، وهناك طريقة تكلف قلبي غالباً وهي ان اكرر لنفسي دائماً ان قلبك بدون حساسية . وسأحاول حتى أن اراك اقل ما يمكن .

ماذا ؟ سأفقد العـادة اللذيذة بأن اراك كل يوم . آه على الاقل لن اكف عن

---

* هذه الرسالة هي التي أرسلت سيسيل فولانج نسخة عنها الى السيدة دي ميرتاي ، وبما أن دانسني يردد فيها ما ورد في الرسالتين السابقتين ، فقـــد رأينا ان نشرها وحدها يكفي .

twitter @baghdad_library

التحسر على ذلك . وسيكون الشقاء الابدي ثمناً لأشد الحب رقة . وهـذا ما تكونين قـد اردته ، وسيكون من صنع يديك . انا اشعر بأنني لن أعـثر ابداً على السعادة التي اخذت أفقدها اليوم . أنت وحدك المخلوقة لقلبي . وبأية متعة سأقسم لك على الا اعيش إلا من اجلك ! ولكنك لاتريدين ان تقبلي هذا القسم . وان صمتك يعلمني بصورة كافية ان قلبك لا يحس بشيء نحوي ، وهو في آن واحد الدليل الاكيد على لامبالاتك وعلى الطريقة القاسية لابلاغي ذلك .

الوداع يا آنستي .

لا اجرؤ على انتظـار جواب . لأن الحب كان قد أملاه بكل اندفاع ، والصداقة بكل سرور ، والشفقة بكل لطف : ولكن الشفقة والصداقة والحب هي ايضاً غريبة على قلبك .

٢٩

من سيسيل فولانج الى صوفي كارني

٢٤ آب ؟؟ ١٧

ألم أقل لكِ يا صوفي ان ثمة حالات نستطيع معها أن نكتب الى من نحب ؟ اؤكد لك انني الآن ألوم نفسي على أني اتبعت رأيك الذي آلمنا كلينا : الفارس دانسني وأنا . والدليل على ان الحق معي هو ان السيدة دي ميرتاي ـ وهي امرأة خبيرة ـ قد شاءت اخيراً ان ترى رأيي ، وقد اعترفت لها بكل شيء . فـأشارت عليَّ في البداية مثلما أشرت . ولكنني حين أوضحت لها الامر جيداً ، وافقت على ان الحال هنا مختلف . وهي تطلب مني فقط أن اطلعها على كل رسائلي وجميع رسائل الفارس دانسني ، لكي تكون متأكدة انني لن اقول إلا ما يجب ان يقال . وهاأنذا أجد نفسي الآن مطمئنة ... يا الهي كم احب السيدة دي ميرتاي ! انها طيبة القلب جداً ! وهي امرأة محترمة ، وهكذا ليس هناك ما يخشى منه .

وبما انني كتبت الى الفارس دانسني فكم سيكون مسروراً. وسيكون ايضاً اكثر سروراً مما يعتقد : لأنني حتى الآن لم احدثه إلا عن صداقتي ، وهو يريد دوماً ان اعلنه حبي ، واعتقد ان الامر سيّان . ولكنني لم اجرؤ بعد ، بينما هو يصر على ذلك .

لقد صارحت السيدة دي ميرتاي بالأمر ، فقالت لي انني على حق ، وانه لا ينبغي التحدث عن الحب إلا حين لا استطيع ان امنع نفسي من ذلك . وعليه فأنا متأكدة بأنني لا استطيع منع نفسي مدة طويلة ، وعلى كل حال فان الأمر سيان ، وهذا ما يعجبه اكثر .

لقد قالت لي السيدة دي ميرتاي ايضاً انها ستعيرني كتباً تتحدث عن كل ذلك. وتعلمني جيداً أن احسن التصرف وان اكتب ايضاً بأسلوب افضل مما افعل الآن. لأنها، كما ترين ، تدلني على جميع اخطائي ، وهذا دليل على انها تحبني ، وقد أوصتني فقط بألا اخبر امي شيئاً عن هذه الكتب ، لان ذلك سيجعلها تظهر كما لو انها اهملت تربيتي كما يجب ، مما قد يكدرها . وهكذا فلن اعلمها طبعاً بالأمر ابداً .

انه لأمر نادر ان تكون هناك امرأة ليست من اهلي ولكنها تبذل مثل هذه العناية الفائقة بي كأمي . وانه لمن حسن حظي ان اكون قد تعرفت عليها !

وقد طلبت ايضاً الى امي بأن تصطحبني معها بعد غد الى دار الاوبرا، وقالت لي اننا سنكون وحدنا في مقصورتها ، وسنتحدث كل الوقت دون ان نخشى ان يسمعنا احد : وانا افضل ذلك على مشاهدة الاوبرا . سنتحدث ايضاً عن زواجي ، لانها قالت لي انني سأتزوج حقيقة ، ولكننا لم نستطع ان نتحدث اكثر . أليس مدهشاً ان تكون امي لم تطلعني على شيء بعد ؟ الوداع يا صوفي ، سأكتب الآن الى الفارس دانسني ، انني سعيدة جداً بذلك .

twitter @baghdad_library

٣٠

من سيسيل فولانج الى الفارس دانسني

في ٢٤ آب ؟؟ ١٧

اخيراً يا سيدي اوافق على الكتابة اليك ، لأوكد لك صـــداقتي وحبي . لأنك ستصبح تعيساً كئيباً لولا ذلـك . انت تقول انه ليس عندي قلب رقيق ، ولكنني اؤكد لك انك مخطىء . وآمل في الوقت الحاضر ألا تشك مطلقاً في الأمر . اذا كنت قد عانيت العذاب لأنني لم اكتب اليك ، فهل تظن ان ذلك لم يسبب لي عذاباً ايضاً ؟ ولكن القضية عائدة الى انني لا اريـــد ان ارتكب اي اثم ، ولو لم اكن متأكدة تمامـــاً من حبي ، لكنت استطعت ان امنع نفسي منه . ولكن حزنك اثار في نفسي كثيراً من الألم ، وآمـــل الآن ألا يكون لديك اي حزن ، سنكون سعيدَيْن جداً .

أرجو ان يتم لي السرور برؤيتك هذا المساء ، وان تحضر في ساعة مبكرة . ولن يكون ذلك ابكر مما اتمناه . والدتي ستتعشى في بيتها ، وربمـــا ستعرض عليك ان تبقى ، وآمل ألا تكون مرتبطاً بموعد كما حدث أول أمس . اذن لقد كان ممتعـاً ان تتعشى حيث ذهبت لأنك مضيت في ساعـــة مبكرة . ولكن لندع الحديث عن ذلك الآن . ففي الوقت الحاضر انت تدري انني أحبك ، واتمنى ان تبقى معي أطول مدة تستطيعها ، لانني لا اكون سرورة إلا حين اكون معك ، وأود جيداً ان يكون الأمر كذلك بالنسبة اليك .

انني متكدرة جداً لان تكون ما زلت حزينـاً الآن . ولكن الذنب ليس ذنبي ، وسأطلب ان اعزف على القيثارة حين تصل ، حتى تحصـل على رسالتي حالاً ، ولا استطيع ان افعل افضل من ذلك .

الوداع يا سيدي ، احبك كثيراً من كل قلبي ، وكلما قلتها لك كلما كنت سعيدة . وآمل ان تكون ايضاً مثلي .

٣١

من الفارسي دانسني الى سيسيل فولانج

في ٢٥ آب ؟؟١٧

اجل لا شك باننا سنكون سعيدين ، وان سعادتي اصبحت اكيـــدة لانني محبوب منك . وسعادتك لن تنتهي أبداً ، اذ أنها ستدوم مـا دام الحب الذي اوحيته لي قائماً . ماذا ؟ انت تحبينني ، ولا تخشين ان تؤكدي لي حبك ، وكلما رددته لي كلما كنت سعيدة ؟ انني بعد ان قرأت هذه العبارة «أحبك» مكتوبة بخط يدك سمعت فمك الجميل يكرر هذا الاعتراف ، ورأيت عينيك الفاتنتـين تحدقان فيَّ فتجملان أيضاً تعبير الحنو في نفسك . لقد تلقيت قسمك بأن تعيشي دائماً من اجلي . آه ! فتلقي أنت ايضاً قسمي بان اكرس كل حياتي لسعادتـك ، اقبليه وكوني متأكدة انني لن احنث به .

يا له من نهار سعيد امضيناه معاً بالإمس ! آه ، لماذا لا يوجد لدى السيدة دي ميرتاي دائماً اسرار تفضي بها الى والدتك كل يوم ؟ ولمـــاذا يجب أن تأتي فكرة الخوف الذي ينتظرنا، فتخيم على الذكرى اللذيذة التي تشغلني ؟ ولماذا لا أستطيع أن امسك باستمرار هذه اليد الجميلة التي كتبت لي : احبك ! فأفعمها بالقبـل ، واثأر لنفسي هكذا من الرفض الذي اظهرته لي .

قولي لي يا سيسيلتي ، حين عادت والدتك ، وحين اضطررنا بسبب وجودها الى عدم تبادل سوى نظرات شاردة، وحين لم تتمكني من تخفيف لواعجي بتأكيد حبك لي ، وبالرفض الذي ابديته في اعطائي دلائل على حبك ، ألم تشعري إذن بأي أسف ؟ ألم تقولي لنفسك: «ان قبلة واحدة كان يمكن ان تجعله اكثر سعادة ، وانني انا الذي حرمته هذه السعادة ؟» عديني يا صديقتي الحبيبة ، انك في اول فرصة ستكونين اقل قساوةً من قبل ، وعن طريق هذا الوعد سأجد الشجاعة على تحمل المنغصات التي تخلقها لنا الظروف، إن الحرمان الظالم سيصبح على الأقل مخففاً فيما لو تأكد لي انك تشاطرينني الاسف .

twitter @baghdad_library

الوداع يا سيسيلي الفاتنة : لقد حانت الساعة التي يجب ان اذهب فأراك ـ وسيكون من المستحيل عليّ ان اتركك إلا لكي اذهب فاشاهدك من جديد ـ الوداع يا من احب ، انت يا من سأحبها على الدوام اكثر من اي وقت مضى .

٣٢

من السيدة دي فولانج الى السيدة الرئيسة دي تورفيل

في ٢٤ آب ؟؟ ١٧

تريـــدين اذن يا سيدتي ان أؤمن بفضيلة السيد دي فالمون ؟ كلا . واعترف بأنني لا استطيع ان اسلم بذلك . اذ انني سأكون متألمة جـــداً لو حكمت عليه كرجل شريف بسبب حادث واحـد منفرد . كما لو كان علي ان احكم على رجل فاضل بأنه مستهتر سافل بسبب غلطة واحـــدة . فللاثم فضائله كما ان للرجل الشريف هناته . وهذه الحقيقة تبدو لي اكثر ضرورة لأن نؤمن بها ، حتى تنبثق عنها ضرورة التسامح مع الاشرار كما مع الطيبين، وهي تصون هؤلاء من الفخر ، وتنقذ اولئك من تثبيط الهمة . ستجدين حتماً انني لا امارس جيداً هذا التسامح الذي انادي به ، ولكنني لا ارى في هـذا التسامح إلا تخاذلاً خطيراً حين يؤدي بنا إلى معاملة الشرير والفاضل معاً على مستوى واحد .

انني لن اسمح لنفسي مطلقاً بان أبحث عن الاسباب التي حملت السيد دي فالمون على القيام بهذا العمل، بل أود أن اجدها تستحق الثناء. ولكنه الم يقض حياته في اشاعة التعكير ، والعـار ، والفضيحة بين الأسر ؟ اصغي — اذا شئت — الى صوت الرجل البائس الذي اعانه ، ولكن ذلك يجب الا يمنعك من سماع صرخات مئات الضحايا التي لطخها بالعار وهتك سترها . وعندما يصبح ، كما تقولين مثلاً على خطر العلاقات ، الا يغدو هو على الأقل ، علاقة خطرة ؟ انت تفترضين ان من الممكن اعادته إلى جادة الصواب ؟ ولنذهب إلى ابعـد من ذلك ، ونفترض ان هذه المعجزة تمت . الا يبقى الرأي العام ضده ؟ ثم الا يكفي حكم هذا الرأي العام لكي تنظمي مسلكك ؟ ان الله وحـــده يستطيع أن يعفو عنه في ساعـة

الدينونة ، وهو يعلم ما في الصدور : ولكن الناس لا يستطيعون ان يحكموا على خفايا الافكار إلا من خلال ظواهر الاعمال . ولا يحق لأي واحد منهم ، بعد ان يكون قد فقد اعتبار الآخرين ، أن يشكو من فقدان الثقة الضرورية به ، مما يجعل من الصعب اعادتها اليه. فكري أيضاً يا صديقتي الشابة انه في بعض الاحيان يكفي للمرء أن يفقد هذه الثقة حين يبدو أنه لا يعلق عليها أهمية كبرى . وارجو ألا تنعتي هذه الصرامة بالظلم . لأن هذا الشخص بالفعل هو أقرب الى ارتكاب المعصية من اي انسان آخر بحيث لا يستطيع ان يمتنع عنها . ذلك هو المظهر الذي تسبغه عليك معاشرة صحيحة مع السيد دي فالمون مهما كنتِ على شيء كثير من البراءة .

ونظراً لخوفي من الحماس الذي تدافعين بواسطته عن هذا الرجل، أسارع إلى انذارك بالاعتراضات التي اتوقعها . لقد استشهدت لي بالسيدة دي ميرتاي التي غفر لها الناس هذه المعاشرة ، وأنت تسألين لماذا أستقبله في بيتي : وستقولين لي أنه بدلاً من ان يرفض الناس الشرفاء استقباله نجده على العكس مقبولا ومبجوثاً عنه فيما يسمى بالمرافقة الحسنة . واعتقد انني استطيع أن اجيب على كل ذلك .

اولا ، ان السيدة دي ميرتاي هي محترمة جداً ، ولكن ليس لها عيب سوى ان عندها كثيراً من الثقة بقواها ، فهي رائد بارع يعجبها ان تقود عربة بين الصخور والفجوات ، وان نجاحها وحده يبرر مسلكها ؛ وأجد ان من الانصاف الثناء عليها ، ولكن من الخطر ان نحذو حذوها ، وهي نفسها تعترف وتتهم نفسها بذلك . وقد اصبحت لفرط ما شاهدت ورأت صارمة . ولا اخشى بأن اؤكد لك انها هي نفسها ستفكر مثلي .

أما في ما يتعلق بي ، فانني لا ابرر نفسي اكثر من الاخريات. ولا ريب بأنني استقبل السيد دي فالمون ، وهو يُستقبل في كل مكان ؟ وهذا عيب آخر من عيوب العلاقات يجب اضافته الى الوف العيوب الاخرى التي تسود المجتمع ، وانت تعرفين مثلي اننا نقضي حياتنا في مراقبة هذه العيوب ، وفي الشكوى منها ، وفي الانسياق معها . فالسيد دي فالمون بما لديه من اسم رنان ، وثروة

twitter @baghdad_library

طائلة ، ومزايا كثيرة محبوبة ، قد عرف منذ ساعة مبكرة انه يكفي للمرء ان يزاول بحذاقة متساوية الاطراء والسخرية حتى يسيطرعلى المجتمع .

وليس هناك احد مثله يملك هذه المقدرة المزدوجة . فهو يُسحر بالاولى ، ويجعل الناس تخشاه بالاخرى . والناس لا يحترمونه بقدر ما يطرونه . تلكهي حياته وسط عالم ، اكثر حذراً واقل شجاعة ، يفضل ان يسايره ويداريه بدلاً من ان يكافحه .

ولكن لا السيدة ميرتاي نفسها ، ولا اية امرأة اخرى تجاسرت ولا ريبعلى ان تختلي في الريف ، وجهاً لوجه تقريباً ، مع رجل من هذا النمط . وهكذا كان مقدراً على اكثر النساء حشمة وتعقلاً ، واشدهن تواضعاً ان تضرب المثل على هذا التناقض . اغفري لي هذه الكلمة التي تشذ عما تقضي به الصداقة . ان نزاهتك نفسها تخونك عن طريق الامن الذي توحيه اليك . فكري اذن ان من سيحكمون عليك هم فئتان : فمن ناحية اولئك العابثون الذين لا يؤمنون بعفة ولا يجدون نموذجاً لها في ما بينهم ، ومن ناحية ثانية اصحاب الألسنة الطويلة الذين يتباهون بأنهم لا يؤمنون بها ، لكي يعاقبونك على انك كنت ذات عفة . اعتبري انك تفعلين الآن في الوقت الحاضر ما لا يجسر بعض الرجال على المخاطرة به . وبالفعل أجد بين الشبان الذي جعل السيد دي فالمون من نفسه حكماً عليهم ، اجد اكثرهم تعقلاً يخشون ان يبدوا مرتبطين كثيراً بصورة حميمة بينما انت لا تخشينه ابداً ! آه ! عودي ، عودي الى صوابك ، استحلفك بالله . واذا لم تكن الاسباب التي عرضتها عليك كافية لان تقنعك ، فسلمي نفسك لصداقتي ، فهي التي تجعلني اجدد اصراري عليك ، وهي ستبررها لك . انك تجدينها صارمة . وكم اود ان تكون غير مجدية . ولكنني افضل ان تتذمري من إلحاحها بدلاً من اهمالها .

٣٣

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون

في ٢٢ آب ؟؟ ١٧

ما ان تخشى النجاح يا عزيزي الفيكونت ، ومـا ان تلاحظ ان مشروعك سيقدم اسلحة ضدك ، وتقل رغبتك في الانتصار بدلاً من المقاومة ، فليس عندي ما اقوله . ذلك ان مسلكك هو مثال على الحذر . وسيكون مثالاً على الحماقة في حالة افتراض العكس . ولكي اقول لك الحقيقة اخشى ان تكون قـد غرقت في الاوهام .

انني لا ألومك على انك لم تنتهز الفرصة بل على العكس ، فمن جهة لا ارى بوضوح ان الفرصة قد حانت ، ومن جهة اخرى اعلم جيـداً — مهما يقال — ان الفرصة التي تفوّت يمكن أن تعود . بينـما لا يمكن العودة مطلقاً عن مسعى أهوج معجّل .

ولكن الخطأ الحقيقي انك تركت نفسك تكتب اليهـا . وانني أتحداك بأن تتنبأ في الوقت الحاضر إلى اين يمكن ان يقودك ذلك . فهل تأمل مثلاً ان تثبت لهذه المرأة انه ينبغي عليها ان تنام معك؟ يلوح لي ان القضية قد لا تكون سوى حقيقة عاطفية ، وليست ظاهرة ، وأنك لكي تجعلها ترضى يجب اثارة عطفها وليس تعقلها . ولكن ماذا يفيدك ان تثير عطفها بالرسائل لأنك لن تكون معهـا حين تقرأ رسائلك لكي تغتنم الفرصة ؟ وحين تؤدي عباراتك الجميلة إلى احداث نشوة عارمة في نفسها قد تحملها على الاستسلام اليك ، هل تعتقد ان هـذه النشوة ستدوم طويلاً بحيث تحول بينها وبين التفكير بتعقل قـد يمنعها من الاقدام على ذلك ؟ فكّـر في ما تحتاجـه من الوقت اللازم لكتابة احدى الرسائل ، وفي الوقت الذي يمضي قبل تسليمها اياها ، وأنظر اذا كانت هذه المرأة ، لا سيما وهي تقية ورعة ذات مبادىء مثلها ، تستطيع ان ترغب مدة طويلة في ما تحاول الا تريده ابداً . ان هذه الوسيلة قد تنجح مع المراهقين الذين عندمـا يكتبون كلمة

twitter @baghdad_library

« احبك » لا يعرفون انهم يقولون بذلك « اني استسلم اليك » . ولكن العفة العقلية عند السيدة دي‌تورفيل تبدو لي انها تعرف جيداً قيمة العبارات. وهكذا رغم السبق الذي احرزته عليها في محادثتك ، فهي تهزمك في رسالتها . ثم هل تدري ماذا يحدث ؟ وهذا ما نختلف عليه . انها لا تريد الاستسلام . وهي لشدة البحث عن الاسباب الحسنة ، تستطيع العثور عليها ، ثم ستقولها . وبعد ذلك ستصر على التمسك بها ، ليس لأنها حسنة بل لكي لا تكذب نفسها .

وفضلاً عن ذلك هناك ملاحظة أندهش من انك لم تكتشفها . وهي انه ليس في الحب اسهل من الكتابة والتعبير عما لا نحسه . اعد قراءة رسالتك فستجد انه يسودها نظام يفضحك في كل عبارة . واريد الاعتقاد ان رئيستك ليست على شيء كبير من الذكاء لكي تلاحظها ، ولكن هذا لا يهم ؟ فالتأثير معدوم . وهذا هو خطأ الروايات القصصية . فالمؤلف يبذل المستحيل لكي يثير الحرارة ، ولكن القارىء يظل بارداً . وان رواية هيلويز هي الوحيدة التي تشذ عن هذه القاعدة ، ورغم مقدرة الكاتب فان هذه الملاحظة جعلتني دائماً اعتقد ان اساسها صحيح . ولكن الأمر ليس كذلك في الكلام المباشر . وإن العادة في تشغيل حاسة الكلام تعطيها الحساسية ، كما ان سهولة الدموع تضيف عليها ايضاً تأثيراً أعظم . وان التعبير عن الرغبة يمتزج في العيون مع التعبير عن العاطفة . واخيراً فان الكلام المتقطع يؤدي بسهولة الى خلق الشعور بالاضطراب الذي يشكل بلاغة الحب الحقيقية ، وكذلك فان وجود الشخص المحبوب يشلّ التفكير ويجعلنا نرغب في الاستسلام . ولهذا فان المأساة التمثيلية الاكثر رداءة والتي لا يمكن ان تقرأ ، لا يعوزها ابداً احداث التأثير المطلوب على المسرح .

صدقني ايها الفيكونت ، انها تطلب اليك الا تعود الى الكتابة ، فاستغل الفرصة لتدارك غلطتك وانتظر المناسبة لكي تتحدث اليها . هل تدري ان لدى هذه المرأة قوى اكثر مما كنت أتصور؟ وان دفاعها جيد . ولولا طول رسالتها ، والحجة التي تمنحك اياها لكي تعود فتكسب إمتنانها ، فانها لن تكون

مفضوحة .

ان ما يبدو لي من واجب لتطمينك بالنجاح ، هو أنهـــا تستهلك قوى كثيرة في آن واحد . واتوقع انها ستحطمها من اجل الدفاع عن الكلمة ، بحيث لن تبقى لها قوة على الدفاع عن الغرض .

أعيد اليك رسالتيك ، واذا كنت محترساً فستحفظهـــما حتى تحين اللحظة السعيدة . ولو لم يكن الوقت قـــد فات لكنت حدثتك عن الصغيرة فولانج التي تتقدم بسرعة تجعلني مسرورة جداً . واظن انني سأفرغ قبلك ، ويجب ان تكون خجلاً من نفسك . الوداع اليوم .

٣٤

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

في ٢٥ آب ؟؟ ١٧

انك تتحدثين بروعة يا صديقتي الحسناء . ولكن لماذا تتعبين نفسك في اثبات ما لا يجهله أحد ؟ أجل للسير بسرعة في الحب من الافضـــل التحدث بدلاً من الكتابة . وهذا هو كما أعتقد كل ما تضمنته رسالتك . ولكن هذه هي أبسط عناصر فن الاغراء . وألاحظ فقط انك ابديت استثناء واحداً لهذا المبدأ . بينما هناك اثنان ، اذ يجب ان تضيفي الى المراهقين الذين ينتهجون هذا السبيل الجبار ويستسلمون بجهل ، اولئك النساء ذوات التفكير الجميل ، اللواتي يتركن انفسهن تنساق من قبيل حب الذات ، ثم يوقعهن الزهو والتكبر في الشرك . واليك مثلاً على ذلك ، فأنا متأكد ان الكونتيسة دي ب ... التي ردت بسهولة على رسالتي الأولى لم يكن عندها اي حب نحوي مثلما لم يكن عندي نحوها . وانها لم تجد في ذلك سوى مناسبة لكي تعالج موضوعاً ينبغي أن يشرفها .

ومهما يكن من أمر فان اي محام سيقول لك ان المبدأ نفسه لا يطبق في هذا المجال . وبالفعل فانك تفترضين ان امامي الخيار بين الكتابة والتحدث مما ليس هو موجوداً . فمنذ حادث ١٩ الجاري وظالمتي التي كانت ما تزال تعتمد خطة

twitter @baghdad_library

الدفاع ، تبذل براعـــة متناهية لتجنب المقابلات ، مما قلب جميع خططي . وهي الآن من الدقة بحيث اذا استمر ذلك ستحملني على الاهـتمام بصورة جدية بالبحث عن وسائل جديدة ، لأنني من المؤكـد لن اتحمل ان اكون منهزماً من جانبها مهما كلف الأمر. وان رسائلي نفسها موضوع حرب صغيرة ؛ فهي مسرورة اذا لم تجب عليها ، ولذلك ترفض قبولها. ولا بد لكل منها من حيلة جديدة وهي لا تنجح دائماً .

أنت تتذكرين بأية وسيلة سهلة سلمتها رسالتي الأولى . كما ان رسالتي الثانية لم تصادف صعوبات اكثر . وقد طلبت إلي ان اعيد اليها رسالتها . فسلمتها رسالتي مكانها دون أن تتسرب اليها بادرة شك . ولكنها رفضت باصرار قبول الثالثة اما عن انتقام لأنني خدعتها ، واما عن قصد فجائي بلا داعٍ ، واما عن تعفف . لانها ستجبرني على الاعتقاد بذلك ، وآمل أن الارتباك الذي وقعت فيه على اثر هذا الرفض سيعاقبها في المستقبل .

انني لم اندهش كثيراً لانها لم تشأ تسلم هذه الرسالة التي قدمتها اليهـــا بكل بساطة ، لان ذلك معناه التسليم بشيء ما . وانني اتوقع دفاعاً اطول . وبعدهذه المحاولة التي لم تكن سوى تجربة عابرة ، وضعت مغلفاً لرسالتي ، واغتنمت فرصة وجود السيدة دي روزموند والخادمة عندها ، فبعثت اليها برسالتي مع خادمي وطلبت اليه ان يقول لها ان هذه هي الورقة التي طلبتها مني . وقد توقعت انها ستخشى التفسير الفاضح الذى سيثيره رفضها ؛ وبالفعل فقد اخذت الرسـالة ، وقال لي سفيري الذي طلبت اليه ان يراقبها وهو لا تنقصه دقة الملاحظة : انه لم يلاحظ سوى طيف خفيف من التورّد قد اعتراها ، مع شيء من الارتباك ، لا الغضب .

فهنأت نفسي ؛ إذ من المؤكد انها إما ان تحتفظ بهذه الرســـالة ، واما اذا شاءت ان تعيدها لي فلا بد لها من خلق مناسبة لتكون وحدها معي مما يتيـح لي فرصة التحدث اليها. ولم تمض ساعة على ذلك حتى دخل احد خدمها الى غرفتي وسلمني من قبل سيدته ربطة ذات شكل مختلف عن ربطتي ، تحمل فوق غلافها خطهـا

المرغوب . فسارعت الى فتح الربطة فاذا بي اجد رسالتي مطوية دون ان تفضها واعتقد ان خوفها من ان ارفض استرجاع رسالتي قد حملها على استخدام هـذه الحيلة الشيطانية .

انت تعرفينني جيداً ، ولا حاجة بي الى ان اصف لك ثورة غضبي . وكان لا بد من ان استعيد روعي وهدوئي ، والتفكير بالوسـائل التي اسـجل عليها سبقي واليك ما استنبطت :

ففي كل صباح يذهب احد الخدم لإحضار البريد الذي لا يبعد من هنا سوى ثلاثة ارباع الفرسخ . وهو يستخدم لذلك صندوقاً تملك السيدة دي روزموند مفتاحه ومدير البريد مفتاحاً آخر ، وهنا يضع كل انسان بريده في الساعـة التي يريد ، وفي المساء يحمل الخادم الصندوق إلى البريد، ثم يعود فيحضره صباح اليوم التالي.

وفي الاثناء كتبت رسالتي ، وحرّفتُ خطي عند كتابة عنوانها على الغلاف، ورسمت بعناية على الغلاف خاتم بريد مدينة ديجون . ذلك انني سمعتها تردد مراراً انها تنتظر رسائل من ديجون . فبدا لي من الانصاف ان ابعث في نفسهـا هذا السرور .

وبعد ان اتخذت هذه الاحتياطات لم يكن من الصعب عليّ ان القي برسالتي بين الرسائل . ثم فزت ايضاً بأن اكون شاهداً على وصول هذه الرسالة اليها بهذه الطريقة . ذلك ان العادة هنا تقضي بان يتجمع القوم عند الصباح بانتظار وصول الرسائل قبل ان يتفرقوا . واخيراً وصل البريد .

ففتحت السيدة دى روزموند العلبة . وقالت وهي تسلم الرسالة إلى السيدة تورفيل : اليك رسالة من ديجون . فاجابتها هذه وهي تتناولها : ولكن هذا الخط ليس خط زوجي . ثم فتحت الغـلاف بفضول . وما ان القت اول نظرة عليها حتى فهمتْ كل شيء . واعترتها ثورة جامحة بدت على وجهها حتى ان السيدة دى روزموند لاحظت ذلك . فسألتها : ما بك ؟ فاقتربتُ بدوري وانا اقول : « ان هذه الرسالة هي اذن فظيعة جداً » ولم تجرؤ التقية الخجولة على رفع بصرها . ولم تنبس ببنت شفة ، ولكي تنقذ نفسها من الارتباك اضطرت الى قراءة الرسالة ولكنها لم تكن

twitter @baghdad_library

في حالة مطالعة . فابتهجت لاضطرابها ، ولم املك من ان اثير غيظها فأضفت قائلاً : ان مظهرك الهادىء يبعث على الظن ان هذه الرسالة قد بعثت في نفسك الدهشة اكثر من الاستياء . » وكان ان اوحى لها الغضب بعبارة افضل مما قد أوحاه لها عدم الحذر ، فقالت : انها تحتوي على اشياء تهينني وانني لمندهشة بأن تكون قد كتبت اليّ »وقاطعتها السيدة دى روزموند : «ومن بعث اليك بها؟» فقالت : انها بدون توقيع . ثم اضافت : ولكن الرسالة وصاحبها لا يوحيان لي الا باحتقار مماثل » . ثم مزقت الرسالة الجريئـــة ووضعت قطعها في جيبها ونهضت فخرجت .

وعلى الرغم من هذا الغضب فانها قد تسلمت الرسالة . وإنني أثق بفضولها الى درجة اعتقد أنها قرأتها بكاملها .

أما تفاصيل بقية النهار فقد تجعلني اطيل رسالتي جداً. ولكنني ابعث اليك طيه بمسودة رسالتيّ الاثنتين . الوداع يا صديقتي الحسناء .

٣٥

من الفيكونت دي فالمون الى الرئيسة تورفيل

في ٢١ آب ؟؟ ١٧

ينبغي ان اطيعك يا سيدتي . وينبغي ان اثبت لك انك رغم العيوب التي يسرك ان تعتقديها فيّ ، ما زالت عندي الكرامة بألا اسمح لنفسي بأي مأخذ ، والشجاعة الـكافية لأن افرض على نفسي اقسى التضحيات. انت تأمرينني بالصمت والنسيان ! اذن سأحمـل حبي على ان يصمت . وسأنسى ـ اذا كان بالامكان ـ الطريقة الجائرة التي استقبلتِه بها . ولا ريب بأن الرغبة في أن اعجبك لا تمنحك مثل هذا الحق . واعترف لك ايضاً ان الحاجة التي كانت عندي في الحصول على تسامحك لا تسمح لك بذلك : ولكنك تنظرين الى حبي كجناية . وتنسين اذا كان ذلك خطأ. فأنت في آن واحد السبب والمبرر. ثم تنسين انني وقد اعتدت على ان

افتح لك نفسي، حتى حين يمكن لهذه الثقة ان تضرّ بي ، لم يعد بامكاني ان اخفي عنك المشاعر التي جعلتِها تتغلغل في نفسي . وان ما كان نتيجـــة النية الحسنة تنظرين إليه على انه ثمرة الجرأة . وكثمن للحب الاكثر رقـــة والاكثر حقيقة واحتراماً ، تلقين بي بعيـــداً عنك . ثم تحدثينني اخيراً عن كراهيتك . وأي انسان آخر لا يشكو من مثل هذه المـــعاملة ؟ وانا وحدي أرضخ للأمر ، واتحمـــل كل شيء دون ان أنبس بكلمة . انت تضربين وانا اعبد . وان السلطـــان غير المحدود الذي لك علي يجعلك سيدة مطلقة التصرف بعواطفي، واذا كان حبي وحده يقاوم ، واذا كنت لا تستطيعـين تحطيمه ، فذلك لأنه من صنع يديك ، ولا دخل لي به .

انني لا اطلب ابـــداً تراجعاً لا افخر به . ولا انتظر حتى هـذه الشفقة التي جعلني الاهتمام الذي ابديته نحوي في بعض الاحيان آمل بها . ولكنني اعتقد ان باستطاعتي ان اطلب عدالتك .

لقد اخبرتني يا سيدتي ان البعض حـــاول ان يؤذي بي في ذهنك ، وانك لو كنت اتبعت نصائح اصدقائك لما كنت تركتني اقترب منك. وهذه هي عباراتك! فمن هم هؤلاء الاصدقاء ؟ لا ريب بأن هؤلاء النـــاس الصارمين ذوي العفـة المتصلبة، يوافقون على ان يكونوا معروفين، ولا ريب بأنهم لا يودون ان يستروا انفسهم بغموض يجعل الناس لا يفرقون بينهم وبـين الواشين الاشرار . انني لن اجهل اسماءهم ولا مآخـــذهم . فكـّري يا سيدتي بأنه يحق لي ان اعرف كل ذلك . لأنك تحكمين علي استناداً الى حكمهم .

المعروف انه لا يجري الحكم على متهم قبل ان تقال له ما هي جريمته ودون ان يسمى له متهموه . وانني لا اطلب اي عفو آخر ، بل اتعهد سلفـــاً ان ابرر نفسي ، وان اجبرهم على تبديل رأيهم .

واذا كنت قد احتقرت صيحات الاستنكار من جمهور لا احترمه كثيراً ، فان الامر ليس كذلك بالنسبة لاحترامك، وحين اكرس حياتي لكي اكون جديراً به، فلن اترك نفسي أشان بلا عقاب . إن هذا الاحترام أصبح لي ثميناً بحيث اجد نفسي

twitter @baghdad_library

مديناً له بهذا الطلب الذي تخشين ان تلبيه لي،وهو ما يعطيني الحق كما تقولين لأن انال امتنانك ، آه ، انني لا اطالب بهذا الامتنان ، بل أعتقـــد انني انا سأكون المدين لك بالأمتنان اذا أتحت لي فرصة ان اكون لطيفاً بنظرك ،إبدأي اذن بأن تعيدي اليّ الانصاف ولا تتركيني اجهل ماذا ترغبين مـني . وانا لو كنت احزر ذلك لكنت جنبتك مشقة قوله لي. اضيفي الى متعة رؤيتك السعادة بأن أخدمك ، وسأهنىء نفسي على تسامحك .

من الذي يستطيع ان يمنعك ؟ آمل ألا يكون الخوف من الرفض ؟ وأشعر بأنني لا استطيع ان اسامحك على ذلك. ليس لانني لا اريد ان اعيد اليك رسالتك. فأنا ارغب اكثر منك في ألا تصبح لي ضرورية : ولكن بما انني اعتدت ان ارى فيك روحاً ناعمة لطيفة ، فلا استطيع إلا عن طريق هذه الرسالة ان اراك كما تريدين ان تكوني بالنسبة لي . وعندما أتمنى أن أجعلك حساسة ، فإنها تذكرني – بدلاً من ان توافقي على ذلك – بانك تهربين مئة فرسخ بعيدة عني . وعندما يزداد كل شيء ويبرر حبي ،فهذه الرسالة ايضاً تكرر لي ان حبي يهينك . وعندما اراك ويصبح لي هذا الحب في اعلى عليّين ، أجد انني بحاجـة لأن اقرأك لـكي اشعر بأن ذلك ليس سوى وهم بشع . انت تفهمين الآن ان اقصى سعادتي هي في ان اعيد اليك هذه الرسالة : وان طلبك اياها ايضاً ، سيكون معناه السماح لي بألا اصدق ما فيها : وانت لا ترتابين كما آمل ، في تعجلي لإعادتها اليك .

٣٦

من الفيكونت دي فالمون إلى الرئيسة تورفيل

في ٢٣ آب ??١٧

ان صرامتك تزداد يوماً عن يوم ، ياسيدتي ، واذا كنت اجرؤ على قول ذلك ، فلأنك تبدين انك تخشين الظلم كما تخشين التسامح. اذ بعد ان عمدتِ الى ادانتي دون

ان تسمعي دفاعي. فلا بد من انك شعرت بالفعل أنه سيكون من السهل عليك عدم الاطلاع على حججي بدلاً من الرد عليها ، انت ترفضين رسائلي بعناد ، وتعيدينها اليّ باحتقار ، وتجبرينني اخيراً على ان ألجأ الى الحيلة. بينما هـــدفي هو اقناعك بحسن نيتي . وان الضرورة التي وضعتني فيها لكي ادافع عن نفسي تكفي ولا ريب لمعذرة الوسائل . ونظراً لاقتناعي بصدق عواطفي – حسبي لتبريرها في نظرك ان اجعلك تعرفينها – اعتقدت بانني اسمح لنفسي بسلوك هذا المنعطف الخفيف. واجسر على الاعتقاد ايضاً بانك ستغفرين لي ، وستكونين غـــير مفاجأة كثيراً حـين تعلمين بان الحب هو ابرع في استنباطه من اللامبالاة في استبعاده .

إسمحي اذن يا سيدتي لقلبي بأن ينفتح بكامله امامك . فهو يخصك ومن العدل ان تعرفيه .

لقد كنت أبعد ما أكون عن التفكير لدى وصولي لأول مرة الى منزل السيدة دي روزموند ، بتنبؤ المصير الذي ينتظرني وكنت اجهل انك موجودة هنا . وأضيف بالصراحة التي اتميز بها انني حين علمت بذلك أصبح امني مضطرباً: ليس لانني ابديت نحو جمالك ما رفضته من انصاف ، بل لانني وقـد اعتدت على ان أشعر فقط بالشهوات وان انساق فقط وراء تلك الرغبات التي يغذيها الامل ، لم اكن اعرف عذابات الحب .

وقد كنتِ شاهدة على إلحاح السيدة دي روزموند في ان تجعلني أبقى هنا بعض الوقت ، وقد أمضيت نهاراً معك ، ومع ذلك لم أشعر إلا بالسرور الطبيعي المألوف لكوني برهنت عن تقديري نحو قريبة محترمة وان نمط الحيـاة التي نعيشه هنا يختلف كثيراً عما اعتدت عليه. ولم يكلفني الأمر اي عناء في ان اتعود عليه ، دون أن اسبر غور هذا التبدل الذي اخذ يعتمل في نفسي . وقد عزوت ذلك فقط الى هذه السهولة في الطباع التي اعتقد انني حدثتك عنها .

ولسوء الحظ (ولماذا يجب ان يكو سوءاً) حين تعرفت عليك جيداً عرفت فوراً ان هذا الوجه الساحر الذي جذبني وحده ، كان اقـــل مزاياك ، اذ ان روحك السماوية ادهشت وسحرت روحي . وهكذا أخذتُ أُعجب بالجمـال ،

twitter @baghdad_library

واعبد العفة. واخذت دون أن اهدف الى امتلاكك ابذل اهتمامي لكي أليق بك. وانني بطلبي نيـــل تسامحك عن الماضي ، أطمع في نيل رضاك عن المستقبـل. وكنت أبحث عنه في كلامك وأنقب عنـه في نظراتك : في هذه النظرات التي ينطلق منها سحر لعل اخطر مافيه انه انتشر دون هدف ، وتلقيته دون حذر.

وعندئذ عرفت الحب ، ولكن كم كنت بعيـــداً عن الشكوى ! وقـــد قررت أن أكفنه بصمت أبدي ، فانسقت دون وجـــل ودون تحفظ في هذا الشعور اللذيذ. وكان كل يوم يمضي يزيد من سلطانه عليّ . وتحولت المتعـــة في رؤيتك الى حاجة ملحة ، فاذا غبتِ لحظة ما ينعصر قلبي أسى . ولدى الضجة التي تحدثها عودتك ترينـــه يخفق فرحاً . ولم أكن أعيش إلا من أجلـك وعن طريقك . ومع ذلك فأنت نفسك أشهدك على ما اقول : هـــل افلتت مني اية كلمة في حبور الألعاب العابثة أو اثناء محادثة جدية يمكن ان تفضح سر قلبي؟

وأخيراً جاء ذلك اليوم الذي بدأ فيه سوء طالعي . ولعله من تلاعب الأقدار أن يغدو العمل الخيري الذي قمت به بمثابة انذار . اجل يا سيدتي ، ففي وسط البؤساء الذين أغثتهم ، وهو عمل جعلك تنساقين وراء هذه الحساسية الثمينة التي تضفي جمالاً على الجمال نفسه ، وتضيف قيمة على الفضيلة. أجل ففي وسط هؤلاء عمدتِ إلى اكمال تضييع قلب كان الحب المفعم قد اسكره من قبل . ربما أنت تذكرين أي اهـــتمام استولى عليّ لدى عودتي! ويا للأسف كنت أحاول مكافحة ميل شعرت انه سيصبح اقوى مني .

وكان بعد أن استنزفتُ قواي في هذه المعركة غير المتعادلة، أتاحت لي مصادفة لم اتمكن من توقعها أن أكون وحيداً معك. وهنا وقعت صريعاً ، واعترف بذلك، اذ أن قلبي الطافح لم يستطع أن يمسك نفسه عن إلقـاء ذلك الكلام ، وذرف تلك الدموع . ولكن هل في ذلك جريمة ؟ واذا كان الأمر كذلك أفلم أعاقب بالعذاب المرير الذي دُفعتُ اليه ؟

أما وقد افترسني حب دون أمل فانني أناشدك الرأفة ، ولكنني لا ألقى سوى كراهيتك . ان عينيّ تبحثان عنـك رغماً عني ولا هدف يسعدهما إلا رؤيتك ،

وارتجف اذا قابلت نظراتك. ومن جراء هذه الجائرة الظالمة التي وضعتني فيها أصبحت أمضي الأيام في اخفاء آلامي ، والليالي في الاستسلام اليها . بينما انت هادئة مطمئنة ، لا تعرفين من هذه الآلام إلا انك تسببينها لي وتطربين لها . ومع ذلك فانت التي تتذمرين وانا الذي أعتذر .

هذه هي ياسيدتي ، القصة الصحيحة لما دعوته اخطائي وذنوبي ، والتي كان من الانصاف لو دعيتها آلامي وتعذيبي : حب طاهر مخلص ، واحترام دائم لم يخاتل ولم يخدع ، وخضوع كامل : تلك هي المشاعر التي اوحيتها لي ؛ ولا اخشى أن اشكر العناية الآلهية على ذلك . آه انت يا من تعتبرين خير مخلوق على الارض أحتذي حذو العناية الالهية في تسامحها وغفرانها، وفكري بآلامي القاسية ، فكري بأن كلمة واحدة منك تقرر مصيري الى الابد .

٣٧

من الرئيسة تورفيل الى السيدة دي فولانج

في ٢٤ آب ؟؟ ١٧

انني أمتثل يا سيدتي للنصائح التي شاءت صداقتك ان تسديها إليّ . أما وقد اعتدت بأن اعتمد دائماً على آرائك، فلذا اصبحت مؤمنة بأنها جميعها قائمة على اساس التعقل: أنا اعترف بأن دي فالمون يجب ان يكون خطيراً جداً اذا كان يستطيع في آن واحد ان يبدو كما يظهر عليه الآن هنا ويظل كما تصفينه انت. ومهما يكن من أمر ، وبما انك تطلبين مني ذلك ، فسأبعده عني ، أو على الأقل سأبذل كل ما في وسعي : لأن الامور التي يجب ان تكون في الاساس أشد سهولة ، تصبح غالباً مرتبكة ومحيرة من حيث الشكل .

ويبدو لي دوماً ان من غير الممكن التقدم بهذا الطلب الى عمته. لا بل ويصبح ايضاً مكدراً لها وله، كما انني لن أقرر ابداً ـ دون تكدّر ـ الابتعاد بنفسي من هنا؛ إذ فضلاً عن الاسباب التي اوضحتها لك وهي متعلقة بالسيد دي تورفيل ، فان

twitter @baghdad_library

سفري لن يجدي حتى ولو اغاظ السيد فالمون كما هو ممكن ، لأنه ليس اسهل عليه من ان يتبعني الى باريس ! ثم ألا تبدو عودته – التي سأكون أو على الأقل سأبدو انني هدفها – اكثر غرابة من مقابلة في الريف عند شخص معروف بأنها عمته وصديقتي ؟

فلم تبق لي اذن من حيلة اخرى سوى أن احصل منه على رغبة في الابتعاد ، واشعر ان هذا الاقتراح صعب التنفيذ . ومع ذلك نظراً لأنه تواق لكي يثبت لي بأنه شهم اكثر مما اظن فانني لا أيأس من النجاح ، ولن اكون حتى متكدرة من اغرائه ، ومن إيجاد مناسبة احمله فيها على ذلك لكي يحكم على أن النساء الشريفات حقيقة كما يقول ، ليس عليهن ولن يكون عليهن أن يتذمرن من أساليبه . اما اذا ذهب كما ارغب ، فسيكون ذلك من قبيل الاحترام لي ، لانني لا أشك بأنه ينوي ان يقضي هنا قسماً كبيراً من الخريف . واذا رفض طلبي وأصرّ على البقاء ، فسيحين الوقت لكي اذهب بدوري وأنا أعدك بذلك .

هذا يا سيدتي كل ما تتطلبه صداقتك مني كما اعتقد ، وهأنذا اسارع إلى ارضائها وإلى ان اثبت لك – رغم الحماسة التي استطعت ان اضعها في الدفاع عن السيد دي فالمون – بأنني لست اقل استعداداً من قبل لأن اصغي الى نصائح اصدقائي فحسب ، بل لأن أتقيد بها ايضاً . لي الشرف بأن اكون . الخ ...

٣٨

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون

في ٢٧ آب ؟؟ ١٧

تلقيت الآن رزمتك الضخمة يا عزيزي الفيكونت ، ولو صح تاريخها لكان يجب أن اتلقاها قبل أربع وعشرين ساعة . ومهما يكن فانني لو انصرفت الآن إلى قراءتها فلن يكون عندي وقت لكي اجيبك عليها . ولذلك افضل ان ابلغك فقط تسلمي اياها ، وسنتحدث عن موضوع آخر . ليس لأنه لا يوجد عندي

ما اخبرك اياه في ما يتعلق بي، بل لأن الخريف لم يترك في باريس تقريباً اي رجل له وجه انساني. وهكذا فإنني اعيش منذ شهر في رصانة خطيرة. وأن اي رجل آخر غير فارسي كان تعب من أدلة ثباتي ولذلك أخذت أتسلى الآن مع الصغيرة فولانج، ونظراً لأن ثمة ما يشغل بالي فسأحدثك عنه الآن.

هل تدري انك خسرت اكثر مما تعتقد لعدم اهتمامك بهذه البنت؟ انها حقيقة رائعة لذيذة. وهي لا تملك طباعاً ولا مبادىء خاصة. وبإمكانك ان تتصور كم أن مجتمعها سهل وناعم للغاية، ولا اظن انها ستلمع ابداً في العاطفة. ولكن كل شيء يبشر بالمشاعر الحادة. فهي دون تفكير ودون لباقة، ولكنها ذات زيف طبيعي، اذا صح هذا القول، حتى انها تدهشني انا نفسي، لأنها ستنجح بصورة ممتازة، نظراً لأن وجهها يعبر في آن واحد عن السذاجة والاستنباط. وهي بطبيعة الحال متهالكة جداً، وانني اتسلى بذلك غالباً: وأن تفكيرها يرتفع بسهولة مدهشة. وهي بالاضافة الى ذلك ممتعة، بحيث انها لا تعرف ان ترغب في شيء اكثر مما تعرفه. ويعتريها احياناً نفاد صبر غريب. انها تضحك وتبتئس وتبكي ثم ترجوني ان اعلمها بنية حسنة جذابة كل شيء. وفي الحقيقة انني غيورة تقريباً من ذلك الذي تحتفظ له بهذه المتعة.

لا اذكر اذا كنت قد اخبرتك بأنه أصبح لي الشرف منذ أربعة او خمسة ايام بأن اكون موضع اسرارها. وانت تدرك انني اظهرت في البداية كثيراً من الصرامة. ولكنني ما ان لاحظت انها بدت كمن تريد اقناعي بوجهات نظرها الباطلة حتى أظهرت انني اعتبر هذه الآراء صحيحة وحقة. وهي مقتنعة كل الاقتناع بأن الفضل في هذا النجاح يعود الى فصاحتها: لقد كان هذا التدبير الاحتياطي ضرورياً لئلا اورط نفسي. وكان ان سمحت لها بأن تكتب له وتقول «احبك». وفي اليوم نفسه رتبت ـ دون ان ترتاب في الامر ـ اجتماعاً سرياً بينها وبين عشيقها دانسني. ولكن تصور انه كان على مبلغ كبير من الحماقة الى درجة انه لم ينل منها حتى قبلة واحدة. مع ان هذا الشاب يبدو من اجمل الفتيان، يا إلهي كم ان

twitter @baghdad_library

هؤلاء الناس اغبياء ! وكم ان هذا الشاب غبي بحيث اخذ يثير حيرتي وارتباكي، لأنني أخيراً بالنسبة اليه لا اريد ان اقوده .

وانت في هـــذا الوقت بالذات ستكون مفيداً لي جداً . فانت على صلة وثيقة بدانسني لكي تنـــال ثقته . واذا منحك اياها مرة ، فاننـا سنسير سيراً حسناً . سارع اذن مع رئيستك لأنني لا اريد ان يفلت جيركور ، وقـد تحدثت أمس عنه مع الصغيرة، ووصفته لهاوصفاًجيداً بحيث انها لو كانت امرأته منذ عشر سنوات ، لما اصبحت تكرهه اشد مما تكرهه الآن . وقد وعظتهـا بصورة خاصة بصدد الامانة الزوجية ، وليس هناك ما يساوي احتراسي حول هذا الموضوع وبذلك اكون من جهة قد اعدت الى نفسها الثقة بسمعتي في ميدان العفة والفضيلة ، ومن جهة اخرى زدت في نفسها البغضاء التي اريد ان تمنحهـا لزوجها . واخيراً آمل ـ بجعلها تعتقد أنها لا تستطيع ان تستسلم الى الحب إلا في هذه الفترة القصيرة المتبقية لها قبل الزواج – ان تقرر بصورة سريعة وان لا تضيع شيئـــاً من الوقت .

الوداع ايها الفيكونت .

٣٩

من سيسيل فولانج الى صوفي كارني

باريس في ٢٧ آب ؟؟ ١٧

انني كئيبة وقلقة يا عزيزتي صوفي ، وقد بكيت تقريباً طوال الليل. لا لأنني في الوقت الحاضر لست سعيدة . ولكنني اتنبأ بأن ذلك لن يدوم طويلاً .

لقد كنت أمس في دار الأوبرا مع السيدة دي ميرتاي، وتحدثنا عن زواجي، فلم أعلم منها إلا كل ما هو سيىء . انه الكونت دي جـير كور الذي ينبغي ان اتزوجه، وسيتم زواجي منه في شهر تشرين الاول . انه غني ، وذو مزايا عديدة وكولونيل في الجيش و ... كل ذلك حسن جداً . غير انه كبـير السن بالنسبة

إليّ، تصوري ان عمره لا يقل عن السادسة والثلاثين ! ثم ان السيدة دي ميرتاي تقول عنه أنه متجهم صارم ، وهي تخشى ألا اكون سعيدة معه . ولاحظت جيداً انها متأكدة من ذلك، ولا تريد ان تخبرني لكي لا تحزنني . وهي لم تحدثني طوال السهرة تقريباً إلا عن واجبات الزوجات نحو ازواجهن . وهي تعترف بأن عليّ ان أحبه . وابلغتني انني متى تزوجت يجب ألا احب ابداً الفارس دانسني ، كما لو ان الأمر ممكن ! آه اؤكد لك جيداً انني سأحبه دائماً . وأنا بالفعل افضل ألا أتزوج . فليتدبر السيد دي جيركور أمره ، فلست انا التي بحثت عنه . وهو الآن موجود في كورسيكا بعيد جداً عن هنا . اتمنى ان يبقى هناك عشر سنوات اخرى . ولولا انني اخشى ان اعود الى الدير لقلت لوالدتي انني لا أريد هذا الزوج . ولكن الأمر سيكون اسوأ . وانني حائرة جداً . واحس انني لم أحب السيد دانسني كما احبه الآن . وحين افكر انه لم يبق امامي سوى شهر واحد لأظل كما انا في الوقت الحاضر ، فان الدموع تسيل من عيني فوراً . وليس لي من عزاء الا لدى السيدة دي ميرتاي ، فهي ذات قلب طيب جداً ! انها تشاطرني جميع اشجاني . وهي بالغة اللطف بحيث انني حين اكون معها لا افكر مطلقاً بأحزاني . وفضلاً عن ذلكفهي مفيدة لي جداً . لأن القليل الذي أعرفه لكي أتصرف في المجتمع ، عرفته بفضلها. وهي طيبة القلب الى درجة انني اروي لها كل ما افكر به دون ان ارتبك مطلقاً ، وحين تجد ان ذلك ليس حسناً فإنها تؤنبني في بعض الأحيان ، ولكن بكل رقة ، ثم اقبّلها من كل قلبي الى ان ينتهي غضبها . انني على الاقل استطيع ان احب هذه المرأة بقدر ما أشاء ، دون ان يكون في الأمر اي بأس ، وهذا ما يسرني كثيراً . ومع ذلك فقد اتفقنا على ألا اظهر امام الناس انني احبها الى هذا الحد ، لا سيما امام والدتي حتى لا ترتاب في شيء بصدد السيد دانسني . اؤكد لك انني لو استطعت ان أعيش دوماً كما اعيش الآن لكنت أسعد مخلوقة . وليس هناك الا هذا الثقيل دي جيركور !... ولكنني لا اريد أن احدثك عنه مطولاً ، لأنني سأصبح تعيسة من جديد . وبدلاً من ذلك سأكتب إلى السيد دانسني ، ولن

twitter @baghdad_library

احدثه إلا عن حبي لا عن همومي ، لأنني لا أريد ان أحزنه .

الوداع يا صديقتي الطيبة ، انت ترين جيداً ان من الخطأ أن تعاتبيني ، وانني مهما كنت « مشغولة » كما تقولـــين . يظل لديّ الوقت الكافي لكي احبك واكتب اليك .

٤٠

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

في ٢٦ آب ??١٨

لقد وَجَدَتْ ظالمتي قاسية القلب انه قليل عليّ ألاّ تردّ على رسائلي ، وان ترفض تسلمها ،ولذلك تريد الآن حتى حرماني من رؤيتها،وهي تطالبني بأن ابتعد عنها . ولكن ما سيدهشك اكثر أنني سأخضع نفسي لمثل هذه المشقة . لعلك ستستنكرين موقفي . ومـــع ذلك لم اعتقد انني سأفقد فرصة تركها تصدر إلي امراً : لأنني كنت مقتنعاً من ناحية بأن من يصدر الأوامر يلزم نفسه بها،ومن ناحية ثانية فإن السلطة الوهمية التي نبدو باننا نتركها للنساء هي احـدى الكمائن التي يتفادينها بكل صعوبة . وفضلاً عن ذلك فان البراعة التي عرفت ان تقوم بهـا لكي تتجنب الاجتماع بي وحدها ، وضعتني في موقف خطير ،اعتقد بأن من واجبي الخروج منه مهما كلف الأمر : لأن كوني باستمرار معها دون ان اتمكن من اشغالها بحبي ، يحمل على الخوف من ان تعتاد على رؤيتي اخيراً دون ازعاج. وهذا وضع تعرفين جيداً كم من الصعب الرجوع عنه .

غير انني كما تتصورين لم ارضخ للأمر دون شرط ،بل وضعت شرطاً مستحيلاً، لكي أظلّ دائماً متمكناً من أن افي بوعدي او احنث به لكي اخوض مناقشة شفهية أو كتابية في الوقت الذي تكون حسناتي فيه مسرورة مني ، لأنهـا بحاجة لأن اكون مسروراً : مع العلم انني سأكون عديم الفطنة ، اذا لم اجد الوسيلة للحصول على بعض التعويض مقابل نزولي عند طلبها مهما كان لا يطاق .

بعد أن عرضت لك وجهات نظري في هذه المقدمة الطويلة أبدأ في سرد الاحداث التي جرت خلال اليومين الأخيرين ، وأبعث اليك طيه برسالة حسناني وجوابي عليها ، وهكذا تجدين ان هناك مؤرخين قليلين يدعمون الاحداث بالوثائق مثلي .

انت تذكرين ما احدثته اول امس رسالتي من ديجون في نفسها. اما باقي النهار فقد كان عاصفاً جداً، وقد حضرت الورعة الحسناء فقط في وقت الغداء. واعلنت انها مصابة بصداع شديد وهي حجة تريد أن تغطي بها اقسى ما يمكن ان يطرأ على امرأة من افراط في الغضب . وقد كان وجهها بالفعل متغيراً . وقد تبدلت مسحة النعومة التي تعرفينها فيها الى هيئة متمردة اضفت عليها جمالاً جديداً .

وتوقعت ان يكون ما بعد الغداء كئيباً . ولكي انقذ نفسي من الضجر اعلنت ان عليّ ان اكتب بعض الرسائل ، وانسحبت الى غرفتي ، ثم عدت الى الصالون في الساعة السابعة . وهنا اقترحت علينا السيدة دي روزموند أن نقوم بنزهة فوافقنا عليها. ولكن المريضة الخبيثة تحججت بأن آلامها قد تضاعفت وتركتني اتحمل وحدي عناء مرافقة عمتي العجوز . ولدى عودتنا وجدناها طريحة الفراش .

وفي اليوم التالي عند الفطور عادت الى حالتها الطبيعية ، وقد استعادت رونقها ، مما حملني على الظن بأنها سامحتني . ولم نكد نفرغ من تناول الطعام حتى نهضت الحسناء الناعمة بطريقة وقحة ، وتوجهت نحو الغابة ، فلحقت بها كما تتوقعين ، وسألتها : من أين جاءتك هذه الرغبة في التنزه ؟ فقالت :

– لقد كتبت مطولاً هذا الصباح واشعر بأن رأسي متعب . فقلت :

– هل تجدين انني لست سعيداً بشكل كاف لكي تلوميني على هذا التعب؟ فقالت :

– لقد كتبت اليك ، ولكنني اتردد في تسليمك رسالتي ، وهي تتضمن طلباً ، وانت لم تعوّدني على ان آمل في النجاح . فأجبت : آه ... اقسم لك بأنني أوافق عليه اذا كان ممكناً . فقاطعتني : ليس هناك اسهل منه . ثم سلمتني اياها ، وحين اخذتها تناولت يدها ، ولكنها سحبتها مني دون غضب بل بكثير من الارتباك.

وقالت : ان الحر أشد مما كنت اظنه ، يجب ان اعود . ثم سلكت طريق

twitter @baghdad_library

القصر ، وقمتُ بعد عدة محاولات لـكي اقنعها بالاستمرار في نزهتها دون جدوى. ولكنني تذكرت انه يمكن ان يرانا احد على هذه الحال ، فاقلعت عن المجـــادلة واكتفيت باظهار بلاغتي . وعادت هي دون ان تنبس ببنت شفة ، ولاحظت جيداً ان هذه النزهة لم تكن تهدف الا الى تسليمي رسالتها، وكان انصعدت الى غرفتها ، بينما انسحبت انا الى غرفتي لـكي اقرأ رقيمها الذي يستحسن ان تقرأيه وتقرأي كذلك ردي عليه .

٤١

من الرئيسة دي تورفيل الى الفيكونت دي فالمون

في ٢٥ آب ؟؟ ١٧

يلوح يا سيدي انك بتصرفاتك معي ، تعمد كل يوم الى زيادة اسبـــاب الشكوى التي تعتمر بها نفسي ضدك. ان اصرارك على الرغبة في بشّي، دون توقف، عاطفة اعلمتك ما فيه الكفاية من قبـــل بأنني عازفة عن الاستماع اليها، وان استغلالك الذي لم تخش ان تقوم به لحسن نيتي او حيائي لـكي تضع رسائلك بين يديَّ ، وبصورة خاصة تلك الوسيلة الخالية من اللياقة التي استخدمتها لايصال رسالتك الاخيرة الي دون ان تخشى تأثير المفاجأة التي قد تحدثها في فتوقعني في ورطة، كل ذلك ينبغي ان يشكل عندي مآخذ حادة عليك لا شك انت تستحقها .

ومع ذلك فبدلاً من العودة إلى التحدث عن هذه الاخطاء . ابادر إلى تقديم طلب سهل وعادل اليك ، فاذا نلته منك ، اوافق على ضرب صفح عن الماضي .

لقد قلت لي ، يا سيدي ، انني يجب ألا اخشى الرفض من جانبك، وعلى الرغم من ان هذه الجملة قد يتبعها الرفض الوحيد الذي يمكن أن تقوم به نحوي ـ وهذا من تناقضك الذي تتميز به ـ فإنني أعتقد انك لن تتراجـــع عن كلامك الذي اعلنته لي منذ مدة وجيزة .

انني أود اذن ان تتلطف فتبتعد عني ، وتترك هـذا القصر ، حيث لا يمكن

لمكوثك فيه مدة أطول إلا ان يعرضني اكثر فأكثر إلى حكم جمهور واقف دوماً بالمرصاد لكي يسيء الظن بالآخرين ، وانت لم تعوّده الا على ان يحدق بعينيه في النساء اللواتي يستقبلك في مجتمعاتهن .

اما وقد حُذرتُ منذ مدة طويلة من هذا الخطر ، بواسطة اصدقائي ، فقد اهملته ، لا بل وحاربت رأيهم ، لشدة ما جعلني مسلكك تجاهي اعتقد انك لم تشأ أن تخلط بيني وبين هذا الحشد من النساء اللواتي جعلتهن يتذمرن منك . أما وقد اخذتَ اليوم تعاملني مثلهن، ولم أعد استطيع ان اتجاهل ذلك، فيجب عليّ تجاه الرأي العام، وتجاه اصدقائي، وتجاه نفسي ان اتخذ هذا الموقف الضروري. واستطيع ان اضيف هنا انك لن تربح شيئاً لو رفضت طلبي ، بعد ان قررت الذهاب انا بنفسي اذا أصررتَ على البقاء . ولكنني لا احاول ابداً التقليل من الامتنان الذي سأكون مدينة لك به تجاه هذا المعروف . واود جيداً ان تعرف انني باضطراري للسفر من هنا ، ستعاكس ترتيباتي . فاثبت لي اذن يا سيدي ، بأن النساء الشريفات كما قلت لي ذلك مراراً ، ليس من حقهن أن يتذمرن منك ابداً . برهن لي على الأقل ، انه حين تكون على خطأ معهن ، تستطيع ان تتدارك هذا الخطأ .

واذا اعتقدت انني بحاجة إلى ما يبرر طلبي هذا تجاهك، فحسبي ان اقول لك انك قضيت حياتك لتجعله ضرورياً، ومع ذلك لم تكن تبعة هذا الطلب متوقفة عليّ في التقدم به اليك. ولكن فلننس احداثاً لا اريد ان اتذكرها ، وهي ستضطرني الى الحكم عليك بشدة ، في وقت اعرض عليك فرصة استحقاق كل امتناني .

الوداع يا سيدي ، ان مسلكك سيعلّمني بأية مشاعر يجب ان اكون طول الحياة الخ...

twitter @baghdad_library

٤٢

من الفيكونت دي فالمون الى الرئيسة دي تورفيل

٢٥ آب ؟؟ ١٧

مهما كانت قاسية ، يا سيدتي ، الشروط التي تفرضينهـا عليّ ، فانني لا أرفض التقيد بها . واشعر انه من المستحيل عليّ أن اعاكس اية رغبة من رغباتك . وما دمنا متفقين حول هذه النقطة ، اتجرأ بدوري على أن أطلب اليك السماح لي بأن أتقدم ببعض الطلبات التي هي أسهل في المنح من طلباتك ، والتي لا اريد بواسطتها مع ذلك سوى الحصول على خضوعي الكامل لارادتك .

أحدهما – وهو ما آمل أن اطالب به عدالتك وانصافك – ان تتكرمي فتطلعيني اخيراً على اسماء اولئك الذين يتهمونني ظلماً عندك ، فهم كما يبدون لي قد اوقعوا بي أشد الأذى بحيث اجـد من حقي ان أعرفهم . والطلب الآخر الذي انتظره من تسامحك ان تتفضلي فتسمحي لي بأن اجـدد بثك حبي الذي سيستحق اكثر من أي وقت مضى شفقتك .

فكري يا سيدتي انني سأسارع إلى اطاعتك في الوقت الذي لا استطيع ان اقوم بذلك إلا على حساب سعادتي ، لا بل اقول اكثر من ذلك ، رغم الاقتناع الذي اشعر به ، فأنت لم ترغبي في ذهابي إلا لكي تنقذي نفسك من رؤية مؤلمة دائماً لموضوع ظلمك .

اعترفي يا سيدتي بأن خشيتك لمجتمع اعتاد على ان يحترمك كثيراً بحيث لا يجرؤ على ان يأخذ عنك حكماً سيئاً ، هي اقـل من خشيتك لما يسببه لك من تكدر وجود رجل من السهل معاقبته اكثر من لومه . انتِ تبعدينني عنك كما لو أن احدهم يشيح ببصره عن رؤية بائس لا يريد اغاثته .

ولكن بينما سيضاعف الغياب لواعجي ، الى أي انسان غيرك استطيع ان اتوجه بتوسلاتي وشكاواي ؟ ومن اي انسان غـيرك استطيع ان انتظر مؤاساة ستكون لي ضرورية ؟

هل ترفضينها لي بينما انت وحدك سبب عذابي وآلامي ؟

بدون شك سوف لا يدهشك ابداً ، انني قبل ان اذهب ، أجد من حق فؤادي عليّ ان ابرر امامك المشاعر التي أوحيتِ بها اليَّ حتى انني لا أجد الشجاعة على الابتعاد قبل ان اتلقى الأمر من فمك .

ان هذا السبب المزدوج يجعلني اطلب منك منحي لحظة واحدة للاجتماع بك . وانه لمن غير المفيد أن نعوض عن ذلك بالرسائل : اذ يستطيع احدنا ان يكتب المجلدات ، ولا يحسن شرح ما يمكن ان تكفي ربع ساعة من المحادثة لتوضيحه جيداً . وسوف تجدين بسهولة الوقت لكي تمنحيه لي . لأنني مهما كنت متعجلاً في ان امتثل لطاعتك ، فأنت تعلمين ان السيدة دي روزموند عالمة بعزمي على تمضية جزء من الخريف عندها ، وينبغي على الأقل ان انتظر وصول رسالة ما لكي اتحجج بوجود قضية تستدعي سفري عاجلاً .

الوداع يا سيدتي ، ثقي انه لم تكلفني ابداً كلمة مثل هذا الجهد ، لأنها تذكرني بفكرة انفصالنا . آه ، لو كنت تتصورين كم جعلتني أتعذب . تفضلي على الأقل بقبول تأكيد حبيّ الأرقّ والأشد احتراماً ، بصدر رحب .

تابع الرسالة ٤٠

من الفيكونت دي فالمون إلى المركيزة دي ميرتاي

لنفكر الآن بتعقل ، يا صديقتي الحسناء ، انت ترين مثلي أن المتشككة الشريفة السيدة دي تورفيل لا تستطيع أن توافق على طلبي الأول ، وتخون بذلك ثقة اصدقائها ، وتعلن لي اسماء الذين يتهمونني . وهكذا فإنني بفرضي هذا الشرط ، لا أكون قد تعهدت نحوها بشيء . ولكنك تلاحظين ايضاً ان هذا الرفض من جانبها سيفتح مجالاً للحصول على الطلبات الباقية . وهكذا سأفوز ، بابتعادي عنها ، بخوض مراسلة معها أصبحت باعترافها منتظمة ، لأنني لا أعتمد كثيراً على الموعد الذي اطلبه منها والذي لا يهدف إلا إلى تعويدها سلفاً على

twitter @baghdad_library

عدم رفض طلبات اخرى حين تصبح ضرورية لي .

والشيء الوحيد الذي بقي عليّ أن أفعله هنا قبل سفري هو أن أجد وسيلة أعرف بواسطتها من هم هؤلاء الأشخاص الذين يسعون للايقاع بي لديها . أفترض أن يكون زوجها الأحمق الذي يفعل ذلك . أنني لأبغيه : لأنه علاوة على ان الدفاع الزوجي يشحذ الرغبة فسأكون متأكداً انهـــا ما دامت قد وافقت على الكتابة اليّ ،فليس عليّ ان اخشى شيئاً من هذه الناحية، لأنها ستجد نفسها بحاجة الى خيانته .

ولكن اذا كانت لديها صديقة حميمة استطاعت ان تكون موضع اسرارها ، وان هذه الصديقة هي ضدي ، فسيكون من الضروري لي ان أخلفها معـــاً ، وأرجو ان أُفلح في ذلك ، ولكن يجب ان اعلم قبل كل شيء من هي .

لقد خُيّل اليّ أمس انني سأنجح في معرفة ذلك ، ولكن هذه المرأة لا تفعل شيئاً كالأخريات . وكنت في زيارتها مع السيدة دي روزموند حين تبلغنا أن الغداء اصبح جاهزاً . وكانت قد فرغت لتوّها من زينتها ، ولاحظت انها لشدة سرعتها وهي تبدي أعذارها قـــد نسيت مفتاح مكتبهـــا فوقه . وكنت أعرف عادتها في عدم نزع مفتاح غرفتها . وفكّرتُ بذلك اثناء الغداء .وحين رأيت خادمتها تخرج،سارعت حالاً الى غرفتها ، وكدت اجرح انفي، وتوجهت حالاً نحو مكتبها ، غير انني وجدت جميع الادراج مفتوحة ولا توجد فيهـا أية ورقة مكتوبة،ومع ذلك فليست هناك مناسبة لإحراق الاوراق في هذا الفصل. تُرى ماذا تفعل اذن بالرسائل التي تتلقاها ؟وهي تتلقى منها الكثـــير في اغلب الاحيان . لم اغفل شيئاً في تنقيبي عنها.وكان كل شيء مفتوحاً امامي.وقدبحثتُ في كل مكان ولكنني لم أفز الا باقناع نفسي ان هذا المستودع الثمين هو في جيوبها.

ولكن كيف يمكن الحصول على أوارقها من جيوبها ؟ منذ أمس وانا اشغل تفكيري دون جدوى بايجاد الوسائل التي تمكنني من ذلك . إنني آسف جـــداً لكوني لا أتحلى ببراعة النشالين . افلا ينبغي أن يدخل ذلك ضمن تربية كل من يخوض المؤامرات الغرامية؟ ألن يكون من المبهج سرقة رسالة أو صورة مزاحم أو نشل

ما من شأنه ان يفضح امرأة ورعة من جيوبها ؟ ولكن اهلنا لا يفكرون بمثل هذه الأمور ، وعليّ انا وحدي أن افكر بكل شيء ، وأجد انني قليل الدراية في هذا الموضوع دون ان اتمكن من معالجة ذلك .

ومهما يكن فقد عدتُ إلى المائـــدة ، وكان ان هدّأتْ حسنائي قليلاً من روعي ، ببادرة الاهـــتمام الذي ابدته نحو تضعضعي المقلق . فلم أتوانَ عن التأكيد لها بأنني اشعر منـذ بعض الوقت باضطرابات عنيفة تنهك صحتي . ولاقتناعها بأنها هي السبب أليس من واجبها ان تعمد إلى تهدئتها؟ ولكنها رغماً عن انها ورعة تقية فهي قليلة الاحسان ، وهي ترفض منحي اية صدقة غراميـة . وهذا الرفض وحده يكفي كما يبدو لي لكي اسمح لنفسي بسرقتها . الوداع لانني رغم الكتابة اليك لا اكفُّ عن التفكير بهذه الرسائل الملعونة .

٤٣

من الرئيسة دي تورفيل الى الفيكونت دي فالمون

في ٢٦ آب ؟؟ ١٧

لماذا تحاول يا سيدي ان تقلل من قيمة امتناني ؟ لماذا لا تريـــد الا أن اكون نصف مدينة لك ، فتساوم نوعاً ما على طريقة شريفة ؟ إلا يكفيك اذن أن أشعر بعبء الثمن ؟ انك لا تطلب مني شيئاً كثيراً فحسب ، بل تطلب مني اموراً مستحيلة . واذا كان اصدقائي بالفعل قد حدثوني عنك ، فذلـــك لأنهم فكروا بمصلحتي : وأن نيتهم سليمـــة حتى ولو كانوا مخطئين في رأيهم بك . ثم تريدني ان اعترف لك بأسمائهم وابوح بأسرارهم ! لقد أخطـــأتُ في التحدث اليك عنهم ، انك لتجعلني أشعر بفداحة خطأي الآن . وان ما يكون مجرد سذاجة ليس إلا ، يصبح بمثابة حماقة معك . وسيوقعني هذا الطلب في ورطة اذا وافقتك عليه . انني اناشدك إذن ، اناشد ضميرك وشرفك ، هل تظن انني قادرة على القيام بهذا العمل حتى تطلبـــه مني ؟ كلا ولا ريب . انني متأكدة بأنك لو فكرت جيداً لما عدت الى بحث موضوع هذا الطلب مرة اخرى ابداً.

twitter @baghdad_library

اما طلبك الآخر ، بأن تكتب إلي ، فان الموافقـــة عليه ليست أسهل من الأول ، واذا شئت ان تكون منصفاً ، فلست انا التي ستوقعهـــا في الشرك ، أو تجعل هـــذه الخدعة تنطلي عليها. انني لا أود الاساءة اليك البتة ، ولكن نظراً للسمعة التي اشتهرت بها ، باعترافك نفسه، فأية امرأة تستطيـع ان تعترف بأنها تجاذبك اطراف المراسلة ؟ وأية امرأة شريفـة يمكن أن تقرر القيام بعمل ستكون مضطرة إلى اخفائه عن عيون الناس ؟

ثم لو كنت متأكدة ان رسائلك لن تتضمن ما أتذمر منه ، أو استطيع أن أبرر بنظري تسامي اياها ، فلربما جعلتني الرغبة عندئذ ابرهن لـــك على ان الانصاف –وليست الكراهية – هو الذي يملي عليّ تصرفاتي ، ولكنت تجاوزت عن هـــذه الاعتبارات القوية ، وفعلت اكثر مما ينبغي بالسماح لك بالكتابة إليَّ في بعض الأحيان . هـذا اذا كنتَ تصرُّ بالفعل على ذلك كل الاصرار كما تقول ، حتى تقبل بالطلب الوحيد الذي رجوتـه منك والذي يمكن ان يجعلني أوافق . واذا كان لديك بعض العرفان بالجميـل لما أفعله من أجلك الآن ، لعجّلت بذهابك على الفور .

إسمح لي ان ألاحظ بهـذا الصدد انك تلقيت رسالة هذا الصباح ، ولم تنتهز الفرصة لكي تعلم السيدة دي روزموند بقرب سفرك كما وعدتني . وآمل الآن ان ليس هناك ما يحول بينك وبين التقيد بكلامك، وأحسب بصورة خاصة انك لن تنتظر لتنفيذه ذلك الموعد الذي تتطلبه مني والذي لا أريد مطلقاً ان اجاريك فيه. وبدلاً من الموعد الذي تدّعي انـه ضروري لك ، حسبك ما اكرره اليك الآن من رجاء بهذا الشأن ، الوداع يا سيدي .

٤٤

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

٢٨ شباط ؟؟ ١٧

شاطريني فرحي ، يا صديقتي الحسناء ، فانا محبوب، لقد أنتصرتُ على القلب

المتمرد . وهو ما زال إلى الآن يتصنع المواربة عبثاً . ذلك ان براعتي السعيدة قد فاجأت سرها . وبفضل اهتمامي النشيط اصبحت اعرف كل ما يهمني معرفته . ومنذ تلك الليلة ، ليلة الأمس السعيدة ، أجد نفسي في جوّي . وقد استعدت كل وجودي . وكشفت النقاب عن سر مزدوج ، من الحب والتعسف : وسأتمتع بالأول ، وسأنتقم من الآخر . وسأطير من متع الى متع . إن الفكرة الوحيدة التي اكوّنها تجعلني أحلّق بالخيال الى درجة انني أجد صعوبة في تذكر احتراسي . ولا بد لي أن اضع شيئاً من التنسيق في هذه القصة التي يجب ان اطلعك عليها . فلنحاول اذن .

ففي اليوم نفسه الذي كتبت اليك فيه رسالتي الاخيرة ، تلقيت رسالة من الورعة السماوية ، تجدينه طيه . وسترين أنها تسمح لي ببراعة أن أراسلها . ولكنها تعجل سفري بحيث بت اشعر انني لا استطيع ان أؤجل طويلاً هذا السفر دون ان يسبب لي ذلك شيئاً من الأذى .

وفي الاثناء كانت تعصف بي رغبة ملحة لأن اعرف من الذي يستطيع ان يكتب ضدي وكنت ما زلت غير متأكد من الطريقة التي سأنتهجها . وحاولت ان احظى بخادمتها الخاصة ، لكي احملها على ان تسلمني محتويات جيوب سيدتها . وهي تستطيع ان تستولي عليها بسهولة في المساء ، ومن السهل عليها ان تعيدها الى مكانها في الصباح دون ان تثير اية ريبة . فعرضت عليها عشر ليرات ذهبية مقابل هذه الخدمة البسيطة : ولكنني لم اجد امامي سوى أمرأة مفرطة في الحذر موسوسة أو خجولة ، ولم تنفع معها بلاغتي ولا رشوتي . وكنت ما أزال احاول اقناعها حين دعيت الى العشاء ، وكان لا بد من تركها وانا سعيد بانها شاءت ان تعدني بكتمان السر مما لم اكن اثق به مطلقاً .

واعتراني غمٌ شديد لم أصب بمثله ابداً . وشعرت بأنني واقع في ورطة ، وكنت الوم نفسي طوال السهرة على مسعى غير حذر .

وعدت الى غرفتي وانا مفعم بالقلق ، وتحدثت بالامر الى خادمي الامين الذي ينبغي ان تكون له عندها بعض الحظوة بوصفه عشيقها السعيد . وطلبت منه

twitter @baghdad_library

اما ان يحمل هذه البنت على ان تفعل ما طلبته منها ، واما على الأقل ان يتأكد من كتمانها للسر . ولكنه ، وهو الذي لا يرتاب عادةً بشيء ، بدا وكأنه يشك بنجاح هذه المفاوضة ، وابدى لي بهذا الصدد ملاحظة ادهشتني بعمقها . اذ قال لي:

« ان سيدي يعلم اكيداً اكثر مني ان مضاجعة فتاة تعني جعلها تفعل كل ما يعجبها ، ولكن من المستبعد ان نجعلها تفعل ما نريد نحن . وفضلاً عن ذلك فلست بقادر على السيطرة على هذه الفتاة لأن لها عشيقاً آخر في باريس كما اعتقد ، وانني لم استطع ان انالها إلا لتقززها من حياة الريف . وهكذا لولا حماسي من اجل خدمة سيدي لما كنت ضاجعتها سوى مرة واحدة (يا له من كنز هذا الفتى) . اما في ما يتعلق بالسر ، فماذا ينفع ان نجعلها تعد بكتمانه ما دامت لا تخشى شيئاً اذا خدعتنا ؟ ولو حدثناها مرة اخرى عنه ، فإننا بذلك نلفت انتباهها الى انه سر مهم ، مما يثير رغبتها في افشائه الى سيدتها . »

وكلما بدت لي هذه الملاحظات على صواب كلما زاد ارتباكي . ولحسن الحظ اخذ يثرثر ، وبما انني كنت بحاجة اليه فقد تركته يفعل . وقد اعلمني وهو يروي لي قصته انه — نظراً لأن الغرفة التي تقطنها هذه الفتاة ليست منفصلة عن غرفة سيدتها إلا بحاجز بسيط يجعل من السهل سماع أية حركة مريبة — كان يجتمع بها كل ليلة في غرفته . وهذا ما اوحى لي بخطتي التي وضعتها على الاثر وابلغته اياها ونفذها بنجاح .

فلقد انتظرت حتى الساعة الثانية صباحاً لكي اذهب كما اتفقنا الى غرفته ، فدخلت ومعي ضوء صغير . فوجدته مجتمعاً بها . وكانت حجتي انني دققت الجرس عدة مرات دون ان يسمعني احد . وقد مثل خادمي الذي يعتبر ممثلا حاذقاً ، مشهداً صغيراً من المفاجأة واليأس والاعتذار . فوضعت حداً لهذا التمثيل بأن كلفته بتسخين ماء قلت انني بحاجة اليه ، بينما كانت الخادمة الموسوسة قد وقعت في مأزق مخجل لم تدر كيف تبرر نفسها منه ، لا سيما وأن الخبيث كان قد امرها بأن تتزين بشكل مريب جداً لا عذر لها فيه . ونظراً لكوني شعرت بانه كلما كانت هذه الفتاة مهانة مذلولة كلما سهل عليّ ان اسيطر عليها ، فلم اسمح لها بأن

تبدل شيئاً من الوضع ولا الزينة. وبعد ان أمرت خادمي بأن ينتظرني في غرفتي جلست الى جانبها فوق سرير كان مشوشاً جداً ، ثم بدأت حديثي وانا محتفظ بهدوئي التام لانني كنت بحاجة الى أن احتفظ بسلطاني على الموقف ، وهذا ما كان له تأثير كبير على مسلك العاشقة . وكان ان تحدثنا مباشرة وبكل هدوء عن الموضوع الذي يهمني دون أن أتمادى في حريتي معها ، مع العلم ان طراوتها المنعشة وهذه المناسبة تعطيانها حقاً بالامل .

وكانت شروطي انني سأحتفظ بسرها ولا افضحها ، شرط أن تسلمني غداً في الساعة نفسها او ما حولها محتويات جيوب معلمتها ثم اضفت قائلا: «وبما انني كنت قد عرضت عليك عشر ليرات امس فانني اعدك بها اليوم ولا اريد ان استغل وضعك هذا » .

وكان ان وافقت على ذلك، كما تتوقعين، فانسحبتُ عندئذ الى غرفتي، بعد ان تركتها الى عشيقها السعيد الذي سمحت له بأن يسارع الى استدراك ما فاته من الوقت .

اما انا فقد اغتنمت الفرصة لكي انام ، ولدى استيقاظي أردت ان اختلق مبرراً لكي لا اجيب على رسالة حسنائي ، قبل ان اطلع على اوراقها السرية — وهذا ما لم يكن ممكناً إلا في اليوم التالي — فاعلنت انني قررت القيام برحلة صيد قضيت فيها النهار كله تقريباً .

ولدى عودتي قوبلت ببرودة ، مما جعلني اعتقد ان ثمة بعض الاستياء من جانبها لكوني أُظهر قليلاً من الحماسة في الافادة من الوقت المتبقي لي هنا لا سيما بعد رسالتها اللطيفة الاخيرة . أنني احكم على الأمر بهذه الطريقة نظراً لما وجّهته اليّ عمتي السيدة دي روزموند من لوم بسبب هذا الغياب الطويل ، وقد علّقتْ حسنائي على ذلك بقولها :

«آه .. ليس علينا ان نلوم السيد دي فالمون على اندفاعه في المتعة الوحيدة التي يمكن ان يجدها هنا » .

فشكوت هذا الظلم بحقي واغتنمت الفرصة لأؤكد انه يتعني جداً ان اكون

twitter @baghdad_library

بصحبة السيدتين المحترمتين ، وقد ضحيت من اجل ذلك بكتابة رسالة هامة جداً كان عليّ ان اكتبها اليوم . ثم اضفت قائلاً : لقد شئت ان احـــاول بذل مجهود شاق هذا النهار ، لانني لم اذق طعم النوم منذ عدة ليال ، املاً في ان اجعل النوم يتطرق الى جفوني هذه الليلة. ثم قد افصحت نظراتي ما فيه الكفاية عن قضية الرسالة وسبب أرقي . وهكـذا حرصتُ طوال السهرة على ان اظهر رقـة كئيبة بدا لي انها نجحت تماماً ، وكنت اخفي تحتها ما يساورني من فقدان صبر بانتظار الساعة التي سأتسلم بها السر الذي أصرّت على اخفائه عني . واخيراً افترقنا ، وبعد فترة قصيرة حملت الي الخادمة الامينة الثمن المتفق عليه مقـابل كتماني سرها .

وما ان اصبح هذا الكنز ملك يدي حتى قمت بجرده بالعناية التـامة التي تعهدينها فيّ . لانّ من المهم وضع كل شيء في مـــكانه كما كان . وقد وقعت اولاً على رسالتين من زوجها تتضمنان خليطاً لا يهضم من تفاصيل المحـاكمات ولواعج غرام زوجي تحملت بصبر نافد قراءته بكامله ، ولم اجد فيه اية اشارة تتعلق بي. فأعدتها الى مكانها بحنق . ولكن غضبي تضاءل جداً حين عثرت على قصاصات رسائلي الشهيرة من ديجون ، وقد جُمعتْ بعناية ، وخطر ببالي لحسن الحظ أن أعيد قراءتها بحبور . وبامكانك ان تتصوري كم كانت بهجتي حين وجدت فوقها آثاراً واضحة مـــن دموع ورعتي المعبودة . واعترف انني استسلمت الى حركة شاب مراهق فقبّلت هذه الرسالة بكثير من الخيال . ثم تابعت تفحصي للرسائل فعثرت على جميع رسائلي الاخرى مرتبة حسب تسلسلها التاريخي . ولعل مـــا ادهشني اكثر من ذلك ايضاً انني عثرت على رسالتي الاولى التي ظننت انها اعادتها اليّ ، وقد نسختها بيدها بأمانة ، وبخط مضطرب يدل على تأثر قلبها الناعم خلال تلك الفترة .

وحتى الآن كنت ما ازال غارقاً في الحب . واذا بموجة غضب واستنكار شديدين تجتاحني . اذ من تتصورين يكون ذاك الذي يريد ان يسيء الى سمعتي لدى هذه المرأة التي أعبدها ؟ وأية امرأة لئيمة مؤذية تفترضين انها تقوم بمثل هـــذه

الاساءة التي لا تغتفر ؟ انت تعرفينها ؛ انهـــا صديقتك وقريبتك السيدة دي فولانج ، انت لا تتصورين اي نسيج من القذارات الجهنمية المزعومة شاءت ان تلصقه بي . وهي وحدها التي عكّرت صفو هـذه المرأة الملائكية . وانني بسبب نصائحها وآرائها الخطيرة اللئيمة اجد نفسي مجبراً على الابتعاد . وها نحن نضحي بأنفسنا بسببها . آه ، بدون شك يجب اغواء ابنتها . ولكن ذلك ليس كافياً ، إذ يجب ان نجعلها تضل السبيل . وبما ان عمر هـــذه المرأة الملعونة يضعها بمنجى من ضرباتي ، فلا بد من ضربها في أعز ما تحبه .

انها تريد اذن ان اعود الى باريس ! وهي تجبرني على ذلك ! فليكن ، سوف أعود ، ولكنها ستجأر من عودتي . انني متكدر لكون دانسني هو بطل هـذه القضية ، اذ انه يملك اساساً من الشرف يمكن ان يزعجنا : وفضلاً عن ذلك فهو عاشق ... ها انني أنسى نفسي في فورة غضبي ولا افكر بأن عليّ ان اكمل رواية ما حدث اليوم ، فلنستأنف :

شاهدت هذا الصباح حسنائي الحساسة ، ولم تبدُ ابـــداً بنظري أجمل مما كانت عليه اليوم . وهذا يجب ان يفسر على النحو التالي : ان اجمل لحظة في حياة امرأة ، لا بل واللحظة الوحيدة التي تستطيع ان تنتج هـذا الانتشاء الروحي الذي طالما تحدث عنه الكثيرون دون ان يشعروا به إلا نادراً ... هي اللحظـة التي نكون فيها متأكدين من حبها ، دون ان نتأكـد بعد من مفاتنها الخاصة . وهذه هي تماماً حالتي التي وجدت نفسي بها . ولعل ايضاً الفكرة التي تساورني بأنني سأكون محروماً من لذة رؤيتها قد ساعدت على مضاعفة جمالهـا . واخيراً لدى وصول البريد تسلمت رسالتك المؤرخة في ٢٧ وفـــيما كنت اقرأها ترددت ايضاً في ما اذا كنت سأحافظ على وعدي ، ولكنني التقيت بنظرات حسنائي ، وقد كان من المستحيل علي في ذلك الحين ان ارفض طلبها . فأعلنت اذن سفري . وبعد فترة قصيرة تركتنا السيدة روزموند وحـــدنا ، ولكنني كنت ما أزال اشكل بعبعاً بنظر المرأة النفور ، فنهضتْ وقد تجلى عليها الفزع وقالت : دعني ، يا سيدي ، استحلفك بالله ان تتركني وشأني » .

twitter @baghdad_library

ولكن هذا الرجاء الحار الذي كشف عن انفعالها ، لم يؤد إلا الى شحذ رغبتي . وكنت واقفاً بقربها ، فتناولت يديها اللتين كانت قد شبكتها بطريقة مؤثرة، وبدأت هنا في توسلات ناعمة حين أعاد شيطانٌ عدو السيدة دي روزموند الى الصالون ، وقد اغتنمت الورعة الخجول هذه الفرصة فانسحبت .

ومع ذلك عرضت عليها يدي لكي ارافقها ، فقبلت وشعرت بشيء من اللطف الذي لم تحصل عليه منذ وقت طويل؛ وحاولتُ مع استثنافي للشكوى ان اضمها ، فأرادت في البداية ان تتملص ، ولكنها بعد اصراري الملح استسلمت بكل طيبة خاطر رغم انها لم تردّ على هذه الحركة بمثلها . كما لم تردّ على مطارحتي اياها عبارات الغرام والوجد . وحين وصلنا الى باب غرفتها حاولتُ ان أقبل هذه اليد التي سلمتني اياها ، قبل ان أفارقها . وهنا بدأ الدفاع يبدو صريحاً . ولكنني تلفظت هنا بعبارة : « فكري اذن بأنني راحل » وقد قلتها لها بكل نعومة وهيام ، مما جعلها تبدو مرتبكة مضطربة ، فتركتني أفعل. وما أن فرغتُ من قبلتي حتى سحبتْ يدها ودخلتْ الى غرفتها حيث كانت خادمتها موجودة . وهنا تنتهي قصتي .

وكما افترض ستكونين غداً في زيارة الماريشالة دي ... حيث لن اذهب اكيداً الى رؤيتك ، وبما أنني اتوقع عند مقابلتنا الاولى انه سيكون لدينا اكثر من قضية لنعالجها معاً وبصورة خاصة قضية الصغيرة دي فولانج التي لن انساها، فقد قررت أن تسبقني هذه الرسالة اليك ومهما كانت طويلة فإنني لن أختمها إلا حين سأضعها في البريد : إذ في الحالة التي انا فيها الآن كل شيء يتوقف على فرصة معينة ، وإنني اتركك الآن لكي اقتفي أثرها .

في الساعة التاسعة مساء

لا جديد حتى الآن ولا أية لحظة حرية ، بل هناك حرص من جانبها على أن تتجنبني . وفي الاثناء كان لا بد لي من اظهار المزيد من التعاسة تفرضها الآن الظروف على الأقل ، ولكن هناك حدثاً لا يخلو من أهمية ، وهو أنني كُلفت

من قبل السيدة دي روزموند بدعوة السيدة دي فولانـــج لكي تحضر فتمضي بقربها بعض الوقت في الريف .

الوداع يا صديقتي الحسناء ، والى الغد أو بعد غد على أقصى تعديل .

٤٥

من الرئيسة تورفيل الى السيدة دي فولانج

قصر ... في ٢٩ آب ؟؟ ١٧

لقد رحل السيد دي فالمون هذا الصباح يا سيدتي ، وقد بدوتِ لي أنـك كنت تتمنين جداً هذا الرحيل بحيث اجد من واجبي ان اعلمك به . غير أن السيدة دي روزموند قد تأسفت كثيراً على سفر ابن شقيقهـــا الذي لا بد من الاعتراف بأن صحبته ممتعة. وقد أمضت الصباح كله وهي تحدثني عنه بالحساسية التي تعهدينها فيها . ولم تكن تخفي ثناءها عليه . وقد وجدت أن اللياقة تقضي علي تجاهها بأن أصغي اليها دون اعتراض ، مع العلم انه يجب التسليم بأنهـا على حق في كثير من النقاط ، وشعرت فضلاً عن ذلك بأنني ملامة لأنني كنت السبب في حرمانها منه ، وانت تعلمين بطبيعة الحال أنه لا توجد هنا اية تسلية ، وان نمط الحياة الذي نعيشه هنا يجعل المعيشة جافة خالية من المرح .

ولو أنني لم اتصرف حسب توجيهاتك لكنت خشيت ان تصدر عني بعض الخفة ، لأنني كنت حقيقة متأثرة لحزن صديقتي المحترمة . وقد أثرت فيّ إلى درجة أنني كنت أشاطرها دموعها .

اننا نعيش الآن على امل أن تقبلي الدعوة التي يجب أن يقدمها اليك السيد دي فالمون من قبـــل السيدة دي روز موند ، وانني لأرجو ألا ترتابي في ما ستحدثه مشاهدتك من تعويض. وسأكون مرتاحة جداً لأغتنم هذه الفرصة فأتعرف قريباً الى الآنسة دي فولانج ، وان أكون قريبة منك لكي أعبّر لك عن مشاعر التقدير التي أكنها لك . لي الشرف ان الخ ...

twitter @baghdad_library

٤٦

من الفارس دانسني إلى سيسيل دي فولانج

باريس في ٢٩ آب ؟؟ ١٧

ماذا جرى لكِ يا معبودتي سيسيل؟ من الذي سبب لك هذا التبدل المفاجيء القاسي ؟ واين هو قسمك لي بألا تتبـــدلي ؟ وبالامس فقط كنتِ تؤكدينه بكـثير من السرور ! من يستطيع اليوم ان يجعلك تنسينه ؟ لقـــد تفحصت نفسي طويلاً فلم استطع ان أعثر على السبب عندي . وانه لمن المؤلم لي جداً ان ابحث عنه عندك... آه ... انك لستِ خفيفة ولا مخاتلة ، وحتى في هذه اللحظة من اليأس التي اكتب اليكِ اثناءها. لا يمكن ان يتطرق الى ذهني اي شك مهين . ومع ذلك فأي قدر عابث شاء ألا تكوني ابـــداً كما انتِ ؟ كلا ، انكِ لستِ قاسية القلب . فسيسيل اللطيفة ، سيسيل التي أعبدها والتي تلقيتُ منها العهود والمواثيق ، ما كانت لتتجنب نظراتي ، وما كانت لتعاكس المصادفة السعيدة التي جعلتني اكون بقربهـا . أم ان هنـاك بعض الأسباب التي لا أستطيع فهمها وقد حدَت بك أن تعامليني بمثل هذا الجفاء، ورفضتِ على الأقل ان تنبئيني بها.

آه ... انك لا تدرين ، وسوف لا تدرين ابداً، يا سيسيلتي كم جعلتني أتعذب اليوم ، وكم أتعذب الآن ! فهل تعتقدين انني قادر على العيش دون ان اكون محبوباً منك ؟ ومع ذلك فحين طلبتُ منك كلمة ، كلمة واحدة ، تبدّدين بها مخاوفي ، عمدتِ بدلاً من الرد عليَّ ، إلى اظهـار الخوف من ان يسمعكِ احد . وهذا الحاجز الذي خلقته بيننا عن طريق المقعد الذي اخترته في الاجتماع ، وهو حاجز ما كان قائماً من قبل . وحينما اضطررتُ الى تركك ، سألتك عن الساعة التي استطيع فيها ان اعود فأراكِ غداً، فإذا بك تبدين انك تجهلينها. وكان ينبغي أن تكون هي والدتك السيدة دي فولانج التي حددتها لي . وهكذا فان هـذه اللحظة المرغوبة جداً والتي يجب ان تقربني منك غداً، لن تخلق في نفسي إلا القلق. وسيحل الخوف من ان اكون مضايقاً لك محل متعة رؤيتك التي كانت حتى الان

عزيزة على قلبي .

لقد اخذت اشعر بذلك منذ الآن ، ان هذا الخوف يوقفني فلا اجرؤ على ان احدثك عن حبي . ان كلمة « احبك » التي كنت أحب كثيراً ان اكررها بدوري ، هذه الكلمة الناعمة اللطيفة التي كانت تكفي لبعث غبطتي ، لم تعد تقدم لي - اذا كنت قد تبدلت -- سوى صورة يأس ابدي . ومع ذلك فلم أستطع بعد ان أؤمن بأن « تعويذة الحب » هذه قد فقدت كل قوتها ، وما زلت احاول استخدامها أيضاً. اجل يا سيسيلتي احبك . كرري اذن معي هذا التعبير عن سعادتي . وفكري بأنك عودتني على سماعه ، وانك بحرماني اياه، ستحكمين علي في تحمل عذاب لن ينتهي- كما هو الحال مع حبي- الا بانتهاء حياتي .

٤٧

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

ب ... في ٣٠ آب ؟؟ ١٧

لن أراك اليوم ايضاً ، يا صديقتي الحسناء ، واليك اعذاري التي ارجوك أن تتلقيها بصدر واسع .

إنني بدلاً من ان اعود بالأمس رأساً ، توقفت عند الكونتيسة ... التي يقع قصرها تقريباً على طريقي، فطلبت اليها أن أتغدى . ولم أصل إلى باريس الا نحو الساعة السابعة . ونزلت إلى دار الاوبرا حيث كنت آمل أن أجدك .

وانتهت الاوبرا ، فذهبت لمقابلة صديقاتي المعتادات في النادي ، فوجدت هناك صديقتي القديمة اميليين ؛ محاطة بحاشية عديدة من النساء والرجال ، كانت قد دعتهم الى حفلة عشاء في ذلك المساء نفسه في ب ... ولم اكد ادخل هذا النادي حتى دعيت الى العشاء مع القوم، وقد قوبلت بالهتاف الشديد، وكان الذي وجه الي الدعوة رجل قصير ذو وجه ضخم أخذ يثرثر معي برطانة لم افهمها بل تبينت انها مزيج من الهولندية والفرنسية ، وقد عرفت فيه انه هو بطل هذه الحفلة ، فقبلت .

twitter @baghdad_library

وعلمت ونحن في الطريق أن المنزل الذي نقصده هو الثمن المتفق عليه مقابل ما تكرمت به اميليين من غراميات على هـــذا الوجه البشع ، وان حفلة العشاء هذه هي بمثابة حفلة عرس حقيقي . ولم يكن الرجل القصير يملـــك نفسه لشدة الفرح . وقد بدا لي أنه راض عن نفسه جـداً الى درجة بعثت بنفسي الرغبة في مضايقته . وهذا ما فعلته بالفعل .

والصعوبة الوحيدة التي صادفتها كانت في أن أقنع اميلي بأن ثروة المحافظ الهولندي هي موضع ريبة . وكان أن وافقت ، بعد شيء من التردد المصطنع ، على الخطة التي رسمتها ، وهي أن تعبىء هذا البرميل القصير بالخمرة ، وبذلك تضعه خارج المعركة طوال الليل .

وقد جعلتنا الفكرة الرائعة التي كوناهـــا عن سكير هولندي نستخدم جميع الوسائل المعروفـــة لحمله على الاكثار من الشراب . وقـــد نجحنا جيداً ، بحيث انـــه حين وصلنـــا الى الفواكه لم تبق لديـــه القوة على امساك كأسه . ولكن المساعدة اميليين وانا لم نكف عن ملئه بالشراب حتى سقط تحت المائدة ، وقد تعتعهُ السكر الى درجة ان ذلك سيجعله في غيبوبة لمدة ثمانية ايام . وقررنا عندئذ ان نبعث به الى باريس . وبما انه لم يكن قد احتفظ بعربته ، فقد حمَّلته في عربتي واستوليت على مكانه . وكان ان تلقيت على الاثر تهاني المجتمعين الذين انسحبوا بدورهم على أثره وتركوني سيد الموقف . لقد جعلني هذا المرح ، وربما عزلتي الطويلة ، أجد ان اميليين امرأة تثير الرغبة مما حملني على وعدها بالبقاء معها حتى انبعاث الهولندي من غيبوبته .

وقد كانت هذه البادرة اللطيفة من جانبي ثمناً لتكرمها عليّ باعارتي مكتبها لـكي اكتب الى حسناتي الورعة التي وجدت من الممتع ان أبعث اليها برســـالة مكتوبة من سرير امرأة اخرى ، او تقريباً بين ذراعيها مرتكباً بذلك خيانـة كاملة لحبها . وقد وصفت لها في الرسالة وضعي الحقيقي ومسلـكي معها . وقـد قرأت اميـلي الرسالة فضحكت كمجنونة ، وارجو ان تضحكي انت ايضاً .

وبما انه ينبغي ان تحمل رسالتي خاتم بريد باريس فانني ارسلها اليك واتركها

مفتوحة راجياً ان تعمدي الى قراءتها واقفالها ووضعهـــا في البريد . الوداع يا صديقتي الحسناء .

أعيد الآن فتح رسالتي فقـــد اقنعت اميلي بالذهاب الى مسرح الايطاليين وسأغتنم هذا الوقت لكي اذهب فأراك . وسأكون عندك في الساعة السادسة على الاكثر . واذا وافقكِ هذا الموعد فسنذهب معاً لنزور السيدة دي فولانج . اذ ليس من اللائق أن اؤجل الدعوة التي كلفتُ بابلاغها اياها من قبل السيدة دى روزموند . وبالاضافة الى ذلك سأكون مسروراً جداً لمشاهدة الصغيرة فولانج.

الوداع ايتها السيدة الجميلة جداً . سأكون مسروراً جداً بتقبيلك حتى يصبح الفارس غيوراً .

٤٨

من الفيكونت دي فالمون الى الرئيسة دي تورفيل

باريس في ٣٠ آب

بعد ليلة عاصفة لم أستطع خلالها ان اغمض عيني ، وبعد ان كنت باستمرار اما في هرج ومرج ، واما في غلواء مفترسة، أو في انعدام كامل لجميع طـــاقاتي وروحي، اعمد الى البحث عندك يا سيدتي...عن هدوء اشعر انني بحاجة اليه، ولا آمل مع ذلك في التمكن من التمتع به بعد . وبالفعل فإن الوضع الذي انا فيه الآن وانا اكتب اليك يجعلني اعرف اكثر من اي وقت مضى قوة الحب الـــتي لا تقاوم . إنني اجد صعوبة في الاحتفاظ مدة كافية بأي سلطان عليّ لكي اضع أفكاري موضع الترتيب . وها انذا أتوقع انني لن اختتم هذه الرسالة دون ان أضطر إلى قطعها . ماذا ! أفلا يمكن اذن ان آمل بأن تشاطريني بضعة ايام هذا الاضطراب الذي اعانيه في الوقت الحاضر ؟ ومع ذلك اجرؤ على الأعتقاد بأنك لو عرفتِه يوماً فلن تكوني كلياً عديمة الحساسية . صدقيني يا سيدتي أن الدّعـــة الباردة ، ورقاد الروح ، وصورة الموت ، لا تقود ابـــداً الى السعادة . وأن

twitter @baghdad_library

الهوايات النشيطة تستطيع وحدها ان تقود اليها . أعتقد رغم العـــذاب الذي تجعلينني اعانيه ، انني استطيع ان اؤكد دون وجل بأنني في هذه اللحظة ذاتها ، اكثر سعادة منك . وهكذا ترهقينني عبثاً بقساوتك المؤسفة التي لا تمنعني من ان انساق انسياقاً تاماً وراء الحب ، وانانسى – في الجنون الذي يحدثه الحب لي – القنوط الذي تدعينني فيه . وبهذه الطريقة أريد أن اثأر من المنفى الذي حكمتِ به عليَ . انني لم أشعر قط بمثل هذا السرور من قبل في الكتابة اليك كما هو الآن ، وهو سرور حاد عنيف . وكل شيء هنا يزيد من فرحي بالانطلاق : الهواء الذي أتنفسه مفعم بالشهوة ، والمنضدة التي اكتب عليها تكرس لأول مرة لهذه الغاية ، وقـــد اصبحت عندي بمثابة مذبح مقدس للحب ، وكم ستصبح جميلة بنظري ! وددت لو أن اخط فوقها القسم بأن احبك دومـاً . اغفري لي ، كما أرجو ، الجنون الذي اعانيه . لربما ينبغي عليّ أن اقلل من انطلاقي المجنح الذي لا تشاطريني اياه . ينبغي ان اتركك فترة قصيرة لكي أُبدّد نشوة تزداد كل لحظة ، وتصبح اقوى مني .

اعود اليك يا سيدتي ، ولا ريب بأنني سأعود دائمـاً بالعجلة نفسها . وفي الاثناء لقد تاه شعور السعادة مني بعيداً جداً ، وحل محله شعور الحرمان القاسي . وماذا ينفعني ان احدثك عن عواطفي ما دمتُ ابحث عبثاً عن وسائل اقناعك بها ؟ اذ بعد كثير من الجهود المتكررة اصبحتْ الثقة والقوة تخونانني في آن واحد . واذا كنتُ اعيـــد ايضاً تصوير متع الحب ، فذلك لكي اشعر بالأسف الشديد لحرماني منه ، ولا اجد لي وسيلة لذلك سوى حلمك وتسامحك . أنني أحس الآن اكثر مما يجب كم انا بحاجة إلى سعة صدرك لكي آمل بالحصول عليها . ومع ذلك فان حبي لم يكن ابداً اشد احتراماً لك مما هو عليه الآن ، وهو ما لا ينبغي ابداً أن يهينك . إنه في حالة يجب معها أن لا تخشاه اية عفة صارمة . ولكنني اخاف من نفسي ان احادثك مدة طويلة بسبب العذاب الذي اعانيه . ونظراً لتأكدي بأن الانسان الذي يسببه لا يشاطرني اياه ، فيجب على الاقل الا استغل عطفه ومكارمه . ومن الافضل ان اعانيه وحدي بدلاً من ان استخدم هذا الوقت في رسم صورة مؤلمة

وانا لا ارجو سوى ان ألح عليك بالاجابة عليّ وبألا ترتابي بحقيقة عواطفي .

٤٩

من سيسيل فولانج الى الفارس دانسني

في ٣١ آب ؟؟ ١٧

حسبي يا سيدي دون أن اكون خفيفة او مخاتلة ، ان اكون مدركة تمام الادراك موقفي ، لكي أشعر بضرورة تبديله . فقد قطعتُ عهداً بأن أضحي بنفسي في سبيل الله الى ان اتمكن من ان اقدم اليه عواطفي التي كنت أكنها نحوك ، نظراً لأن الحالة الدينية التي انت فيها الآن تجعلها اكثر اجراماً ايضاً . وأشعر بأن ذلك سيؤلمني ولن اخفي عليك انني بكيت امس الأول كل مرة فكرت بها فيك . ولكنني آمل ان يمنحني الله نعمة تزويدي بالقوة الضرورية لكي انساك ، كما اتضرع اليه بذلك صباح مساء . وانا انتظر ايضاً من صداقتك وشرفك ألا تحاول ثنيي عن القرار الصالح الذي أُوحيَ اليَّ به . والذي أحاول أن اتمسك به . وبالنتيجة اطلب اليك ان تتطلف بعدم الكتابة اليَّ ما دمتُ ابلغك سلفاً بأنني لن اجيب ابداً ، وانك تضطرني الى اطلاع والدتي على كل ما يجري ، مما يحرمني تماماً من متعة رؤيتك .

انني سوف أحتفظ لك بالتعلق الذي يمكن ان اشعر به دون ان يكون هناك من اثم في ذلك .

انني اتمنى لك من كل قلبي جميع انواع السعادة . واحس جيداً انك لن تعود فتحبني كالسابق . وعساك تحب فتاة اخرى افضل مني. ولكنني سأتعرض لعقوبة اكبر من الغلطة التي ارتكبتها بمنحك قلبي الذي يجب ألا امنحه الا لله ولزوجي حين يكون لي زوج . وارجو ان تكون لدى الرحمة الآلهية شفقة على ضعفي ، وألا تتيح لي من العذاب إلا ما استطيع تحمله .

الوداع يا سيدي . اؤكد لك بأنه لو سمح لي ان احب احداً لما كان سواك . ولكن هذا هو كل ما استطيع ان اقوله لك ، ولعله اكثر مما يجب .

twitter @baghdad_library

٥٠

من الرئيسة دي تورفيل الى الفيكونت دي فالمون

في اول ايلول ؟؟ ١٧

أهكذا يا سيدي تتقيد بالشروط التي وضعتها لكي أتلقى في بعض الاحيان رسائلك ؟ وهل يمكن لي « الا ان أتذمّر منها » حين لا تحدثني إلا عن عاطفة اخاف ايضاً من الانسياق فيها دون ان اخلّ بجميع واجباتي ؟

الخلاصة لو كنت بحاجة الى اسباب جديدة لكي احتفظ بهذا الخوف المريح ، لبدا لي انني استطيع ان اجدها في رسالتك الاخيرة . وبالفعل ففي الوقت الذي تعتقد انك تقوم باطراء الحب ، ماذا تفعل على العكس سوى انك تظهر لي عواصفه المخيفة ؟ من الذي يستطيع ان يرغب في سعادة مشتراة بثمن عقله ، ولا تكون لذائذها التي لا تدوم طويلاً إلا مشفوعة بالتأسف إن لم يكن بتبكيت الضمير ؟..

انت نفسك الذي يجب أن تكون العادة عندك على ممارسة هذا الجنون الخطير قد خففت من تأثيره، ألست مضطراً مع ذلك الى الاعتراف بأنه يصبح غالباً أقوى منك ؟ ثم ألست اول من يتذمّر من نفسه بسبب الاضطراب التلقائي الذي يسببه ؟ فأي اجتياح مخيف لا يحدثه اذن فوق قلب جديد حساس سوف يضيفه الى سلطانه عن طريق عظمة التضحيات التي سيضطر الى بذلها ؟

أنت تعتقد يا سيدي، أو يبدو لك انك تعتقد، أن الحب يقود الى السعادة ، وانا مقتنعة جداً بأنه يجعلني تعيسة الى درجة أود معها ألا أسمع ابداً بلفظ إسمه. ويبدو لي ان الحديث عنه فقط يعكر الهدوء ، وانني من قبيل الذوق والواجب أرجوك ان تعتصم بالصمت حول هذا الموضوع .

وبعد كل شيء فان هذا الطلب هو جد سهل لكي تلبيه لي في الوقت الحاضر. اذ بعودتك الى باريس، ستجد فيها مناسبات كافية تنسيك عاطفة لم تنشأ إلا لتعودك على الاهتمام بمثل هذه المسائل ، ولم تشتد إلا بسبب تقززك من الريف . فهل أنت

الآن في مكان مماثل للمكان الذي رأيتني فيه ؟ هل تستطيع ان تخطو الآن خطوة واحدة دون ان تقابلك امثولة تحملك على سهولة التبديل ؟ ثم ألست محـــاطاً بنساء جميعهن اكثر لطفاً مني ولهن حق اكثر مني بعواطفك؟ فأنا لا أملك العجرفة التي تؤخذ على بنات جنسي ، وليس لدي ايضاً هذا التواضع الزائف الذي ليس سوى مظهر ناعم من مظاهر التكبر . ولذلك اقول لك بكل نيـة طيبة انني لا اعرف إلا وسائل قليلة تثير الاعجاب : حتى ولو كانت لدي جميع الوسائل فلن اعتقد انها كافية لجعلك تثبت . ولذلك فهل الطلب اليك ألا تهتم بي معنـــاه عندك الرجاء ان تفعل اليوم ما كنت تفعله من قبل ؟ من المؤكد انك ستفعـله ايضاً خلال وقت قصير . ومع ذلك فانني اطلب اليك العكس .

ان هذه الحقيقة التي لا تغيب عن نظري، ستكون وحدها سبباً قوياً لكي لا ارغب في الاصغاء اليك . فلدي مئات المشاغل الأخرى ، ولكنني أصر – دون ان ادخل معك في نقاش طويل – على رجائك ، كما فعلت من قبل ، بألا تحدثني عن عاطفة ينبغي عليَّ الا اصغي اليها ، ولا اريد ان اجيب عليها .

٥١

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون

في ٢ ايلول ؟؟ ١٧

في الحقيقة ايها الفيكونت انك غـير محتمل . وانت تعاملني بخفة كبيرة كما لو كنت خليلتك . هـل تعلم انني سأتكدر؟ وانني اشعر في هذه اللحظة باستياء هائل ؟ كيف ! يجب عليك ان تقابل دانسني غداً صباحاً ؟ انت تعلم كم هو هام جداً ان اتحدث اليك قبل هذه المقابلة. لا بل تتركني – ودون أن تقلق كثيراً – انتظرك طول النهار ، بينما تذهب أنت فتركض لست ادري في أي مكان ؟ انك أنت السبب الذي جعلتـني اذهب متأخرة « دون تهذيب » لأرى السيدة دى فولانج حيث وجدتني جميع النساء العجائز فظيعة .

twitter @baghdad_library

وكان لا بد لي من ان اقدم اليهن الملاطفات طوال السهرة لكي اخفف من حدتهن . لأنه يجب عدم اغضاب العجائز ، فهن اللواتي يخلقن سمعة الصغيرات .

الساعة الآن هي الواحدة صباحاً ، وبدلاً من أن انام ، كما احس برغبة شديدة في ذلك ، يجب ان اروي لك قصة طويلة ستعمل على مضاعفة نعاسي بالضجر الذي ستسببه لي . انت سعيد جداً لأنني لم اؤنبك بصورة كافية ، ولكن لا تظن انني سأسامحك . بل ليس عندي وقت لذلك فأسمع أذن وبسرعة .

انك ستصبح غداً ـ مع قليل من البراعة ـ موضع أسرار دانسني . والوقت الآن مؤاتٍ للثقة ! فالصغيرة سيسيل ذهبت الى الاعتراف عند احد رجال الدين . وقد روت كل شيء كطفلة . ومنذ ذلك الحين أصبحت مهمومة منشغلة البال بسبب الخوف من الشيطان الى درجة انها تريد ان تقطع كل صلة لها مع دانسني . وقد حدثتني عن جميع وساوسها الصغيرة بحماستها المعروفة ، وعرفت منها كم ان رأسها اصبح مشحوناً . ثم اطلعتني على رسالة الانفصال التي هي عبارة عن ورقة نعوة . وقد ثرثرت معي مدة ساعة دون ان تقول كلمة ذات معنى هام . ولكنها اثارت حيرتي كثيراً لانني لا استطيع ان اكشف نفسي ازاء مثل هذه الفتاة ذات التفكير الاهوج .

وقد لاحظت من خلال هذه الثرثرة انها ما زالت تحب دانسني ووجدت لديها احدى المصادر التي لا تخفي ابداً الحب . فهي بعد أن ساورها القلق من جراء الرغبة في الاهتمام بحبيبها ، ومن جراء الخوف من الإثم إذا اهتمت به ... تصورت ان عليها ان تصلي كي تنسيها الصلاة اياه . وبما انها تكرر صلاتها في كل لحظة من لحظات النهار ، فهي تجد بذلك الوسيلة للتفكير به دون توقف .

ولو ان هذا الحادث وقع مع شخص مجرّب غير دانسني لكان رأى فيه عاملاً مشجعاً لا العكس ، ولكنه هو شديد الغباء الى درجة اننا اذا لم نساعده ، لن يبقى لنا شيء لكي ننفذ مشروعنا .

انت على حق ، هذا مؤسف ، وانا أيضاً متكدرة مثلك . ولكن ما حصل

قد حصل . وهذه هي غلطتك . وقد طلبتُ ان اطلع على جوابه ، فاذا بـــه يدعو الى الشفقة ، فهو يحاول اقناعها دون انقطاع بجميع الوسائل لكي يبرهن لها على ان « اية عاطفة تلقائية ليست جريمة » : ولكن بما انها لا تكف عن أن تكون تلقائية ، فعلى الأقل يجب الكف عن مقاومتها . وهـــذه الفكرة هي بسيطة جداً بحيث انها خطرت للصغيرة نفسها . وهو يشكومن تعاسته بطريقة مؤثرة جداً . ولكن عذابه ناعم جداً ويبدو قوياً وصادقاً جداً بحيث يخيـــل الي انَ من المستحيل على المرأة التي تجد فرصة لترك رجل لليأس الى هذه الدرجة وبشيء قليل من الخطورة ان تتخلى عن هذه اللعبة . وهو يوضح لها اخيراً انه ليس كما كانت تظنه الصغيرة ، ولكن ذلك لا يناقض ما يفعله .

ومهما يكن فبدلاً من اضاعة وقتي في التحليل المنطقي الذي قـــد يورطني ، وربما دون ان اتوصل الى الاقناع ، وافقت على مشروع الانفصال ولكنني قلت لها انه من الافضل في مثل هذه الحالة ابداء الاسباب بدلاً من كتابتها . وانه قد جرت العادة ان تعيد الرسائل وغيرها التي تلقتها ، وبأظهاري انني سايرت الصغيرة في آرائها جعلتها تقرر تحديد موعد لدانسني . وبادرنا حالاً الى وضـــع المشروع وتعهدتُ بجعل الأم تخرج دون ابنتها ، وسيكون موعد هـذه اللحظة الحاسمة غداً بعد الظهر . وقد اطلع دانسني على الأمر . ولكنني ارجوك ، اذا شئت ، ان تقنع هـــذا الراعي الجميل بأن يكون اقل ارتخاء وفتوراً . وعلـّمه — لأن من الضروري ان تشرح له كل شيء — ان الطريقـة الصحيحة للقضاء على الوساوس والقلق ، هي عدم ترك أي شيء يضاع لدى اولئك الموسوسين .

الخلاصة ، لكي لا ادع هذه الحادثة السخيفة تتجدد ، عملتُ على اثارة بعض الشكوك في ذهن الصغيرة حول تكتم رجال المعرّفين . واؤكد لك انهـا الآن تعاني اشدّ الوجل من ان يقوم معرّفها فيطلع أمها على كل شيء . وآمل بعد ان اكون قد تحدثت معها مرة او مرتين ايضاً ، ألا تعمد الى رواية حماقاتها الى أي مُعرّف آخر .

الوداع ايها الفيكونت ، سيطر على دانسني ، ووجهه . وسيكون من المخجل

twitter @baghdad_library

الا نكون بعد قد فرغنا مما نريد من هذين الغلامين . واذا كانت هـذه المغامرة تعذبنا اكثر مما كنا نعتقد ، فلنفكر، لكي نجدد نشاطنا، انت بان الأمر يتعلق بابنة السيدة فولانج ، وانا بأنها ستكون زوجة جيركور . الوداع .

٥٢

من الفيكونت دي فالمون الى الرئيسة تورفيل

في ٣ ايلول ؟؟ ١٧

تحظرين علي يا سيدتي ان اتحدث اليك عن حبي . ولكن اين اجـد الشجاعة الكافية على اطاعتك ؟ انني منشغل البال فقط بعاطفة يجب ان تكون لطيفة مبهجة ، بينما انت تجعلينها قاسية . كما انني اعيش بفتور وارتخاء في المنفى الذي حكمتِ به عليّ ، ولا احيا إلا في حرمان وتحسّر وانا فريسة منغصات لا تنفك تزداد ايلاماً يوماً عن يوم ، لتذكرني دون توقف بلامبالاتك ، فهـل يجب أن أفقد ايضاً العزاء الوحيد الباقي لديّ ؟وهل يمكن ان يكون ثمة عزاء آخر سوى ان افتح لك احياناً روحي التي تملأينها بالهم والمرارة ؟ هـل تشيحين بأنظارك عني لكي لا تري الدموع التي تثيرينها ؟ وهل ترفضين حتى قبول تقدير التضحيات التي تطلبينها ؟ أفلا يكون أذن جديراً بك وبروحك الشريفـة الناعمة ان تعطفي على بائس كنت انت السبب في بؤسه ، بدلاً من ان ترغبي ايضاً في زيادة آلامه خطورة ؟

تبدين انك تخشين الحب ، ولا تريدين ان تري انك انت وحـدك تسببين الآلام التي تلومينه عليها .

آه ! لا شك بأن هذا الشعور مرهق جداً حين لا يكون الشخص الذي يوحيه يشاطره ابـداً . ولكن اين نجد السعادة اذا لم يوفرها لنـا حب مشترك ؟ فالصداقة الحنون ، والثقة الناعمة التي تكون وحدها دون تحفـظ ، والآلام المخفّفة ، والمباهج المتوفرة بكثرة ، والأمل المفرح ، والذكريات اللذيذة أين

نلقاها كلها خارج نطاق الحب؟ أنت تفترين على هذا الحب ، لأن عليك ان ترضي به لكي تتمتعي بجميع المزايا التي يوفرها لك ، وبذلك أنسى آلامي التي اعانيها فلا أهتم إلا بالدفاع عنه .

انتِ تحمليني بهذه الصورة على الدفاع عن نفسي ، لأنني فيما اكرس حياتي لكي اعبدك تمضين حياتك في البحث عن مساوئي واخطائي . وها أنت تفترضين انني خفيف مخاتل مستغل ، بالاضافة الى بعض المساوىء التي اعترفت لك بها بنفسي . وأنه ليسرك ان تخلطي دائماً بين ما كنتُ عليه في الماضي وما أنا عليه الآن . كأنه لم يكفك ان تركتني فريسة العذاب والعيش بعيداً عنك ، بل تريدين ان تضيفي الى ذلك تهكماً لاذعاً حول مسرات تعلمين جيداً كم جعلتِني انت عديم الحساسية إزاءها .

انتِ لا تصدقين وعودي ولا عهودي . اذن لم يبق لي إلا ضمانة واحدة اقدمها اليك ولا يمكن ان ترتابي بها ، الا وهي أنتِ نفسك ، وانني اطلب اليك ان تسألي نفسك ، بصدق نية ، اذا كنتِ لا تؤمنين بحبي . وإذا كنتِ قد شككتِ لحظة ما في انك المسيطرة الوحيدة على روحي ، واذا لم تكوني متأكدة بأنك عملت بالفعل على استقرار هذا القلب الذي اعتاد ان يكون هائماً طياراً ؛ فإنني أوافق على تحمل هذا الوزر وحدي ، وسأجأر منه بالشكوى ، ولن اعترض مطلقاً : اما اذا كان الأمر على العكس ، وبذلك تكونين قد وفّيت العدالة حقها تجاهنا نحن الاثنين ؛ فأنت مضطرة اذن الى الاعتراف ، بينك وبين نفسك ، أنه لم توجد ولن توجد لك اية مزاحمة ، فلا تجبريني ، أرجوكِ ، على مقاومة الاوهام . ودعي لي على الأقل هذا العزاء الوحيد بألا أراك ترتابين في عاطفة لا تنتهي ولن تنتهي ابداً إلا بانتهاء حياتي . واسمحي لي يا سيدتي ان ارجوك الاجابة بصورة ايجابية على هذه النقطة من رسالتي .

واذا كنتُ قد اقلعتُ مع ذلك عن تلك الفترة من حياتي التي تبدو بأنها تسبب لي أذى قاسياً عندك ، فليس ذلك لأن الحجج تعوزني لكي ادافع عنها عند الحاجة ، بل على العكس .

twitter @baghdad_library

فماذا فعلتُ ، بعد كل شيء ، سوى انني لم اقاوم بصورة كافية الدوّامة التي دُفعتُ اليها ؟ اذ انني خِضتُ معترك الحياة صغيراً دون خبرة . فتناقلتني ايدي النساء – اذا صح هـــذا التعبير – من إمرأة الى امرأة ، كن جميعهن يسارعن بسهولتهن الفائقــة الى اثارة حساسية قوية كن يشعرن بأنها غير متحمسة لهن ، فهل كان عليّ ان اضرب المثل وحدي على ابداء مقاومة لم يقف بوجهها احد ؟ أم كان عليّ ان اعاقب نفسي من جراء لحظة أثم دُفعتُ الى ارتكابها غالبـاً عن طريق مباشرة غير مجدية ، وكان الناس اعتبروني مغفلاً ابله ؟

بيد اني استطيع القول ان نشوة الحواس هذه ، وربما هذا الجنون في الفخر والمباهاة ، لم يتوصلا الى قلبي بعـد . وهو قلب خُلق من اجل الحب ، وما كان العبث واللهو الا موضع تسلية له ، ولم يكونا كافيين مطلقاً لإثارة اهتمامه . وقد أحيط بنساء جذابات مغريات ولكنهن محتقرات ، ما كانت اية واحـدة منهن لتتغلغل الى اعمـــاق روحي . وكن يقدمن إليّ اللذائذ والمتع ، ولكنني كنت ابحث عن الفضائـل ، وقد خُيّل اليّ بأنني غير مستقر ، لأنني كنت رقيقـاً جداً شديد الحساسية .

وحين شاهدتك أضيئت نفسي ... وما لبثت ان عرفت تواً ان فتنة الحب تعود الى فضائل الروح وخصالها الحميدة ، وانها وحدها تستطيع ان تسبب الافراط والتطرف ، ثم تبررها . وشعرت اخيراً بأنــه من المستحيل عليّ ايضاً ألا احبك ، أو أحب احداً غيرك .

هذا هو ، يا سيدتي ، القلب الذين تخشين من الاستسلام اليه ، وهـــذا هو المصير الذي تستطيعين ان تحكمي عليه . ولكن مهما كان الحكم الذي تتخذينه ، فلن يبدّل شيئاً من العواطف التي تشده نحوك ، وهي عواطف ثابتة غير متزعزعة كالفضائل التي تنبثق عنك .

٥٣

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

٣ ايلول ؟؟ ١٧ مساءً .

قابلت دانسني ، ولكنني لم احصل إلا على نصف مسارة ، وقد أصر بصورة خاصة على ان يكتم عني إسم الصغيرة فولانج التي لم يتحدث عنها إلا كما يتحدث عن فتاة عاقلة جداً ، لا بل وحتى عن تقية ورعة ، ولكن اين يمكن العثور على السعادة اذا لم يوفرها حب متبادل ؟ وقد روى لي تقريباً بكثير من التحفظ مغامرته ، ولا سيما الحادث الأخير . وقد استطعت أن أثير ضرامه على قدر الامكان، ثم سخرت منه جداً بسبب رقته ، وبصورة خاصة وساوسه . ولكنه يبدو متمسكاً بها ، ثم لا أستطيع اذن ان اكون مسؤولاً عنه . الخلاصة استطيع ان اخبرك المزيد من أمره غداً لأنني سأصطحبه معي إلى فرساي ، وسأهتم في انتزاع اسراره خلال الطريق .

آمل ان يكون قد تم كل شيء حسب ما نشتهي في الموعد الذي كان مضروباً اليوم ، وربما سوف لا يبقى لنا إلا ان نهتم الآن بانتزاع الإعتراف وجمع الاثباتات ، لأن الفتاة الصغيرة هي أشدّ وثوقاً ، أو اكثر ثرثرة من عشيقها المتكتم ، ومع ذلك سأبذل جهدي .

الوداع يا صديقتي الحسناء ، انني مسرع جداً . لن اراك هذا المساء ولا غداً . واذا كان لديك من جديد ، فاكتبي اليّ كلمة عند عودتي ، لأنني اكيداً سأعود لأنام في باريس .

٥٤

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون

في ٤ ايلول ؟؟ ١٧

أجل هناك من جديد يجب ان تعرفه عن دانسني، واذا كان قد رواه لك، فيكون قد أفتخر بنفسه . إنني لا أعرف شخصاً اكثر منه غباوة في الحب .

twitter @baghdad_library

وانني لألوم نفسي اكثر فأكثر على المكارم التي أتحنـاها له . هل تدري انني ظننت نفسي متورطة بسببه ؟ وأن المشروع كان قد آل الى الفشل الذريع؟ آه سأنتقم من تصرفه ، وأقسم على ما اقول .

حين ذهبت بالأمس لأخرج مـع السيدة دي فولانج ، وجدت انهـا لم تكن ترغب في الخروج ، وكانت تشعر بأنهـــا متوعكة . وكان علي ان أستخدم كل بلاغتي لكي احملها على الخروج ، وقد خشيت أن تحين ساعة حضور دانسني قبل خروجنا، وعندئذ كانت مساعينا كلها قدأُحبطت، لاسيما وان السيدة فولانج كانت قداخبرته قبل ليلة انها لن تكون في البيت . وكنا – الصغيرة وانا – نتقلى على لظى الجمر ، واخيراً خرجنا . وضغطت الصغيرة على يدي بعطف وحنان وهي تودعني . وكنت اتوقع على الرغم من مشروعها بقطع العلاقة مع دانسني حدوث عجائب في تلك المقابلة .

ولكنني لم افرغ من مخاوفي وقلقي ، إذ لم تمض نصف ساعـة علينا ونحن في زيارة السيد دي... حتى اصيبت السيدة دي فولانج بعارض صحي مؤلم،ولكن ألمها كان هذه المرة شديداً. وبما انها طلبت أن تعود الى منزلها كما يفرضه المنطق، وكنت انا لا أريد ذلك لخوفي من ان نفاجىء الشاب والفتاة في خلوتهما ، وبما أن إلحاحي على الأم بعدم العودة إلى المنزل كان سيثير في نفسها الشكوك والريب .فقد قررت ان ازيد من قلقها على صحتها ... ولحسن الحظ لم يكن ذلك مستصعباً . وكان ان ابقيتها ساعة ونصف ساعة لدى الصديقة دون ان أوافق على عودتهـا إلى منزلها خشية ان تؤثر اهتزازات العربة على جسمها فتزيد من آلامها . واخيراً قدتاها الى منزلهافي الساعة المتفق عليها بيني وبين الصغيرة التي ظهرت لدى وصولنا بمظهر مخجل أعترف معه انني كنت آمل أن تكون جهودي على الأقل لم تذهب أدراج الرياح .

وقد جعلتني الرغبة التي كانت تعتمل في نفسي لكي اطلع على ماحدث امكث بالقرب من السيدة دي فولانج التي رقدت فور وصولها بعد ان تناولت العشاء وهي في السرير مع ابنتها . ثم تركناها في ساعة مبكرة ، بحجة انها بحاجة ماسة إلى

الراحة ، وانتقلنا الى شقة الصغيرة . وقد علمت انها نفذت من جانبها كل ما كنت أنتظره منها : وساوس ، وعهود جديدة بأن تحب دائماً الخ ... الخ ... وقد فعلت كل شيء بطيبة خاطر . ولكن الأحمق دانسني لم يتقدم خطوة واحدة من النقطة التي كان قد وصل اليها في السابق . أوه ... تستطيع أن تتشاحن مع هذا الفتى ، وستجد أن اصلاح ذات البين معه ليس خطيراً .

وتؤكد الصغيرة مع ذلك أنه طلب المزيد ، ولكنها دافعت عن نفسها جيداً. وأنا اراهن إما أنها تفتخر بنفسها وإما أنها تبرر موقفه . وقد تأكدت من ذلك تقريباً . وبالفعل لقد اجتاحتني رغبة في معرفة اي دفاع يمكن لهذه الفتاة ان تكون قادرة عليه . وقد تسنى لي ، انا المرأة البسيطة — من حديث إلى حديث — أن اشحن رأسها الى درجة ... واخيراً تستطيع ان تصدقني بأنه ليس هناك شخص يمكن ان يكون عنده استعداد لمفاجأة الحواس اكثر منها . انها بالحقيقة لطيفة جداً هذه الفتاة العزيزة ! وهي تستحق عشيقاً آخر . وسأكون لها صديقة عظيمة ؛ لأنني اخذت اتعلق بها باخلاص . وقد وعدتها بأن أدربها واكوّنها . واعتقد انني سأفي بوعدي . إذ لطالما تبين لي غالباً كم انا بحاجة الى امرأة اتبادل معها الاسرار ، وإنني افضل هذه على سواها . ولكنني لا استطيع ان افعل شيئاً ما دامت غير ... ما يجب ان تكون . وهذا سبب آخر للحقد على دانسني .

الوداع ايها الفيكونت ، لا تحضر غداً إلى زيارتي اللهم إلا في الصباح فقد رضخت لإلحاحات الفارس من اجل تمضية ليلة معه في «البيت الصغير» .

٥٥

من سيسيل فولانج الى صوفي كارني

في ٤ ايلول ؟؟ ١٧

لقد كنت على صواب ، يا عزيزتي صوفي ، إن تنبؤاتك تنجح اكثر من نصائحك . وكما توقعت ، كان دانسني اقوى من المعرّف ومنك ومني انا

twitter @baghdad_library

نفسي ، وها اننا عدنا تماماً الى ما كنا عليه . آه انني لست نادمـــة . وانتِ لو لمتني ، فذلك لانك لا تعرفين اية متعة يخلقهـا في النفس حب دانسني . وانه لمن السهل عليك ان تقولي ماذا يجب ان نفعل ، ولا شيء يمنعك من ذلك . ولكنك لو شعرت كم ان حزن الشخص الذي نحبه يثير فينا العذاب ، وكيف ان فرحه يصبح فرحنا ؛ وكم من المستصعب قول كلا ، حين تكون كلمـــة نعم هي التي نعنيها ، لما كنت دهشت من شيء : وانا نفسي التي شعرت بكل هـذه الامور لا استطيع ان افهم ذلك حتى الآن . هل تصدقين مثلاً انني لا استطيع ان ارى دانسني يبكي دون أن اجاريه في البكاء ؟ وحـين يكون سعيداً اشعر ايضـــاً بالسعادة مثله. تستطعين ان تقولي ما تشائين ولكن ذلك لن يبدل شيئاً من الواقع ، وانا متأكدة بأن الامور تسير على هذا النحو .

كم اتمنى ان اراك يا عزيزتي في مكاني. . كلا ، ليس هذا تماماً ما أعني . لأنني اكيداً لا اريد أن اتخلى عن مكاني إلى أحد ، ولكنني اتمنى لو تكوني قد أحببت أحدهم وانني أتمنى ذلك لك لكي تفهميني جيداً ، ولا تقللي مـــن تقريعك لي فحسب ، بل لكي تكوني انت ايضاً اكثر سعادة ، أو بالأحرى لكي تبدأي في ان تكوني سعيدة .

ان تسلياتنا وضحكاتنا جميعها ليست سوى لعب اطفـــال . ولكن الحب ، آه من الحب ... كلمة واحدة ، نظرة واحدة ، يكفي ان تعرفي انه هنا ... يا لها من سعادة . وحـــين اشاهد دانسني لا أرغب في اي شيء آخر ابـداً ، وحين لا أراه ، فانني لا ارغب الا فيه ! ولا أدري كيف يحـدث ذلك ! حتى ليقال ان كل ما يعجبني يشبهه . وحين لا يكون معي افكر فيه دائماً . وحـين استطيع ان افكر فيه دون اية تسلية ، وانا وحدي مثلاً ، اكون سعيدة ايضاً . وحسبي ان اغمض عيني حتى اراه ماثلاً امامي حالاً ، وحسبي ان اتذكر كلماته حتى اسمعه . ان ذلك يجعلني اتأوه ، ثم اشعر قليلاً بشيء من الانفعال . ولا أستطيع ان استقر في مكان . كما لو كان الأمر فيه عذاب . وهـذا العذاب يولّد عذوبة لا استطيع ان اصفها لك .

اعتقـــد ايضاً ، حين يكون الانسان عاشقـــاً ، بأن العشق يطغى على الصداقة. ومع ذلك فأن الصداقة التي اكنها لك لم تتبدل . وهي ما زالت كما كنا في المدرسة . ولكن ما اقوله لك ، بتُّ أشعر بـــه مع السيدة دي ميرتاي . ويبدو لي ان حبي لها قد ازداد حتى بات في درجة متساوية مع حبي لدانسني وكما احبك انتِ ، وفي بعض الأحيان اتمنى لو تكون هو . ولعل هـذا عائد إلى ان صداقتها ليست صداقة طفولة كصداقتنا نحن ، أوربما لأنني اراهما غالباً معاً ، مما يجعلني لا أفرق بينهما . وأخيراً أجد بالحقيقة أنني مدينة بالسعادة اليهامعاً. وعلى كل حال ، فليس هناك من إثم كبير في كل ما افعله . وكذلك لا أطلب سوى ان اظل على ما انا عليه ، وليست هناك سوى فكرة الزواج التي تؤرقني ، لأنه لو كان السيد دي جيركور كما وُصف لي– واناالا أشك بذلك – فانني لا ادري ماذا سيكون عليه حالي معه . الوداع يا عزيزتي صوفي . أحبك دائماً بكل اخلاص .

٥٦

من الرئيسة تورفيل إلى الفيكونت دي فالمون

في ٥ أيلول ??١٧

ماذا يفيدك يا سيـــدي الجواب الذي تطلبه مني ؟ تصديق عواطفك ؟ أن يكون ذلك سبباً لكي اخشاها ؟ وحتى لو لم أهاجـــم او ادافع عن صدقها ، الا يكفيني ، أو بالاحرى الا يجب ان يكفيك ان تعلم بأنني لا أريد لا بل ولا ينبغي أن اجيبك عليها ؟

لنفترض انك تحبني حقيقة (وانني أرضى فقط بهذا الافتراض لـكي لا تعود إلى بحث هذا الموضوع) فهل ستكون العقبات التي تفصلنا أقل جسامة ؟ افلا يكون لديَّ اذن سوى التمني بأن يتـسنى لك قريباً التغلب على هـــذا الحب ، وبصورة خاصة مساعدتك على ذلك بنفسي ، عن طريق المبادرة إلى انـتزاع كل أمل ؟ انت نفسك توافق على أن « هذه العاطفة هي مرهقة حين يكون الشخص

twitter @baghdad_library

الذي يوحي بها لا يشاطرها البتة ، بيد انك تعلم جيداً انه من المستحيل عليّ ان اشاطرك اياها . وحتى لو أن هذه النكبة ستصيبني ، فسأكون في أمرّ الشكوى منها ، مما لن يجعلك اكثر سعادة . وآمل ان تحترمني بصورة كافية لكي لا تشك بذلك لحظة . كفّ أذن ، ناشدتك الله ، كفّ عن الرغبة في تعكير صفو قلب أجد أن الهدوء ضروري جداً له . ولا تحملني على الندم لكوني تعرفت عليك .

انني معززة محترمة من زوج أحبه واحترمه . ولذلك تنحصر واجباتي ومتعي في هدف واحد . انني سعيدة ويجب ان اكون سعيدة . واذا كانت توجد هناك لذائذ اكثر حرارة فلست ارغب فيها أبداً ، ولا اريد أن اعرفها . فهل ثمة أجمل من ان يكون الانسان في طمأنينة مع نفسه ؟ وألا تكون لديه سوى ايام صافية ؟ وان ينام دون همّ او قلق ، وان يستيقظ دون تأنيب ضمير ؟ وإن ما تسميه سعادة ليس الا ضجيج حواس ، او عاصفة من النوازع والاهواء التي يخيف منظرها ، وحتى رؤيتها من بعيد . آه ... كيف يتسنى لي مواجهة هذه الامور ؟ وكيف أجسر على ركوب بحر يغمره حطام ألوف ألوف الغرقى ؟ ومع من ؟ كلا يا سيدي ، كلا . انني سأبقى على الارض . انني استمرىء الصلات التي تربطني بالارض .

لماذا تتعلق بخطاي ؟ ولماذا تستمر باصرار على ملاحقتي ؟ ان رسائلك التي يجب ان تكون نادرة تتلاحق بسرعة هائلة . ومع أنها يجب ان تكون عاقلة ، أراك لا تحدثني فيها إلا عن حبك الجنوني الارعن . انك تحيطني بفكرتك أكثر مما تفعله بشخصك . لقد ابتعدت بشكل من الاشكال ولكنك تنبعث لي بشكل آخر . ان الاشياء التي اطلب منك ألا تقولها ، تكرر قولها ولكن بطريقة اخرى . لعله يسرك ان تثير ارتباكي بحجج جذابة . ولكنك تتهرب من حججي . انني لا أودّ بعد الآن ان أرد عليك ولن ارد عليك . ثم انك كيف تعامل النساء اللواتي أغويتهن ! وبأي ازدراء تتحدث عنهن ؟ اود الاعتقاد بأن بعضهن جديرات بذلك . ولكن هل كلهن محتقرات الى هذا الحد ؟ أجل بدون شك لأنهن خنّ واجباتهن لكي ينطلقن وراء حب « مجرم » . ومنذ

هذه اللحظة فقدن كل شيء ، حتى احترام ذلك الذي ضحين من اجله بكل شيء . ان هذا التعذيب عادل ، ولكن الفكرة وحدها تدبُّ الرهبة في النفس. ولكن لماذا اشغل نفسي بهن وبك ؟ ماذا يهمني على كل حال ؟ بأي حق تأتي لتفسد هنائي ؟ دعني يا سيدي ، دعني ولا تراني أبداً . لا تكتب الي مطلقاً ، ارجوك ، بل أصر عليك . وهذه الرسالة هي الاخيرة التي تتلقاها مني .

٥٧

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

في ١٥ ايلول ؟؟ ١٧

وجدتُ رسالتكِ أمس لدى وصولي ، وقد سرني جداً غضبك . من المحتم لو ان دانسني ارتكب هذه الاخطاء تجاهك لما كنتِ حنقت عليه مثل هذا الحنق . ولا ريب بأن الانتقام هو الذي يملي عليك تعويد « خليلته » على القيام ببعض الخيانات الصغيرة له . فأنتِ كائن فظيع . اجل انك فاتنة ، ولا يدهشني ان تكون الفتاة أقل مقاومة نحوكِ مما هي عليه نحو دانسني .

وأخيراً بتُّ أعرف جيداً بطل الرواية الجميل هذا ! ولم يعد يخفي عني أي سر . لقد كررت كثيراً على مسامعه ان الحب الشريف هو ذروة الحب ، وان العاطفة افضل من المكيدة ، وانني انا نفسي اصبحت الآن واقعاً في الحب وخجولاً . وقد وجد عندي بذلك طرازاً من التفكير متفقاً مع طرازه ، بحيث انه لغبطته من سذاجتي ، روى لي كل شيء ، واقسم لي على منحي صداقته دون تحفظ . ولكننا لم نتقدم خطوة واحدة بعد في مشروعنا .

لقد أظهر لي في البداية ان طريقته تقوم على أساس أن الآنسة تستحق المداراة والملاطفة اكثر من المرأة التي لا تخشى فقدان أي شيء . وهو يجد بصورة خاصة انه لا شيء هناك يبرر قيام رجل بجعل فتاة في حاجة ماسة الى الزواج منه أو العيش مفقودة الشرف ، حين تكون الفتاة أغنى منه ثروة ، كما هو الحال

twitter @baghdad_library

معه الآن . فهناء الأم واملها وسذاجة الفتاة ، كل ذلك يرهبه ويوقفه عند حده.

والمحيّر في الأمر ليس مقارعة حججه ومنطقه، مهما كانت صحيحة، بل لابدّ من البراعة والدهاء لتحطيم هذه الحجج ، لاسيما انها لا تخلو من سخافة . ولكن ما يحول دون ذلك هو أنه لا يشعر بتذمر من وضعه الحالي ، بل انه سعيد كما هو الآن . وبالفعل اذا كانت الغراميات الأولى تبدو بصورة عامة شريفة وبريئة كما يقال ، واذا كانت بطيئة في سيرها ، فليس لأن ذلك عائد الى الرقة والحياء، بل لأن القلب ، وقد أُفعمَ بعاطفة مجهولة ، يتوقف ، اذا صح هذا التعبير ،عند كل خطوة ، لكي يتذوق المتعة التي يشعر بها . وان هذه المنعة على جانب كبير من القوة بالنسبة لقلب جديد ، بحيث تشغله الى درجة تنسيه اية متعة أخرى . ان هذا صحيح بحيث ان الإباحي العاشق، مهما كان على درجة كبيرة من الفسق ، يصبح منذ هذه اللحظة ، اقل استعجالاً للمتعة ، واخيراً فان مسلك دانسني مع الصغيرة فولانج لا يختلف كثيراً عن مسلكي تجاه السيدة دي تورفيل .

وقد كان ينبغي لإلهاب حواس شابنا الغرير ، ان يصادف في طريقه عقبات أشد صعوبة ، وبصورة خاصة ان يكون بحاجة الى دافع خفي ، فالدافع الخفي يقود الى الجرأة ، ولذلك فلا أستبعد الاعتقاد بأنكِ قد آذيتنامن حيث لاتشعرين بتسهيل السبل امامه زيادة عن الحد اللازم ، ولربما كان مسلكك رائعاً بالنسبة لرجل ذي خبرة لا تعتمل في نفسه سوى الشهوات . ولكن كان بإمكانك ان تتوقعي بالنسبة لشاب فتيّ شريف وعاشق بأنّ جل ما يتمناه هـــو ان ينال برهاناً على الحب . وبالنتيجة كلما كان متأكداً بأنه سيكون محبوباً ، كلمـا كان أقل مغازلة ورغبة في مطارحة الغرام . فما العمل الآن؟ لست ادري ، ولكنني لا اتوقع بأن تُغتصب الفتاة قبل الزواج . وبذلـــك تكون جهودنا قد ذهبت ادراج الرياح ، انني متكدر جداً ، ولكنني لا أجد اي علاج .

فيما اكتب اليك هذه الرسالة الآن، اعتقد انك تفعلين شيئاً أفضل مع فارسك المتيّم. وهذا ما يجعلني افكر بأنك كنت قد وعدتني بأن تخونيه معي ،وما زلت أملك وعدك خطياً . ولكنني لا أريد أن اجعل منه وعداً خيالياً . انا موافق

على ان موعد تنفيذه لم يحن بعد ، ولكن سيكون تلطفاً من جانبك لو تركتني لا انتظر طويلاً ، وانا من ناحيتي سأمنحك كل عنايتي . فمـــا رأيك يا صديقتي الحسناء ؟ ألم تتعبي بعد من ثباتك ؟ فهذا الفارس هو اذن رائـع ؟ آه ، دعيني أقول . أود ان احملك على الاعتراف بأنك اذا كنتِ قد وجدت فيه بعض المزايا فذلك يعني انك نسيتني.

الوداع يا صديقتي الحسناء ، اقبلك كما اشتهيك ، وانني اتحدى جميع قبلات الفارس اذا استطاعت ان تكون بمثل هذه الحرارة .

٥٨

من الفيكونت دي فالمون إلى الرئيسة دي تورفيل

في ٧ أيلول ؟؟ ١٧

من اين استحققتُ ياسيدتي الملامات التي توجهينها إليَّ والغضب الذي تبدينه نحوي ؟ فالتعلق الشديد ولكنه مع ذلك الأشد احتراماً ، والخضوع الكامل لأقل رغباتك ، هما بكلمة واحدة كل قصة عواطفي ومسلكي نحوك . أما وقد هدّتْ قواي آلام حب تعيس ، فلم تبق لي من سلوى سوى رؤيتك . وقد أمرتِني بأن أحرم نفسي منها ، فامتثلتُ دون أن اسمح لنفسي بأي اعتراض . وكثمن لهذه التضحية سمحتِ لي بأن اكتبَ اليك ، واليوم تريدين ان تنزعي مني هذه المتعة الوحيدة . فهل أدعُ نفسي أُسلبُ هـــذه المتعة دون ان احاول الدفاع عنها ؟ كلا بدون شك . اذ كيف لا تكون عزيزة على قلبي ؟ وهي الوحيدة التي بقيت لي وقد حصلت عليها منكِ .

تقولين ان رسائلي متكاثرة جـداً . فكري إذن ، أرجوك ، بأن منفاي قد مضت عليه عشرة أيام ، وانني لم أقض لحظـــة واحدة دون أن اهتم بك ، وانك خلال ذلـــك لم تتلق مني سوى رسالتين لم احدثك فيهما إلا عن حبي ! ولكن ماذا استطيع ان اقول سوى ما أشعر به ؟ إن كل ما قمت بـه هو انني

twitter @baghdad_library

خففت التعبير – وتستطيعين ان تصدقيني – لأنني لم ادعك ترين إلا ما كان من المستحيل علي اخفاؤه .

تهددينني اخـــيراً بأنك لن تجيبي مطلقـــاً على رسائلي . وهكذا كأنه لم يكفك انتعاملي بقساوة الرجل الذي يفضلك على الجميع ، ويحترمك ايضاً اكثر مما يحبك فإذا بك تريدين الآن ان تضيفي الاحتقار الى ذلك . ولماذا هـــذه التهديدات ؟ وهذه الحركة؟ هل انت بحاجة اليها؟ ألست متأكدة بأنك مطاعة ، حتى في اوامرك العاتية ؟ وهل من الممكن لي أن اعارض اية رغبة من رغباتك ؟ ألم ابرهن على ذلك من قبل ؟ ولكن هـل انت تستغلين هذا السلطان الذي لك عليّ ؟ اذ بعد ان جعلتني تعيساً ، وبعد أن اصبحت جائرة ، هل سيكون من السهل عليك اذن انتتمتعي بهذا الهناء الذي تؤكدين انه ضروري لك ؟ ألن تقولي لنفسك ابداً : لقد تركني اكون سيدة مصيره فسببت تعاسته ، لقـــد منحني ثقته فخنت هذه الصداقة ، وقد استغاث بمساعدتي ، فنظرت اليه دون شفقة ؟ هل تدرين إلى اي حد يمكن أن يمضي يأسي وقنوتي ؟ كلا .

لكي أحسب آلامي ، ينبغي ان تعرفي إلى اية درجة احبك ، انت لا تعرفين قلبي .

مقابل اي شيء تضحين بي ؟ مقابل مخاوف وهمية . ومن الذي يوحي اليك بها ؟ إنه رجل يعبدك... انه رجل لن تكفي عن ان يكون لك سلطان مطلق عليه . ماذا تخشين اذن ؟ لا بل ماذا يمكن ان تخشين من عاطفة ستكونين انت دوماً سيدتها ، توجهينها كما تشائين ؟ ولكن خيالك يستنبط اشباحاً وهميـــة مخيفة . وان الرعب الذي تسببه لك هذه الاشباح تعزينها الى الحب . قليل من الثقة واذا بأشباحك تختفي .

قال احد الحكماء لكي يبدد مخاوفه « يكفي دوماً أن نتعمق في البحث عن اسبابها »[1] . إن هذه الحقيقة هي اكثر انطباقاً على الحب بصورة خاصة . احبي ،

---

(١) يعتقد بأن هذا القول مأخوذ عن روسو في كتابه « اميل » ولكن الاستشهاد به ليس صحيحاً ، وان التمثل به كما يفعل فالون خطأ . ثم هل تكون السيـــدة تورفيل قد قرأت « اميل » ؟ المؤلف

واذا بمخاوفك تزول . وستجدين مكان الاشياء التي تخيفك ، عاطفة لذيذة ، وعاشقاً حنوناً خاضعاً . ولن تدع لك جميع ايامك المفعمة بالسعادة اي نـــدم آخر سوى انك اضعت بعضها في اللامبالاة . وانا نفسي ، ما ان اقلعت عـــن اخطائي ، حتى أخذتُ لا اعيش إلا من اجل الحب ، وانا أندم على وقت اعتقدت انني قضيته في اللذائذ ، فاذا بي اشعر انه كان من حقك وحدك ان تجعليني سعيداً. ولكنني أناشدك ألا تعكري المتعة التي اجدهـــا في الكتابة اليـك بسبب الخوف من الا أعجبك . انني لا أريد أن اعصي لك مشيئة . ولكنني اجثو عند اقدامك ، واطالب بالسعادة التي تريدين ان تسلبيها مني ، وهي الوحيدة التي تركتها لي . استصرخك قائلاً : إصغي الى توسلاتي وانظري الى دموعي. آه يا سيدتي ، هل ستصدينني ؟

٥٩

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

في ٨ ايلول ؟؟ ١٧

اعلميني ، اذا كنتِ تدرين ، ماذا يعني هذيان دانسني هذا ؟

ماذا حدث اذن ؟ وماذا اضاع ؟ لعل حسناءه غضبت عليـه من إحترامه الابدي . يجب ان يكون هناك إنصاف ، وان يكون هناك غضب اقل . ماذا سأقول له هذا المساء في الموعد الذي طلبه مني ، والذي حددته له كيفما اتفق؟ من المؤكد انني لن اضيع وقتي في الاصغاء الى لواعجه واشجانه ، اذا كان ذلك سوف لا ينفعنا شيئاً . لان استماع اللواعج الغرامية ليست محتملة إلا في الاغاني المصحوبة مع انغام الموسيقى او في الالحان الخفيفة الوزن . ابلغيني اذن ماذا حدث ؟ وماذا يجب ان اعمل ؟ وإلا فانني سأخل بالموعد واهرب لتجنب الضجر الذي اتوقعه . هل استطيع ان اتحدث اليك هـــذا الصباح ؟ اذا كنتِ « مشغولة » اكتبي إليَّ على الأقل كلمة واحدة واطلعيني على دوري في المسرحية .

twitter @baghdad_library

اين كنتِ اذن أمس ؟ انني لا أتوصـــل الى رؤيتك . في الحقيقة لم يكن من الضروري ان احضر الى باريس في شهر ايلول. احزمي امرك إذن ، لأنني تلقيت الآن دعوة ملحة من الكونتيسة دي ب ... لكي اذهب فأراهـا في الريف ، حيث تعلمني «ان زوجها يملك اجمل حديقة في العالم يحتفظ بها بعناية لمتع اصدقائه ». وسأذهب لأراها اذا لم تكوني بحاجة إليّ. الوداع ، لا تنسي ان دانسني سيكون عندي حوالي الساعة الرابعة .

٦٠

من الفارس دانسني الى الفيكونت دي فالمون

(مرفقة مع الرسالة السابقة)

في ٨ أيلول

انني في حالة شديدة من اليأس يا سيدي ، لقد فقدت كل شيء . ولا أجرؤ على الافضاء بسر آلامي على الورق . ولكنني بحاجـة إلى ان أنشرها في صدر صديق موثوق حساس .

في أية ساعة استطيع اذن ان اراك ، لأبحث لديك عن عزاء ونصائح ؟ لقد اصبح الوضع في الوقت الحاضر مختلفاً ! لقد تبدل كل شيء بالنسبة لي . إن ما أعانيه الآن من عذاب ليس إلا قسطاً صغيراً من شجوني وقلقي على انسان عزيز . وهذا ما لا أستطيع تحمله . أنت اسعد مني حظاً ، إذ تستطيع ان تراها ، وانا انتظر من صداقتك الا ترفض لي هذا المسعى .

ولكن يجب ان أحدثك ، ان اطلعك على الأمر . انك سترثي لحـالي كما ستغيثني ، وليس لي امل الا فيك . انت واسع الصدر وتعرف ما هو الحب ، انت الوحيد الذي استطيع ان اركن اليه . فهل ترفض منحي مساعدتك .

الوداع يا سيدي ، ان العزاء الوحيد الذي اشعر بـه في عذابي هو التفكير بأنه ما زال لي صديق مثلك. ارجوك ان تعلمني في اية ساعة استطيع ان القاك. واذا لم يكن هذا الصباح فليكن في ساعة مبكرة بعد الظهر .

٦١

من سيسيل فولانج إلى صوفي كارني

في ١٧ ايلول ؟؟ ١٧

أرثي لي يا عزيزتي صوفي لإنّ سيسيلتك المسكينـــة اصبحت في حالة تعيسة جداً ! ذلك ان والدتي باتت تعرف كل شيء الآن . ولا افهـم كيف تسنى لها ان تشك بشيء ما ، ومع ذلك فقـد اكتشفتْ كل شيء . ففي مساء امس تعشت السيدة دي ميرتاي هنا مع بعض الاشخاص الآخرين ، وقد بدتْ والدتي مشغولة البال . ولكنني لم اعلق اهميـة كبيرة على ذلك ، وحتى بانتظار انتهـاء حفلتها كنت اتحدث بحبور مع السيدة دي ميرتاي ، وقـــد تحدثنا طويلا عن دانسني . ولا اظن مـع ذلك ان احداً استطاع ان يسمعنا . وحين انصرفتْ ، ذهبتُ الى شقتي .

كنت مازال أخلع ملابسي،حين دخلت والدتي عليّ ، وأخرجت الخادمة، ثم طلبت مني مفتاح خزانة مكتبي ، وقد سببتْ لي اللهجة التي خاطبتني بهـا انفعالاً قوياً لم أستطع معـــه أن اتمالك نفسي . وبدوتُ كأنني لم اعثر عليه : ولكن كان لا بدّ في النهاية من أن اطيع . وكان أول درج فتحته هو ذلك الذي اخبىء فيه رسائل الفارس دانسني . وكنت مضطربة جداً بحيث انهـــا حين سألتني ما هذا ؟ لم استطع أن اجيبها سوى انه لا شيء . ولكنني حـين رأيت انها اخذت تقرأ اول رسالة وقعت يدها عليها ، أصبتُ بدوار شديد ، فوقعتُ فوق أول « كنبة » ثم أغمي علي . وما ان استعدتُ رشدي حتى انصرفت امي بعد ان استدعتْ الخادمة ، وطلبتْ اليّ ان أنام: ثم حملت معها جميع رسائل دانسني . انني ارتعب الان خوفاً كلما افكر بأن عليّ ان اظهر من جديد امامها ، ولم انقطع عن البكاء طول الليل .

انني اكتب اليك عند طلوع النهار، على امل ان تأتي جوزفين. واذا استطعت ان اتحدث معها وحدي ، فسأطلب اليها ان تنقل للسيدة دي ميرتاي رســـالة

twitter @baghdad_library

صغيرة ساكتبها اليها الان ، والا سأضعها ضمن رسالتي ، وارجو ان تبعثي بها اليها كما لو كانت من قبلي . وانني لا استطيع ان اتلقى اي عزاء الا منهـــا . وأستطيع على الاقل ان اتحدث معها عنه ، لأنني لم اعد آمـل في رؤيته . انني تعيسة جداً ! وقد تتكرم هي بأن تنقل مني رسالة الى دانسني . اذ لا اجرؤ على الوثوق بجوزفين في هذه المهمة ، ولا بخادمتي التي قـد تكون هي اخبرت امي عن وجود رسائل في خزانتي !

لن اكتب اليك مطولاً ، لأنني اريد ان اكتب الى السيدة دي مـيرتاي ، وكذلك الى دانسني ، لكي تكون رسالتي جاهزة اذا وافقت عـــلى تسليمها ، وبعد ذلك سأنام حتى اذا ما دخل احدهم لرؤيتي فسيجدني في السرير ، وسأقول انني مريضة لكي اعفي نفسي من الذهاب لمقابلة والدتي . ولن اكذب كثيراً اذا قلت ذلك ، لأنني اتعذب الآن اشد ممـــا لو كنت مصابة بالحمى . وإن عينيّ الآن تحرقانني لفرط ما بكيت ، واشعر بثقل فوق معدتي يمنعني من التنفس . حين افكر انني سوف لا ارى دانسني اتمنى ان اكون ميتـة . الوداع يا عزيزتي صوفي ، لا استطيع ان اقول لك اكثر من ذلك . فالدموع تجعلني في غصة . *

٦٢

من السيدة دي فولانج الى الفارس دانسني

في ٧ ايلول ؟؟ ١٧

بعد أن أسأت يا سيدي الأمانة التي وضعتهـا فيك أم ، واستغللت براءة ابنة ، سوف لا يدهشك ولا شك انك لن تُستقبلَ ابداً في منزل لم تستطع ان تتقيد مع اهله بشروط الصداقـــة الخالصة ، بـل تناسيت جميع المبادىء .

---

* لقد حذفنا رسالة سيسيل الى السيدة دي ميرتاي وهي لا تتضمن سوى الوقائع السابقة مع تفاصيل أقل ، اما رسالتها الى دانسني فلم نعثر عليها وسنعرف السبب في الرسالة رقم ٦٣ .

افضّل ان أرجوك عدم المجيء الى منزلنا، بدلاً من إصدار أوامر بذلك الى خدمي يمكن ان تورطنا جميعاً ، عن طريق الملاحظات التي قد يبدونها . ولي الحق بأن ارجوك ألاّ تضطرني الى اللجوء الى هذه الوسيلة ، وأنذرك ايضاً بأنك إذا قمت في المستقبل بأقل محاولة للتغرير بابنتي ، فسأعمد الى عزلها عزلة قاسية أبدية لكي انتزعها من ملاحقاتك . وان عليك وحدك يتوقف ، يا سيدي ، اذا كنت لا تخشى تسبيب مثل هذا الحظ التعيس لها ، كما لم تخشَ من قبل محاولة ثلم شرفها . أما في ما يتعلق بي فان اختياري قد تم ، وقد أعلمتها به .

تجد طيه ربطة تضم رسائلك ، واعتقد انك ستعيد إليّ بالمقابل جميع رسائل ابنتي ، وترضى بعدم ترك اي أثر من حادث لا نستطيع ان نحتفظ بذكراه : انا دون استنكار ، وهي دون خجل ، وانت دون تبكيت ضمير . لي الشرف يا سيدي ان اكون الخ ...

٦٣

من المركيزة دي ميرتاي إلى الفيكونت دي فالمون

في ٨ أيلول ؟؟ ١٧

أجل ، سأشرح لك رسالة دانسني : ان الحادث الذي جعله يكتب رسالته اليك هو كما اعتقد من صنع يدي . ومنذ ان وصلتني رسالتك الاخيرة لم أضع دقيقة واحدة من وقتي سدى ، وقد قلتُ كذلك المهندس الاثيني: « أن ما قاله، سأفعله » .

أجل لا بدّ من ايجاد عقبات بوجه هذا البطل الجميل ، فهو ينام على حرير ! آه ! فليأتِ إليّ الآن وسأجد له عملاً. فإما أن أخطيء وأما أن أقضّ مضجعه . إذ عليه ان يتعلم قيمة الوقت، وانا مغتبطة لأنه الآن نادم على الوقت الذي أضاعه . وينبغي كما قلتَ أنت ان يكون بحاجة الى دافع خفي . وهكذا فان هذه الحاجة لن تعوزه بعد الآن أبداً . وانا مصممة على ذلك ، اذ ما إن يطلعني

twitter @baghdad_library

احد على اخطائي حتى اسارع حالاً الى تلافيها واصلاحها. فاعلم اذن ماذا جرى :

لدى عودتي صباح أمس الاول الى بيتي قرأت رسالتك ووجدتها رائعة مضيئه . وقد اقتنعت بأنك قد حددت جيداً موضع الألم ، فلم اهتم إلا بايجاد الوسيلة لشفائه . وقد بدأتُ مع ذلك بالرقاد ، لأن فارسي الذي لا يكلّ لم يدعني انام لحظة واحدة ، وظننتُ انني سأشعر بالنعاس ولكن على العكس تماماً . فحصرت كل اهتمامي بدانسني وبالرغبة في انتزاعه من بلادته ، وبأن أثأر منه على ذلك ، مما حرمني الرقاد ، ولم استطع الى النوم سبيلا الا بعد أن نسقت خطتي كما يجب ، فنمت ساعتين . وكان شأني كشأن الماريشال دي ساكس الذي لم ينم باطمئنان الا بعد ان وضع جميع خطط معركة اليوم التالي .

وقصدت في المساء منزل السيدة فولانج ، وانتحيت بها جانباً وفق خطتي ، وأخبرتها ان لديّ سراً يجب الافضاء به اليها ، وقلت : اعتقد انني متأكدة من وجود علاقة خطرة بين ابنتها وبين دانسني . ومع أن هذه المرأة تعتبر حذرة ومتيقظة جداً ضدك ، الا أنها معمية القلب الى درجة انها اجابتني اولاً بأنني مخطئة اكيداً وان ابنتها ما تزال طفلة الخ . الخ... ولكنني لا استطيع ان اقول لها كل ما اعرفه ، فاستشهدت بنظرات واقوال «لم تستطع فضيلتي وصداقتي ان تسكت عنها» . ثم تحدثت معها بطريقة تجعل اعظم التقيات الورعات يخشعن امامها . وعمدت لكي اوجه الضربة الحاسمة الى القول «اظن انني شاهدت تبادل مراسلة بينهما» . ثم أضفتُ : ان ذلك يذكرني بأنني رأيت ذات يوم وقد فتحت سيسيل امامي خزانة مكتبها عدداً لا يستهان به من الرسائل ، وانها لا شك تحتفظ بها . وهنا سألتها : هل تعرفين بوجود مراسلة متواترة عندها ؟ فكان ان تبدل وجه السيدة دي فولانج ، ورأيت بعض الدموع تترقرق في عينيها . وقالت لي وهي تضغط على يدي : اشكرك يا صديقتي الفاضلة ساحاول ان استوضح الأمر .

بعد هذه المحادثة القصيرة جداً التي لا يمكن ان تثير الشبهة ، تقربت بدوري الى الفتاة ، ثم تركتها بعد فترة وجيزة لكي أرجو امها بألا تورطني تجاهها ، وكان ان وعدتني بذلك عن طيبة خاطر ، وقلت لها كم سيكون من

حسن الحظ لو ان «هذه الطفلة» تمنحني ثقتها بصورة كافية لكي تفتح لي قلبهـــا وتجعلني في وضع اتمكن معه من «تقديم نصائحي الحكيمة اليها» .

وان ما يضمن لي انها ستبرُّ بوعدها هو كوني لا اشك بانها تريد ان تفخر بابنتها . وهكذا وجدت نفسي هنا مأذونة بان احتفظ بلهجة الصداقة مـع البنت دون ان ابدو مزيفة بنظر الأم ، وهذا ما اردت تجنبه . وقد فزت في ان امكث على الاثر اطول مدة ممكنة مع الفتاة نتبادل الاسرار بحيث لم يتبادر الى ذهن الأم اي ظل من الشك .

وقد اغتنمت الفرصة – في المساء نفسه بعـد ان انتهيت من تنفيذ خطتي – بان انتحيت بالفتاة جانباً وانتقلت بالحديث معها الى موضوع دانسني ، وهـــو موضوع لا يمكن ان تكلَّ فيه ابـداً . وكنت اتسلى في شحن ذهنها باللذة التي ستنالها عند رؤية دانسني غداً . اذ لا بد من جعلها تعيش بالأمل بعد ما حطمته لها في الحقيقة . ثم ان كل ذلك سيؤدي الى جعل الضربة اكثر تأثيراً ، وانا مقتنعـة بأنه كلما كان عليها ان تتعذب كلما اصبحت متعجلة في ان تعوض عما فاتها في اول فرصة . وانه لمن الافضل تدريب المرء على الحركات الكبيرة بعد ان أُعد للمغامرات الكبرى .

وعلى كل حال الا تستطيع هي ان تذرف بعض الدموع مقابل متعة الحصول على عشيقها دانسني؟ انها متيمة به الى حد الجنون . اذن اتعهد لها بانها ستناله حتما . وبالاحرى لن تنـاله دون دفع هذه الجزية . إن هو إلا حـــلم مزعج سيكون الاستيقاظ على أثره ممتعاً . ومهما يكن يلوح لي أنها ستكون مدينة لي بالامتنان . وفي الواقع اكون قد وضعت شيئـــاً من الخبث ، ينبغي ان نتسلى جيداً . « والحمقاء هم هنا في الاسفل لتغذية متعنا » [1]

واخـيراً إنصرفت وانا مسرورة جـــداً من نفسي ، وقلت : إما ان تزيد العقبات حيويـــة دانسني فيضاعف نشاطه ، وعندئذ سأخدمه بكل قوتي ، واما أنه احمق مغفل ، كما يخيل لي احياناً ، فسيدع اليأس يتطرق إلى قلبه ويعترف

(١) غريسيه في مسرحيته الكوميدية « الشرس » .

twitter @baghdad_library

بهزيمته . وفي هذه الحالة اكون على الأقل قد انتقمت منه كما انتقم مني، واكون في هذه العملية قد زدت من احترام الأم لي ، ومن صداقة الفتاة نحوي وثقتها بي .

أما جيركور : الهدف الأول لاهتمامي ، فسأكون تجاهه تعيسة جـــداً او هوجاء. ولكن بما انني سأكون المسيطرة على تفكير زوجته كما انا الآن وكما سأزداد سيطرة عليها ، فسأجد ألف وسيلة لأجعل منها ما أريده أن يكون . وكان ان نمت على هذه الافكار: وهكذا نمت جيداً ولم استيقظ الا في ساعة متأخرة جداً.

ولدى نهوضي وجدت رسالتين : احداهما من الأم والأخرى من البنت ، ولم استطع منع نفسي من الضحك حين وجدت في الرسالتين تماماً هذه العبارة نفسها « وانني انتظر منك وحدك بعض العزاء » . أليس ذلك ممتعاً ان أواسي الاثنتين في وقت واحد وأن اكون الوكيلة الوحيدة لمصلحتين متضاربتين بصورة مباشرة؟ وها انني أصبحت كالألوهية اتلقى التمنيات من البشر ولا أبدّل شيئاً من قراراتي المتخذة سلفاً. وقد تخليت عن هذا الدور الجبار لكي اقوم بدور الملاك المؤاسي ، وكان أن زرت الصديقتين على التوالي محاولة تفريج همهما .

وبدأت بالأم ، فوجدتها في حالة من الكآبة تجعلك تنتقم لنفسك مما سببته لك من مضايقات تجاه الورعة الحسناء . وقد نجح كل شيء بصورة رائعة : وكان قلقي الوحيد هو انها لم تغتنم هذه الفرصة لتفوز بثقة ابنتها ، وهذا ما كان اكثر سهولة عليّ حين استخدمت معها لهجة النعومة والصداقة ، وتقديم الحجـــج المنطقية بصيغة التسامح الحنون . ولحسن الحظ تسلّحتْ بالصرامة ، واخيراً اساءت التصرف بحيث انني هلّلتُ لها. صحيح انها فكرت بهدم جميع مشاريعنا بالرأي الذي اتخذته بان تجعل ابنتها تدخل الدير : ولكنني تغلبت على هـــذا الرأي وحملتها على ان تعمد فقط إلى التهديـــد بـه في حالة استمرار دانسني في ملاحقاته : كل ذلك بقصد حملها كلتا الاثنتين على ان تحذر احداهمـا الاخرى ، وهذا ضروري لنجاح الخطة .

ثم ذهبت لرؤية الابنة ، وليس بامكانك ان تتصور كم ان العذاب زاد من جمالها. يخيّل لي بأنها ستبكي غالباً من اجل قليل من البهاء الذي تبدو عليه. وفي هذه المرة

كانت تبكي بصورة جدية ، وقد أدهشتني فيها هذه الميزة الجديدة التي تبعث على الاعجاب والتي لم اكن اعهدها فيها من قبل، فكنت مسرورة بمراقبتها، ولم أقدم اليها في البداية سوى مؤاساة خرقاء: تزيد الآلام بدلاً من ان تخففها. وبهذه الطريقة وجهتها نحو نقطة جعلتها متأثرة حقيقة. ولم تعد تبكي، وخشيت لحظة ان تصاب بالاغماء ، فنصحتها بالتزام الفراش ، فرضيت بذلك ، وطلبت الى الخادمة أن تساعدها على التخلص من زينتها، وما لبث شعرها الاشقر ان تبعثر على كتفيها وفوق صدرها الذي كان منكشفاً بكامله ، فقبلتها ، واذا بها تستسلم من جديد للبكاء . يا الهي كم كانت جميلة وهي بين ذراعي . آه لو أن المجدلية كانت بهذا الجمال لكانت اكثر خطراً .

وحين رقدت المتحسرة الحسناء في السرير اخذتُ أواسيها هذه المرة من كل قلبي . فطمأنتها اولاً بصدد خوفها من العودة الى الدير ، وجعلتها تأمل بأنها تستطيع ان ترى دانسني بصورة سرية . ثم جلست على السرير وقلت لها : « لو كان هنا الآن» وأخذت أدور حول هذا الموضوع. وهكذا من تسلية الى اخرى لم تعد تتذكر شيئاً مما سببه لها الألم، وكان ان افترقنا ونحن مسرورتان كل السرور لولا انها كلفتني بتسليم رسالة الى دانسني ، وهذا ما رفضته كل الرفض ، واليك الأسباب وانت ستقرّني عليها بدون شك :

أولاً عدم رغبتي في أن اورط نفسي تجاه دانسني ، وهو السبب الوحيد الذي ابديته للصغيرة . ثم هناك أسباب كثيرة بيني وبينك . افلا نكون قد جازفنا بثمرة اتعابنا حين نتيح لهذين الشابين وسيلة سهلة جداً لتخفيف لواعجهما ؟ وكذلك لا اجد غضاضة في ان اجعلها يشركان بعض الخدم في هذه المغامرة حتى اذا جرت بصورة حسنة كما آمل ، ينبغي أن تعرف حالاً بعد الزواج ، وليست هناك وسائل لنشرها أضمن من الخدم . أما لو حدثت اعجوبة ولم يكشف الخدم السر ، فأننا سنكشفه بدورنا ، وسيكون من السهل وضع المسؤولية على عاتقهم عندئذ .

ولا بد إذن من ان توحي اليوم بهذه الفكرة الى دانسني ، وبما انني غير واثقة

twitter @baghdad_library

من خادمة الصغيرة فولانج التي تبدو هي نفسها حذرة منها ، فانصحه باستخدام خادمتي فيكتوار الأمينة . وسأهتم بأن اجعل المسعى ينجح . وهذه الفكرة تعجبني جداً لا سيما وأنها تتيح لنا ان نطلع على الاسرار بسهولة ممـــا يخدم مشاريعنا اكثر . لم أصل بعد الى نهاية قصتي .

إذ فيما كنت أتمنع عن قبول نقل رسالة صغيرة ، كنت اخشى في اية لحظـة ان تقترح عليّ وضعها فقط في البريد . ولحسن الحظ لم تحدثني عن ذلك ، بسبب اضطرابها أو بسبب جهلها او لانها تهتم بالجواب اكثر من رسالتها . الخلاصة لكي أبعدها عن هذه الفكرة ، أو لأحول بينها وبين استخدامها صممت على اتخـــاذ قرار في الحـال ، فذهبت الى الام وحملتها على ان تقرر إبعاد ابنتها بعض الوقت وان تقودها الى الريف ؟ واين ؟ الا يخفق قلبـــك فرحاً ؟ لدى عمتك العجوز السيدة دي روزموند . وهي تعتزم ان تبلغها النبأ اليوم : وهكذا سيتاح لك أن تعود فترى ورعتك الحسناء التي لن تخشى هـذه المرة الفضيحة بأن تجـد نفسها معك وجهاً لوجه . كما ان السيدة دي فولانج بفضل عنايتي ستتدارك بنفسها خطأها الذي ارتكبته نحوك .

ولكن إصغِ اليّ جيداً ، ولا تهتم بقضاياك كثيراً بحيث تضيع هذه القضية التي هي امامك الآن ، بل فكر بأنها تهمني . أود ان تجعل من نفسك مراسل ومستشار هذين الشابين . ابلغ اذن نبأ هذه الرحلة الى دانسني ، واعرض عليه خدماتك ، ولا تجد صعوبة في ايصال اوراق اعتمادك منه الى حسنائه ، بل أزل هذه العقبة حالاً ، بأن تدله على طريقة خادمتي ، وليس هناك من شك في انـــه سيقبل . وستنال مقابل متاعبك ثقة قلب جديد ممتع ، وكم ستتورد الصغيرة المسكينة خجلاً حين تسلمك رسالتها الأولى ؟ وفي الحقيقة يبدو لي أن دورك كموضع إسرار هو تسلية جميلة حين تكون مشغول الفكر بشيء آخر .

إذن يتوقف حل هـذه العقدة على عنايتك . وفكر في اللحظة التي يجب فيها جمع هذين الممثلين . والريف يتيح الف وسيلة لذلـــك ، وسيكون دانسني مستعداً لأن يذهب الى الريف عند اول دعوة منك . ثم تكفي ليلة واحدة مع

تنكر ونافذة ، وما شاكل ... انت أدرى. ولكن اذا عادت الفتاة من رحلتها كما ذهبت فان اللوم يقع على عاتقك هذه المرة ، ويا ويلك مني ..واذا كنت تجد انها بحاجة الى بعض التشجيع من جانبي ، اكتب اليّ . واعتقـــد انني اعطيتها درساً ممتازاً حول اخطار الاحتفاظ بالرسائل بحيث انها لن تجسر على الكتابة اليه في الوقت الحاضر ، وما زلت أصرّ على ان اجعل منها تلميذتي .

اظن انني نسيت ان اخبرك ان شكوكها حول فضح الرسالة قد حامت اولاً حول خادمتها، ولكنني حولتها نحو المعرّف. واكون بذلك قد رشقت عصفورين بحجر واحد .

الوداع ايها الفيكونت ، ها قد مضى وقت طويل وانا اكتب اليك ، وقـد تأخرت عن الغداء . ولكن حب الذات والصداقة أملتا عليّ هـــذه الرسالة وكلاهما ثرثاران ... الخلاصة ستصلك هذه الرسالة قبل الساعـة الثالثة . وهي كل ما تحتاج اليه .

هل ما زلت تشكو مني الآن ؟ اذا جرؤت على ذلـك فاذهب وشاهد غابة الكونت دي ب ... تقول انه يحتفظ بها لإمتاع اصدقائه ، فهذا الرجل اذن هو صديق جميع الناس .. ولكن الوداع انا جائعة .

٦٤

من الفارس دانسني الى السيدة دي فولانج

(مسودة مرسلة ضمن الرسالة رقم ٦٦ من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي)

في ٩ ايلول ؟؟ ١٧

لن إحـاول يا سيدتي ، ان ابرر مسلكي ، ولن أتذمر من مسلكك ، فانني متكدر كل التكدر من حادث سبّب تعاسة ثلاثة اشخاص ، جميعهم جديرون بمصير أسعد، وانني اشد تأثراً لحزن كنت سببه بدلاً من ان اكون ضحيته. وقد حاولت غالباً منذ الأمس ان يكون لي الشرف بالرد عليك ، دون ان يتسنى لي ذلك .

twitter @baghdad_library

ولديّ مع ذلك اشياء كثيرة لأقولها لك بحيث ينبغي ان ابذل جهداً في هذا الصدد. واذا كانت هذه الرسالة غير منتظمة وغير متلاحقة الافكار فذلك ـ كما تشعرين ـ لأن وضعي مؤلم جداً حتى امنح نفسي بعض التسامح .

إسمحي لي أولاً أن أحتج على العبـــارة الأولى من رسالتـــك ، فانا لم أُسِيء الامانة التي وضعتِها بي ولم استغل براءة الآنسة دي فولانج ، بل احترمت هـــذه وتلك في تصرفاتي . وحين تجعلينني مسؤولاً عن عاطفة خارجة عن ارادتي ، لا اخشى بان أضيف الى ذلك قولي ان العاطفة التي اوحت إلي بها الآنسة ابنتك قد تكون لا تعجبك ولكنها يجب ألا تهينك . ولست اريد قاضياً يحكم في هـــذه القضية التي تتعلق بي ـ وهذا كل ما استطيع ان اقوله لك ـ سواك انت ، وسوى رسائلي كشهود .

انك تحظرين علي المجيء الى بيتك في المستقبل ، ولا ريب بأنني سأخضع لكل ما يعجبك ان تصدريه من اوامر بهذا الصدد . ولكن أفلا يبعث هذا الانقطاع التام المفاجيء على أثارة الملاحظات اكثر مما أردت تجنبه بامتناعك عن اصدار أمر لهذا السبب الى خدمك ؟ إنني أصر على هذه النقطة لأنها اكثر أهمية بالنسبة للآنسة دي فولانج مما هي بالنسبة لي . فأرجوك اذن أن تزني بعنـــاية كل شيء وألا تدعي قساوتك تضر بحذرك . ولاقتناعي بان مصلحة الآنسة ابنتك وحدها هي التي تملي عليك قراراتك فسأنتظر اوامر جديدة من جانبك .

اما في حـــالة سماحك لي بان احصل على شرف حضور مجلسك في بعض الاحيان ، فانني أتعهد لك يا سيدتي (وتستطيعين ان تعتمدي على وعـــدي) بألا أستغل ابداً هذه المناسبات لكي احاول التحدث بصورة منفردة مع الآنسة دي فولانج ، او أسلمها اية رسالة . ان الخوف من ان اورط سمعتها ، يحملني على بذل هذه التضحية وان السعادة في ان أراها بعض الاحيان تعوضني عن ذلك .

هذه النقطة من رسالتي هي جوابي الوحيد الذي استطيع أن ابديه رداً على تهديداتك بشأن المصير الذي توجهـــين اليه الآنسة دي فولانج والذي تريدين جعله يتوقف على مسلكي . وقد اخدعك لو وعدتك بأكثر من ذلـــك . ولو كان

هناكَ غاوٍ شرير مكاني لكان طوى مشاريعه في هذه الظروف وأخذ يعد العدة لكي يتحيَّن الفرص. ولكن الحب الذي يلهب مشاعري لا يسمح لي الا بشعورين هما : الشجاعة والثبات .

من ؟ انا ! أوافق على ان تنساني الآنسة دي فولانج وانساها ؟ كلا . كلا . ابداً . بل سأظلُّ وفياً لها، وقد اقسمت امامها على ذلك ، وها أنا أجدد قسمي اليوم . عفواً يا سيدتي اني اشرد يجب ان أعود .

بقي عندي موضوع آخر لمعالجته معك . موضوع الرسائل التي تطلبينها مني . وانه ليؤسفني حقيقة ان اضيف على المآخذ التي تجدينها فيَّ رفضي هذا الطلب. ولكنني اناشدك ان تصغي الى أعذاري؛ وستقدرينها لو علمتِ بأن العزاء الوحيد للعذاب الذي أشعر به بسبب فقداني صداقتك ، هو الامل بأن احتفظ باحترامك .

ان رسائل الآنسة دي فولانج هي دائماً ثمينة جداً بالنسبة لي . وقد أصبحت اكثر قيمة ايضاً في هذا الوقت بالذات . فهي الاثر الوحيد الذي بقي لي . وهي وحدها تصور عاطفة تشكل كل متعة حياتي . ومع ذلك تستطيعين ان تصدقيني بأني لست مستعداً لحظة واحدة لأن اقوم بمثل هذه التضحية . وان الندم على حرماني منها أقل من الرغبة في ان ابرهن على احترامي الشديد لك . ولكن هناك اعتبارات أقوى تشدني . وانا متأكد انك انت نفسك لا تستطيعين ان تلوميني عليها .

صحيح انك تملكين سر الآنسة دي فولانج . ولكن اسمحي لي ان اقول بانه يحق لي ان اعتقد ان ذلك ناتج عن تأثير المفاجأة وليس عن تأثير الثقة . لستُ ازعم بأنني الوم مسعى يفرضه الحرص الاموي ، بل احترم حقوقك ولكنها لا تجعلني أعفي نفسي من واجباتي . وان واجبي الأكثر قداسة من كل شيء هو عدم خيانة الثقة التي مُنحت لي . وسيكون من جانبي اخلال بهذه الثقة لو عرضت على انظار الغير أسرار قلب لم يشأ ان يكشفها الا امام انظاري. فاذا وافقت الانسة ابنتك على ان اسلمك اياها ، فلتبلغني ذلك ! ان رسائلي لا تفيدك بشيء ، واذا

twitter @baghdad_library

شاءت على العكس ان تحتفظ بها بينها وبين نفسها ، فليس من اختصاصي أن ابلغك ذلك .

اما فيما يتعلق بالكتمان الذي تريدين ان أدفن به هذا الحادث ، فكوني مطمئنة يا سيدتي بصدد كل ما يخص الانسة دي فولانج ، واني استطيع ان اتحدى بذلك قلب أم . ولكي أفرغ من ازالة كل قلق لديك فقد تحسبت لكل شيء . انهذا المستودع الذي كان يسمى حتى الان « اوراق للحرق » بات يدعى الان « اوراق تخص السيدة دي فولانج » . يجب ان يبرهن لك هذا القرار الذي اتخذته ايضاً على ان رفضي لا علاقة له بالخوف من ان تجدي في هذه الرسائل عاطفة يمكن ان تتذمري منها انت شخصياً .

هذه يا سيدتي رسالة طويلة جداً ، وما كنت اريدها ان تكون بهذا الطول الا لكي تزيل من نفسك اقل شك في شرف عواطفي ، وفي الاسف الصادق لكوني لم اعجبك ، وفي الاحترام العميق الذي لن اكف دوماً عن الخ .

٦٥

من الفارس دانسني الى سيسيل دي فولانج

(رسالة مفتوحة مرسلة الى السيدة دي ميرتاي
ضمن الرسالة رقم ٦٦ من الفيكونت دي فالمون)

في ١٩ ايلول ؟؟ ١٧

آه ! يا عزيزتي سيسيل ماذا ستغدو عليه حالتنا ؟ واية قوة خفية تستطيع ان تنقذنا من الآلام التي تهددنا ؟ وليمنحنا الحب على الاقل الشجاعة على تحملها ! كيف أصور لك دهشتي ويأسي لدى رؤيتي رسائلي مرتجعة ، وقراءتي كلمة السيدة دي فولانج ؟ من الذي استطاع ان يخوننا ؟ وحول من تحوم شبهاتك ؟ هل يمكن ان تكوني قد ارتكبت بعض التهوّر ؟ ماذا تفعلين الآن ؟ ماذا قيل لك ؟ اريد ان اعلم كل شيء ، وأنا أجهل كل شيء . لعلك أنت لا تعرفين

اكثر مني .

ارسل لك طيه رسالة والدتك ، ونسخة عن جوابي عليها . وآمل أن تقرّيني على كل ما قلته لها . إنني بحاجة شديدة إلى الموافقة على المساعي التي قمت بها منذ وقوع هذا الحادث الجسيم وجميعها تهدف الى الاطلاع على اخبارك واطلاعك على اخباري . ثم من يدري ؟ ربما أراك ثانية وبحرية اكثر مما حدث حتى الآن .

هل تدركين ، يا سيسيلتي ، كم هو ممتـــع أن نلتقي معاً من جديد . وان نستطيع تبادل القسم على حب خالد ، وأن نرى بأعيننا ونشعر بروحينا أن هذا القسم لن يكون مخادعاً ؟ وأية آلام لا تنسيها لحظة عذبة ؟ وهكذا أصبح لديّ أمل الآن في ان ننـــال هذه اللحظة ، وانني مدين بذلك الى المساعي نفسها التي قمت بها والتي أناشدك ان توافقي عليها . ماذا اقول ؟ اني مدين بذلك الى عناية أعز صديق عليّ والذي كان سلواي الوحيدة في محنتي وأن طلبي الوحيد هو أن تسمحي لهذا الصديق بأن يكون صديقك ايضاً .

لعله ينبغي عليّ ألاّ أمنح ثقتـك دون موافقتك ؟ ولكن عذري الوحيـد هو التعاسة والحاجة . فالحب هو الذي يقود خطاي . وهو يطلب صفحك وعفوك عن الافضاء بمسارة ضرورية لولاها لكنا بقينا ربما الى الأبد متفرقين . انت تعرفين الصديق الذي احدثك عنه . انه صديق المرأة التي تحبينها اكثر من الجميع ، انه الفيكونت دي فالمون .

وقد كانت غايتي من التحدث اليه ان أرجوه حمل السيدة دي ميرتاي على نقل رسالة مني اليك ، ولكنه لا يظن ان هذه الطريقة يمكن ان تنجح . غير انه يتكفل بدلاً من السيدة بخادمتها ، وهي مدينة له ببعض الالتزامات . وستكون هي التي ستنقل هذه الرسالة اليك ، وبامكانك ان تسلميها جوابك .

ولكن هذه المساعدة لن تكون مفيـدة لنا ، اذا كنتِ كما يعتقد السيد دي فالمون ستذهبين الى الريف . إذ عندئذ سيكون هو نفسه الذي يتطوع لخدمتنا ، لأن المرأة التي ستذهبين الى زيارتها هي عمته . وسيغتنم هذه الفرصة لـكي يذهب فيراها في آن واحد معك . وستمر مراسلتنا المتبادلة بواسطتـــه . وهو يؤكد

twitter @baghdad_library

ايضاً أنه يستطيع ، اذا تركت نفسك تنقادين اليه ، ان يخلق الوسائل لكي نشاهد بعضنا البعض دون ان يجعلك تتورطين بشيء .

والآن يا عزيزتي سيسيل ، اذا كنت تحبينني ، واذا كنت ترثين لعذابي ، واذا كنت ، كما آمل ، تشاطرينني أسفي ، هل ترفضين منح ثقتك الى رجل سيكون ملاكنا الحارس؟ إذ لولاه لكنت وقعت في يأس مرير ، لعدم تمكني من تخفيف الاشجان التي اسببها لك ، وهي ستنتهي كما آمل . ولكن عديني يا صديقتي الحنون ، بأنك لن تدعي نفسك تنهار ، وبانك لن تستسلمي إلى اليأس . وان فكرة عذابك تبعث في نفسي غماً لا يطاق . انني اضحي بحياتي لكي اجعلك سعيدة ! وانت تعرفين ذلك . فهل يمكن لتيقنك بانك معبودة ان يحمل بعض العزاء إلى روحك ! ان روحي بحاجة لأن تؤكدي لي بانك سامحت الحب على الآلام التي جعلتك تعانينها .

الوداع يا سيسيلتي ، الوداع يا صديقتي اللطيفة .

٦٦

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

في ٩ ايلول ؟؟ ١٧

سترين يا صديقتي الحسناء ، لدى قراءتك الرسالتين المرسلتين طيه . اذا كنت قد نفذت مشروعك ام لا . ومع ان كلتيهما مؤرختان اليوم فقد كتبتا بالأمس في بيتي وتحت انظاري . فالرسالة الموجهة الى الصغيرة توضح كل ما نريده وأنه لا يمكن للمرء إلا ان يخشع امام عمق آرائك ، لو حكمنا على نجاح مساعيك . فلقد أصبح دانسني ملتهباً كالنار . ومن المؤكد انه عند اول فرصة لن يدع لك أية مآخذ تلومينه عليها . واذا شاءت حسناؤه ان تكون اكثر طواعية ، فسيتم كل شيء بعد وصوله الى الريف ولدي مائة وسيلة جاهزة لذلك ، وها أنذا بفضل عنايتك اصبحت بالفعل صديق دانسني . ولم يبق له الا ان يصبح اميراً .

ان هذا الشاب ما زال حدثاً . هل تصدقين انني لم استطع ان احصل منه

على وعد للأم بالاقلاع عن حبه. كم هو مزعج ان يعطي الانسان وعداً حين يكون مصمماً على عدم التنفيذ! وقد كان يكرر لي قائلاً: ان هذا معناه الخداع. ولكن هل يكون هذا الوسواس بنّاءً اذا كان يرغب في مضاجعة الفتاة؟

هؤلاء هم رجال! جميعهم آثمون في غاياتهم، وان مـا يظهرونه من تخاذل في تنفيذها يسمونه نزاهة وطهارة ذيل.

بقي عليك انتِ ان تتولي عدم جعل السيدة دي فولانج تستنكر هـــذا الاختمار الصغير للعاطفة الذي شاء صاحبنا دانسني ان يضعه في رسالته. أحمينا قبل كل شيء من الدير. وحاولي ايضاً ان تقنعيها بالتخلي عـــن طلب رسائل الصغيرة. اولاً لانه لن يعيدها ابداً، وهو لا يريد ان يفعل ذلك، وانا من رأيه. والحب والمنطق هنا متفقان. لقد اطلعت على هذه الرسائل، فافترسني الضجر؛ ولكنها يمكن ان تصبح مفيدة. واليك الإيضاح:

بالرغم من جميع الاحتياطات التي نتخذها، فقد يحدث انفجار ما يلغي مشروع الزواج، اليس ذلك صحيحاً؟ ثم يحبط جميع «مشاريع جـيركور». ولكن بما انه بالنسبة لي يجب ان انتقم من الأم، فانني احتفظ في هذه الحالة بحق ثلم شرف البنت. من يدري؟ فقد تقام دعوى. ولكن باختيار ما يعنينا من هذه المراسلة ستبدو الصغيرة فولانج بانها هي التي قامت بالمساعي الاولى والقت بنفسها على رأسها. ان بعض هذه الرسائل يمكن ان تورط الأم «وتلوث سمعتها» على الاقل باهمال لايسامح * .انا أشعر جيداً أن الموسوس دانسني سيثور أولاً ولكن بما انه سيكون هو شخصياً مورطاً، فاعتقد اننا نصل الى غايتنا. ولكن هناك جزءاً من الف في ان يدور الحظ على هذه الصورة. واننا يجب ان نحسب حساباً لكل شيء.

الوداع، يا صديقتي الحسناء، لست بحاجة الى ان اوصيك بالتكتم الشديد

---

* قد لا يستطيع القارىء ان يحكم على صحة هذه الملاحظة، ولكننا فضلنا ان ندعه في الشك بدلاً من ان نضخم هذه المجموعة برسائل لا تحصى وهي جميعها غير مكتوبة جيداً، وفالمون على حق حين يقول انها تبعث على الضجر.

twitter @baghdad_library

امام السيدة دي فولانج ، بصدد عزمي على العودة الى الريف . اذ عليها بالاحرى أن تبقى في المدينة : ولو منحتنا فقط ثمانية ايام سأكون مسؤولاً عن كل شيء .

٦٧

من الرئيسة تورفيل إلى الفيكونت دي فالمون

في ٩ ايلول ؟؟ ١٧

لم اكن أود الاجابة على رسالتك ، يا سيدي ، ولعل الارتباك الذي أشعر به الآن هو دليل بالفعل على أنه ينبغي الا افعل ذلك ، ومع ذلك لا اريد ان دع لك أي موضوع للشكوى مني . بل ارغب في ان اقنعك بأنني فعلت من اجلك كل ما قدرت عليه .

انت تقول أنني سمحت لك بان تكتب إليّ ؟ اني اوافقك على ذلك ، ولكن حين تذكرني بهذا السماح ، هل تعتقد أنني أنسى الشروط التي بموجبها مُنح لك؟ وانا لو تقيدت بهذه الشروط ، كما لم تتقيد بها انت ، هل كان من الممكن ان تتلقى جواباً واحداً مني ؟ ومع ذلك اليك الآن جوابي الثالث ، وبينما تفعل كل شيء لحملي على وقف هذه المراسلة ، فانني أهتم انا نفسي بالوسائل اللازمة للابقاء عليها . وهناك وسيلة واحدة ، واذا رفضت الأخذ بها ، ستكون بذلك قد برهنت لي ـ رغم ما بامكانك ان تقول ـ على القيمة الضئيلة التي تساويها بنظرك.

دع اذن هذه اللغة التي لا استطيع ولا أود الاستماع اليها . واقلع عن عاطفة تهينني وتفزعني . وربما يجب ان تكون اقل تعلقاً بها حين تفكر بانها تشكل العقبة الوحيدة التي تفرقنا. فهل تكون هذه العاطفة هي الوحيدة التي يمكن ان تعرفها؟ وهل للحب هذا الأثم بنظري لكي يطرد الصداقة ؟ وانت نفسك هل يكون لديك ذلك الشعور الذي لا تريده لصديقتك ، تلك التي طالما رغبت في ان يكون لديها مشاعر اكثر رقة ؟ لا أريد أن أعتقد ذلك : فهذه الفكرة المهينة

تثيرني ، وتبعدني عنك دون رجعة .

وأنا بعرضي عليك صداقتي، يا سيدي ، امنحك كل ما هو لي وكل ما استطيع ان اتصرف به. ماذا تستطيع ان ترغب في اكثر من ذلك ؟ ولكي استسلم الى هذا الشعور الرقيق الذي هو مخلوق لقلبي ، لا انتظر سوى موافقتك فقط . وان الوعد الذي اطلبه ، سيكفي لاسعادك . وسأنسى كل ما قيل لي عنك ، وسأعتمد عليك للعناية بتبرير اختياري .

أنت ترى صراحتي ، ويجب ان تثبت لك ثقتي. ولا يتوقف الأمر إلا عليك لكي تزيدها ايضاً : ولكنني احذرك من ان اول كلمة حب تنطق بها ستحطمها الى الابد ، وتعيد إلي جميع مخاوفي وستصبح بصورة خاصة لي بمثابة انذار بصمت ابدي تجاهك .

واذا كنت كما تقول « قد عدت عن خطأك » ألا تفضل ان تكون موضع صداقة امرأة شريفة ، بدلاً من ان تكون مبعث تبكيت ضمير امرأة مذنبة ؟ الوداع يا سيدي انت تشعر انني بعد ان تحدثت بهذه الطريقة لا استطيع ان اقول شيئاً قبل ان تكون قد اجبتني .

٩٨

من الفيكونت دي فالمون الى الرئيسة تورفيل

في ١٠ ايلول ؟؟ ١٧

كيف اجيب، يا سيدتي ، على رسالتك الاخيرة ؟ وكيف اجرؤ على ان اكون صريحاً حين يمكن لصدقي ان يفقد قيمتي تجاهك ؟ هذا غير مهم لا بدّ من ذلك وسأتسلح بالشجاعة . اقول في نفسي وأكرر القول ، بأنه من الأفضل ان اكون جديراً بك بدلاً من ان انالك ، وهل كان ينبغي ان ترفضي منحي سعادة سأظل أرغب فيها باستمرار ؟ يجب ان ابرهن لك على الاقل على ان قلبي جدير بذلك .

twitter @baghdad_library

كم هو مؤسف أن اكون ، كما قلتِ « قـــد عدت عن اخطائي » ! وبأي انطلاق مع الفرح كنت قرأتُ رسالتك ذاتها التي ما زلت ارتجف في الرد عليها اليوم . انت تحدثينني « بصراحة » وتوليني « ثقتك » ، وتعرضين عليّ اخـيراً « صداقتك » : يا لها من أشياء جميلة ، يا سيدتي ، واي أسف اشعر بـــه لعدم التمكن من انتهاز الفرصة ؟ لماذا لم أعد كما كنت ؟

انني لو كنت الآن كما كنت بالفعل ، ولو كان لدي نحوك ميل عـادي ، ميل خفيف ، وليد الاغراء واللذة ، أو ما يسمونه اليوم مـــع ذلك الحب ، لكنت سارعت الى استغلال كل ما استطيع نيله ، دون ان اهتم بالوسائـــل ، شرط ان توفري لي الفوز ، ولكنت شجعتُ صراحتك بسبب الحاجـــة الى كشف نواياك . ولكنت رغبت في ثقتك ، وفي نيتي ان اخونهـــا . ولكنت قبلتُ صداقتك على امل أن اضيعها ... ماذا يا سيدتي ؟ هذه الصورة تخيفك ؟ اجل انها كانت قد رُسمت من جانبي لو انني كما قلتِ وافقتُ على ألا أكون إلا صديقك ...

من ، انا ؟ أوافق على ان اشاطر مع احد غيري عاطفة صادرة عن روحك؟ واذا حدث وقلت لك ذلك يجب ألا تصدقيني البتة . اذ منـــذ تلك اللحظة سأحاول ان أخدعك . وسأظل ارغب فيك ايضاً ، ولكنني من المؤكد سوف لا احبك ابداً .

ولا يعني ذلك ان الصراحة المحببة ، والثقة اللطيفة ، والصداقة الحساسة ، لا قيمة لها بنظري ... ولكن الحب ، الحب الحقيقي ، كما توحين إليّ به ، يجمع كلّ هـذه العواطف ، ومنحهـــا حيوية اشد ، لا يمكن ان ينساق الى هذا الهدوء وهـذه البرودة في الروح التي تدع سبيلاً للمقارنات ، او تشعر بالافضليات . كلا ، يا سيدتي ، لن اكون ابداً صديقك . فأنا سأحبك أرق الحب لا بل أحرّ الحب رغم انه أشد احتراماً . وتستطيعين ان ترميه في احضان اليأس ولكن لن يتسنى لك ان تزيليه .

وبأي حق تتصرفين بقلب ترفضين قبول هواه ؟ وبأي رقـــة في القساوة

تحسدينني حتى على سعادة حبك؟ ان هذه السعادة هي ملكي، وهي مستقلة عنك. وسأعرف كيف ادافع عنهـا ؟ واذا كانت هي مصدر متاعبك ، فإنها هي ايضاً علاجها .

كلا، ومرة اخرى كلا . إستمري في رفضك القاسي ، ولكن دعي لي حبي. انت تغتبطين في جعلي تعيساً ؟ فليكن . حاولي ان تنهكي شجاعتي، فأنا اعرف ان احملك على الأقل على ان تقرري مصيري . وربما يأتي يوم تنصفينني فيه. ليس لأني آمل بأن اجعلـك حساسة ، ولكن بدلاً من ان تقتنعي ستكونين مفحمة . وستقولين لنفسك : لقد اخطأت في الحكم عليه .

ولنقل افضل من ذلك : فانتِ التي تظلمينني . لأن التعرف عليك دون ان احبك ، ومنحك حبي دون ان اكون ثابتاً ، هما امران مستحيلان . وعلى الرغم من التواضع الذي يزينك ، ينبغي ان يكون من السهل الرثاء لك ، بـــدلاً من ادهاشك بعواطف تخلقينها بنفسك . اما في ما يتعلق بي ، وقـد كانت ميزتي الوحيدة أنني عرفت ان اقدرك ، فـلا اريد ان افقد هذه الميزة . ومع عدم ميلي للموافقـة على عروضك المغرية ، اجدد لك امام قدميك قسمي على حبك دوماً . .

٦٩

من سيسيل دي فولانج الى الفارس دانسني

(بطاقة مكتوبة بالقلم الرصاص وقد اعاد نسخها دانسني)

في ١٠ ايلول ؟؟ ١٧

تسألني مـاذا افعل ؟ أنني احبك وابكي . ووالدتي لا تكلمني ، وقد نزعت مني الورق والاقلام والحبر . ولذلك تراني استخدم هـذا القلم الذي بقي عندي لحسن الحظ . انا اكتب اليك على قصاصة من رسالتك . يجب ان اوافق على كل ما فعلته . انني احبك حباً شديداً بحيث ارضى بجميع الوسائل لكي احصل على

twitter @baghdad_library

اخبارك وتحصل على اخبـــاري . لم اكن احب السيد دي فالمون ، ولم اكن اعتقد انه صديقك ، ولكنني سأحاول أن اتعوّد عليه ، وسأحبه من اجلـك . لست اعرف من الذي فضح حبنا . لعلها خادمتي او معرّفي . انني تعيسة جداً : سنذهب غداً الى الريف ، ولا اعلم كم سنبقى هنـــاك من الوقت . يا الهي كم هو صعب ألا اراك . لم يبق لي مكان . الوداع . حاول أن تقرأني . ان هـــذه الكلمات المكتوبة بالقلم ربما ستمحى ، ولكن العواطف ستظل منقوشة في قلبي .

٧٠

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

في ١١ ايلول ؟؟ ١٧

لديّ انذار هـــام ابلغك اياه ، يا صديقتي العزيزة . فقـــد كنت اتعشى أمس ، كما تعلمين ، عند الماريشالة دي ... واخذنا نتحدث عنك ، وقلتُ ـ كما تستطيعين ان تعتقدي ـ ليس كل شيء حسن أعرفه عنك فحسب ، بل كل مـا لا افكر به . وقد بدا ان الجميع كانوا من رأيي ، ثم تراخت المحادثـة كما يحدث دائماً حين لا يتحدث احدهم الا بالخير عن قريبه ، واذا بأحد المعترضين ينهض . وكان هو بريفان .

ثم قال وهو واقف : انني اشك في تعقل السيدة دي ميرتاي ، واعتقد ان ذلك عائد الى خفتها اكثر من مبادئها . وقد يكون من الصعب اللحاق بها اكثر من الحصول على اعجابها . وبما انه يحدث غالباً حين تركض وراء امرأة ان تصادف رجالاً آخرين على طريقها ، فان هؤلاء يمكن ان يكونوا مثلها ان لم يكونوا افضل منها . ولكن بعضهم يكون ملتهباً بحب جديد والبعض الآخر يتوقف من الارهاق . وهكذا فان هذه المرأة هي الوحيدة في باريس التي كان عليها ان تدافع عـــن نفسها اقل من غيرها . ثم اضاف : اما في ما يتعلق بي (وهنا تشجـع بنظرات بعض النساء) فانني لا اؤمن بعفة السيدة دي ميرتاي إلا بعد ان اكون قـــد

اهلكت ستة خيول في مطاردتها .

وقد نجحت هذه المزحة الثقيلة كجميع المزحات التي تنبثق عن الاستغابة والنميمة . واثناء الضحك الذي اثاره بريفان استعاد مكانه وجلس بالقرب من الكونتيستين دي... حيث كنت لحسن الحظ استمع إلى ما يدور بينه وبينها من مسارة . هذا بينما انتقل الحديث العام الى موضوع آخر .

وقد قبل التحدي بأن يجعلك حساسة نحوه . واعطى وعداً على نفسه بأن يروي كل شيء . ولكن ها أنت قد أُنذرت بالأمر وانت تعرفين المثل القائل : « لقد اعذر من أنذر » .

بقي عليّ ان اخبرك ان بريفان هذا الذي لا تعرفينه جيداً هو محبوب للغاية وكثير الدهاء ايضاً . واذا كنت قد سمعتني اقول العكس في بعض الاحيان ، فذلك لكوني لا أحبه . وانه ليعجبني ان اعاكس نجاحاته التي لا أجهل كم تشكل مزاحمة عليّ لدى حوالي ثلاثين من اجمل نسائنا البارزات .

وبالفعل لقد حاولت مطولاً ان احول بينه وبين الاقدام على هذه المغامرة . ولكنه يبدو مصمماً على المضي فيها حتى النهاية، لأنه منذ ان نجحت مغامرته الثلاثية الشهيرة وجعل الانظار تصوب نحوه ، اخذ يتسلح بثقة جديدة في نفسه كانت تعوزه حتى الآن . وجعلته حقيقة ممن يخشى بأسهم . وهو اخيراً الرجل الوحيد اليوم الذي ربما اخشى ان اصادفه في طريقي ، وبغض النظر عن مصلحتي الخاصة ، فانك تؤدين لي خدمة كبرى لو جعلته عرضة للسخرية اذا قام بهذه المحاولة . وانني ادعه بين ايدٍ امينة ولدي امل في انه سيصبح بعد عودتي غريقاً .

أعدك ، مقابل ذلك ، ان اقود الى النهاية مغامرة طفلتك ، وان أهتم بها كما اهتم بورعتي الحسناء .

وقد بعثت لي هذه برسالة تعرض علي فيها مشروع استسلام . ورسالتها بكاملها تفضح عن رغبتها في ان تكون مخدوعة . وانه لمن المستحيل عرض وسيلة اكثر ملائمة واكثر شيوعاً من هذه الوسيلة . فهي تريد ان اكون « صديقها » ولكنني

twitter @baghdad_library

انا الذي احب الوسائل الجديدة الصعبة ، لا آمل في أن اجعلها تصفي حسابها معي بمثل هذا الثمن الرخيص . من المؤكد انني ما كنت قد بذلت مثل هذا العناد الشديد في سبيلها لكي اصل الى مثل هذا الاغراء العادي .

ان مشروعي هو على العكس يقضي بان اجعلها تشعر ، تشعر جيداً بقيمة واتساع كل تضحية من تضحياتها التي تبذلها في سبيلي، ثم عدم توجيهها بسرعة حتى لا يلاحقها تبكيت الضمير ثم تمويت عفتها في إحتضار طويل . وحصرها باستمرار حول هذا الهدف ، وعدم منحها سعادة ضمي بين ذراعيها إلا بعد اجبارها على عدم اخفاء رغبتها في ذلك . وفي الواقع قد لا تكون لي سوى قيمة ضئيلة ، ولا أساوي حتى عناء ان اكون مطلوباً . ولكن لا بدّ لي الا ان انتقم من امرأة متعالية تبدو انها تحمرّ خجلاً اذا اعترفت بانها تعبدني .

وكان ان رفضتُ اذن الصداقة الثمينة ، وتمسكتُ بلقبي كعاشق. وبما أنني لا أخفي ان هذا اللقب الذي لا يبدو لاول وهلة سوى تلاعب على الا لفاظ – وهو مع ذلك ذو أهمية حقيقية لمن يريد الحصول عليه – فقد بذلت عناية فائقة في كتابة رسالتي . وحاولتُ أن اضع فيها هذا التشويش الذي يستطيع وحده أن يصور العاطفة . وقد عمدت في النهاية إلى رصف كلام خالٍ من المنطق على قدر ما استطعت . لأنه بدون تحوير المنطق، لا يمكن أن تكون هناك عاطفة رقيقة. وأعتقد أن النساء عن طريق هذا المنطق هنّ متفوقات علينا في رسائل الحب.

وكان ان ختمت رسالتي بملاطفة رقيقة جاءت اثر ملاحظاتي العميقة ، لأنه بعد ان يكون قلب المرأة قد أجهد بعض الوقت فهو بحاجة الى الراحة . ولاحظت ان الملاطفة هي أنعم وسادة يمكن تقديمها اليهن .

الوداع يا صديقي الحسناء، سأرحل غداً واذا كان لديك تعليمات لكي تبلغيها إلى الكونتيسة دي ... فسأتوقف عندها على الأقل لتناول الغداء . انا متكدر لكوني ارحل بدونك ، بلغيني اوامرك العليا وزوديني بنصائحك الحكيمة في هذه اللحظة الحاسمة .

لا تنسي ان تدافعي عن نفسك جيداً امام بريفان ، وارجو ان اتمكن يوماً ما من ان اعوض عليك هذه التضحية ! الوداع.

twitter @baghdad_library

القسم الثاني

٧١

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

قصر ل ... في ٣١ ايلول ؟؟ ١٧

تصوري ان خادمي الأرعن نسي حقيبتي في باريس! وفيها رسائل حسناتي ! ورسالة دانسني الى الصغيرة فولانج، وكل شيء بقي هناك.. وانا هنا بحاجة اليها جميعاً ... وسيسافر لتدارك حماقته...وفيما هو يسرج الآن حصانه، سأروي لك ما حدث معي في الليلة الماضية : أرجوك ان تعتقدي بأنني لا أضيع وقتي عبثاً .

وهذه المغامرة في حد ذاتها لا أهمية لها ، وهي ليست سوى تسلية عابرة مع الفيكونتيسة دي م ... ولكنها أمتعتني بتفاصيلها ، وانه ليسرني ان اعلمك أنني اذا كنت بارعاً في إضاعة عقول النساء فان البراعة لا تنقصني ، اذا أردت، في إنقاذهن . وانه لا يحلو لي سوى اتخاذ المواقف الاكثر صعوبة والاشد مرحاً . كما انني لا ألوم نفسي على القيام بعمل خيري شرط ان يتعبني أو يسليني .

لقد وجدت إذن الفيكونتيسة هنا، وبما أنها اضافت التهديدات الى الحاحاتها لكي امضي الليل في القصر فقد قلت لها : « اوافق بشرط ان أمضيه معك » ولكنها اجابتني : « هذا مستحيل لأن بريساك هنا » وقد أثارتني كلمة مستحيل هذه كجاري العادة ، وشعرت بنفسي مهاناً لان تضحي بي في سبيل بريساك ، وقررت الا أتعذب . فأصررت اذن على شرطي.

ولم تكن الظروف مؤاتية، فان بريساك هذا قد أثار بعدم احتراسه ريبة زوجها الفيكونت بحيث ان الفيكونتيسة لم تعد تستطيع ان تستقبله في بيتها . وقد كانت هذه الزيارة إلى الكونتيسة مدبرة في ما بينهما لكي يحاولا اختلاس بعض

twitter @baghdad_library

الليالي . وقد أبدى الفيكونت لأول وهلة بعض الحنق لأنه سيقابل بريساك هنا. ولكن بما أنه شغوف بالصيد اكثر من اهتمامه بالغيرة فقد رضخ للأمر الواقع . وانت تعرفين الكونتيسة صاحبة القصر، وكان ان عمدت إلى وضع الفيكونتيسة في غرفة ووضعت الزوج من جهة والعشيق من جهة أخرى، وتركتهم يتدبرون انفسهم في ما بينهم . وقد شاء المصير السيء لكل منهما ان اكون في غرفة مواجهة لها.

وفي ذلك اليوم، أعني أمس، ذهب بريساك الذي اعتاد أن يساير الفيكونت إلى الصيد برفقته رغم عدم شغفه بهذه الهواية ، وكان ينوي ان يتعزى في الليل بين ذراعي زوجته . عما سبب له الزوج من ضجر طوال النهار . ولكنني رأيت انه سيكون بحاجة الى الراحة ، واهتممت بالوسائل اللازمة لحمل خليلته على ان تتركه يأخذ قسطه من الراحة .

وقد نجحتُ في ذلك ووعدتني بأنها ستثير معه مشاجرة بسبب رحلة الصيد هذه والتي لم يشترك بها بطبيعة الحال الا اكراماً لها ، وفي الواقع ليست هناك حجة اسوأ من ذلك : ولكن ليست هناك اية امرأة تفوق الفيكونتيسة بهذه الصفة المشتركة بين جميع النساء : اي وضع الحنق محل المنطق . وفي الواقع لم يكن الوقت ملائماً لهذه الايضاحات ، وبما انني لا أطمع الا بليلة واحدة فقد وافقت على ان يتصالحا في اليوم التالي .

وهكذا كان ان قابلت الفيكونتيسة بريساك بتبرم لدى عودته ، وارادهذا ان يسألها عن السبب، فتشاجرت معه. وحاول ان يبرر نفسه، ولكن الزوج الذي كان حاضراً أنقذ الموقف ، وقد اتخذته هي حجة لقطع المحادثة ، وحاول اخيراً ان يغتنم فرصة غياب الزوج لحظة لكي ترضى بالاصغاء اليه في المساء . وهنا كانت الفيكونتيسة رائعة ، إذ استنكرت جرأة الرجال الذين يعتقدون ـ لأنهم تمتعوا بكرم امرأة مرة أو بعض الوقت ـ ان لهم الحق بأن يستغلوا ذلك ايضاً ، حتى ولو كانت المرأة غاضبة عليهم . ثم بدلت الموضوع ببراعة فتحدثت عن العواطف والرقة ، بحيث جعلت بريساك يبقى صامتاً مرتبكاً ، وجعلتني اعتقد انها على حق . وتعلمين انني بوصفي صديقاً للطرفين كنت طرفاً ثالثاً في

هذه المحادثة .

واخيراً اعلنت بصورة ايجابية انها لن تضيف عناء الغرام الى عناء الصيد ، وأنها ليست مستعدة لارهـــاق العاشق فيما هو بحاجة الى الراحة . وكان ان توجـــه بريساك المسكين الذي لم تتح له حرية الجواب إليّ ، فروى لي مطولاً حججه التي اعرفها اكثر منه . ورجاني ان اتحدث بذلـــك الى الفيكونتيسة فوعدته خيراً . وقد حدثتها بالفعل ، ولكن لكي اشكرها واتفق معهـــا على ساعة لقائنا ووسائله .

وقالت لي بما انها تحتل غرفة بين زوجها وعشيقها فقد اعتادت ان تـذهب عادة الى غرفة بريساك بدلاً من ان تدعه يحضر الى غرفتها ، نظراً لكوني اقطن غرفة مواجهة لها فهي تعتقد ان من الأفضل ان تأتي الى غرفتي . وانها ستحضر حين تتخلص من خادمتها ، وانه ليس عليّ الا ان ادع باب غرفتي نصف مفتوح.

وقد تم تنفيذ كل شيء كما اتفقنا عليه . ووافتني في ساعة مبكرة .

« ... في لباس بسيط

وجمال انتزع من السبات * »

وبما انني لا أحب المباهاة ، فانني لا اتوقف عند تفاصيل هذه الليلة، بيد انك تعرفينني جيداً ، وقد كنت مسروراً من نفسي .

ولدى بزوغ الفجر، كان لا بد من ان نفترق. وهنا تبدأ لذة القصة ، فالطائشة ظنت انها تركت باب غرفتها نصف مفتوح ، ولكننا وجدناه مقفلاً . وقد بقي المفتاح من الداخل: وليس بامكانك ان تتصوري كم اصابها من الذعر واليأس . إذ قالت لي : « آه . . لقد انفضحت » . ويجب الاعتراف انه كان من الممتع تركها في هذا الموقف . ولكن هل يمكن لي ان ادع امرأة تنفضح بسببي ؟ وهل يجب علي كسائر الرجال ان اتخاذل امام الظروف ؟ ماذا كان بامكانك ان تفعلي يا صديقتي الحسناء ؟ اليكِ ماذا فعلت وقد نجحت :

لقد تبين لي حالاً ان الباب المذكور يمكن خلعه ولكن بعد إحداث ضجة

---

* راسين في مأساته « بريتانيكوس » .

twitter @baghdad_library

كبيرة . وقد اقنعت اذن الفيكونتيسية ليس دون عناء بأن تطلق صرخات حادة مفزعة مثل : الى اللص ، او الى المجرم الخ. الخ. واتفقنا على ان ادفع البـاب لدى اول صرخة ، ثم تركض الى سريرهـــا . ولا تستطيعين ان تتصوري كم احتجت من الوقت لحملها على ذلك . ولكن كان لا بد مع ذلك من تنفيذ هذه الطريقة فصرخت ، ولدى اول ضربة قدم مني انخلع الباب ، فلم تضع الفيكونتيسة ثانية واحدة من الوقت ، لانه في اللحظة نفسها خرج الفيكونت وبريساك والخادمـة راكضين الى غرفة السيدة الوجلة .

وكنت الوحيد بينهم هادىء الاعصاب ، وقد اغتنمت الفرصة لكي اطفىء مصباح السرير والقيه على الارض ، اذ تتصورين كم سيكون سخيفاً اظهار الذعر المخيف ومصباحها مضاء في غرفتها ، ثم لمت الزوج والعشيق على نومهما العميق مؤكداً لهما ان الصيحات التي ركضت اناعلى اثرها ومحاولاتي لخلع الباب قد استغرقت على الاقل خمس دقائق.

وقد ايدتني الفيكونتيسة التي استجمعت شجاعتها في سريرها واقسمت بأنه كان هناك لص في غرفتها ، ووضعت في لهجتها المزيد من الصدق ، وقالت انها في حياتها كلها لم تصب بمثل هذا الذعر ، وكان ان بحثنا في كل مكان فلم نعثر على شيء ، وكان ان لاحظت المصباح ملقى على الارض فرجحت بأن جرذاً كبيراً دون ريب قد تسلل الى الغرفة وسبب هذا الخوف والذعر ، ثم تبادلنـــا بعض المزاحات حول الجرذان ، ومضى الفيكونت اولاً الى فراشه لينام راجياً زوجته ان تقتني في المستقبل جرذاناً اكثر هدوءاً.

وبقي بريساك معنا ثم اقترب من الفيكونتيسة لكي يقول لهـا بحنو ان ذلك كان انتقاماً من قبل الحب . وقد اجابت عليه وهي تنظر نحوي : « لقد كان اذن غاضباً جداً لانه عرف ان ينتقم بشدة » ثم اضـــافت : انني منهوكة القوى واريد ان انام ..

وكنت على الاثر في احسن حالاتي قبل ان نفترق ، فدافعت عن قضية بريساك وعملت على اصلاح ذات بينهما ، وكان ان تبادل العاشقان القبلات ، ونالني نصيبي

منها أيضاً من كلا الطرفين . ولم اهتم كثيراً بقبلات الكونتيسة بل اعترف ان قبلات بريساك سرتني جداً ، وكان ان خرجنا معاً بعد ان تلقيت منه كثيراً من الشكر ، ومضى كل منا الى فراشه .

اذا وجدت هذه القصة ممتعة ، فانني لا اطلب اليك الاحتفاظ بها ، بل من حق الجمهور وقد استمتعت الآن بها ان يستمتع بدوره ، وفي الوقت الحاضر لا اتحدث الا عن هذه الحكاية ، وربما قريباً سنتحدث عن البطلة .

الوداع ، ها قد مضت ساعة وخادمي ينتظر ، ولا آخذ من الوقت سوى ان اقبلك واوصيك ان تحترسي من بريفان .

٧٢

من الفارس دانسني الى سيسيل فولانج

(سلمت فقط في ١٤)

باريس في ١١ ايلول ؟؟ ١٧

آه ، يا سيسيلتي ، كم اغبط حظ دي فالمون ! فهو سيراك غداً ، وهو الذي سيسلمك هذه الرسالة . وانا الآن مضنى بعيد عنك ، أجرجر حياتي القاسية بين الندم والبؤس . فارثي لي ، يا صديقتي الطيبة ، على آلامي ، وبصورة خاصة إرثي لي على ما سببته لك من آلام . فالشجاعة تخونني ازاءها .

كم هو مؤلم ان اكون السبب في شقائك ! اذ لولاي لكنت سعيدة ناعمة البال . فهل تسامحينني ؟ قولي .. آه ! قولي انك عفوت عني ، قولي ايضاً انك تحبينني وانك ستحبينني دائماً . انني بحاجة لان تكرري لي ذلك ، ليس لأني اشك في حبك ، بل يبدو لي أنه كلما كان المرء متأكداً منه كلما كان عذباً ان يسمعه يقال . انت تحبينني بكل قواكِ ، وانني لا أنسى ان هذه آخر كلمة سمعتها من فمك . ولكم احتفظت بها في قلبي ! ولكم هي محفورة في اعماقه ! وبأي حبور لباها فؤادي !

من المؤسف في تلك اللحظة من السعادة انني لم اكن اتوقع المصير المخيف

twitter @baghdad_library

الذي ينتظرنا . فلنهتم اذن يا سيسيلتي بالوسائل التي تساعد على التخفيف من حدته . وانني اذا صدّقتُ ما ارتآه صديقي ، حسبنا لكي نفوز بذلك ، ان توليه ثقة هو بها جدير .

لقد تكدّرتُ ، وانا اعترف بذلك ، للفكرة السيئة التي يبدو انك كوّنتِها عنه . وقد لاحظت انها من وحي تحذيرات والدتك : وكان ذلك لكي يذكرني بأنني اهملت منذ بعض الوقت ، هـذا الرجل المحبب حقيقة الذي يفعـل اليوم كل ما في وسعه من اجلي ، والذي يعمل اخيراً من اجل جمعنا ، فيما تكون والدتك قد فرقتنا . انني استحلفك ، يا صديقتي العزيزة ، بأن تنظري اليه نظرة حسنة . وفكري انه صديقي ، وانه يريد ان يكون صديقك وهو يستطيع ان يعيد اليّ السعادة في ان أراك ، واذا لم تكن هذه الاسباب لتقنعك ، ياسيسيلتي فذلك لانك لا تحبينني كما احبك ، ولن تحبيني بقدر ما احببتني ! آه لو كان عليك ان تحبيني يوماً اقل ، فسيكون من السهل عليّ ان اموت بدلاً من ان أتعزى . ولكن لا . ان قلب سيسيلتي هو لي ، وهو لي مدى الحيـــاة ، واذا كان عليّ ان أخشى عذاب حب بائس ، فان ثباتها على الأقل سينقذني من عذابات حب مخان .

الوداع يا صديقتي الرائعـة ، لا تنسي انني اتعذب ، وان الامر لا يتوقف إلا عليك لكي تجعليني سعيداً ، سعيداً تمـــام السعادة ، اسمعي امنية قلبي واقبلي أرق قبلات الحب .

٧٣

من الفيكونت دي فالمون الى سيسيل فولانج

(مرفقة بالرسالة السابقة)

قصر دي ... في ١٤ ايلول ؟؟ ١٧

ان الصديق الذي يخدمك قد علم انه ليس لديك ما يلزم للكتابة ، وقد أعد للأمر عدته . تجدين إذن في الغرفة المقابلة للشقة التي تحتلينها ، تحت الخزانة الكبيرة

باتجاه يدك اليسرى كمية من الورق والأقلام والحبر ، يستطيع ان يجددها متى شئت . ويبدو له انك تستطيعين ان تتركيها في المكان نفسه اذا لم تجدي لهـــا ملجأ اكثر أمناً .

وهو يطلب اليك الا تشعري بإهانة اذا بدا انه لا يبدي نحوك اي اهتمام خلال الاجتماعات ، ويرجوك الا تنظري إليه الا كما تنظرين الى طفل . ان هذا المسلك يبدو له ضرورياً لإيحاء الأمن الذي هو بحاجة اليه . والعمل بفعالية من أجل سعادة صديقه وسعادتك . وسيحاول ان يخلق المناسبات لكي يتحدث معك اذا كان لديه ما يطلعك عليه او يسلمك اياه وهو يأمل ان يتوصل الى ذلك اذا ابديت نشاطاً في مساعدته .

وهو ينصحك بأن تعيدي اليـه الرسائل التي ستتلقينهـــا لكي لا تتورطي بسببها .

وهو يختم هذه الرسالة بأن يطمئنك انك اذا منحته ثقتك فسيبذل كل عنايته لكي يخفف من وطأة الاضطهاد الذي شاءت أم قاسية ان تجعل كائنين يعانيانه ، احدهما من خيرة اصدقائه والآخر يبدو له جدير بارق الاهتمام .

٧٤

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون

باريس في ١٥ ايلول ؟؟

آه ! منذ متى يا صديقي ، تخيف نفسك بسهولة ؟ هل ان بريفان هذا مخيف إلى هذا الحد ؟ ولكن لاحظ كم انا بسيطة ومتواضعة ! لقد قابلت غالباً هـــذا الغازي الرائع : ولم اكن انظر إليه إلا لماماً !

وكان لابد من رسالتك حتى تجعلني اتنبه إليه . وقد تداركت ظلمي له أمس . اذ كان في دار الاوبرا قبالتي تقريبـاً ، وقد اهتممت به . أنه جميل على الاقل ، لا بل جميل جداً ، ذو تقاطيع ناعمـة ورقيقة ! ولا غرو فان رؤيتـه عن كثب

twitter @baghdad_library

تزيد من بهائه . أنت تقول انه يريدني؟ اكيداً انه ليشرفني بذلك لابل «ويمتعني» ولديّ رغبة فيه . واعلمك هنـــا انني قمت بالمساعي الأولى . ولا ادري اذا كانت ستنجح ، واليك ما حدث :

لقد كان على بعد خطوتين مني ، ولدى خروجي من الاوبرا حددت بصوت عال موعداً مع المركيزة دي ... لكي اتعشى معها يوم الجمعة عند الماريشالة ... واعتقد ان هذا هو المنزل الوحيد الذي استطيع ان اقابله فيه . ولا اشك في انه سمعني . واذا كان جاحداً فسوف لا يحضر ؟ ولكن قل لي اذن ألا تعتقد بأنه سيحضر ؟ هل تدري انه اذا لم يأتِ فسأكون مستاءة طوال السهرة ؟ أرأيت انه لن يجد صعوبة كبرى « في ملاحقتي » ، ولعل ما سيدهشك اكثر انه اصبح بعد الآن يعجبني . انه يريد ، كما يقول ، أن يُهلك ستة جياد لـكي يغازلني . اعتقد انه ليس لدي صبر على الانتظار طويلاً . انت تعلم انه ليس من عاداتي ان اجعل العاشق يتقلى على حر الجمر ، حين اكون قد حزمت امري واتخـذت قراري بشأنه .

أوه ! إعترف ان هناك لذةً في ان اتحدث بتعقل ! أليس « إنذارك الهام » سوى نجاح كبير ؟ ولكن ماذا تريد ؟ إنني اعيش في بطالة وضيق منذ مـــدة طويلة ! وها قد مضى علي اكثر من ستة اسابيع لم اسمح لنفسي خـــلالها بأي انشراح . وها ان الانشراح معروض الآن . هل أستطيع ان ارفضـــه ؟ ألا يستحق الموضوع هذا الاهتمام ؟ هل هنالك ألذ منه مهما كان المعنى الذي تفسر به هذه الكلمة ؟..

انت نفسك مضطر لأن تنصفه . ولا تقوم إلا بالثناء عليه ، رغم انك غيور منه . اجل سأضع نفسي قاضياً بينكما : ولكن لا بد اولاً من ان احقق معه ، وهذا ما افعله الآن . سأكون قاضياً نزيهاً ، وستكونان موزونين كلاكما في مـــيزان واحد . اما في ما يتعلق بك ، فلدي ذكرياتك ، قد جرى التحقيق في قضيتك تمامـــاً . اليس من العدل ان اهتم الآن بخصمك ؟ هيا ، نفذ اوامري بطيبـة خاطر . وارجو ان تعلمني في البداية ما هي هذه المغامرة الثلاثية التي هو بطلها . انت تحدثني عنها كما لو كنت اعرفها . بينما لا اعلم عنها شيئاً ، يبدو انها حدثت

اثناء رحلتي الى جنيف ، وقد منعتك غيرتك من ان تكتبها لي . تدارك هذه الغلطة في اقرب وقت . وفكر « ان لا شيء يتعلق به الا ويهمني » ، ويبدو لي ان الناس كانوا يتحدثون بها لدى عودتي . ولكنني كنت مشغولة بامر آخر . وانا لا اصغي الا نادراً الى كل ما لم يكن وليد الامس او اليوم .

اما اذا كان ما اطلبه منك سيغيظك قليلاً ، افليس هو أقل ثمن انت مدين به الي مقابل العناية التي بذلتها نحوك ؟ اليست هذه العناية نفسها هي التي جعلتك تقترب من رئيستك في الوقت الذي أدت بك حماقاتك إلى الابتعاد عنها ؟ ثم الست انا التي وضعت بين يديك ، ما يجعلك تنتقم من نشاط السيدة دي فولانج المرير تجاهك ؟ لقد شكوت غالباً من الوقت الذي تضيعه في البحث عن مغامراتك ! اما الآن فانها في متناول يديك . الحب ، والكراهية ، ليس عليك الا ان تختار . كلاهما ينام تحت سقف واحد ، وانت تستطيع ، بمضاعفة جهودك ، ان تداعب بيد وتصفع بالأخرى ،

ثم انت مدين لي ايضاً . بمغامراتك مع الفيكونتيسة ، لأن الفضل فيها لرحلتك هذه وانا مسرورة لذلك . ثم تقول ان على الناس ان يتحدثوا بهذه القصة ، ولكنني اعتقد ان هذه المرأة لا تستحق مثل هذه الطريقة الشريفة .

الوداع يا فيكونت ، فكر ان الوقت ثمين جداً في الوضع الذي انت فيه الآن . وانا سأستخدم وقتي من اجل سعادة بريفان .

٧٥

من سيسيل دي فولانج الى صوفي كارني

من قصر ... في ١٤ ايلول ؟؟ ١٧

(ملاحظة : تسرد سيسيل دي فولانج في هذه الرسالة تفاصيل كل ما وقع لها من احداث سبق القاري ان اطلع عليها في نهاية القسم الاول وقد وجدنا من الافضل حذف هذا التكرار . ثم تتحدث اخيراً عن الفيكونت دي فالمون كما يلي :)

. . اؤكد لك انه رجل خارق ، ان والدتي تتحدث عنه بالسوء بينما يتحدث

twitter @baghdad_library

عنه الفارس دانسني بالخير ، واعتقد انه عـلى حق . ولم أرَ في حياتي رجلاً بمثل دهائه . وحين سلمني رسالة دانسني ، فعل ذلك أمـام جميع الناس ، ولم يلاحظ احد شيئاً ، واعتراني في الحقيقة خوف شديد ، لأنني لم اكن أتوقـع شيئاً ، ولكنني اصبحت الآن اتهيأ لمثل ذلك ، وقد فهمت جيداً كيف يجب ان أتصرف لكي اسلمه جوابي. والتفاهم معه سهل جداً . لأنه يملك نظرة تقول كل ما يريد . ولا أدري كيف يفعل. وقد قال لي في الرسالة التي حدثتـك عنها انه لن يبدو مهتماً بي امام والدتي ، وبالفعل يبدو وكأنه لا يفكر ابـداً بي . ومع ذلك ففي كل مرة ابحث عن نظراتـه ، أكون متأكدة بأنني سأقابلهـا حالاً .

توجد هنا صديقة لطيفة لوالدتي لم اكن اعرفها من قبل ، وهي كما تبـدو لا تحب السيد دي فالمون مطلقاً رغم انـه يحيطها بعنايته واهتمامه . واخشى ان يتضجر قريباً من الحياة التي يقضيها هنا ، وان يعود الى باريس . وسيكون ذلك مزعجاً جداً ، اذ ينبغي ان يكون نبيـل القلب حتى يأتي خصيصاً لكي يؤدي خدمة الى صديقه واليّ ! كم أود أن ابلغه عرفاني بالجميل . ولكني لا أعلم كيف أفعل لكي اتحدث معه . وحين ستتاح لي المناسبة سأكون خجولة جداً بحيث لن اعلم ماذا سأقول له .

وليس لي سوى السيدة دي ميرتاي اتحـدث معهـا بحرية حين اتحدث عن حبي ، وربمـا معك ايضاً التي اروي لك كل شيء . اما اذا كان علي ان اتكلم فسأكون مرتبكة حتى مع دانسني نفسه . فقد شعرت غالباً ، رغمـاً عني ، ببعض الخوف يمنعني من ان اقـول كل ما افكر بـه . وألوم نفسي كثيراً على هذا التخوف ، وابذل كل ما في وسعي لكي أجـد لحظة استطيع ان اقول له فيها ، مرة واحدة ، مرة واحدة فقط ، كم احبه . وقد وعده السيد دي فالمون بأنني اذا تركت نفسي اسير حسب توجيهاتـه ، فسيتيح لنـا الفرصة لكي نلتقي . وسأفعـل كل ما يشاء . ولكنني لا استطيع ان افهم كيف سيكون الأمر ممكناً .

الوداع يا صديقتي العزيزة ، لم يبق عندي مكان *

٧٦

من الفيكونت دي فالمون إلى المركيزة دي ميرتاي

قصر ... في ١٧ ايلول ؟؟ ١٧

إما ان رسالتك هي تهكمية لم افهم منها شيئاً ، واما انك كنت عند كتابتها في حالة جنونية خطيرة جداً . ولو كنت لا اعرفك بصورة كافية ، يا صديقتي الحسناء ، لكنت حقيقة ارتعبت جداً . ومهما تستطيعين ان تقولي ، فأنا لا ارتعب بسهولة .

قرأت رسالتك مرة ومراراً ، ولكني لم اتقدم خطوة واحدة ، لأنه ليست هناك وسيلة افسرّ بها رسالتك حسب المعنى الطبيعي الذي تعطيه . فماذا عنيت بها اذن ؟

فهل فقط من غير المفيد ان أعلق مثل هذه الأهمية على عدو ليس مخيفاً؟ ولكنك في هذه الحالة يمكن ان تكوني على خطأ. لأن بريفان هو حقيقة جذاب. وهو اكثر مما تتصورين. انه يتمتع بصورة خاصة بتلك المقدرة المفيدة جداً لأن يشغل الناس بحبه ، عن طريق البراعة التي لديه في التحدث عنه في المجتمعات وامام جميع الناس ، منتهزاً اول مناسبة يجدها . وقليل من النساء يستطعن ان يتخلصن من الكمين الذي ينصبه لهن . لانهن جميعاً يملكن ادعاءات من الذكاء، وليست هناك واحدة تريد ان تضيع الفرصة للتدليل على ذلك . بينما انت تعلمين أن المرأة التي توافق على التحدث عن الحب تصل في النهاية الى ان تعلق به ، او تتصرف كما لو كانت عالقة في الحب. وهوما زال ينجح بهذه الطريقة التي

* بما ان الآنسة دي فولانج قد عثرت بعد وقت قليل على صديقة اخرى تفضي إليها بأسرارها كما سنرى في بقية هذه الرسائل ، فلن نجد بعد الآن في هذه المجموعة اية رسالة من الرسائل التي استمرت في ارسالها إلى صديقتها في المدرسة ، لأنها لا تطلع القارىء على شيء جديد .

twitter @baghdad_library

اتقنها الى درجة كبيرة بحيث يدعو النساء انفسهن الى الاعتراف بهزيمتهن وان ما احدثك عند الآن قد خبرته بنفسي .

ولم اطلع على سرّه الا بواسطة شخص آخر . لانني لم اكن ابداً على علاقة وثيقة مع بريفان . ولكننا اخيراً كنا ستة اشخاص : وقد روت لنا الكونتيسة ب ... التي لا يعوزها الدهاء والبراعة بحيث انها بدت كما لو كانت تتحدث عن موضوع عام ، اقول انها روت لنا بكثير من التفاصيل ما يفهم منه انها استسلمت لبريفان ، وكل ما جرى بينهما . وقد روت هذه الحكاية باطمئنان وثبات حتى انها لم تنتبه الى الضحك الشديد الذي اجتاحنا جميعاً في وقت واحد . واذكر دائماً ان احدنا شاء – بعد ان اعتذر – ان يظهر وكأنه شك بما قالته ، او بالاحرى ما تبدو أنها قالته . ولكنها اجابتنا بتأكيد انه ليس هناك احد سواها اكثر معرفة بما حدث ، وهي لا تخشى بأن تسأل بريفان نفسه عما اذا كانت قد اخطأت بكلمة واحدة في روايتها .

وقد استطعت ان أوقن اذن ان هذا الرجل يشكل خطراً على الجميع . ولكن الا يكفيه بالنسبة لك ، ايها المركيزة أنه «جميل ، جميل جداً» كما تقولين انت نفسك ؟ فإما ان يوجه اليك احدى هذه الهجمات التي يعجبك ان تكافئيها احياناً ، دون اي سبب آخر سوى انك تجدينها بارعة حقاً ؟ او انك وجدت من الممتع ان تسلمي نفسك اليه لسبب مبتذل ؟ او ... من يدري ؟ هل يتسنى لي ان احزر الوف الالوف من المقاصد الفجائية التي تدور في رأس امرأة وليس لها داع ، والتي عن طريقها وحدها تتمسكين بجنسك ؟

اما وقد أنذرتِ الآن بالخطر فلا اشك بأنك ستفقدين نفسك معه بسهولة . ولكن كان لا بد مع ذلك من تحذيرك ، ها اني اعود من جديد الى رسالتك .. ماذا عنيت بها؟

اذا لم تكن سوى تهكم على بريفان ، فانها لولا كونها طويلة ، ليست مفيدة تجاهي . بل يجب ان تعلنيها على الناس لكي تسخري به امامهم ، واكرر لك رجائي في هذا الصدد .

آه . اعتقـــد انني اكتشفت السر ! ان رسالتك هي نبوءة، ليس عمـــا ستفعلينه بل عمـا سيعتقدك مستعدة لان تفعليه عنـد السقوط الذي تدبّرينه له . وانا اوافق كل الموافقة على هذا المشروع الذي يتطلب مع ذلك مداراة كثيرة. انت تعرفين مثلي ان خداع رجل ما ، وتلقي مغازلاته لها بنظر الجمهور تأثـير واحد . اللهم الا اذا كان هذا الرجل مغفلاً . وبريفان ليس من هذا النوع . واذا فاز فقط حتى ولو بالمظهر، فان ذلك كاف لأن يتباهى ويفتخر بنفسه ويروي كل ما حدث . وسيصدقه الاغبياء ، اما اللؤماء فسيبدون أنهم صدقوه : فماذا ستكون وسائلك ؟ انني في خوف عليك من ذلك . ليس لأني أشك في براعتـــك ولكن اولئك الذين يسبحون جيداً هم الذين يغرقون .

لا أعتقد بأنني أشد غباوة من اي رجل آخر، وانا اعرف مئة وسيلة لالصاق العار بأمرأة ، لا بل ألف وسيلة: ولكنني حين اهتممت بالبحث كيف تستطيع ان تنقذ هذه المرأة نفسها لم أر ابداً اي احـتمال . وانت نفسك ، يا صديقتي الحسناء ، التي يعتبر سلوكها مثالياً ، لقد خيّل إليَ مئة مرة بأني اجد فيك من السعادة اكثر من البراعة في التمثيل .

ولكني ابحث على كل حال ، عن سبب مـا ليس له وجود . وانا اعجب ، كيف اني منذ ساعة أعالج بصورة جدية ، ما ليس ، من المؤكد ، سوى مزاحة من جانبك . وستهزأين مني حتماً ! فليكن ولكن سارعي ، ولنتحـدث عن موضوع آخر . عن موضوع آخر ؟ لقد اخطأت . لأن الموضوع دوماً هو نفسه، فهناك دوماً نساء اما لامتلاكهن وإما لاضاعة عقولهن ، وغالباً كلا الفريقين .

لديّ هنا ، كما لاحظت جيداً ، ما يجعلني أتمرن في هذين النوعين معاً ، ولكن ليس بسهولة متعادلة ، وانا اتنبأ بأن الانتقام سيحدث بصورة اسرع من الحب. لقد وافقت الصغيرة فولانج على كل ما طلبته منها ، وأصبحت مسؤولاً عنها . والأمر لا يتوقف إلا على المناسبة ، وأتعهد بتكوينها . ولكن القضيـــة ليست كذلك في ما يتعلق بالسيدة دي تورفيل : فهـذه المرأة هي مؤسفة ، لا افهمها ابداً. لان عندي مئة دليل على حبها، ولكن عندي الف دليل آخر على مقاومتها.

twitter @baghdad_library

وفي الحقيقة اخشى احياناً ان تكون قد افلتت مني .

ان التأثير الاول الذي احدثتـه عودتي جعلني ازداد املاً . وانت تدركين اني اردت ان احكم بنفسي على هذا التأثير . ولـكي اتأكـد من رؤية الحركات الاولى لم اعلن عن قدومي بواسطة احد . وقد رتبتُ حضوري بطريقة تجعلني أصل خلال تناول الطعام . وبالفعل بدوت كأني سقطت من السماء .

وبعد ان احدثت كثيراً من الضجيج لدى دخولي لكي اجعـل نفسي محط الانظار ، استطعت ان أرى بنظرة واحـدة فرح عمتي العجوز وغضب السيدة دي فولانج ، والسرور المشوش لابنتها . اما حسنائي فـكانت – بسبب المقعد الذي تحتله – تدير ظهرها إلى الباب ، وقد شغلها في اللحظة نفسه قطع شيء ما ، فلم تلتفت : ولكني وجهت الكلام الى السيدة دي روزموند ، ولدى الكلمة الاولى عرفت الورعة الحساسة صوتي ، فندت عنها صرخة ظهر لي فيهـا من الحب اكثر من المفاجأة أو الفزع . وكنت حينئذ قد تقدمتُ كثيراً لكي ارى وجههـا : فإذا بصخب روحها وصراع افـكارها وعواطفها قد ارتسما على هذا الوجه بعشرين طريقة مختلفة . وجلست عند المائدة الى جانبها . فلم تعرف ماذا تقول ولا ماذا تفعل بل حاولت ان تتابع الأكل ، فلم تفلح .

واخيراً بعد مضي أقل من ربع ساعة وهي على هـذه الحال حتى اصبح الارتباك والسرور اقوى منها ، لم تتخيل طريقة افضل من طلب الإذن بأن تخرج ، فغادرت المائدة وتوجهت نحو الحديقة بحجة انها بحاجة الى شم بعض الهـواء . وشاءت السيدة دي فولانج ان ترافقها ، ولكن الورعة الرقيقة لم تسمح لها بذلك : لا ريب بأنها كانت جـذلة جداً بأن تكون وحدها ، وتستسلم لانفعالات قلبها اللذيذة دون وجل .

وقد اختصرتُ الغداء على قدر الامكان ، ولكن السيدة دي فولانج الجهنمية أرادت ان تؤذيني ولا شك ، فنهضت سريعاً لكي تلحق بالمريضة الفاتنة ، ولكني احبطت مشروعها هذا ، بأن حملت سائر الحضور على القيام بمثل هذه الحركة . وكان ان توجهنا جميعاً للاجتماع بحسنائي التي وجدناها وحدها في البستـان قرب

القصر . وبما انها لم تكن بحاجة الى شم الهواء اكثر من حاجتها الى العزلة ، فقد فضلت ان تعود معنا بدلاً من ان تدعنا نبقى معها .

وبعد ان تأكدت انه لن تتاح للسيدة دي فولانج فرصة التحدث معها على انفراد ، فكرت بتنفيذ اوامرك ، واهتممت بصالح ربيبتك الصغيرة دي فولانج. وكان ان صعدت بعد تناول القهوة الى غرفتي ، ودخلت ايضاً الى الغرف الاخرى لكي اتعرف الى من يحتلها . واعددت ترتيباتي لكي اضمن مراسلة الصغيرة ، ثم كتبت كلمة صغيرة الى الفتاة اعلمها فيها بالامر واطلب اليها منحي ثقتها . وارفقت كلمتي برسالة دانسني . وعدت الى البهو الكبير حيث وجدت حسنائي الورعة مستلقية فوق كرسي طويلة في حالة استرخاء لذيذ .

وانعش هذا المنظر الذي ايقظ رغباتي ، انظاري ايضاً ، وشعرت بأنها يجب ان تكون رقيقة ناعمة ، وجلست بطريقة استطيع معها ان أستغلها . وكان تأثيرها الاول ان جعلت عيني حسنائي السماوية الورعة تنخفض ، ورحت اتأمل بعض الوقت هذا الوجه الملائكي ، ثم اخذت اتفحص كل شخصها ، واخذت أتسلى بتخمين الزوايا والاشكال عبر رداء خفيف ولكن غير مناسب . وبعد ان نزلت بابصاري من الرأس ... لاحظت ان نظرة صديقتي الجميلة كانت مصوبة نحوي . وفجأة انخفضت من جديد. ولكني حولت انظاري عنها لكي اشجعها على مبادلتي النظرات . وهنا قام بيننا هذا الاتفاق الضمني الذي يعتبر اول معاهدة في الحب الخجول الذي يسمح بالنظرات ان تتلاحق بانتظار ان تتلاقى وذلك لارضاء حاجة متبادلة للنظر .

ولاقتناعي بأن هذه المتعة الجديدة تشغل حسنائي كلها ، حرصت على ضمان امننا المشترك . وحاولت ان أفهم من عينيها ما تحدثني به صراحة بلغتها . وقد فاجأت في هذا الصدد بعض النظرات ولكن بكثير من التحفظ الذي لا يشين التواضع ، ولكنني بدوت انا نفسي مرتبكا لكي اجعلها مطمئنة . وكان ان اعتادت انظارنا شيئاً فشيئاً على ان تتجاوب في ما بينها ، وحدقت مدة اطول ، وما لبثت ان علقت كل منها بالاخرى . ولاحظت في نظراتها هذا الاسترخاء

twitter @baghdad_library

الممتع . وهي اشارة سعيدة على وجود الحب والرغبـــة . ولكن ذلك لم يستمر وقتاً طويلاً، وكان ان عادت الى نفسها، وبدّلت وضعها ونظراتها بشيء من الخجل.

ولم أشأ ان ترتاب في اني لاحظت مختلف حركاتها ، فنهضت بحيوية سائلاً اياها بوجل ، عما اذا كانت تشعر بألم .

وما لبث القوم جميعهم ان عادوا الى البهو فأحاطوا بها. فتركتهم جميعاً يمرون قبلي ، وبما ان الصغيرة فولانج كانت منهمكـة في التطريز قرب النافذة وقـد توقفت لبعض حاجتهـا ، إغتنمت الفرصة لكي اناولهـا رسالة دانسني . وكنت بعيداً قليلاً عنها ، فرميت بالمكتوب فوق ركبتهـا . فلم تعرف في الحقيقة ماذا تفعل . ولو رأيتها لكنت ضحكت كثيراً من مظهر الارتباك والمفاجـــأة الذي بدا عليها . ومع ذلك لم اكن اضحك ابداً . لأني خشيت ان تفضحنا بتصرفاتها الخرقاء ، ولكنني افهمتها بنظرة حادة وبإيماءة واضحة بان عليها ان تضع الرسالة في جيبها .

اما بقية النهار فلم تكن بذات بال ، وان ما جرى منذ ذلك الحين سيؤدي الى حوادث ستكوني مسرورة منها على الأقـل في ما يتعلق بحضينتك . ولكن من الافضل استخدام الوقت للتنفيذ بدلاً من الكلام . وهذه هي الصفحة الثامنة التي اكتبها اليك وقد تعبت . الوداع اذن .

لعلك لا تشكين بان الفتاة قد اجابت دانسني * ، كما انني تلقيت جواباً من حسنائي رداً على رسالة وجهتها اليها غداة وصولي . وسأرسل اليك الرسالتين لتقرأينها أولاً ثم تعيدينها، لأن هذه الثرثرة الدائمة التي لا تمتعني كثيراً قد لا تهم شخصاً لا مصلحة له في الأمر .

الوداع ايضاً مرة أخرى ، احبك دائماً جداً ، ولكنني ارجوك – اذا عدت للتحدث ثانية عن بريفان – أن تجعليني افهمك .

---

* هذه الرسالة لم نعثر عليها .

٧٧

من الفيكونت دي فالمون الى الرئيسة دي تورفيل

في ١٥ أيلول ؟؟ ١٧

من اين يمكن يا سيدتي، ان يأتي هذا الحرص الشديدالذي تبذلينه على الافلات مني ؟ كيف يتسنى للشوق الملح من جانبي أن لا يلقى من جانبك الا معاملة لا تكاد تكون مسموحة تجاه رجل هو احق بالرثاء منه بالجفاء ؟ ماذا ! لقد دفعني الحب الى الارتماء عند قدميك ، وحين وضعتني مصادفة سعيدة بالقرب منك ، فضلت إظهار عارض صحي أقلق اصدقاءك بدلاً من ان توافقي على البقاء الى جانبي ! وكم من مرة شئت بالأمس ان تحولي انظارك عني حتى تحرميني لذة التمتع بها، واذا كنت قد استطعت ان احظى لحظة واحدة بقليل من التساهل، فان هذه اللحظة كانت قصيرة جداً بحيث بدا لي انك لم ترغبي في ان اتمتع بها فترة اطول مما اشعرني بعذاب لحرماني منها .

أجرؤ على القول ان هذه المعاملة ليست جديرة بالحب . وحتى مما لاتسمح به الصداقة ! وانت تعلمين اي واحدة من هاتين العاطفتينهي التي تلهبني ، وكنت اعتقد انك لن ترفضي لي الأخرى . هذه الصداقة الثمينة التي اعتقدتِ ولا ريب اني جدير بها ، لانك تلطفتِ بعرضها عليّ ، فماذا فعلتُ اذن منذ ذلك الحين حتى فقدتها ؟ هل تكون ثقتي هي التي اضرّت بي عندك ؟ وهل تعاقبينني على صراحتي ؟ ثم ألم القِ فعلاً بسرّ قلبي في صدر صديقتي ؟ أليس صحيحاً انه تسنى لي تجهاها وحدها ان اعتقد بأني مضطر لرفض شروط كان يكفيني ان اقبلها لكي امنح نفسي سهولة عدم التقيد بها . لا بل وربما استغلالها لمنفعتي ؟ هل تريدين أخيراً بسبب قساوة لا استحقها ان تحمليني على الاعتقاد بأنه كان ينبغي ان اخدعك لأنال مزيداً من سعة الصدر والتسامح ؟

انني لست نادماً ابداً على مسلك اشعر بأني مدين به اليك ، لا بل ومدين به إلى نفسي . ولكن اي قدر شاء ان يصبح كل عمل يستحق الثناء بالنسبة لي بمثابة إنذار بشقاء جديد ؟

twitter @baghdad_library

إنك بعد ان أتحتِ السبيل للثناء الوحيد الذي تنازلتِ فشملتِ به مسلكي اذا بي اجأر لأول مرة من الشقاء لكوني لم اعجبك . وانني بعد ان برهنتُ على خضوعي التام لاوامرك بحرمان نفسي من سعادة رؤيتك ، كل ذلك لكي اطمئن احتراسك، اذا بك ترغبين في قطع كل مراسلة معي ، وحرماني من هذاالتعويض الضعيف مقابل تضحية انت طالبتني بها ، ثم سلبتني الحب الذي اعطاك وحده هذا الحق . وبعد ان حدثتك باخلاص لم تضعفه مصلحةهذا الحب نفسها ، اذا بك اليوم تهربين مني كما لو كنت طاغوتاً خطيراً .

الا تكلّين ابداً عن ان تكوني جائرة ؟ اعلميني على الأقل ما هي الاخطاء الجديدة التي حملتك على اظهار مثل هذه القساوة الشديدة،ولا تتورعي عن املاء الأوامر التي تريدين ان اتبعها ، وحين اتعهد بتنفيذها هل اطلب شيئاً كثيراً اذا وددت معرفتها ؟

٧٨

من الرئيسة تورفيل إلى الفيكونت دي فالمون

في ١٦ ايلول ؟؟ ١٧

انك تبدو يا سيدي مندهشاً من مسلكي ، ولا ينقصك سوى ان تطلب مني حساباً عن ذلك كما لو كان لك الحق بلومي عليه .واعترف بأنه كان بالأحرى عليّ ان اندهش وان اشكو ، ولكن منذ الرفض الذي ابديته في رسالتك الأخيرة قررتُ ان الجأ إلى لامبالاة متناهية لا تدع مجالاً للملاحظات ولا للمآخذ . ومع ذلك بما انك طلبت مني توضيحات عن هذا الموقف ، وانا بفضل السماء ،لا اشعر ان هناك ما يمكن ان يمنعني من تقديمها اليك، فانني اود ان اخوض معك مرة اخرى مناقشة من هذا النوع .

ان من يقرأ رسائلك يعتقد انني ظالمة وغريبة الاطوار ، واعتقد انني استحق الا يكوّن اي انسان عني هذه الفكرة . ويبدو لي انك انت بصورة خاصة اقل

من غيرك اخذا بمثل هذه الفكرة . لا ريب في انك شعرت - يجعل تبرير موقفي ضرورياً - انك تحملني على تذكر كل ما حدث بيننا . لقد اعتقدتَ ظاهرياً انك لا محالة ناجح في هذا الامتحان . وأنا من جهتي لا اعتقد بأنني سأكون خاسرة ، على الاقل بنظرك . ولذلك لست خائفة من وضع نفسي موضع الامتحان . ولربما كان هذا هو السبيل الوحيد لمعرفة من منا عليه ان يشكو من الآخر .

اذا استعرضت يا سيدي علاقتنا منذ وصولك الى هذا القصر لاعترفتَ - كما اعتقد - ان سمعتك جعلتني على الاقل ابدو متحفظة تجاهك . وقد كان بامكاني دون ان اخشى ان يوصفني الناس بالمفرطة في التعفف ، ان اتقيد فقط بالتقاليد الوحيدة للتهذيب الفاتر ، ولكنت انت نفسك عاملتني برحابة صدر ، ولكنت وجدت طبيعياً ، من امرأة قليلة الخبرة ، ان لا تكون لديها المزية الضرورية لتقدر مزيتك . وقد كان أكيداً ان اقف هنا موقف الحذر ، وما كان ذلك كلفني شيئاً . لا اخفي عليك انه حين اعلمتني السيدة دي روزموند بنبأ وصولك ، اضطررت الى تذكر صداقتي نحوها وصداقتها نحوي ، لكي اجعلها لا تلاحظ كم ان هذا النبأ اغاظني .

وكان عندئذ ان استغللت حسن نيتي ، ولم تخش ان تطارحني عاطفة لم تكن تشك في انها تهينني . وبينما لم تهتم الا بزيادة خطورة اخطائك بمضاعفتها، كنت أنا احاول ان اجد مبرراً لتناسيها ، عارضة عليك فرصة الرجوع عنها وتداركها . او على الاقل تدارك قسم منها .

وكان طلبي عادلاً الى حد انك انت نفسك لم تستطع ان ترفضه : ولكنني بمنحك حق الحصول على تسامحي ، اغتنمت الفرصة لكي تطلب مني السماح لك بالكتابة لي ، وهو امر كان يجب عليّ ولا شك ان لا امنحك اياه ، ومع ذلك فقد نلته ، لا بل وفرضت شروطاً لذلك ، غير انك لم تتقيد بواحد منها .وكانت مراسلتك متطاولة بشكل كان كل واحد من خطاباتك يعرض عليّ واجب عدم الرد عليه . وفي الوقت الذي حملني فيه عنادك على ابعادك عني تماماً ، حاولت

twitter @baghdad_library

ربما في تصرف يستحق اللوم اتباع الوسيلة الوحيدة التي يمكن ان تسمح بتقربك. ولكن اي ثمن بنظرك شئت ان تفرضه مقابل عاطفة شريفـــة ؟ انت تحتقر الصداقة . واراك في حالة نشوتك الجنونية لا تحسب حساباً للتعاسات والخجل، ولا تبحث الا عن الملذات والضحايا .

وكما انك خفيف في تصرفاتك ، كذلك انت غير واع في مآخـذك ، لأنك تنسى وعدك، او بالاحرى تقوم بلعبة لخرقها. واذا بك بعد ان وافقت على الابتعاد عني ، تعود الى هنا دون ان يدعوك احد ، ودون ان تحترم رجائي او ظروفي ، ودون ان يكون في عزمك ان تبلغني الامر ، كما انك لم تخش ان تعرضني لمفاجأة رغم ان تأثيرها بسيط اكيداً ، إلا انها ربما فسرت من قبل الاشخاص الذين يحيطون بنـا بشكل يسيء الى سمعتي . ان هذه اللحظة من الارتبـــاك التي خلقتها لم تعمد إلا إلى زيادتهـــا بدلاً من ان تحاول ازالتها او تحويلها : فلقد تعمدت اختيار مقعدك على المائدة إلى جانبي ، ثم حملني عارض بسيط على الخروج قبل الآخرين . واذا بك بدلاً من ان تحترم عزلتي ، تحمل جميع القوم على الحضور لمقابلتي . وبعد ان عدت الى الصالون ، لم يتسنّ لي ان اقوم بخطوة دون ان اجدك امامي ، واذا قلتُ عبارة ، تتنطع دوماً للاجابـــة عليّ . وان الكلمة الاكثر لا مبالاة تخدمك كحجة لكي تخوض معي محادثة لا اريد سماعها ، لا بل يمكن ان تورطني : واخيراً يا سيدي مهما كانت البراعة التي تبذلها في الحديث فان ما أفهمه انا يستطيع غيري ان يفهمه ايضاً .

وهكذا اضطررتُ بسببك الى التزام الجمود والصمت ولكنك لم تكفّ مع ذلك عن ملاحقتي . ولا استطيع ان ارفع انظاري دون ان اقابل انظارك ،وانا مضطرة باستمرار لأن أُحوّل ابصاري عنك، لا بل انّ تصرفاتك الهوجاء تجعل انظار القوم تحطّ عليّ بينما أود لو ان اتخلص من انظاري نفسها .

ثم انت تشكرني فضلاً عن كل ذلك من معاملتي !وتندهش من استعجالي في الافلات منك ! لقد كان الأجدر بك ان تلومني على سعة صدري ، وعلى اني لم ارحل عند مجيئك . لربما كان عليّ ان افعل ذلك . وستضطرني الى اتخاذ هـــذا القرار

المنيف ، ولكنه ضروري ، اذا لم تكفّ اخيراً عن ملاحقاتك المهينة .

كلا ، لستُ أنسى ولن انسى مطلقاً ، ماذا يجب عليّ ان افعل تجاه نفسي ، وتجاه ما عقدت عليه النية . وهي نية احترمها واعزها . وأرجوك ان تعتقد انني اذا ما اضطررت يوماً الى هذا الاختيار المرير ، بين ان اضحي بها او أضحي بنفسي ، فلن اتردد لحظة واحدة . الوداع يا سيدي .

٧٩

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

قصر ... في ١٨ ايلول ؟؟ ١٧

كنت اعتزم الذهاب الى الصيد هذا الصباح ، ولكن الطقس رديء للغاية ، ولا يوجد عندي ما اطالعه سوى رواية جديدة قد تضجر حتى التلميذة الداخلية ، وما زالت امامنا ساعتان لتناول الغداء : وهكذا سأتحدث اليك اليوم ايضاً مطولاً رغم رسالتي الطويلة امس . وانا متأكد بأنني لن ادخل السأم الى نفسك . لانني سأحدثك عن «الجميل جداً» بريفان : كيف لم تعرفي بعد بمغامرته الثلاثية الشهيرة ، تلك التي فرقت بين من كان لا يمكن تفريقهم؟ اراهن بأنك ستتذكرينها لدى اول كلمة . ومع ذلك فاليك بها ، ما دمت تطلبينها :

انت تذكرين ان مجتمع باريس بأسره كان مندهشاً لرؤية ثلاث نساء جميعهن جميلات فاتنات ، يملكن أرهف المواهب ، ويتمتعن بالاذواق ذاتها . وقد ظللن دائماً متوثقات الصلة في ما بينهن منذ ان دخلن المجتمع الراقي . وقد ظُنّ أنّ ثمة سبباً مجهولاً يحملهن على سلوك هذه العلاقة الحميمة المفرطة ، ولكنهن ما لبثن أن وجدن انفسهن محاطات بعدد كبير من المعجبين كن يتقاسمن اطراءهم ، وقد عرفن مقامهن في النفوس بما كن يتعرضن له من اهتمام وإلحاح . ولكن اتحادهن ظل ثابتا لا يتزعزع بل ازدار توطداً ، حتى قيل ان الفوز باحداهن معناه دائماً الفوز بالاثنتين الباقيتين . وكان يؤمل بأن تؤدي فترة الحب وغرقهن فيه الى

twitter @baghdad_library

اثارة شيء من التزاحم والغيرة او الخصومة بينهن ، ولكن شيئـــاً من ذلك لم يحدث . لا سيما وان احلى شبابنـــا اخذوا يتزاحمون على شرف التفريق بينهن. وأنا نفسي كنت اود ان اضع نفسي في طريقهن لولا ان غرام الكونتيسة دي .. كان قد استولى عليّ في ذلك الحين ، ولم اشأ ان اشغل نفسي بشيء آخر قبل ان احقق بغيتي منها .

وفي الاثناء وقع اختيار جميلاتنا الثلاث في حفلة تنكرية على ثلاثة عشاق في آن واحد ، وكان الانسجام بين الجميع تاماً . ومع ان هذا الحدث لم يـــثر من العواصف ما توقعه الجميع ، الا انه على العكس جعـــل صداقتهن أشد توثقاً .

وقد انضم فريق الطامعين الفاشلين من الشبان إلى فريق النساء الحسودات ، وهكذا أصبح ثبات هؤلاء الفتيات الثلاث على حبهن عرضة للقيل والقال . وكان البعض يزعم ان القانون الأساسي « لجمعية غير المتفرقات » (هكذا كانوا يدعونهن في ذلك الحين) يقضي بتقاسم الاملاك بصورة مشتركة في ما بينهن ، وكان البعض الآخر يؤكد ان الحب نفسه أصبح قاسماً مشتركاً وان العشاق الثلاثة يتقاسمون في ما بينهم حظوة النساء الثلاث .

ولكن هذه الاشاعات الصحيحة او الباطلة لم تؤد الى النتيجة المطلوبة ، بل شعر الازواج الثلاثة ان في تفرقهم هلاكهم ، فقرروا الصمود بوجه العاصفة ودحض جميع الاقاويل. وما لبث ان سلاهم المجتمع ، وتحوّل إنتقاده الى تقريظ واعجاب بمسلك هؤلاء العشاق والعشيقات المثابرات على العهـــد . الى ان وصل النبأ الى بريفان فأعلن انه مستعد ان يتحقق من الامر بنفسه ، مسلطاً بذلك انظار المجتمع عليه وعلى هؤلاء النساء العجيبات .

وكان ان سعى الى التقرب من النساء حتى حظي بالدخول الى مجتمعهـــن ، فوجد ان الانسجام لم يكن سائداً بينهن ولا بينهن وبـــين عشاقهن تماماً كما كان يتصور الجميع ، بل ان هذا وذاك من العشاق الثلاثة كان غالباً ما يتخلف عن الحضور للاجتماع بحبيبته . وكان بريفان يغتنم الفرصة ليواسي العشيقة المهجورة ويغازلها في الوقت نفسه . وفي الاثناء ظل النساء الثلاث يحافظن على صداقتهن الحميمة امـــام اعين الناس ، بينما اصبح عشاقهن اكثر حرية وهكذا كانت

سهرات الجميع غالباً غير مكتملة .

وقد رأى بريفان بثاقب بصره ان اختيار واحدة منهن سيخبط مشروعه ، وان الاولى بينهن التي ستفكر بأن تخون عشيقها معه . ستجد نفسها عرضة لعداء الأخيرتين . مما قد يشكل مصاعب عديدة بوجه العشيق الجديد .

وأخيراً جاء اليوم الحاسم . إذ بعد ان تأكد بريفان من عطف الفتيات الثلاث عليه كل على حدة وبعد ان حصل على اعتراف كل منهن بحبه دون ان تعلم رفيقتيها بالامر . أيقن انه بات سيد الموقف ، ووجه ثلاث رسائل الى جميلاته الثلاث كلا على حدة ، يهددها فيها انها اذا لم تنفصل عن عشيقها فأنه سيتخلى عن حبهـــا . وهكذا اضطرت كل من الحسان الثلاث الى ارسال رسالة الى عشيقها السابق تقطع فيها علاقتها معه .

كما نجح بريفان في الاجتماع بكل امرأة على حدة دون ان تشعر الاخرى بها .

اما الرجال الثلاثة فقد اتضح لكل منهم ان عشيقته قد ضحت به في سبيل بريفان وقد ثارت ثائرتهم جميعاً ، وقرروا دون ان يكون هناك سابق اتفاق في ما بينهم ان يتحدُّوا بريفان ويدعونه الى المبارزة .

وهنا تفتقت الحيلة البارعة لدى بريفان فعين للجميع موعداً واحداً لمبارزته في مكان واحد وساعة واحدة .

وذهب في الموعد المقرر الى المكان الذي حدده لهم فوجد خصومه الثلاثة قد التقوا وهم مندهشون في ما بينهم لهذه المفاجأة ، اذ لم يكونوا يعلمون ان المصيبة قد جمعتهم ، مما ادخل الى قلب كل منهم بعض العزاء لرؤية رفيقه واقعاً في المشكلة ذاتها . وقد قابل بريفان خصومه الثلاثة بروح النبل والشهامة وقال لهم : «لقد اتضح لـكم جميعاً بوجودكم هنا معاً انـكم مشتركون في الشكوى مني ، وانا اعطيكم كل الحق في ذلك ، واضع مصيري بين ايديكم . فاختاروا من بينكم واحداً بالقرعة لمنازلتي واخذ ثأره مني» .

ولكن خصومه وقد اعجبوا بجرأته ، اخذوا يتبادلون النظر في ما بينهم ، ولعلهم شعروا ان المعركة لن تكون متكافئة ، فالتزموا الصمت . وهنا استأنف

twitter @baghdad_library

بريفان كلامه قائـــلاً : لا اخفي عليكم انني قضيت امس ليـــلة متعبة جداً ، وسيكون كرماً منـكم لو تلطفتم فسمحتم لي بأن اذهب فأرتاح هذا النهار. ولكنني اصدرت اوامري باحضار غداء جاهز إلى هنا ، فامنحوني شرف قبول دعوتي ، ولنتغدى الآن معاً . لا بل لنتغـدى بحبور ومرح ، وليس ما يمنع المرء الذي يريد ان يبارز من اجل شرفه ان يظل محتفظاً بروحه المرحة الكبيرة .

وقد اظهر بريفان خلال المأدبة من الكرم واللطف الزائـــدين ما أشعر ضيوفه باحترامه الشديد لهم ، وانـه ابعد ما يكون عن الرغبة في اهانتهم . كما أقنع الجميع ان ايا كان غيره كان حتماً سيفوز بحظوة الفتيات الثلاث لو حاول محاولته . وان مثل هؤلاء الفتيات لا يستحققن ان يقتـــل الانسان نفسه من اجلهن . وهكذا خرج الجميع من المأدبة وهم اصدقاء .

وقـال لهم بريفان : « كان الاحرى بكم ان تنتقموا من خليلاتكم الخائنات بدلاً من ان تحاولوا الانتقام مني، وها انذا اعرض عليكم الفرصة. لأنني انا نفسي سأشعر مثلكم بالاهـــانة ، وانه اذا لم يستطع اي واحد منكم ان يجعل الواحدة منهن تثبت على عهده ، فهل استطيع انا ان اثبّت الثلاث معاً ؟ ولذلك ادعوكم الى تناول العشاء معي هذا المساء نفسه في بيتي. وآمل ألا اكون بذلك قد أجّلتُ طويلاً فرصة انتقامكم » . وسألوه عن الغاية من هـذه المأدبة فقال لهم : « دعوا الأمر لي واعتمدوا عليّ » . ولم يشأ ان يوضح اكثر من ذلك ، وقد وافق الجميع على الدعوة وتبادلوا مع صديقهم الجديد القبلات الحارة !

ولم يشأ صاحبنا ان يضيع دقيقـة واحدة من وقته فعاد رأساً الى باريس ، وتوجه الى زيارة حسناواته الثلاث حيث حصل منهن ببراعـة على وعد بالحضور الى منزله في المساء نفسه لتناول العشاء ، وقد حدد لكل منهن موعداً مختلفاً عن موعد الاخرى بمدة ساعة واحدة من الوقت . ثم رجع بريفان الى رفاقه الثلاثة فأعلمهم بالأمر .

وحين وصلت الاولى استقبلها بريفان وحده بكل شوق وترحاب وقادهـا الى مخدع الغرام حيث اعتقدت نفسها انها ذات حظ كبير ، ثم اختفى بحجـــة

خفيفة ، تاركاً مكانه على الاثر للعاشق المهجور .

وبامكانك ان تتصوري مبلغ خجل امرأة ليست معتادة على المغامرات في مثل هذه اللحظة ، حيث يكون الفوز بها سهلاً . وغالباً ما يتحول اللوم الى عطف وتكريم ، وهكذا سلمت الجارية الهاربة من جديد الى سيدها ، وهي سعيدة بانها تستطيع ان تأمل في الحصول على تسامحه وعفوه ، واستئناف علاقتها معه .

وهكذا عقدت معاهدة الصلح في مكان منعزل بين العاشقين ، من جديد ، ثم تخليا عن المسرح الى الممثلين الآخرين اللذين شغلاه بالطريقة نفسها وقاما بتمثيل الرواية نفسها .

ومع ذلك كانت كل من النساء الثلاث تعتقد انها هي وحدها موضع الشبهة وبطلة الرواية . ولكن دهشتهن وارتباكهن ما لبثا ان تضاعفا وقت العشاء حين اجتمع الازواج الثلاثة . ولكن المأساة بلغت ذروتها حين ظهر بريفان في النهاية وسط الجميع ، وبلغت بها الجرأة القاسية ان قدّم اعتذاره للنساء الثلاث . فاضحاً بذلك سرهن وقد تبين لهن كم كن مخدوعات .

ومع ذلك جلس الجميع الى المائدة ، واستسلم النساء لرجالهن ، وحل المرح محل الغضب والكراهية ، والرغبة محل الاهانة ، واستمرت المعركة حتى الصباح ، وحين افترق الجميع ظن النساء انهن نلن الصفح ، ولكن الرجال الذين ما زالوا حاقدين عليهن انفصلوا عنهن انفصالا لا رجوع بعده . وكانوا ان فضحوا خليلاتهن امام الرأي العام . ومنذ ذلك الحادث ذهبت احداهن الى الدير ، وعادت الاثنتان الباقيتان الى قريتهما مفضلتين الابتعاد نهائياً من مجتمع باريس .

هذه هي قصة بريفان ، بقي الآن عليك ان تقرري ما اذا كنت تريدين ان تضيفي إلى امجاد بريفان مجداً آخر . لأن رسالتك اثارت في نفسي قلقاً خطيراً ، وانا انتظر بصبر نافذ جواباً اكثر تعقلاً واكثر وضوحاً من جوابك الأخير .

الوداع يا صديقتي الحسناء ، حاذري من الافكار المرحة او الغريبة التي تغريك دائماً بسهولة . وفكري ان الذكاء وحده ليس كافياً في التصرفات التي تسلكينها وان غلطة واحدة تصبح شقاء لا دواء له . واشعري اخيراً ان الصداقة الحذرة

twitter @baghdad_library

يجب ان تكون دليل متعك .
الوداع ، أحبك مع ذلك كما لو كنت متعقلة .

٨٠

من الفارس دانسني إلى سيسيل دي فولانج

باريس في ١٨ أيلول ؟؟ ١٧

سيسيل ، يا عزيزتي سيسيل ، متى يحين اذن وقت تلاقينا ؟ ومن يعلّمني كيف أعيش بعيداً عنك ؟ ومن يمنحني القوة والجرأة ؟ كلا ، ابداً ، لن استطيع تحمل هذا الغياب المرير ، وكل يوم يأتي يزيد من شقائي ، ولا أرى له من نهاية ! ان فالمون يهملني ، لعله ينساني . إنه قريب ممن يحب ولا يعرف كم يتعذب المرء حين يكون بعيداً عن حبيبته ، وهو حين أوصل إليّ رسالتك الاخيرة لم يكتب اليّ شيئاً. ومع ذلك فهو الذي يجب ان يبلغني متى وبأية طريقة استطيع ان أراك ، أليس لديه اذن ما يعلمني به ؟ وانت نفسك لا تحدثينني عن ذلك . فهل يكون معنى ذلك انك لا تشاطريني هذه الرغبة ؟ آه يا سيسيل انني تعيس جداً ، وأحبك اكثر من اي وقت مضى ، ولكن هذا الحب الذي كان لذة حياتي أصبح الآن يشكل همها الأوحد .

كلا، لا أستطيع ان أعيش هكذا.لا بد من ان اراك . ولو للحظة قصيرة. وحين انهض صباحاً اقول لنفسي : « ترى متى اراها » وحين انام اقول : « انني لم ارها ابداً » . ولا اجد طوال هذه الأيام الطويلة اية لحظة سعادة . وكل ماحولي حرمان ، وندم ، ويأس، وجميع هذه الآلام تأتيني من تلك التي انتظر منها مُتَعِي !واذا أضفتِ الى هذه الآلام المميتة قلقي على آلامك ، تستطيعين ان تكوّني فكرة عن وضعي ، انني افكر بك على الدوام ، ولا افكر ابداً دون اضطراب . واذا رأيتك تعيسة بائسة أحس بجميع اشجانك . واذا رأيتك هادئة مطمئنة تتضاعف آلامي . وهكذا القى التعاسة في كل مكان .

آه كم كان الحال مختلفاً حين كنتِ هنا . اذ كان كل شيء لذة ونعيماً . وكان التأكد بأن أراك يضفي سعادة على الاوقات التي اكون غائباً فيها عنك ، وكان الوقت الذي امضيه بعيداً عنك يقرّبني منك بمروره . كما ان ما اصرفه من وقت لم يكن غريباً عنك ، فاذا قمت ببعض الواجبات فلكي تجعلني جديراً بك . واذا غذّيت في نفسي بعض المواهب فلكي اعجبك . حتى ولو صرفتني جميع التسليات بعيداً عنك أظلُّ غير منفصل عنك . ففي المسرح كنت احاول ان احزر ماذا يمكن ان يكون قد اعجبك . وفي الحفلة الموسيقية كنت اتذكر مواهبك ومشاغلنا الرقيقة الناعمة . وفي المجتمع والنزهات كنت ابحث عن اقل شبه بك ، وكنت اقارنك بالجميع . وكل لحظة من النهار كانت تجعلني اكتشف فيك مزية جديدة . وفي كل مساء كنت اقدم الجزية عند قدميك .

اما الآن فماذا بقي لي ؟ حسرات مؤلمة ، وحرمان ابدي ، وامل ضئيل جعله صمت فالمون يزداد تضاؤلاً ، وجعلني صمتك أزداد قلقاً . ان عشرة فراسخ فقط تفصل بيننا ، ولكن هذه المسافة القصيرة أصبحت بالنسبة لي عقبة لا أستطيع اجتيازها . وحين أناشد صديقي وحبيبتي لكي يساعداني على اجتيازها ، اذا بهما يقابلاني بالصمت والهدوء .

ماذا جرى اذن لصداقة فالمون النشيطة ؟ وماذا أصبحت عليه مشاعرك الرقيقة التي كانت تبتدع المناسبات للقائنا (كل يوم) ؟ وفي بعض الاحيان ، استعيد ذكراها دون ان اكف عن الرغبة فيها بحيث انني اضطر الى ايجاد بعض الاعذار والاعتبارات والواجبات لك . ولكنك لا تحدثيني عنها بشيء . ولكن بأية أعذار تقاومين رغباتي ؟ كم ان رغباتي تتفق مع رغباتك ؟ انني لا اجعل منها موضع فخر لي ، ولن اضحي بها بل إن ما ترغبين في نيله اتحرق انا شوقاً لمنحه . ولكنني اطلب منك اخيراً – ويا له من طلب – ان اراك فقط لحظة قصيرة ، اجدد لك واتلقى خلالها قسماً على الحب الابدي الدائم . اليس في ذلك سعادتك كما هي سعادتي ؟ إنني استبعد اليأس الذي يكاد يقضي عليّ . انت تحبينني ، وستحبينني دائماً كما اعتقد ، وانا متأكد من ذلك . ولا اريد ابداً ان

twitter @baghdad_library

اشك في هذا الامر . ولكن وضعي أصبح في حالة يرثى لها ، ولا أستطيع ان اتحمله طويلاً ، الوداع يا سيسيل .

٨١

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون

باريس في ٢٠ ايلول ؟؟ ١٧

كم تثير مخاوفك شفقتي ! وكم تبرهن لي عن تفوقي عليك ! انت تريد ان تعلمني كيف أتصرف ! آه . كم ان الشقة بيننا ايهـــا المسكين فالمون ما تزال بعيدة ! كلا .. ان كل عظمة جنسك لا تكفي لسد الهوة التي تفصل بيننـــا . ثم نظراً لعجزك عن تنفيذ مشاريعي ، تحكم عليها بأنها مستحيلة ! وان كونك متكبراً وضعيفاً يقعدك عن الرغبة في ان تحسب حساباً لوسائلي وفي الحـكم على اساليبي ! في الحقيقة ايها الفيكونت ان نصائحك قد أثارت استيائي ، ولا أخفي عليك ذلك .

لقد عمدت لتغطية سوء تصرفك الاخرق تجاه رئيستك ، إلى التباهي امامي تكراراً ، كما لو انك حققت نصراً عظيماً ، بأنك استطعت ان تدخل الحيرة على امرأة خجول تحبك . وهنا أود ان اصدقك . ثم انك حصلت على نظرة ، نظرة واحدة فقط منها ، وهنا اسمح لي ان أبتسم ، وارجو ان تبتسم معي . لعلك شعرت ، رغماً عنك ، بما لمسلكك هذا من قيمة ضئيلة ، فحاولت أن تخفيها عني عن طريق اطلاعي على الجهد الكبير الذي يتطلبه جمع غلامين يتحرقان شوقاً لكي يتقـــابلا ، وكلاهما — واقول ذلك بصورة عابرة — مدين لي وحدي بحرارة هذه الرغبة ، وهنا اوافقك على ذلـــك ايضاً ، ثم تسمح لنفسك أخيراً باستخدام هذه العبارة الطنانة لكي تقول لي بلهجة مدعية «بأن من الأفضل استخدام الوقت لتنفيذ المشاريع بدلاً من روايتها» ان هذه المباهاة لا تؤذيني ، وانا اسامحك عليها ... ولكن ان تتمكن من الاعتقاد أنني بحاجة إلى حذرك ، وأنني سأضيع

نفسي إذا لم أتقيد بآرائك ، وان عليّ ان اضحي من أجلها بمتعة او برغبة دون مقصد ! في الحقيقة يا فيكونت انك تبالغ جداً في الفخر بثقة شئت أن أمنحك إياها .

وأي عمل قمتَ به دون أن أتمكن من سباقك فيه بأشواط ؟ لقد أغويت وأضعت عقول كثير من النساء ، ولكن اية صعوبات كان عليك ان تتغلب عليها؟ وما هي العقبات التي وقفتْ في طريقك ؟ وأين هي الميزة الحقيقية التي يمكن أن تُعزى إليك ؟ وجه جميل: وليد مصادفة بحتة ، وشمائل لطيفة : وليدة التمرين الذي يمنحها لأي كان ، وتلاعب بارع في الكلام في الحقيقة يمكن استبداله بلغة متفق عليها عند الحاجة . وقحة متناهية تُحسَدُ عليها ، ولكنها عائدة ربما إلى نجاحاتك الاولى . تلك هي وسائلك إذا لم اخطىء العد : لأنك بالنسبة للشهرة التي استطعت ان تحصل عليها ، لن تطالبني كما اعتقد ان احسب حساباً لفن خلق المناسبات او اغتنامها .

أما في ما يتعلق بالحذر والرقة ، فإنني لا أريد أن أتحدث عن نفسي ، ولكن أية امرأة في العالم لا تملك منهما اكثر منك ؟ ثم ألا تلاحظ ان رئيستك تقودك كما لو كانت تقود طفلاً ؟

صدقني أيها الفيكونت ، من النادر الحصول على الخصال الحميدة التي يمكن الاستغناء عنها . ربما انك تحارب دون مجازفة ، وتتصرف دون احتراس . وبالفعل فان الانهزامات بالنسبة إليكم معشر الرجال ليست سوى نجاحات أقل . وفي هذه المباراة غير المتعادلة فان ثروتنا هي عدم الخسارة، ومصيبتكم عدم الفوز . وحين أمنحك هذا القدر من المواهب مثلنا ، فكم ينبغي علينا اذن أن نتفوق عليكم ،بسبب ما لدينا من حاجة لكي نستخدم مواهبنا بصورة مستمرة!

لنفترض انك تبذل من البراعة للتغلب علينا بقدر ما نبذل نحن منها لكي ندافع عن انفسنا او نستسلم ، ولكن يجب ان تعترف معي ان براعتكم هذه تصبح عديمة الفائدة بعد نجاحكم . إذ تهتمون فقط بذوقكم الجديد ، فتستسلمون دون وجل ودون تحفظ ، لأن طول مدة النجاح يتعلق بكم .

twitter @baghdad_library

وبالفعل فإن هذه العلاقات المعطاة والمأخوذة بتبادل ، – ولنستخدم هنا لغة الحب – تستطيعون انتم وحدكم ، وباختياركم ان توثقوها او تقطعوها : وهن سعيدات ايضاً ، إذا فضلتم في خفتكم ، الغموض على الوضوح . ولم تجعلوا من معبودة الأمس ضحية اليوم التالي !

ولكن حين تشعر امرأة منكودة الحظ بثقل القيد الذي كبلتموها به ، فأية اخطار تتعرض لها اذا حاولت الافلات منها او اذا تجرأت فقط على ازالتها ؟ انها تحاول ، وهي ترتجف فقط ، ان تبعد عنها الرجل الذي يدفعه قلبها بجهد . واذا أصر على البقاء ، فان ما تمنحه للحب ، يجب ان تسلمه الى الخوف : وان ذراعيها ينفتحان فقط بينما يظل قلبها موصداً . إن حذرها يجب ان يفك ببراعة هذه الروابط نفسها التي كان بامكانكم ان تقطعوها. وهي تحت رحمة عدوها دون وسيلة اذا لم يكن كريماً . وكيف يمكن انتظار الكرم منه ؟ فاذا كان لديه منه فانه يُمدح عليه ، واذا لم يكن على العكس فانه لا يُلام ؟..

لا ريب بأنك لا تنكر هذه الحقائق البديهية التي اصبح وضوحها مبتذلاً . واذا كنت مع ذلك قد رأيتني أتصرف باحداث وآراء ، وأجعل من هؤلاء الرجال المخيفين جداً العاباً لنزواتي الطارئة أو لنوازعي التي لا تهدف الى أي قصد ، وانزع الرغبة في ايذائي من بعضهم أو القوة من الآخرين . واذا كنت قد عرفت على التوالي ، وحسب اذواقي المتنقلة ، ان اعلق ورائي أو أبعد عني هؤلاء الرجال ، فذلك لأن اولئك الجبابرة العتاة الذين أُنزلوا عن عروشهم اصبحوا عبيدي . واذا كنت قد حافظت مع ذلك خلال هذه الثورات المتكررة على سمعتي الطاهرة ، أفلم تستنتج انني ، وقد ولدت لكي اثأر لجنسي واسيطر على جنسكم ، قد عرفت ان ابتكر لنفسي وسائل مجهولة حتى من نفسي ؟

آه ... إحتفظ بنصائحك ومخاوفك لاولئك النساء المجنونات اللواتي يصفن أنفسهم بنساء «العواطف» واللواتي يجعلهن الخيال المجنح يعتقدن ان الطبيعة قد وضعت حواسهن في رأسهن . واللواتي لم يفكرن ابداً ، ولذلك يمزجن باستمرار

بين العشق والعاشق . واللواتي يتصورن في اوهامهن المجنونة ، ان ذلك الرجل الذي يحثن لديه عن المتعة هو المستودع الوحيد لهـــا . واللواتي هن متطيرات حقيقيات ينظرن نحو الكاهن نظرة ايمان واحترام بينما ليست هذه النظرة سوى من حق الالوهية فقط .

أجل تستطيع ان تخاف ايضاً على اولئك العابثات اكثر من الفاضلات اللواتي لا يعرفن عند الحاجة ان يوافقن على ان يُتركن .

وتستطيع ان ترتجف خوفاً بصورة خاصة على اولئك النشيطات في فراغاتهن اللواتي تدعوهن حسّاسات واللواتي يستولي الحب بسهولة على جميع كيـــانهن ، واللواتي يشعرن بالحاجة للاهتمام به ايضاً حتى ولو كن لا يتمتعن به ، واللواتي ينسقن دون اي تحفظ وراء تخمر افـكارهن ، ويولدن عن طريقها هذه الرسائل اللاهبة الناعمة جداً ولكنها الخطيرة جداً عند كتابتها ، ولا يخشين ان يسلمن هذه البراهين على تخاذلهن الى الشخص الذي يسببها : وهن لفرط عدم احتراسهن لا يرين في عشيقهن الحالي عدوهن المقبل !

ولكن ! ماذا لديّ من شيء مشترك مع هؤلاء النساء غير المعتبرات ؟ ومتى رأيتني أبتعد عن القواعد التي وضعتها لنفسي وعن المبادىء التي اختطيتها لحياتي ؟ اقول مبادئي عرضاً ، لأنها ليست كمبادىء النساء الأخريات التي تُمنح مصادفة ، وتقبل دون تفحص ، وتُتبع بحكم العـادة . بل انها ثمرة تفكـيري العميق ، وقد خلقتها بنفسي واستطيع ان اقول أنني صنع ذاتي .

لقد دخلت المجتمع في الوقت الذي كنت ما ازال بنتاً وقد انصرفت بحالة من الصمت وعدم النشاط ، إلى المراقبة والتفكير ، وبينما كان النـــاس يعتبرونني طائشة أو لاهية ، لانني كنت اصغي قليلاً الى الاحاديث التي يسارعون الى اسماعي اياها ، كنت التقط بعناية جميع الأقوال التي يحاولون ان يخفوها عني .

ان هذا الفضول المفيد الذي استخدمته لكي اتعلم ، قـــد علمني ايضاً على التخفي والتنكر ، ذلك انني اضطررت غالباً الى اخفـاء ما يجذب اهتمامي أمام انظار من يحيطون بي ؛ فحاولت ان أقود انظاري حسب اهوائي . وكان ان

twitter @baghdad_library

حصلت منذ ذلك الحين على مقدرة اتخـــاذ هذه النظرة الشاردة التي غالباً ما اطريتها في ، وذلك وفق ارادتي . وبعد ان شجعتني هذه المقدرة الاولى جهدت من ثم لكي أعرف ان اكيّف بالطريقة نفسها حركاتي وتعابير وجهي. فاذا شعرت ببعض الغم ، كنت أعوّد نفسي لكي أبدو في اطمئنان ودعة ، لا بـل حتى في ابتهاج . وقد روضت نفسي الى درجـة تسبيب آلام تلقائيـة لذاتي لكي ابحث خلال ذلـك عن تعبير اللذة . وقد نحتُ نفسي بالعناية ذاتها وبعذاب اكثر لكي اطرد عوارض بهجة غـــير منتظرة . وهكذا عرفت ان اسيطر على تقاطيعي وافرض على هيئتي هذه القوة التي رأيتك مراراً مندهشاً منها .

وكنت ما ازال صغيرة أيضاً ودون مصلحة ، ولكن لم يكن عنـدي سوى تفكيري ، وكنت اثور اذا ما سلبه احد مني او فاجأني فيه ضد رغبتي. وهكذا بعد ان تزودت بهذه الأسلحة الأولى ، حاولت ان استخدمها: ولم اكن مسرورة بان أدع احـــداً يتغلغل إلى نفسي ، فاخذت اتسلى باظهار نفسي تحت اشكال مختلفة ، وانا واثقة من حركاتي . وكنت اراقب اقوالي ، فأكيّف هـذه وتلك حسب الظروف ، او حتى حسب اهوائي . ومنـــذ ذلك الحين أصبحت طريقة تفكيري من اختصاصي . ولم اكن اظهر نفسي الا ما ارى فائدة من اظهاره .

وقد أدى هـــذا الى تعليق اهتمامي على تعبير الوجوه وطباع الهيئات ، وقد نجحت في القاء هـذه النظرة الخاطفة العميقة التي علمني الاختبار ألا اثـق بها كثيراً والتي لم تخدعني الا نادراً .

لم اكن قد تجاوزت الخامسة عشر من عمري ، حـــين كنت امتلك هذه المواهب الخارقـة ، والتي كون كبـار سياسينا شهرتهم بفضلها ، ولم اكن إلا في المبادىء الأولى من العلم الذي اردت ان أبرع فيه .

أنت تتصور انني حاولت كجميع الفتيـات ان اكتشف الحب وملذاته ، ولكن بما انني لم اكن ابـداً في الدير ، ولم تكن لدي اية صديقة ممتازة ، وكنت خاضعة لمراقبـــة ام متيقظة فلم تتح لي عن الحب سوى افكار غامضـــة لا استطيع تحديدها . وحتى الطبيعـة لم تعطني عندئـــذ اية اشارة ، حتى ليقال

انها كانت تعمل بصمت على اتقان ما صنعته يدها . وكان عقلي وحده يختمر ، ولم تكن عندي فكرة التمتع ، بل اردت ان أعرف ، وكان ان ساعدتني الرغبة في التعلم على اقتراح الوسائل .

وشعرت ان الرجل الوحيد الذي استطيع أن اتحدث معه حول هذا الموضوع دون ان اورط نفسي هو المعرّف . فقررت حالاً الذهاب اليـــه ، وتغلبت على خجلي الصغير وتباهيت امامه بغلطة لم ارتكبها واتهمت نفسي بأنني « فعلتُ ما تفعله النساء » . وقد كانت هذه هي عبارتي بالضبط . ولكنني حين تحدثت بهذه الطريقة لم اكن اعلم في الحقيقة ما هي الفكرة التي اعبر عنهـا . ولكن املي لم يكن خائباً تماماً ولا محققاً تماماً ، ذلك ان الخوف من ان انكشف قـــد حال دون ان اتنور ؛ ولكن الرجل الصالح صور لي الخطيئة كبيرة جداً بحيث جعلني استنتج ان لذتها يجب ان تكون فائقة الحد . وهكذا ولدت عندي الرغبـة في تذوق هذه اللذة بعد رغبتي في معرفتها .

لم اكن اعرف الى اين كان يمكن ان تقودني هذه الرغبـة ، ولعدم تزودي بالخبرة الـكافية فان فرصة واحـدة كان يمكن ان تجعلني اضيـع نفسي . ولكن امي ابلغتني لحسن حظي بعد ايام قليلة انني سأتزوج قريباً ، وهكذا وصلت وانا عذراء الى ذراعي السيد دي ميرتاي .

وانتظرت باطمئنان اللحظة التي يجب ان اتعلم فيها وكنت بحاجة الى التفكير لـكي اظهر الارتباك والخوف . ان ليلة العرس الاولى الـتي اعتاد النساء على ان يأخذن عنها فكرة قاسية او لذيذة ، كانت بالنسبة لي فرصة للاختبار ؛ كنت اراقب كل ما هناك من ألم ولذة ، ولا ارى في مختلف هذه المشاعر إلا حقلاً للتجارب التي تستحق التأمل والالتقاط .

وقد توصل هذا النوع من الدرس الى اعجابي ؛ ولكني بقيت وفية لمبادئي . وشعرت - ربما من قبيل الغريزة - انه لا احد يجب ان يكون ابعد من زوجي في الحصول على ثقتي ، فقررت مـا دمت حساسة لذلك فقط ، ان اظهر انني عديمة الحساسية بنظره . وكانت هذه البرودة الظاهرة على الاثر الاسـاس غير

twitter @baghdad_library

المتزعزع لثقته العمياء . وقد أضفت الى ذلك مظهر الطيش الذي يسمح به عمري ولم يحكم علي ابداً بأني أكثر طفولة الا حين ألعب بمزيد من الجرأة .

وفي الاثناء – وانا اعترف الآن – تركت نفسي انقاد في دوامـــة المجتمع ، وانسقت بكليتي وراء تسليات هـــذا المجتمع التافهة . ولكن السيد ميرتاي اصطحبني معه بعد عدة اشهر الى ريفه الكئيب . وقد جعلني الخوف من السأم اعود الى هواية الدراسة . ولم اجد نفسي هناك محاطة الا بأناس تضعني المسافة بيني وبينهم بمنجى من الشبهة . فاغتنمت الفرصة لـكي افتح حقلاً اوسع لتجـاربي . وهناك تيقنت ان الحب الذي طالما وصفوه لنا بأنه مصدر ملذاتنا لم يكن سوى مبرر لها .

وكان ان جاء مرض السيد دي ميرتاي يقطع علي مشاغل ممتعة ، وكان لا بد من اللحاق به الى المدينة حيث عاد للمعالجة ، ومات كما تعلم بعد وقت قصير من ذلك . وعلى الرغم من انني لم اكن اشكو منه شيئاً ، فقد شعرت حقيقـة بثمن الحرية التي سيمنحني اياها ترملي ، وسمحت لنفسي بأن استفيـــد من ذلك كما يجب .

وكانت والدتي تظن انني سأدخل الدير او اعود فأعيش معها ، فرفضت هذا وذاك ، وكل ما فعلته انني عدت قليلاً الى هـذا الريف حيث كان ما زال عليّ ان اكمل بعض الملاحظات .

وقد عززت هذه الملاحظات بمساعدة المطالعة ، ولكن إياك ان تظن ان مطالعتي كلها كانت من النوع الذي تفترضه . بل درست عاداتنا في الروايات ، وآراءنا في الفلاسفة ، لا بل وبحثت عند الاخلاقيين الاشدهم صرامة عما يتطلبونه منا ، وهكذا اخذتُ اتأكد مما يمكن عمله ، ومما يمكن ان نفكر به ، ومما يجب ان نبدو عليه . وبعد ان تعمقت في هـــذه المواضيع الثلاثة وجدت ان الموضوع الاخير يشكل بعض الصعوبة في تنفيذه ، وكنت ارجو ان اتغلب عليها ، ورحت ابحث عن الوسائل .

ثم بدأت أتضجر من متعي الريفية الخشنة التي لا يوجد فيها سوى تنوّع

قليل بالنسبة لعقلي النشيط . وشعرت بحاجـــة الى الفنج والتزين الذي يقتضيه الحب ، ليس لكي اشعر به بالحقيقة ، بل لكي أوحيه وأبدو فيه .

لقد قيل لي عبثاً وقرأت انه من المستحيل اخفاء هـــذه العاطفة . ومـع ذلك كنت ارى انه يكفي للتوصل الى ذلك إضافة تفكير المؤلف الى براعـــة الممثل . ورحت اتمرن عـلى النوعين وربما بشيء من النجاح ، ولكنني بدلاً من البحث عن تصفيقات لا طائل تحتها على المسرح ، قررتُ ان استخدم في سبيل سعادتي ما تضحي به الكثيرات في سبيل الفخر والمباهاة .

ومضت سنة عليّ وانا في هذه المشاغل المختلفة ، وكان ان سمح لي حدادي بأن اظهر من جديد في المجتمعات ، فعدت الى المدينة حاملة مشاريعي الكبيرة، ولم اتوقف طويلاً لدى أول عقبة صادفتها .

وقد اضفت عليّ هذه العزلة الطويلة وهـذا الاعتكاف المتقشف لمعان خلق مفرط الاحتراس في ما يتعلق بالعفة مما كان يُفزعُ أحلى شبابنا ، فـكانوا يتجنبونني ويتركونني عرضة لحشد من المضجرين يسعون جميعهم لطلب يدي . ولم تكن المشكلة في رفضهم ، بل كانت في أن رفضي عدداً منهم قد أغاظ عائلتي ، ورحت أقضي في هذه المزعجات الداخلية الوقت الذي وعدت نفسي بقضائه في لحظات ممتعة . وكنت مضطرة أذن – لكي اقرب البعض وأبعد البعض الآخر – الى اظهار تصرفات متناقضة لا تنطبق على الواقع ، واعمل على تشويه سمعتي بدلاً من المحافظة عليها . وقد نجحت في ذلك بالسهولة التي تظنها . ولكن بما انني لم اكن مستسلمة لاية هواية فإنني لم أفعـــل الا ما رأيته ضرورياً ، وأقيس بعناية كميات طيشي .

وما أن حققت الهدف الذي أرغبه ، حتى عدت على أعقابي، ورويت ماحدث لي الى بعض النساء اللواتي يعجزن عن بلوغ المثل العليا ، فيرمين بانفسهن امام اولئك اللواتي يتمتعن بالفضيلة والخصال الحميدة . وقد نجحت هـــذه الطريقة بصورة لم اكن اتوقعها . وقد اخذت هؤلاء النساء الفاضلات اللواتي يسهرن على حماية الصغيرات لا ينقطعن عن كيل المديح لي في كل مـكان . وقد بلغت

twitter @baghdad_library

بهن الحماسة العمياء لما يسمونه صنع ايديهن انهن جعلن من انفسهن مدافعات عني لدى أقل بادرة انتقاد قد توجه اليّ . كما ان الوسيلة نفسها اتاحت لي ان اتمتع باعجاب النساء غير الفاضلات اللواتي كن يخترنني كموضع لاطرائهن كل مرة شئن فيها ان يبرهن على انهن لا يتقولن على جميع الناس ، وذلك لاقتناعهن بأنني رفضت ان اسلك مسلكهن .

ومع ذلك قاد مسلكي السابق نحوي العشاق ولكي اتدبر نفسي بين هؤلاء وبين حامياتي الامينات ، اظهرت نفسي كأمرأة حساسة ولكن صعبة ، وان فرط حساسيتها تزودها بأسلحة ضد الحب .

وعندئذ بدأت انشر امام مسرح الرأي العام المواهب الكبيرة التي امتلكت ناصيتها . وكان اهتمامي الأول منصباً في الحصول على سمعة المرأة التي لا يمكن التغلب عليها . وللوصول الى ذلك ، كان الرجال الذين لا يعجبوني مطلقاً هم الوحيدون الذين اتظاهر بأنني أتقبل اطراءهم ، وكنت استخدمهم ببراعة لكي يزودوني بشرف المقاومة ، بينما كنت استسلم دون وجل للعاشق المفضل . ولكن هذا لم يكن يسمح له حياتي الظاهر مطلقاً بأن يلحق بي امام الناس . وبهذه الطريقة كانت انظار المجتمع مصوبة دائماً نحو العاشق الفاشل .

أنت تعلم كم انني اقرر بسرعة ، ذلك انني لاحظت ان التصرفات السابقة دائماً هي التي تفضح تقريباً سر المرأة .

ومهما فعلت فان الحديث عنها ليس نفسه ، قبل النجاح أو بعده . وان هذا الاختلاف لا يخفى على المراقب الواعي . وكان ان وجدت بأن انخداعي في اختياري هو أقل خطورة من انادع الاختيار يأتي من الخارج . وأنا أفوز بهذه الطريقة في القضاء على الحقائق التي يمكن على أساسها وحدها ان يحكم الناس علينا .

ان هذه الاحتياطات بالاضافة إلى حرصي على عدم الكتابة ، وعدم تسليم اي دليل على انهزامي ، قد تبدو زائدة عن الحد ، ولكنها لم تبدُ بالنسبة لي كافية . ذلك انني بعد أن تغلغلت في دراسة قلبي درست قلوب الآخرين . ورأيت فيها انه لا يوجد شخص إلا ويحتفظ بسر يهمه ويحرص على ألا ينكشف مطلقاً ، وهذه

حقيقة يبدو ان العصور القديمة قد عرفتها اكثر منا ، وأن قصة شمشون ودليله ليست إلا مثلاً عليها ، وهكذا جعلت من نفسي دليله جديدة واستخدمت مثلاً قوتي لاكتشاف هذا السر الهام عند الرجـــل . وكم من شمشوناتنا العصريين الذين امسك بشعرهم تحت يدي ، قد توقفتُ عن الخوف منهم . وهم الوحيدون الذين سمحت لنفسي بأن اهينهم أحياناً . ولكنني كنت اكثر لباقة مع الآخرين. واستخدمت فني لأجعلهم خائنين دون أن أبدو محبة للتنقل ، ومنحتهم صداقة ظاهرة ، وجعلتهم يعتقدون بفخر ان كلاً منهم كان الوحيد الذي حظي بحبي ، وكل ذلك اتاح لي أن أحملهم على الكتمان. وأخيراً حين كانت تعوزني هذه الوسائل كنت اعرف ، وانا اتوقع انفعالاتي ، ان اخنق سلفاً ـ عن طريق السخرية أو النميمة ـ تلك الثقة التي كان يمكن ان يحصل عليها هؤلاء الرجال الخطرون .

ان ما اقوله لك هنـــا ، امارسه باستمرار ، ثم انت تشك بحـــذري ! حسناً ! تذكّر الوقت الذي احطتني به باهتمامك الأول : إذ لم ابتهج مطلقاً مثلما ابهجني اطراؤك. لأنني كنتُ اشتهيك قبل ان اراك . وقد أغرتني سمعتك على ان اضيفك الى امجادي ، وكنت أتحرق شوقاً الى مصارعتك جسماً إلى جسم. وهذا هو الميل الوحيد الذي سيطر عليَّ خلال فترة من الزمن . ومـــع ذلك فاذا كنتَ قد أردتَ ان تفضحني، فما هي الوسائل التي كان بامكانك ان تستخدمها؟ اقوال عابثة لا تترك بعدها اي اثر ، وان سمعتك وحدها ستساعد على جعلهـا مشبوهة ، وعبارة عن سلسلة احداث لا اساس لهـــا من الصحة تجعل روايتها بصدق تبدو كأنهـا رواية غير محبوكة النسج ، وفي الحقيقة لقد سلمتك منـذ ذلك الحين جميع اسراري ، ولكنك تعلم اية مصلحة تربطنا وهـــل يمكن ان اكون انا التي يجب ان تتهم بقلة الحذر ؟

وبما انني اقوم الآ ن باستعراض حياتي امامك ، أودُّ ان افعل ذلك على خير وجه . وأسمعك هنا تقول انني عـــلى الأقل تحت رحمة خادمتي . وبالفعل فاذا كانت هذه لا تملك اسرار عواطفي ، فهي تملك اسرار اعمالي. وحين حدثتني قديماً عنها قلتُ لك انني واثقة منها . وكان هـــذا الجواب وحده كافياً لتطمينك .

twitter @baghdad_library

وكان ان عهدت اليها منذ ذلك الحـــين باسرارك الخطرة. ولكن ما دام بريفان يثير الآن قلقك ووساوسك وان رأسك يدور بسببه فإنني اشك بأنك تصدقني حسب اقوالي فقط . ولذلك يجب ان تعيد النظر في كل آرائك .

أولاً إن هذه الخادمة هي شقيقتي بالرضاعة ، وان هذه الرابطة قد تبدو لا قيمة لها بالنسبة للاشخاص الذين هم في مثل هذه الحالة ، ولكنني فضلاً عن ذلك املك سرها والأحسن من ذلك ايضـاً اعلم انها كانت ضحية حب جنوني ، وقد كانت ضالة لو لم ابادر الى انقاذها . وقد شاء اقاربها المحافظون على اصول الشرف ان يحجزوها ، واستشاروني بالأمر ، ولاحظتُ بنظرة خاطفة كم ان غضبهم يمكن ان يكون مفيداً لي ، فساعدتهم وطلبت اليهم ان يثقوا بي ، ثم سألتهم الصفح عنها فوافقوا على ذلك شرط ان يجعلوني مسؤولة عن ابنتهم ، ومنحوني حرية التصرف في ان اطلب اليهم تنفيـــذ قرارهم أو التوقف عنه ، وفق مـا احكم عليه من مسلك هذه الفتاة. وهي تعلم اذن ان مصيرها بين يدي. وحين لا تنجح هذه الوسائل في حالة المستحيل فان انكشاف مسلكهـا سينزع الصدق من أقوالها .

وبالإضافة الى هذه الاحتياطات التي اعتبرها أساسية لديّ ألوف الاحتياطات الأخرى اما محلية أو مرهونة بالمناسبات التي يمليها التفكير أو العادة عند الحاجة. وتكون تفاصيلها دقيقة جداً ، ولكن تطبيقها اكثر أهمية . ولا بد من ان تزعج نفسك باستعراض مسلـكي اذا اردت ان تتوصل الى معرفتها .

ولكن ان تدعي بأنني اتعب نفسي كثيراً لكي لا أقطف أية ثمار ، وانني بعد ان ارتفعت فوق مستوى النساء الاخريات بأعمالي المرهقة ، أرضى بأن ازحف مثلهن في سيري بين عدم الحذر والحياء ؟ وانني بصورة خاصة قد اخشى رجلاً الى درجة لا ارى راحتي منه إلا بالافلات والهرب؟ كلا، ايها الفيكونت، كلا ابداً. يجب الابتعاد او الهلاك . أما في ما يتعلق ببريفان فانني اود ان اناله ، وسأناله، ولن يقول ذلك لأحد ؛ وبكلمة واحدة هذه هي قصتنا . الوداع .

٨٢

من سيسيل فولانج الى الفارس دانسني

قصر ... في ايلول ؟؟١٧

يا إلهي ، كم آلمتني رسالتك ! لقد كنت بحاجة الى كثير من نفاد الصبر لكي اتلقاها ! وكنت آمل ان اجد فيها عزاء واذا بي اجد نفسي أشد عذاباً مما كنت عليه قبل ان اتلقاها . وقد بكيت كثيراً حين تلوتها ، وليس هذا ما اؤاخذك عليه . وقد سبق ان بكيت مراراً بسببك دون ان يزيـــد ذلك من ألمي . ولكن الامر هذه المرة لم يكن كذلك .

ماذا تعني إذن بقولك أن حبك أصبح عذاباً لك ؟ وانك لا تستطيع ان تعيش على هذه الصورة ، ولا ان تتحمل مدة اطول وضعك الحالي؟ هل تريد ان تكف عن حبي لأن ذلك لم يعد مبهجاً كالماضي ؟ يبدو لي انني لست أسعد حالاً منك ، بل على العكس. ومع ذلك فإن حبي لك يزداد يوماً عن يوم . واذا كان السيد دي فالمون لم يكتب اليك ، فليس الذنب ذنبي ، اذ أنني لم أستطع أن أرجوه ذلك ، لأنني لم اتمكن من ان اكون معه على انفراد ، ونحن متفقان على ألا نتحادث ابدا أمام الآخرين . كل ذلك هو إكراماً لك ، من اجل ان يتسنى له تحقيق ما ترغبه بأسرع وقت ممكن ، ولا اقول انني لا ارغبـه انا ايضاً ، بل تستطيع ان تكون واثقاً من ذلك . ولكن ماذا تريدني ان أفعل ؟ فاذا ظننت ان الأمر هين ، فاعثر إذن على الوسيلة ، ولا اتمنى اكثر من ذلك .

هل تظن ان من الممتع لي ان اؤنب كل يوم من قبل والدتي بينما لم تعتد ان توجه الي كلمة واحدة في السابق ، بل على العكس. وفي الوقت الحاضر. أصبحت في وضعٍ أسوأ مما كنت عليه في الدير. ومع ذلك فأنني أتعزى لكوني اتحمل ذلك من اجلك. لا بل مرت علي لحظات كنت اجـد نفسي خلالها مرتاحة جداً لهـذا الشعور . ولكن عندمـا افكر بأنك أنت غاضب أيضاً . ودون أن يكون الذنب ذنبي اصاب بحزن شديد لعله أشد ما أصابني حتى اليوم .

twitter @baghdad_library

إن تلقي رسائلك وحده يضعني في حالة من الارتباك البـالغ . ولو لم يكن السيد دي فالمون على مبلغ كبير من الحذق والبراعة كما هو، لما كنت عرفت كيف أفعل . كما ان الكتابة اليك أصعب من ذلك. إذ لا أجرؤ على ذلك طيلة الصباح لأن والدتي هي دائماً بقربي ، تأتي في كل لحظة الى غرفتي . وفي بعض الأحيان أستطيع الكتابة بعد الظهر ، بحجة انني اريد ان اغني او اعزف على القيثارة ، ثم لا بد لي من ان أقطع الكتابة عند كل سطر لكي يسمعوني أراجـع . ولحسن الحظ تنام خادمتي باكراً عند المساء في بعض الاحيان ، فأبلغها انني سأنام حالاً وحدي لكي تذهب وتـــترك لي النور مضاءً . ثم ينبغي عليّ أن اغمر نفسي بغطاء حتى لا يُرى الضوء ، وأن أصغي السمع إلى كل حركة لكي اتمكن مـــن إخفاء كل شيء في حالة قدوم احد . كم أتمنى أن تكون هنـــا لترى بنفسك ! ولتعرف ان على المرء ان يكون متيماً لكي يفعل ذلك ، وأخيراً ، في الحقيقة أفعل كل ما في وسعي ، وأود لو أفعل المزيد .

من المؤكد انني لا أرفض ان أقول لك احبك. وسأحبك دائمـــاً . وانني لم اقل ذلك ابداً من كل قلبي كما اقوله الآن . وها انت غاضب ؟ لقد أكـّدتَ لي مع ذلك – قبل ان اقول لـــك – ان ذلك يكفي لجعلك سعيداً . ولا تستطيع ان تنكره : لأنه وارد في رسائلك . وعلى الرغم من انهـــا ليست عندي ، فإنني اتذكرها كما لو كنت أقرأها كل يوم. ولكن بما اننا الآن مفترقان فانك لا تفكر كالسابق . غير ان هذا الافتراق قد لا يدوم طويلاً ! ... يا إلهي كم انا تعيسة ! وانت السبب في ذلك !...

بمناسبة رسائلك، آمل ان تكون قد احتفظت بتلك التي اخذتها والدتي مني، وأعادتها اليك. لا بد ان يأتي يوم استطيع ان احتفظ بها بحرية ، وستعيدها إليّ كلها. كم سأكون سعيدة حين اتمكن من الاحتفاظ بها دون ان يرى احد في ذلك اية غضاضة ! انـني في الوقت الحاضر اسلمها كلها الى السيد دي فالمون لأن من الخطر أن افعل خلاف ذلك ، وعلى الرغم من ذلك فانني لا اسلمه رسائلك دون أن يسبب لي ذلك كثيراً من العذاب .

الوداع يا صديقي العزيز ، احبك من كل قلبي . وسأحبك كل حياتي ، وآمل ان لا تكون الآن غاضباً ، ولو كنتُ واثقة من ذلك لكان خفف من اشجاني . اكتب لي في اقرب فرصة ممكنة ، اذ أشعر بأنني سأظل تعيسة حتى يصلني كتابك .

٨٣

من الفيكونت دي فالمون الى الرئيسة دي تورفيل

قصر ... في ٢٣ ايلول ؟؟ ١٧

الأمان ، يا سيدتي ، لنستأنف هذه الحادثة التي 'قطعت' بشكل مؤسف ! عساي أتمكن من إكمال ما أسعى للتدليل عليه امامك وهو انني اختلف عن الصورة البشعة التي رسموها لك عني . عساي اتمكن بصورة خاصة ، من ان اتمتع أيضاً بهذه الثقة الحبيبة التي بدأتِ تمنحينها إياي ! وكم تعرفين ان السحر يضفي جمالاً على العفة ! وكم تزدادين جمالاً ، وتجعلين المرء يستمرىء المشاعر الشريفة ! آه .. هنا اغراؤك ، وهو اقوى اغراء لديك ، وهو الوحيد الذي يمكن أن يكون قوياً ومحترماً .

لا ريب بأنه يكفي للمرء أن يراك ، لكي يرغب في ان ينال اعجابك . ويكفي بأن يسمعك تتحدثين في المجتمع لكي تزداد هذه الرغبة . ولكن من ينال سعادة معرفتك بصورة أكثر ، ويستطيع في بعض الاحيان ان يقرأ روحك ، ما يلبث حتى يندفع في أشرف حماسة ، ويعبد فيك صورة جميع الفضائل . بعد أن تغلغل في نفسه الحب والقداسة . وهذا ما شعرت به . وأنت لا تجهلين ذلك . لعلني مخلوق اكثر من غيري لكي أحب هذه الفضائل وأتقيد بها ، بعد ان أنسقت وراء بعض الأخطاء التي ابعدتني عنها ، ولكنك جئت انت فقربتني اليها . وجعلتني أشعر من جديد بلذتها فهل تنسبين إلي جريمة لكوني شعرت بهذا الحب ؟ وهل ستلومين ما صنعته يدك ؟ وهل ستأخذين على نفسك حتى المصلحة التي يمكن ان تفيديها من ذلك ؟ واي اثم يمكن ان يخشى من جراء عاطفة

twitter @baghdad_library

بريئة طاهرة ؟ واي متع لا توجد في تذوقها ؟

ان حبي يخيفك ، وتجدينه عنيفاً لا ضابط له ... فخففيه بحب أرق ، ولا ترفضي السلطان الذي يقدمه لك ، وأقسم لك بأنني لن اتخلى عنه ، ولن يكون كما أعتقد ، مخالفاً للفضيلة ... وأية تضحية يمكن ان تبدو لي باهظة لو كنتُ متأكداً بأن قلبك سيحفظ لها التعويض ؟ وأي رجل هو اذن ذلك التعيس جداً الذي لا يعرف التمتع بالحرمان الذي يفرضه على نفسه ، والذي لا يفضل كلمة واحدة أو نظرة واحدة تمنحان له ، على جميع المتع التي يستطيع ان يقتنصها أو يفاجئها ! وقد ظننت انني هذا الرجل! ثم خفتِ مني ! آه ، لماذا لا تتوقف سعادتك عليّ ! كم سأنتقم منك بجعلي اياكِ سعيدة ! ولكن الصداقة العقيمة لا يمكن ان تنتج هذا السلطان اللذيذ ، فالفضل فيه لا يعود إلا إلى الحب .

ان هذه الكلمة تفزعك ! لماذا ؟ وماذا هناك من غرابة على روحك في تعلق أرق ، واتحاد أقوى ، وفكرة متبادلة ، وكيان مشترك ، وسعادة واحدة وآلام واحدة ؟ ذلك هو الحب ! وذلك هو على الأقل ما توحينه وما أشعر به . وهو ايضاً الذي يقدِّرُ الأعمال وفق مزاياها ، وليس وفق قيمتها . إنه كنز لا ينضب للنفوس الحساسة ، وكل شيء يصبح ثميناً اذا صنع منه او من اجله .

هذه الحقائق السهلة التلمس، الممتعة جداً عند الممارسة ، ما هو المخيف فيها ؟ وأية مخاوف يمكن ايضاً ان يسببها لك رجل حساس لا يتيح له الحب سعادة سوى سعادتك ؟ انها اليوم الأمنية الوحيدة التي أرجوها . سأضحي بكل شيء لكي احققها ، ما عدا العاطفة التي توحين بها . فاقبلي بأن تشاطريني اياها ، وستكيّفينها حسب اختيارك . ولكن لنكفَّ عن معاناة ما يفرق بيننا في الوقت الذي يجب ان يوحدنا . ولو كانت الصداقة التي عرضتِها عليّ ليست سوى كلمة لا طائل تحتها ، ولو انها – كما قلتِ لي بالأمس – هي أرق عاطفة تعرفها روحك ، وانها هي التي يشترط وجودها بيننا ، فانني لا أرفضها مطلقاً ، ولكن لتحكم هي على الحب ،ولتوافق على الاصغاء اليه ،وعندئذ

سيكون رفض الانصياع إليها ظلماً ، وتصبح الصداقة عادلة .

ان محادثة ثانية بيننا لن يكون فيها ما يشين اكثر من الأولى. ولعل المصادفة يمكن ان تخلق مناسبتها، كما تستطيعين انت نفسك ان تحددي موعدها . وانا أود الاعتقاد بأني على خطأ، ولكن الا تفضلين ان تعيديني الى الصواب بدلاً من محاربتي ؟ أم هل ترتابين بطواعيتي ؟ ولولا ان هذا الشخص الثالث المزعج لم يأت فيقطع علينا تقاربنا ، فلعلي سأكون بكليتي قد أيدتُ رأيك ، ومن يدري الى اين يمكن ان تمضي سلطتك !

هل أقولها لك ؟ ان هذه القوة الجبارة التي لا تقهر التي انساق فيها دون ان احسب لها حساباً ، وهذه الفتنة الطاغية التي لا تقاوم التي تجعلك سيدة افكاري واعمالي ، اصبحت اخشاها كما يحدث لي في بعض الاحيان . مع الاسف هل ينبغي علي ان اخشى هذه المحادثة التي اطلبها منك ؟ لعلي بعدها – وقد قيّدتُ بوعودي – سأرى نفسي مقتصراً على الاحتراق بنار حب اشعر جيداً انها لا يمكن أن تنطفىء ، دون ان أجرؤ على التوسل اليك لإغاثتي ! آه ! يا سيدتي ! اطلب منك الصفح والأمان ، فلا تستغلي سلطانك عليّ ! ولكن ماذا ! اذا كان ينبغي ان تكوني اكثر سعادة ، واذا كان ينبغي أن ابدو اكثر جدارة بك ، فأية آلام لا يمكن ان تخفّف من جراء هذه الفكرة المؤاسية ؟ أجل ! أشعر بذلك . لانك اذا تحدثت ايضاً فهذا معناه منحك اسلحة أقوى ضدي، واخضاع نفسي تماماً لإرادتك . انه لمن الأسهل الدفاع ضد رسائلك ، مع انها هي اقوالك بالذات، ولكنك ستكونين موجودة هنا لاعطائها القوة . ورغم ذلك فان متعة سماعك تجعلني لا ابالي بالأخطار، بل على الأقل سأشعر بسعادة كوني فعلت كل شيء من اجلك حتى ولو كان ضد مصلحتي ، وان تضحياتي تصبح موضع ثناء . سأكون سعيداً جداً لأثبتُ لك ذلك بألف طريقة ، كما اشعر به بألف شكل ، وانك ستكونين دوماً دون ان استثني نفسي ، اعز مخلوق على قلبي .

twitter @baghdad_library

٨٤

من الفيكونت دي فالمون الى سيسيل فولانج

في ٢٤ ايلول ؟؟ ١٧

لقد لاحظت كم عاكستنا الظروف أمس . إذ لم استطع طول النهار ان اسلمك الرسالة التي كانت معي لك . ومع ذلك اجهل ايضاً اذا كنت سأجد اليوم فرصة مناسبة . لانني أخشى ان اورطك فيما لو بذلت من الحماسة اكثر من البراعة . ولن اسامح نفسي ابداً على ارتكاب حماقة دون حذر قد تكون بالنسبة لك ضربة قاضية ، كما تسبب يأس صديقي بجعلك ابداً تعيسة . ومع ذلك فأنا اعرف نفاد صبر العشاق . وأشعر كم يجب ان يكون الحال مرهقاً وانت في وضعك ، حين تتحملين عذاب بعض التأخر من أجل نيل العزاء الوحيد الذي يمكن ان تتذوقيه في هذا الوقت . إنني لفرط ما اهتممت بوسائل إبعاد العقبات ، عثرتُ على وسيلة سيكون تنفيذها سهلاً لو بذلتِ بعض العناية . أظنني لاحظت ان مفتاح غرفتك التي تفضي الى الرواق ، موضوع دائماً فوق مدفأة والدتك . وبواسطة هذا المفتاح يصبح كل شيء سهلاً ، ولعلك تشعرين جيداً بذلك . ولكن حتى ولو لم تحصلي عليه ، استطيع ان احضر مثيلاً له يمكن ان يحل محله . وحسبي للتوصل الى ذلك ان يكون هذا المفتاح بحوزتي لمدة ساعة أو ساعتين . وانك ربما تجدين مناسبة هينة لأخذه . ولكي لا يلاحظ احد فقدانه ، فقد بعثت اليك طيه بمفتاح آخر — هو خاصتي — شبيه به ، لكيلا يلفت النظر وجود فرق بينهما ، اللهم الا اذا حاول احدهم تجربته . وهذا ما لن يقوم به أحد كما اظن . اذن ينبغي عليك ان تهتمي بتعليق شريط ازرق بالٍ في هذا المفتاح يكون مماثلاً لذلك المعلق في مفتاحك .

لا بد من السعي للحصول على هذا المفتاح غداً أو بعد غد اثناء فترة الطعام . حيث يكون من السهل عليك اعطائي إياه ثم اعادته الى مكانه في المساء ، وهو الوقت الذي يمكن ان تهتم به والدتك اكثر من قبل . وانا استطيع ان أعيده

اليك في وقت العشاء ، اذا تفاهمنا جيداً .

انت تعلمين اننا حين ننتقل من الصالون الى صالة الطعـــام تكون السيدة دي روزموند هي التي تسير دائماً في المؤخرة وسأتبط ذراعهـــا بيدي . وليس عليك الا أن تتركي شغل التطريز أو أي شيء آخر يسقط بهدوء بطريقة تجعلك تتأخرين عن المسير لالتقاطه . وعندئذ تستطيعين ان تتناولي المفتاح الذي سأهتم بإمساكه وراء ظهري. ويجب ألا تغفلي ـ بعد ان تكوني قد تناولته ـ السير الى جانب عمتي العجوز ، والتلطف معها بالحديث . واذا حدث ان وقع منك هذا المفتاح بالمصادفة ، فلا ترتبـكي ، بل سأبدو كما لو أنه وقـــع مني ، وسأتدبر الأمر بنفسي .

ان الثقة القليلة التي تضعها والدتك فيك ، والأساليب القاسية التي تتبعهـــا نحوك ، تسمح لك بهذه الخدمة البسيطة . وفضلاً عن ذلك فانها الوسيلة الوحيدة لكي تستمري في تلقي رسائل دانسني وتسليم رسائلـــك اليه ، لأن اية وسيلة اخرى هي في الحقيقة خطرة ، ويمكن ان تُفقدكما معـــاً جميع الوسائل . وكذلك فإن صداقتي الحريصة لدانسني تجعلني استنكف عن استخدامها .

ومتى اصبحنا نملك هذا المفتاح ، سيبقى علينا اتخاذ بعض الاحتياطات لتلا في صرير القفل والباب . وهي سهلة جداً : تجدين تحت الخزانـة حيث وضعت لك الورق ، ريشة وزيتاً . وانت تذهبين الى غرفتك في بعض الاحيان اثناء الفترات التي تكونين خلالها وحيدة . فاغتنمي الفرصة لـكي تزيتي القفـل والمفصلات ، والانتباه الوحيد الذي يجب ان تبذليه هو تفادي لطخ الزيت من ان تلحق بثيابك. ويجب ايضاً انتظار الليل ، لأن ذلك اذا فعلته بمـــا عهد فيك من ذكاء ، فلن يُلاحظ ابداً في اليوم التالي .

واذا لوحظ ، فـــلا تترددي بأن تقولي ان فرّاش القصر هو الذي قام بهذا العمل . وفي هذه الحالة يجب ان تحددي الوقت وتستشهدي بالكلام الذي قاله لك : مثلاً قال أنه يعتني بالاقفال التي لا تستخدم لتلافي الصدأ. لأنك ستشعرين ان ذلـــك لن يبدو صحيحاً ، ولكن هذه التفاصيل الصغيرة تضفي طابع

twitter @baghdad_library

الحقيقة على الكذبات الصغيرة ، وتزيل الرغبة في التحقق منها .

بعد ان تكوني قد قرأتِ هـــذه الرسالة ، ارجوك ان تعيدي قراءتها مرة ثانية ، وان تهتمي بما فيها : اولاً يجب ان تعلمي أن الغاية من ذلك هي في مصلحتك ، وثانياً لكي تتأكدي من انني لم اغفل شيئاً ، فأنا غير معتاد كثيراً على استخدام الدقة في ما يتعلق بشؤوني الخاصة ، ولذلك كان لا بد في سبيـل صداقتي الحارة نحو دانسني ، وفي سبيل الاهتمام الذي توحينه اليه ، من أن اصمم على استخدام هذه الوسائل مهما كانت بريئة . وانني في الحقيقة اكره كل ما يبـــدو خداعاً ومخاتلة . وهذا هو طبعي . ولكن آلامك اثّرت فيّ جـداً الى درجة انني سأحاول بذل كل ما في وسعي من اجل تخفيفها .

ستجدين انه متى تم هـــذا الاتصال بيننا ، سيكون من الأسهل عليّ أن أؤمن لك الاجتماع مع دانسني الذي يرغبه . ومع ذلك لا تحدثيه بشيء عن كل هذا . اذ انك ستزيدين من نفاد صبره . ولم يحن بعد وقت أرضاء انتظاره ، بل عليك كما اعتقد ان تخففي من نفاد صبره بدلاً من ان تضاعفي حدته . الوداع أيها الحضينة الحسناء ، لانك اصبحت حضينتي . أحبي قليلاً الوصي عليك ، وكوني بصورة خاصة مرنة معه ، وستجدين نفسك مرتاحـــة . انني مهتم بسعادتك ، وكوني متأكدة انني سأجد في ذلك سعادتي .

٨٥

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون

باريس في ٢٥ ايلول ؟؟ ١٧ ، الساعة السابعة مساء .

اخيراً ستكون مرتاحاً ، وستحكم عليّ بإنصاف . إسمع ولا تخلط بيني وبين النساء الأخريات ، فقد قدتُ حتى النهاية مغامرتي مع بريفان . اقول حتى النهاية ! هل تفهم جيداً ما يعني ذلك ؟ والآن تستطيع أن تحـــكم من منا نحن الاثنين يستطيع أن يفتخر بنفسه . والرواية لا تعادل الوقائع . وهكذا من الانصاف –

في الوقت الذي كنتَ لا تفعل فيه سوى تحكيم العقل بصورة حسنة أو سيئة حول هذه القضية – ان يعود السرور اليك بقدر ما يعود إليّ فيما بذلته أنا من وقت وعناء .

وفي الاثناء ، إذا كانت لديك عملية كبرى ، واذا كان عليك ان تحاول توجيه ضربة الى هذا الخصم الخطير الذي تبدو انك تخشاه فاحضر ، لأنه سيدع لك الآن المجال مفتوحاً ، لبعض الوقت على الاقل ، ولعله لن يكتشف ابداً الضربة التي وجهتها اليه .

كم انت سعيد لأن اكون صديقتك ! انني بالنسبة اليك جنية محسنة . وانت تعيش الآن بتراخٍ بعيداً عن الجمال الذي يستخدمك . وحسبي ان اقول كلمة واحدة لكي تجد نفسك الى جانب هذا الجمال . انت تريد ان تثأر من امرأة تؤذيك ، سأحدد لك النقطة التي تستطيع ان تضربها فيها ، وتجعلها تحت رحمتك . واخيراً لكي ابعد عن طريقك مزاحماً مخيفاً ، فقد كنت انا التي توسلت اليها من اجل ذلك . وها انني احقق امنيتك . وفي الحقيقة اذا لم تقض حياتك في شكري ، فستكون جاحداً . ولكني اعود الآن الى مغامرتي ، وسأرويها لك من البداية :

لقد فهم بريفان الموعد الذي حددته بصوت عال عند خروجي من دار الأوبرا * كما كنت آمل . وذهب اليه . وحين قالت له الماريشالة بلباقة انها تهنىء نفسها لأن تراه مرتين متتاليتين خلال اسبوع واحد في سهراتها ، حرص على اجابتها قائلاً : انه منذ مساء الثلاثاء وهو يتدبر مئات الوسائل لكي يستطيع أن يحضر هذه السهرة ؛ وبطبيعة الحال كان التلميح موجهاً إلي ! وبما أنني مع ذلك أردت ان اعرف بمزيد من التأكيد ، ما إذا كنت انا ام لا الهدف الحقيقي لهذا الاستعجال الذي يبعث على الاطراء – اذ اردت ان أحمل هذا الطامح الجديد بي على الاختيار بيني وبين ذوقه المسيطر عليه – اعلنت انني لن ألعب الورق ابداً : وبالفعل وجد من جهته آلاف الاعذار لكيلا يلعب وكان هذا هو

* – راجع الرسالة رقم ٧٤ .

twitter @baghdad_library

انتصاري الأول عليه في لعبة « اللانسكينيه » .

ثم انتحيت جانباً مع الاسقف دي . . . وغرقنا في محادثة طويلة . وقد اخترته بسبب علاقته ببطل اليوم ، وقد شئت ان اتيح له كل التسهيلات لكي يوجه الي الكلام . وكنت مرتاحة جداً ايضاً لأن يكون هناك شاهد محترم عليّ ، يستطيع عند الحاجة ان يشهد على سلوكي واقوالي . وقد نجح هذا التدبير .

وبعد العبارات المبهمة المعتادة ، عمد بريفان الى السيطرة على دفة الحديث ، وتناول على التوالي مواضيع مختلفة محاولاً بذلك ايجاد الموضوع الذي يمكن ان يعجبني . فرفضت موضوع العواطف ، على اعتبار انني لا أؤمن بها ، واوقفت بطابعي الجدي مرحه الذي بدا لي خفيفاً جداً بالنسبة لبداية تعارف . وكان أن وقع على موضوع الصداقة الرقيقة الناعمة ، وبدأنا تحت هذه الراية المبتذلة هجماتنا المتبادلة . . .

وفي وقت العشاء ، لم ينزل الأسقف ، فناولني بريفان ذراعه لكي اتأبطها ، ووجد نفسه بطبيعة الحال جالساً بالقرب مني عند المائدة .

وهنا يجب ان يكون الانسان منصفاً بحقه . فقد ادار محادثاتنا الخاصة بكثير من البراعة ، مع انه كان لا يبدو إلا كمن يهتم بالمحادثة العامة التي سيطر عليها وحده . وفي نهاية الطعام انتقل الحديث الى موضوع مسرحية جديدة ستمثل على المسرح الفرنسي يوم الاثنين التالي . فأبديت أسفي لكوني لم احصل بعد على مقصورتي . فعرض علي مقصورته وقد رفضتها في البداية كما ينبغي ان أفعل . وهنا اجابني بلطف زائد انني لم افهمه ، ومن المؤكد انه لن يضحي بالتخلي عن مقصورته الى شخص لا يعرفه ، وانه كان يبلغني فقط بان السيدة الماريشالة ستتصرف بها ، فتحملت هذه المزاحة ، وكان ان وافقت على ذلك .

وحين صعد الى الصالون طلب ، كما تستطيع ان تتصور ، ان يكون له مقعد في هذه المقصورة . وبما ان الماريشالة تعامله بكثير من الطيبة فقد سمحت له بذلك « اذا ظل عاقلاً » ، ثم اغتنم الفرصة لمطارحتي احد هذه الاحاديث ذات المفهوم المزدوج ، وقد أثنيت لي غالباً على مقدرته فيها . وبالفعل فقد جئا

على ركبتيه كطفل مذنب ، بحجة انني ، كما قال ، استطيع ان اسأله آراءه ، واستمع الى منطقه . وقد قال كثيراً من الاشياء اللطيفة الناعمة التي تثير الخيلاء وتبعث على السرور . ولكنني كنت استطيع التمييز بينها بسهولة . ونظراً لعدم رغبة كثير من القوم في لعب الورق بعد العشاء مباشرة فإن الاحاديث كانت عامة واقل إمتاعاً . ولكن عيوننا تحدثت طويلاً . اقول عيوننا ، وكان يجب بالاحرى ، ان اقول عيناه ، لان عيناي كانت لغتهما التعجب والاندهاش . ولعله ظن انني دهشت أو اهتممت كثيراً بالتأثير العجيب الذي تركه في نفسي . واعتقد انني تركته راضياً جداً عن نفسه . ولم اكن اقل سروراً منه لذلك .

وذهبت يوم الاثنين التالي الى المسرح الفرنسي كما اتفقنا . وعلى الرغم من فضولك الادبي ، فلا استطيع ان اخبرك شيئاً عن الرواية . اللهم الا ان بريفان يتمتع بمقدرة عجيبة على المغازلة . وان الرواية كانت سيئة ، وهذا كل ما علمته هناك . وقد كنت اشعر بقلق لسرعة انتهاء السهرة التي اعجبتني حقيقة كل الاعجاب ، ولذلك عرضت على الماريشالة لكي امدد السهرة ان تحضر لتناول طعام العشاء في بيتي وهذا ما اتاح لي حجة توجيه دعوة مماثلة في الوقت نفسه الى المغازل اللطيف ، الذي لم يطلب سوى السماح له بالذهاب لرؤية الكونتيستين دي ب... * لكي يتخلص من ارتباطاته ، ولكن مجرد ذكر هذا الاسم أثار كل غضبي ، ورأيت بوضوح انه سيبدأ في اشاعة أسراره ؛ وتذكرت نصائحك الحكيمة ، ووعدت نفسي ... بالاستمرار في المغامرة ، وانا واثقة بأنني سأشفيه من هذه العادة الخطيرة !

وبما انه كان غريباً عن شلتي التي لم تكن كثيرة العدد ذلك المساء ، فقد وجد إن الواجب يملي عليه توجيه العناية المعتادة نحوي . وحين ذهبنا لنتعشى عرض علي ذراعه لكي يمسك بيدي . وقد واتتني الخباثة بقبولي يده ، على ان اتصنع في يدي ارتجافاً خفيفاً ، وان اجعل ابصاري مثبتة في الارض وتنفسي

* راجع الرسالة ٧٠

twitter @baghdad_library

عالياً ، وكنت ابدو كما لو كنت اتوقع انهزامي ، واخشى المنتصر علي . وقد لاحظ ذلك بشكل رائع . كما ان الخائن بدل على الفور لهجته وسلوكه . وبعد ان كان مجاملاً اذا به يبدو رقيقاً عاطفياً . ليس لأن كلمات المجاملة والعاطفة تختلف كثيراً عن بعضها البعض ، بل لان المناسبة كانت تفرض ذلك ؛ كما ان نظرته اصبحت اقل حدة واكثر مغازلة . وغدت طبقة صوته اشد نعومة . ولم تكن ابتسامته ابتسامة الرقة بل ابتسامة الارتياح والسرور . وأخيراً أخمد في احاديثه نار الاحتداد ، وحلت روح النكتة محل الملاطفة . وأنا اسألك ماذا بإمكانك ان تفعل أفضل من ذلك ؟

أما من جهتي فقد بدوتُ حالمة، إلى درجة حملته على أن يلاحظ ذلك. وحين أُوخذت على موقفي هذا ، كنت بارعة في ان ادافع عن نفسي بشكل مرتبك ، وان القي على بريفان نظرة سريعة ، ولكنها خجولة سادرة ، وصالحة لأن تجعله يعتقد ان كل خوفي هو من ان يكتشف سبب اضطرابي .

وبعد العشاء ، اغتنمتُ فرصة قيام الماريشالة الطيبة برواية احدى حكاياتها التي ترويها دائماً ، لكي اجلس على سريري في نوع من الاسترخاء الذي يوحي بتخيلات عاطفية . ولم اتكدر لكون بريفان رآني على هذا الشكل ، بل شرفني بالفعل على العكس باهتمام خاص . وبامكانك ان تتصور كم كانت نظراتي الخجولة لا تجرؤ على البحث عن عيني منتصري بل كنت اوجهها اليه بطريقة متواضعة لأتأكد عن طريقها بأني أحرزت التأثير الذي اريد احداثه. وكان لابد من اقناعه ايضاً بأنني اشاطره عواطفه : وهكذا حين اعلنت الماريشالة انها ستنصرف ، صحت بصوت متراخٍ ناعم : « آه ، يا إلهي كم أنا مرتاحة هنا » ، ونهضتُ مع ذلك ، ولكني قبل ان أفترق عنها سألتها عن مشاريعها لكي تكون عندي حجة ابلاغها مشاريعي ، وأعلمتها انني سأبقى في بيتي بعد الغد . وافترق الجميع عند هذا الحد .

ورحتُ عندئذ افكر ، ولم اشكّ بأن بريفان سيغتنم هذا النوع من الموعد الذي حددته له . وسيحضر في ساعة مبكرة لكي يجدني وحدي ، وان الهجوم

سيكون حاداً . ولكني كنت واثقة ايضاً بأنه لن يعاملني ، بالنظر لما يعرفه من سمعتي ، بتلك الخفة التي لا تستخدم إلا مع النساء السهلات المغامرات ، او اللواتي ليس عندهن اي اختبار . ورأيت ان نجاحي سيكون اكيداً اذا لفظ كلمة الحب ، واذا كان لديه بصورة خاصة الادعاء بأن يحصل عليها مني .

كم هو سهل ان يكون الانسان في صراع معكم انتم « جماعة المبادىء » ! إذ يثير فينا عاشق ساذج في بعض الأحيان بسبب خجله كثيراً من الارتباك ، أو يحيرنا بنزواته الهائجة ، وهذه هي حمّى في الواقع كالحميات الأخرى لها حرارتها وارتجافاتها ، وفي بعض الاحيان تختلف في عوارضها !اذن ففي الموعد المضروب : الوصول ، والسلوك ، واللهجة ، والاقوال ، وكنت أعرف كل شيء سلفاً قبل ليلة . ولا اروي لك الآن تفاصيل احاديثنا التي تستطيع ان تتخيلها بسهولة ، بل لاحظ فقط انني في دفاعي الظاهر ، كنت اساعده بكل قوتي : ارتباك لكي اتيح له الوقت لأن يتكلم ، اعذار سيئة لكي تكون مهزومة ،خوف وحذر لكي اثير احتجاجاته . وهذه اللازمة الدائمة من جانبه : « انني لا اطلب منك سوى كلمة واحدة » ، وهذا الصمت من جانبي الذي يبدو انه لا يتركه ينتظر إلا لكي يزداد شوقاً ورغبة . وخلال ذلك يد مأخوذة مائة مرة ، ولكنها تنسحب دائماً ولا تُرفَضُ ابداً ، وكان بالامكان ان نقضي نهارنا كله على هذا المنوال ، وهكذا امضينا ساعة مميتة. وكان يمكن ان نظل كذلك لولا أن عربة دخلت الى ساحة منزلي ، وقد جعلت هذه المعاكسة للظروف إلحاحاته اكثر حدة ، وهنا رأيت ان الفرصة قد حانت حيث كنت بمنجى من كل مفاجأة، وبعد أن هيأت نفسي بزفرة طويلة منحته الكلمة الثمينة .

وبعد فترة قصيرة جاءني زوار عديدون ، وسألني بريفان أن أسمح له بالحضور في صباح اليوم التالي ، فوافقته على ذلك . ولكنني ، وانا الحريصة على الدفاع عن نفسي ، أمرت خادمتي بأن تبقى طوال هذه الزيارة في غرفة نومي ، حيث يمكنها منها ان ترى كل ما يجري في غرفة زينتي ، وكان ان استقبلته هناك. وكنا احراراً في أحاديثنا ، وبما انه كانت لدينا كلا الاثنين رغبة مماثلة ،

twitter @baghdad_library

فلم نلبث بعد قليل من الوقت حتى اتفقنا، ولكن يجب التخلص من هذا الشاهد غير المناسب (أقصد الخادمة) ولذلك وقعنا في مشكلة : اين انتظره ؟

وحينئذ وصفت له حياتي الداخليـة ، وأقنعته بسهولة اننا لن نجد اية لحظة فراغ ، ويجب ان يعتبر لحظة اجتماعنا أمس بأنها نوع من المعجزة ، ربمـا ستنشأ عنهـا اخطار كبيرة جداً قد تفضحني ، لأنه من الممكن في اية لحظة كانت ان يدخل احدهم إلى الصالون . ولم أنسَ ان اضيف الى ذلك قولي ان جميع هـذه العادات قد نشأت لأنها حتى اليوم لم تعاكسني ابداً ، واصررتُ في الوقت نفسه على استحالة تبديلها دون أن أورط نفسي بنظر جماعتي . وحاول ان يبتئس وان يظهر الاستياء، وان يقول لي اني اشعر بقليل من الحب نحوه. وتستطيع ان تتصوركم كان تأثير ذلك فيَّ ! ولكنني وقدشئت أن اضرب هنا الضربة الحاسمة ، استنجدت بالدموع لاغاثتي ،وقد جعله هذا السلطان الذي ظنَّ أن له عليّ او هذا الأمل الذي دبره لكي يضيع رشدي لحسابه ، يبدي نحوي كثـيراً من الحب الشديد المفرط .

وما ان انتهت هذه المفاجأة المسرحية ، حتى عدنا الى بحث الترتيبـات . وبدلاً من النهار رحنا ندرس امكان اجتماعنا في الليل ، ولكن بوابي أصبح عقبة لا يمكن التغلب عليها . وانا لا اسمح بمحاولة خداعه . فـاقترح علي الدخول من باب حديقتي ، ولكنني حسبت حساباً لذلك ، واخترعتُ وجود كلب هادىء في النهار ، ولكنه شيطان مرعب حقيقي في الليل . وان السهولة في ابداء مثل هذه التفاصيل كانت صالحة لجعله يتجرأ . وهكذا اقترح علي الحل الاكثر سخافة، وهو ما وافقت عليه .

اولاً ان خادمه موثوق به الى درجة قصوى مثله ، وانه لا يمكن أن يخدعه مطلقاً . وسأقيم حفلة عشاء كبرى في بيتي يحضرهـا هو . ثم سيجد مناسبة لكي يخرج وحده ، وسيدعو خادمه البارع العربة ويفتح الباب ، وانـه (اي بريفان) بدلاً من ان يصعد سيختفي بحذاقة . ولن يستطيع سائق عربتـه أن يلاحظ ذلك مهما كلفه الامر . وهكذا يكون قد خرج بنظر الجميع ، ومع ذلك

يكون قد ظل عندي .. بقي ان يعرف إذا كان يستطيع ان يصل الى غرفتي . وأعترف أن حيرتي كانت تدور اولاً حول ايجاد مبررات رديئة ضد هذا المشروع لكي يتسنى له ان يبدو وكأنه حطمها . وكان ان رد عليها بضرب الامثلة ، حيث اخذ يقول : ليس هناك اكثر سهولة من هذه الطريقة ، وانه هو نفسه قد استخدمها عدة مرات ، وانه هو ايضاً الذي يستخدمها اكثر من اي كان ، على اعتبارهـا الاقل خطورة من غيرها .

وهكذا بعد ان خضعت لهذه الحجج المقنعة ، اعترفت بسذاجـة انه يوجد في بيتي سلم خفي يفضي إلى صالوني الخـاص . واني استطيع ان ادع مفتاحي معلقاً فيـه . ومن السهل عليه ان يختبىء فيه وينتظر دون مجازفـة ، حتى تكون مدعواتي قد انصرفن . ثم لكي أعطي مزيداً من التأكيد لموافقتي ، قررت بعد لحظة قصيرة انني لا اريد ذلك مطلقاً . ولم اعد إلى القبول الا بعد الاشتراط عليه بالخضوع التام والتعقل !... آه يا له من تعقل ! واخيراً قلت له انني اود ان ابرهن جيداً عن حبي ولكن ليس أرضاء حبه .

ان الخروج الذي نسيت ان اخبرك عنه ، يجب ان يجري بواسطة باب الحديقة ، ويجب انتظار طلوع الفجر . وان الحـارس الشرس لن يتفوه بكلمة . كما انه لا يمر في تلك الساعة المبكرة احد في الشارع ، والناس غارقون في رقادهم . واذا كنت تدهش لهذه المجموعة من المتناقضات ، فـلا شك انك تنسى وضعنا المتبادل . اذ لم نكن بحاجة لأن نفعل احسن من ذلك . وهو لا يتمنى افضل من هذه الطريقة لكي تُعرف ، وانا كنت واثقة بانها لن تعرف ابداً . ثم حددنا الموعد بعد يومين .

لاحظ ان القضية اصبحت منتهية ، وبما انـه لم ير احدٌ بريفان يتردد علي من قبـل فقد اتفقنا على ان اكون قـد قابلته على العشاء عند امرأة من صديقاتي ، وانه عرض عليها مقصورته في المسرح لحضور رواية جديدة . وانني قبلت بالمناسبة مقعداً في المقصورة . وخلال الرواية دعوت هـذه المرأة الى تناول العشاء عندي امـام بريفان ، ولم استطع تقريباً بحكم اللياقة الا أن

twitter @baghdad_library

اوجه اليه مثل هذه الدعوة ، فوافق ، ثم قام بعد يومين بزيارتي كما تقضي العادة. وقد حضر في الحقيقة ليراني في صباح اليوم التالي . ولكن فضلاً عن ان زيارات الصباح لا تأثير لها ، فقد وجدتها خفيفة . وهكذا وضعته في صف الاشخاص الذين لا تقوم بيني وبينهم رابطة قوية ، فوجهتُ اليه دعوة خطية رسمية لتناول العشاء عندي .

وجاء اليوم الحاسم . هـــذا اليوم الذي كان يجب ان افقد فيه فضيلتي وسمعتي . وقد أصدرت تعليماتي الى خادمتي الامينـة فيكتوار ، وقد نفذتها كما سترى .

ففي ذلك المساء حضر عدد كبير من القوم الى بيتي ، ثم اعلن بريفـان عن وصوله ، فاستقبلته بتهذيب ملحوظ ، يفهم منه عدم وجود سوى علاقـــة طفيفة بيني وبينه ، وعزوت هذه العلاقة الى الماريشالة ، باعتبار انني تعرفتُ عليه بواسطتها . ولم يحدث شيء في السهرة سوى ورقة صغيرة استطاع العاشق اللبق أن يجد وسيلة لدسها بين يدي ، ولكنني احرقتها على الفور حسب عادتي، وقد اعلن لي فيها انني أستطيع ان اعتمد عليه. وقد احاط هذه الكلمة الرئيسية بجميع الكلمات الفضولية كالحب والسعادة الخ ...

وعند منتصف الليل حين انتهت العاب الورق اقترحت القيام بلعبة مشتركة ، وكنت اهدف من وراء ذلك إلى تسهيل هروب بريفان ، واجعل هذا الهروب ملحوظاً في آن واحد . وهذا ما حدث بالفعل نظراً لسمعته كمقامر . وكنت مغتبطة ايضاً لأن القوم تسنى لهم ان يتذكروا انني لست مسرعة في البقاء وحدي.

واستمرتْ اللعبة وقتاً اطول ممـــا كنت اظن . وقد اغواني الشيطان ، واستسلمت لرغبـة الذهاب لمواساة السجين النافد الصبر ، وتوجهت بالفعل نحو هلا كي لولا انني فكرتُ انني اذا ذهبت اليه سأفقد سلطان ابقائـــه في الوضع الضروري لخططي . وكان ان واتتني القوة على مقاومة هـذه الرغبة ، وعدتُ على اعقابي مستعيدة مكاني في تلك اللعبة الطويلة المملة . ولكنها انتهت اخيراً . وانصرف الجميع كل من ناحيته ، امـــا انا فقد استدعيتُ خادماتي وخلعتُ

ثيابي بسرعة وصرفتهن بالسرعة نفسها .

وكم كنت اتمنى ايها الفيكونت ان تراني ، وانا في ثيابي الخفيفة امشي بخطى خجولة مترددة وافتح بيد غـــير مطمئنة باب منتصري. فشاهدني ، وخيل اليّ بلمح البصر انني انهزمت ، انهزمتُ كلياً قبل ان استطيع التفوه بكلمـة أوقفه فيهـا او ادافع عن نفسي . ثم اراد ان يتخذ وضعاً اكثر ملاءمة مع الظروف . فلمعن ثياب السهرة البراقـة التي كان يرتديهـا والتي كما قـــال تبعده عني . واراد ان يحاربني بأسلحة متساوية . ولكن حيائي المفرط اعترض على هـــذا المشروع ، ولم تدع له ملاطفاتي الوقت لكي يتخلص من ثيابـــه ، فاهتم بشيء آخر .

بيد أن حقوقه تضاعفت ، وعاد إلى مطالبه . وهنـــا قلت له : « إسمع ستكون عندك قصة ممتعة لكي ترويها الى الكونتيستين دي ب ... عني . ولكنني متشوقة لأن أعرف كيف ستروي نهاية هذه المغامرة» وما ان فرغت من ذلـك حتى قرعت الجرس بكل قواي وصرخت صرخات حادة مفزعة وكانت كلماتي وحركاتي اقوى من كلماته . ولم يكن إلا في حالة من الدهشة الشديدة حين سمعت فيكتوار تهرع نحوي ومعها بعض الخدم الذين احتفظت بهم في غرفتها . وهنـا استعدت لهجتي كملكة ورفعت صوتي قائلة : «أخرج يا سيدي ، ولا تظهر أبداً أمامي». وهنا دخل بقية الخدم .

وقد اضاع بريفان المسكين صوابه ، واعتقد انه وقع في كمين ، فاستل سيفه وأراد أن ينتضيه ، ولكن خادمي حال بينه وبين ذلك ، لأن هذا الخادم النشيط القوي أمسك به وطرحه أرضاً . وقد اصابني فزع شديد . فصحت بالخادم كي يدعه وشأنه . وأمرت بأن يتركوه ينصرف بسلام دون أن يؤذيه احد ، مع التأكد فقط انه خرج من بيتي . وقد رافق الجميع الفارس التعيس الحظ بهرج ومرج وفضيحة كما كنت أتمنى . وبقيت فيكتوار وحدها ، واهتممنا خلال هذا الوقت في إصلاح وترتيب المكان الذي كان ينتظر فيه .

وعاد الجماعة فصعدوا الى غرفتي وهم في لغط قوي دائماً . وسألتهم اي حظ

twitter @baghdad_library

حسن جعلهم يبقون هنا؟وهنا روت لي فيكتوار انها دعت صديقتين من صديقاتها لتناول العشاء معها ، وانها بقيتا حتى الآن ، واخـــيراً حدثتني عن كل ما كنا متفقين عليه الخ . . . فشكرتهم جميعهم على غيرتهم ، وجلعتهم ينصرفون ، بينما كلفت احدهم بأن يذهب في الحال لاستدعاء طبيبي ، اذ بدا لي انـــه من حقي ان أخشى تأثير صدمة نفسية قوية . وكانت هذه ايضاً طريقة اخرى اتيح بها لهذا الخبر ان يذاع على نطاق واسع .

وقد حضر الطبيب بالفعل واخذ يعظم من هول الصدمة وتأثيرها على جسمي وامرني بالتزام الراحة التامة في الفراش . وامرت انا بالاضافة الى ذلك خادمتي فيكتوار بأن تذهب فتثرثر عن الحادثة مع الجيران .

وكان ان نجح كل شيء كما يجب . وحضرت جارتي الورعـــة تواسيني قرب سريري لكي تعرف حقيقة هذه المغامرة القذرة . وكنت مضطرة الى التحدث معها اكثر من ساعة حول فساد ابناء هذا العصر . وبعد لحظة قصيرة تلقيت من الماريشالة الرسالة التي ارفقها اليك طيه . وأخيراً قبل الساعة الخامسة فاجأني القومندان . . . بحضوره وهو قائد الفرقة التي يعمل بريفان فيها تحت إمرته . وقال لي انه حضر ليقدم اعتذاراته لكون احد ضباط فرقته استطاع ان يكون قليل الادب معي الى هذا الحد ، وانه لم يعلم بالأمر إلا عند الظهر حين كان يتنـــاول طعام الغداء مع الماريشالة . . . وانه بعث فوراً بأمر الى بريفان لكي يذهب الى السجن . وطلبت اليه ان يعفو عنه ولكنه رفض ، وعندئذ فكرت بوصفي متآمرة عليه ان اعتكف من ناحيتي ، واقفل بابي على نفسي بحجة انني لست على ما يرام .

وهكذا يعود الفضل في ارسال هـــذه الرسالة الطويلة اليك إلى عزلتي ، وسأكتب رسالة اخرى إلى السيدة دي فولانج التي يجب ان تطلع الجميع عليها ، وسترى كيف ينبغي لهذه الحادثة ان تروى .

نسيت ان اقول لك ان عشيقي بيلروش قد ثارت ثائرته ، وهو يريد مهما كلف الأمر ان يبارزه . يا له من مسكين ! لحسن الحظ سيكون عندي وقت لكي اخفف من

سورته . وبالانتظـار اريد ان اريح رأسي الذي تعب من الكتابة . الوداع يا فيكونت .

٨٦

من الماريشالة دي ... الى المركيزة دي ميرتاي

(رسالة واردة ضمن ما قبلها)

باريس في ٢٥ ايلول ؟؟١٧ .

يا إلهي ! ماذا حدث اذن يا سيدتي العزيزة ؟ هل من الممكن ان يكون هذا الصغير بريفان قد فعل هذه القذارات ؟ تجاهلك أنت ايضاً ! والى مـاذا عرّضنا ! اذن لم يعد المرء في امان في بيته ! في الحقيقة ان ما يعزّي في هذه الاحداث هو كونها قد مرت بسلام . ولكن ما لن اتعزى عنه ابـداً انني كنتُ نوعاً ما السبب في انك استقبلت في بيتك مثل هـذا الشيطان المخيف . وأعدك ، اذا كان كل ما قيل لي عنه صحيح ، بأنني لن ادعه يحط قـدمه في بيتي بعد الآن . وهذا هو القرار الذي يجب على جميع الناس الشرفاء ان يتخذوه تجاهه ، اذا كان عليهم ان يفعلوا ما يجب .

لقد قيل لي انك أصبت بوعكة صحية ، وانا قلقة على صحتك . فأرجوك ان تطلعيني على انبائك العزيزة ، اواجعليني اطّلعُ عليها بواسطة احدخاصتك اذا لم تتمكني من ذلك بنفسك . وانني لا اطلب منك سوى كلمة واحدةلكي اطمئن عليك . لقد كنتُ أود ان اسارع للحضور بنفسي لكي اراك هـذا الصباح لولا الحمامـات التي امرني طبيبي باتباعها ، ولا يجوز لي ايقافهـا . كما يجب عليّ ان اقصد فرساي بعد الظهر ، من اجل قضية ابن اخي دائماً .

الوداع يا سيدتي العزيزة إعتمدي طول الحياة على صداقتي المخلصة .

twitter @baghdad_library

٨٧

من المركيزة دي ميرتاي الى السيدة دي فولانج

باريس في ٢٦ ايلول ؟؟ ١٧

اكتب اليك الآن من سريري ، يا صديقتي العزيزة الطيبة ، ذلك ان الحادث الاكثر اقلاقاً ، والاكثر إستحالة في توقعه ، قد جعلني مريضة نتيجة ما سببه لي من صدمة نفسية وحزن مرير ، وهذا ليس عائداً أكيداً الى ان ثمة ما أُلام عليه ، بل لأن من المؤلم دوماً لامرأة شريفة تحافظ على التواضع اللائق بجنسها ، ان تصبح عرضة للاهتمام العام ، وقد كنت اتمنى ان أبذل كل ما في وسعي لتلافي هذه المغامرة التعيسة ، ولا أعلم حتى الآن ما اذا كنت سأقرر الذهاب الى الريف ام لا ، بانتظار ان ينساها الناس . واليك ما حدث :

لقد قابلت عند الماريشالة دي ... رجلاً يدعى السيد بريفان الذي تعرفينه اكيداً بالإسم ، ولا اعرفه انا ايضاً اكثر من ذلك. ولكنني حين وجدته في ذلك البيت ، سمحت لنفسي – كما بدا لي – بأن اعتبره من الاشخاص الصالحين. فلقد كان على جانب كبير من التهذيب ، وبدا لي انه من الشبان الذين لا يعوزهم الذكاء . وقد شاءت المصادفة والضجر من اللعب ، ان اكون المرأة الوحيدة في جلسة بينه وبين الاسقف دي... بينما كان الجميع منهمكين في لعبة «اللانسكينيه» وتحدثنا نحن الثلاثة حتى حان وقت العشاء . وعلى المائدة دار الحديث عن رواية جديدة ، مما اتاح له الفرصة بأن يعرض مقصورته على الماريشالة فقبلت ، وتم الاتفاق على ان يكون لي مقعد فيها . وكانت الحفلة يوم الاثنين الماضي في المسرح الفرنسي . وبما انني دعوت الماريشالة بعد خروجنا من الرواية الى تناول العشاء في بيتي ، فقد عرضت على هذا الرجل ان يرافقها . وكان ان حضر بعد يومين الى بيتي في زيارة عادية تبادلنا خلالها المجاملات كما تقضي العادة دون ان ألحظ اثناءها ما يشين ، ولكنه عاد في اليوم التالي ايضاً ليراني في الصباح مما بدا لي ذلك غير لائق ، ولكن خيل إلي بدلاً من ان أُشعره بذلك بطريقة استقبالي له ،

ان من الافضل ان اعامه بأدب اننا لسنا على علاقة وثيقة حميمة كما يعتقد ، ومن جل ذلك بعثت اليه في اليوم نفسه بدعوة جافة احتفالية ، لتناول العشاء الذي احتفلت به اول امس . وبطبيعة الحال لم أوجه اليه الكلام اربع مرات خلال السهرة كلها . وكان ان انصرف هو من جهته بعد ان انهى اللعب . وانت تجدين انه حتى الآن لم يكن هناك ما يدل على انه يسعى للقيام بأية مغامرة . وكان ان لعبنا لعبة مشتركة بعد انصرافه ، وطالت السهرة حتى حوالي الثانية بعد منتصف الليل ، ثم ذهبت اخيراً لأنام في سريري .

وكانت قد مضت نصف ساعة طويلة على انصراف خادماتي . حين سمعت حركة في شقتي ، ففتحت ستارتي بكثير من الخوف ، ورأيت رجلاً يدخل من الباب المفضي الى صالوني الخاص . فندّت عني صرخة حادة ، وعرفت في الرجل على ضوء مصباح النوم انه السيد بريفان هذا ، وقد قال لي بوقاحة غير معقولة بأن عليّ ألا اخاف ، وانه سيوضح لي سر تصرفه ، وانه يرجوني ألا أحدث اية ضجة . وكنت مصدومة جداً الى درجة انني لم استطع التكلم . ولعل ما زادني رعباً كما اعتقد مظهره الهادىء المطمئن. ولكنه لم يقل سوى كلمتين حتى اكتشفت هذا السر المزعوم . وكان جوابي الوحيد - كما تستطيعين ان تتصوري - ان قرعت جرسي ، ولحسن الحظ كان جميع خدمي ما يزالون يسهرون عند إحداهم ، ولم يكونوا قد ناموا بعد. وكان ان استدعت خادمتي الخاصة - وقد سمعتني اتحدث في الظلام بلهجة خائفة - جميع زملائها الباقين ، بعد ان شعرت بالخوف عليّ ، وبإمكانك ان تتصوري الفضيحة ! وكان خدمي جميعاً ناقمين ، ورأيت في احدى اللحظات ان خادمي سيقتل بريفان ، واعترف انني ما زلت حتى هذه اللحظة أرتعب وارتجف من الخوف . وحين أفكر بما حدث ذلك اليوم ، أودُّ لو ان خادمتي الخاصة كانت قد حضرت وحدها ، لكنت تفاديت هذه الحالة التي تهدُّ قواي .

وعوضاً عن ذلك فقد ايقظت الجلبة الجيران الذين هرعوا للاستفسار عني . وقد تحدث الناس عن ذلك ، لا حديث لباريس كلها ومنذ أمس سوى هذا النبأ . اما الآن فقد وضع السيد بريفان في السجن بأمر من قائد فرقته الذي

twitter @baghdad_library

تفضل فزارني لكي يقدم اعتذاراته . ولا ريب بأن هـذا السجن سيزيد ايضاً من الضجة التي اثارها هذا الحادث . وقـد وجهت اليّ المدينة والبلاط رسالات استفسار تركت على بابي الذي اقفلته على نفسي انتجاعاً للراحة . وقـد أبلغني الاشخـاص القليلون الذين رأيتهم بأنهم انصفوني ، وان الاستنكار العام قد بلغ وجه ضد السيد بريفان . ومن المؤكد انـه يستحقه ، ولكن ذلك لا ينزع الاثر السيىء الذي تركته هذه المغامرة في نفسي .

وفضلاً عن ذلك فمن المؤكد أن لهذا الرجل اصدقاء، وان اصدقاءه لا بدّ ان يكونوا شرسين . ومن يدري ماذا سيختلقون من اقاويل لايذائي والايقاع بي ؟ يا إلهي كم انا تعيسة ، مع انني لم افعل شيئاً سوى انني أردت ان ابعد عن نفسي أقاويل الناس . ورغم ذلك فهل أسلم من النميمة ؟

أرجو أن تنبئيني بما كنتِ قد فعلته ، وما ستفعلينه لو كنتِ مكاني،واخيراً بكل ما تفكرين بـــه . إذ منك وحدك أتلقى ألطفَ العزاء وأحكم الآراء . ومنك وحدك أحب ان اتلقاها .

الوداع يا صديقتي العزيزة الطيبة ، انت تعرفين المشاعر التي تربطني بك إلى الابد . قبلاتي لابنتك اللطيفة .

٨٨

من سيسيل فولانج الى الفيكونت دي فالمون

في ٢٦ ايلول ؟؟ ١٧

على الرغم من كل السرور الذي اشعر به يا سيدي في تلقي رسائـل الفارس دانسني ، وعلى الرغم من انني لست اقـــل رغبة منه في ان نتقابل ايضاً دون ان يمنعنا احد من ذلك ، فإنني لم أجرؤ على القيام بما اقترحته علي . اولاً لأن هـذا العمل خطير جداً ، فهذا المفتاح الذي اردت ان أضعه مكان الآخر يشبهه كثيراً في الحقيقة ، ولكنه مع ذلك يختلف عنه قليلاً بحيث لا بد ان يُلاحظ، ووالدتي

تراقب وتلاحظ كل شيء. وفضلاً عن ذلك فعلى الرغم من ان هذا المفتاح لم يُستخدم منذ وجودنا هنا إلى الآن، فقد يحدث ان تطرأ فكرة استخدامه في هذا الحين بالذات، واذا ما لوحظ الأمر فستقع الطامة الكبرى على رأسي إلى الابد . ثم يبدو لي أن صنع مفتاح مزدوج لغرفتي هو عمل سيىء للغاية ، لا بل وجريء جداً ! صحيح انك انت الذي ستتفضل بالاهتمام به ، ولكن رغم ذلك اذا اطلع احـــد على القضية فسأتحمل وحدي الوزر واللوم واكون مسؤولة عن هذه الخطيئة الكبرى ، لأن ذلك سيكون قد تم من أجلي. واخيراً لقد حاولت مرتين أن آخذه ، ومن المؤكد ان الامر هين لو كان يتعلق بمقصـــد آخر ، ولكنني لست ادري لماذا اخذت ارتجف ، ولم تواتني الشجاعة الكافية على اخذه ، ولذلك اعتقد ان من الافضل ان نبقى كما نحن الآن .

اذا كانت لديك دائماً الرغبة في ان تكون لطيفاً كما كنت حتى الآن، فإنك تستطيع دائماً ان تجد وسيلة اخرى لتسليمي بعض الرسائل . وحتى في المرة الاخيرة ، لو لم يحدث لسوء الحظ انك التفت سريعاً وراءك في احدى اللحظات لكان الأمر قد تمّ بسلام . انا اشعر جيداً انك لا تستطيع ، مثلي ، إلا ان تفكر بذلـك ، ولكنني افضّل ان يكون لديّ المزيد من الصبر بدلاً من المجازفة . وانا واثقة ان دانسني يفكر مثلي ، لأنه في كل مرة اراد مني شيئاً ، ورأى ان ذلك سيؤلمني ، أقلع عنه فوراً .

انني اسلمك في آن واحد مع رسالتك هذه ، رسالة دانسني ومفتاحك ، وانا شاكرة جداً كل ما تفعله من اجلي ، وارجوك ان تستمر في ذلك . صحيح انني تعيسة جداً ، ولولاك كنت اشد تعاسة ، ولكن هناك امي على كل حال ، ولابد من التحمل بالصبر . وارجو ان يظل السيد دانسني يحبني ايضاً ، وان لا تتخلى انت عني ، وقد يأتي وقت نكون فيه اكثر سعادة .

وبالانتظار ، لي الشرف يا سيدي ، ان اكون مع اعترافي بفضلك خادمتك المطيعة .

twitter @baghdad_library

٨٩

من الفيكونت دي فالمون الى الفارس دانسني

قصر ... في ٢٦ ايلول ؟؟ ١٧

اذا كانت امورك لا تسير بالسرعة التي تريدها ، يا صديقي ، فلست انا الملام على ذلك تماماً. اذ اجد امامي هنا اكثر من عقبة واحدة لا بدّ لي من ان اتغلب عليها. لأن يقظة وصرامة السيدة دي فولانج ليستا كل شيء ، بل ان صديقتك الصغيرة تعترض على بعض محاولاتي . وهي لا تفعل دائماً كل ما انصحها به ، اما عن برودة ، واما عن خجل . واعتقد مع ذلك انني اعرف اكثر منها ما يجب عمله .

كنت قد اكتشفت وسيلة سهلة ملائمة اكيدة ، استطيع بواسطتها ان اسلمها رسائلك ، لا بل اسهّل عن طريقها في ما بعد المقابلات التي ترغبان فيهـــا ، ولكنني لم استطع ان اجعلها تقرر استخدامها . وانا متألم الى درجة لا أرى معها اية وسيلة اخرى لكي اقرّبك منها . وحتى مراسلتك فانني اخشى باستمرار أن تورطنا نحن الثلاثة . بينما انت تعرف انني لا اريد ان اقوم بهذه المجازفة ولا اريد ان افضحكما أنت وهي .

سأكون متألماً حقيقة لأن تكون الثقة القليلة التي تمنحني اياها صديقتـــك الصغيرة ، قـد حالت بيني وبين ان اكون مفيداً لك . لعلك تحسن صنعاً لو كتبت اليها عن ذلك . وعليك ان تفكر بما تريد أن تفعله . وعليك وحدك ان تقرر . اذ لا يكفي للمرء ان يخدم اصدقاءه ، بل عليه ان يخدمهم حسب ذوقهم. وستكون هذه ايضاً طريقة اخرى لكي تتأكد من عواطفها نحوك ، لأن المـرأة التي تحتفظ بارادتها لنفسها لا تحب بقدر ما تقول .

لا اقول ذلك لأنني أرتاب في عدم ثبات معشوقتك على العهد ، بل لأنهـا ما تزال صغيرة السن . وهي تخاف والدتها كثيراً ، هذه الوالدة التي — كما تعلم — لا تحاول الا إلحاق الاذى بك . ولعله سيكون من الخطر ان تبقى مدة طويلة دون ان تشغلها فيك . ومع ذلك عليك ألا تقلق كثيراً مما اقوله لك هنا . وليس لدي

في الاساس اي سبب لفقدان ثقتك ، بل للالحاح في الصداقة .

لا اريد ان اطيل عليك في هذه الرسالة ، لان لديّ بعض المشاغل الخاصة لحسابي ، وانا لم اتقدم بعد خطوة واحدة اكثر منك . ولكني احب مثلك ، وهذا ما يعزيني . واذا لم أنجح من اجل نفسي ، واكون مع ذلك قد توصلت الى خدمتك كما يجب ، سأجد انني لم اضع وقتي سدى .

الوداع يا صديقي .

٩٠

من الرئيسة تورفيل الى الفيكونت دي فالمون

في ٢٧ ايلول ؟؟١٧

كم أتمنى كثيراً ، يا سيدي ، ألا تسبب لك هذه الرسالة اي تكدير .

واذا ما سببت لك شيئاً من هذا ، ارجو أن يخفف من وقعها عليك ما أشعره من الم وانا اكتبها اليك . لا بدّ انك بتّ تعرفني الآن بصورة كافية لكي تكون واثقاً من رغبتي في عدم تكديرك . ولكنك لا تريد ، بدون شك ، أن تغرقني في يأس دائم . وأنا اناشدك إذن ، باسم المشاعر نفسها التي قد تكون اكثر حدة – ولكنها اكيداً ليست اكثر اخلاصاً – والتي تكنها لي ، بأن نقلع عن رؤية احدنا الآخر بعد الآن . فاذهب ، ولنكفّ من الآن فصاعداً عن هذه المحادثات الخاصة الخطيرة جداً التي اقضي وقتي في الاستماع الى ما ينبغي الا اصغي إليه دون ان يتسنى لي ان اقول لك ما أريده ، بسبب قوة خفية غير مفهومة .

بالأمس ايضاً ، حين جئت تلتقي بي في الحديقة ، لم يكن لي من هدف سوى ان اقول لك ما اكتبه اليك اليوم . ومع ذلك ماذا فعلت سوى انني شغلت بحبك ؟... بحبك الذي يجب الا أردُّ عليه ابداً ! آه ! انني اطلب اليك الصفح، إبتعد عني .

twitter @baghdad_library

لا تخشَ ابداً ان يؤثر بعادك في عواطفي نحوك : وكيف يتسنى لي ان اتغلب عليها حين لا تكون عندي الشجاعة على مقاومتها ؟ ارأيت ؟ ها انذا أفصح لك عن كل شيء . وان خوفي من ان اعترف لك بتخاذلي هو أقل من ان اقع ضحية هذا التخاذل ، ولكن هذا السلطان الذي فقدته على عواطفي ، سأظل محتفظة به على تصرفاتي . أجل سأحتفظ به وانا مصممة على ذلك . حتى ولو كان على حساب حياتي .

من المؤسف ان الوقت لم يكن بعيداً حين كنت اظن نفسي واثقة من عدم معاناة مثل هذه الصراعات ! وكنت اغبط نفسي على ذلك ، لا بل وكنت فخورة ، ولكن الرحمة الالهية شاءت ان تنذرني قبل سقوطي ، وسأكون مذنبة بصورة مضاعفة ، اذا تابعت عدم الحذر ، بعد ان أُنذرت بخوار قوتي .

لقد قلت لي مئة مرة انك لا تريد سعادة مشتراة بدموعي . آه ، دعنا من السعادة ، بل دعني استعيد بعض الهدوء :

والآن بقبولك طلبي هذا ، اية حقوق جديدة لا تريد نيلها من قلبي ؟ واذا كانت هذه الحقوق قائمة على اساس العفة ، فلن امنع نفسي من الرضوخ اليها . وكم سأكون معجبة بنفسي لامتناني ! انني سأكون مدينة لك بحلاوة تذوق عاطفة لذيذة دون تبكيت ضمير . اما الآن فعلى العكس اشعر بأنني خائفة من عواطفي ، ومن افكاري ، بل اخشى ايضاً ان أنشغل بك وبنفسي . لأن فكرتك نفسها تفزعني ، اذ حين لا استطيع الافلات منها احاربها دون ان ابعدها ، بل أدفعها فقط .

اليس من الأفضل لنا نحن الاثنين ان نوقف هذه الحالة من الاضطراب والقلق ؟ أنت يامن ظلت روحك الحساسة دائماً – حتى وسط اخطائها – صديقة للفضيلة ، ستقدر موقفي المؤلم ، ولن ترفض رجائي ! إذ ان ثمة مصلحة اكثر رقة ولطفاً ، ستحل محل هذه الانفعالات العنيفة ، وعندئذ سأستنشق الحياة بفضل إحسانك ، واستمرىء وجودي وسأقول في بهجة قلبي : ان هذا الهدوء الذي استشعره مدينة به الى صديقي .

إنني بإخضاعك لبعض الحرمان الخفيف ، الذي لا افرضه عليك أبداً ، بل اطلبه فقط ، هل تعتقد انك تبتاع غالياً نهاية عذابي ؟ آه ، إذا كان لا بد لكي اجعلك سعيداً من ان اكون تعيسة ، فصدقني انني لن اتردد لحظة واحدة ...

ولكن ان اغدو مذنبة خاطئة !... لا ، كلا يا صديقي ، فانا افضل الموت ألف مرة على ذلك .

أما وقد افعمت الآن بالخجل عشية تبكيت الضمير ، فانني اخاف الآخرين ونفسي ، واحمر خجلاً في المجتمع ، وارتجف رعباً في العزلة . ولم يعد لدي سوى حياة من الآلام . وانني لن احصل على الدعة والهدوء الا بموافقتك . وان مقرراتي الاشد تقريظاً لا تكفي لتطميني ، وقد اتخذت هذا القرار أمس ، ومع ذلك فقد قضيتُ هذه الليلة وأناغارقة في الدموع .

انظر الى صديقتك التي تحبها، مضعضعة ومتوسلة ، طالبة اليك فقط ان تمنحها الراحة والبراءة. آه يا آلهي هل كانت وصلت لولاك الى هذا الطلب المهين؟

انني لا الومك على شيء ، بل أشعر كثيراً كم ان من الصعب مقاومة شعور متسلط . وإن شكوى واحدة ليست اعتراضاً ، فافعل عن كرم ما افعله انا عن واجب ، إنني أضم الى جميع العواطف التي اوحيت إليَّ بها عاطفة الامتنان الدائمة ، الوداع الوداع يا سيدي .

٩١

من الفيكونت دي فالمون إلى الرئيسة تورفيل

في ٢٧ ايلول مساءً .

أما وقد صُعقتُ برسالتك فإنني ما زلت اجهل كيف استطيع ان اجيبك عليها . بدون شك اذا كان لا بد من الاختيار بين شقائك وشقائي ، فانني اضحي بنفسي ، ولن اتردد . ولكن يبدو لي ان مثل هذه القضايا الكبرى تستحق المناقشة والتوضيح قبل كل شيء ، وكيف نتوصل إلى ذلك اذا كان علينا ان

twitter @baghdad_library

ننقطع عن تبادل الحديث ورؤية احدنا الآخر ؟

ماذا ! بينما توحدنا العواطف الأشد رقة ، ينبثق خوف لا قيمة له ليفرّق بيننا ، ربما دون عودة ؟ وعندئذ ستطالب الصداقة الرقيقة والحب المندفع عبثاً بحقوقهما ، ولن يسمع احد صوتهما ، لماذا ؟ وما هو هذا الخطر العاجل الذي يتهددك ؟

آه صدقيني ان مثل هذه المخاوف المبنية على الاوهام ، هي وحدها اسباب قوية للامان .

إسمحي لي ان اقول لك انني اجد هنا آثار الانطباعات السيئة التي اخذتها عني . ولا يمكن لاحد ان يرتجف ابداً امام رجل يقدره ويحترمه . ولا يمكن لأحد ان يُبعدَ بصورة خاصة ذلك الذي حكم عليه بأنه جدير ببعض الصداقة ، وان الرجل الخطير فقط هو الذي يُخشى منه .

ومع ذلك ، من كان اكثر احتراماً وخضوعاً مني ؟ لقد تحققتِ من ذلك في السابق ، كما انني اراقب نفسي في حديثي ، ولا اسمح لنفسي بهذه الكلمات الرقيقة العزيزة على قلبي الذي لا يكف عن بثّك اياها بالسر . انا العاشق الأمين التعيس الذي يتلقى المؤاساة والنصائح من صديقة حنونة حساسة ، بل المتهم امام قاضيه ، والعبد امام سيده ، وان هذه الالقاب الجديدة تفرض عليّ بدون شك واجبات جديدة ، وعلي أن اتعهد بتنفيذها كلها . اصغي الي ، فاذا أدنتني سأمتثل الى مشيئتك واذهب ، لا بل أعدك اكثر من ذلك ، أم هل تفضلين هذا الاستبداد الذي يحكم دون الاصغاء الى المتهم ؟ هل تشعرين بالشجاعة على ان تكوني جائرة ؟ فأمري وانا أطيع ايضاً .

ولكن دعيني اسمع هذا الحكم وهذا الأمر من فمك . ستقولين لي بدورك : لماذا ؟ آه ، لانكِ اذا وجهتِ هذا السؤال ، فذلك يدل على انك لا تعرفين الحب ولا قلبي ! هل تعتبرين ان رؤيتي لك مدة قليلة هي أمر لا اهمية له ؟ ولكن حين يحمل فمك اليأس الى روحي ، فلعل نظرة مغرية تمنعها من ان تتداعى . واخيراً اذا كان ينبغي علي ان أقلع عن الحب والصداقة التي اعيش من اجلهما وحدهما ، فعلى

الاقل سترين ما صنعته يدك ، وستبقى لي شفقتك : ان هذا الامتياز الخفيف ، الذي لا استحقه مع ذلك ، هل فرض عليّ ان ادفع ثمنه غالياً لكي اناله ؟

ماذا ! انت تبعدينني عنك ! وتوافقين على ان نصبح بعيدين الواحد عن الآخر ؟ ماذا اقول ؟ انت تودين ذلك ، بينما تؤكدين لي ان ابعادي لن يؤثر ابداً في عواطفك ، اذن انت تعجلين سفري لكي تعملي بسهولة على تحطيمها .

ها انك بدأت تحدثينني عن انك ستحلين الامتنان محل عواطفك . والامتنان هو ما سيحصل عليه منك اي مجهول مقابل خدمة بسيطة : عدوك مثلاً حين يكف عن ايذائك . وهذا كل ما تعرضين عليّ ! وتريدين اذن ان يكتفي قلبي بذلك ! اسألي قلبك : اذا ما جاء عاشقك وصديقك يحدثانك يوماً عن امتنانهما ألن تقولي لهما باستنكار : انصرفا انكما جاحدان .

انني اتوقف هنا عن الكتابة ، وأطالب بحلمك وسعة صدرك . واعذريني على صيغة الالم التي تبعثينها فيّ ، وهو لن يؤذي ابداً خضوعي التام . ولكنني استحلفك بدوري ، باسم هذه العواطف الرقيقة التي انت نفسك تطالبين بها ، الاّ ترفضي الاصغاء إليّ ، ولا تطيلي الانتظار ، من قبيل الشفقة على هذا الاضطراب المميت الذي اغرقتني فيه . الوداع يا سيدتي .

٩٢

من الفارس دانسني إلى الفيكونت دي فالمون

باريس في ٢٧ ايلول ؟؟ ١٧

آه ، يا صديقي ، لقد جمّدتني رسالتك من الفزع . سيسيل... يا إلهي ! هل من الممكن ! سيسيل لم تعد تحبني . اجل انني ارى هذه الحقيقة البشعة عبر الستار الذي تحيطها به صداقتك . لقد أردت إعدادي لكي اتلقى هذه الضربة القاضية . فأشكرك جداً على عنايتك ، ولكن هل يمكن فرض شيء على الحب ؟ أنه يفر أمام كل ما يهمه ، ولا يتلقى نبأ مصيره ، بل يكتشفه . وانا لا اشك

twitter @baghdad_library

بصير حبي . حدثني بصراحة ، وانت قادر على ذلك ، ارجوك ، اخبرني عن كل شيء ، وعن كل ما يثير شبهاتك ، وعمـــا يؤكدها. انا اقل التفاصيل هي ثمينة. حاول بصورة خاصة ان تتذكر اقوالها . وان كلمة مكان اخرى يمكن ان تبدل معنى جملة بكاملها ، كما ان للكلمة الواحدة معنيين ... قد تكون انخدعت ؛ مع الاسف احاول ان ازهو ايضاً . ماذا قالت لك ؟ هل توجه الي بعض الملامة ؟ ام انها لا تدافع عن اخطائها ؟ لقد كان عليّ ان اتوقع هذا التبدل، بسبب الصعوبات التي تلقاها ، منذ وقت قصير ، في كل شيء . مع ان الحب لا يعرف هذا القدر من العقبات .

ماذا عليّ ان أقرر ؟ بماذا تنصحني ؟ فلو حاولت مثلاً ان اراها ؟ هل ان ذلك مستحيل اذن ؟ أن البعاد قاس جداً ومشؤوم !.. ثم انهـا رفضت وسيلة لكي تراني !.. ولكنك لا تقول لي ما هي هذه الوسيلة ، واذا كان فيها حقيقة شيء من الخطر ، فهي تعلم جيداً انني لا اريدها ان تجـــازف كثيراً . ولكنني أعرف حذرك ايضاً ، ولا استطيع لشدة تعاستي إلاّ ان اؤمن به .

ماذا يجب عليّ ان افعل الآن؟ كيف اكتب اليها؟ فاذا تركتها تشعر بارتيابي فقد يشجيها ذلك ، واذا كانت شكوكي في غير محلها فهل تغفر لي كوني كدّرتها. واذا اخفيت عنها ذلك اكون قد خدعتها ، ولا استطيع ان اخفي عنها شيئاً .

آه ، لو كانت تعلم كم اتعذب ! إن عذابي يؤثر فيها . وأنا اعرفهـا حساسة ذات قلب من ذهب ، ولديّ الف دليل على حبها . فهي كثيرة الحياء مع بعض الارتباك ، وهي صغيرة السن ! وامها تعاملها بقساوة بالغة ! سأكتب اليهـــا ، وسأتمالك زمام نفسي . وسأطلب اليها فقط بأن تثق فيك كل الثقة وتترك نفسها تحت تصرفك ، واذا رفضت ذلك ثانية فإنها لا تستطيع على الاقل ان تغضب من رجائي . ولعلها قد توافق .

وانت يا صديقي اقدم اليك الف اعتذار ، واؤكد لك انها تقدّر عنـايتك وخدماتك وتعترف بفضلها . وان ما بدر منها ليس عن قلة ثقة بل عـن خجل وحياء . فكن واسع الصدر ، وهذا من اجمل طباع الصداقة . إن صداقتك ثمينة

جداً لديّ ، ولا ادري كيف اعترف بفضل كل ما تقوم به من اجلي . الوداع ، سأكتب اليها فوراً .

ها انذا أشعر بجميع مخاوفي تعود . من كان يعتقد ان الكتابة اليها ستكلفني هذا القدر من الصعوبة ! يا للأسف ! بالامس فقط كان ذلك أعذب سرور عندي.

الوداع يا صديقي ، تابع عنايتك من اجلي ، وارثي لحالي كثيراً .

٩٣

من الفارس دانسني الى سيسيل فولانج

(مرفقة بالرسالة السابقة)

باريس في ٢٧ ايلول ؟؟ ١٧

لا أستطيع أن أخفي عليك كم أشجاني ان اعلم من فالمون انك تمحضينه ثقة ضئيلة . انت لا تجهلين انه صديقي ، وانه الشخص الوحيد الذي يستطيع ان يقرّ بنا الواحد من الآخر . لقد اعتقدت أن هذه الصفات ستكون كافية لديك. وأرى بصعوبة انني قد اخطأت . فهل أستطيع ان آمل على الاقل ان تعلميني ما هي مبرراتك ؟ أم هل تجدين ايضاً بعض الصعوبات التي تمنعك من ذلك ؟ انني على كل حال لا أستطيع ان احزر، دون مساعدتك ، سر هذا التصرف . ولا اجرؤ على الشك في حبك ، ولا ريب ايضاً بانك سوف لا تجرأين على خيانة حبي.. آه ! يا سيسيل !...

هل صحيح إذن انـــك رفضت قبول وسيلة لـكي تريني ؟ * « وسيلة بسيطة ملائمة واكيدة » . أهكذا تحبينني ؟ هـــل ان غياباً قصيراً كهذا بدل عواطفك ؟ ولكن لمـــاذا تخدعينني ؟ ولماذا تقولين لي انك تحبينني دائماً وانك تحبينني اكثر ؟ هل قضت والدتـك على براءتك بالقضاء على حبك ؟ واذا كانت على الأقل قـد تركت لي بعض الشفقة ، فانك ستعلمين اية عذابات قاسية

* دانسني لا يعرف ما هي هذه الوسيلة ، بل يكرر فقط عبارة فالمون .

twitter @baghdad_library

قد سببتها لي . آه ! انني سأتعذب أقل من الآن عند الموت .

قولي لي اذن ، هل اوصدتِ قلبك بوجهي دون عودة ؟ هل نسيتني تماماً ؟ انني لا ادري بسبب رفضك متى تصغين الى شكاواي ، ولا متى تردّين عليها . لقد ضمنتْ صداقة فالمون مراسلتنا ؟ ولكنك انت لا ترغبين فيها ؟ اذ تجدينها مؤلمة ، ففضلت ان تكون اكثر ندرة . كلا . لا أؤمن بعد بالحب بنية حسنة ! بماذا يمكن ان اؤمن اذن ، اذا كانت سيسيل قد خدعتني ؟

ردي عليّ إذن ؟ هل صحيح انك لم تعودي تحبينني ؟ كلا ، هذا غير ممكن. انت تخدعين نفسك . وتتقولين على قلبك . مجرد خوف عابر ، لحظة يأس ، ولكن الحب سيزيلها عاجلاً : أليس كذلك يا سيسيلتي ؟ آه ، لا شك بأنني على خطأ في اتهامك . كم سأكون سعيداً لو كنتِ على خطأ ! كم أحب ان اقدم اليك اعتذاراتي الرقيقة ، وأصلح هذه اللحظة من الظلم بحب ابدي .

سيسيل ، يا سيسيل ، اشفقي علي ! ووافقي على رؤيتي . واسلكي جميع السبل ! وانظري ماذا نتج عن هذا البعاد ! مخاوف ، وساوس ، وربما فتور ! نظرة واحدة ، وكلمة واحدة ، وسنصبح سعداء . ولكن ماذا ؟

هل أستطيع أن اتحدث ايضاً عن السعادة ؟ لعلها افلتت من يدي وضاعت الى الابد . أما وقد أقضّ الخوف مضجعي ، وانحصرتُ بوحشية بين الريبة الجائرة والحقيقة القاسية ، فلم اعد أقف عند اية فكرة ، ولم اعد احافظ على وجودي الا لكي اتعذب واحبك . آه ! يا سيسيل ! انت وحدك صاحبة الحق في تجميل وجودي وجعله عزيزاً عليّ . وانتظر من الكلمة الأولى التي تلفظينها عودة السعادة او تأكيد يأسي الى الأبد .

٩٤

من سيسيل دي فولانج الى الفارس دانسني

قصر ... في ٢٨ ايلول .

لم افهم شيئاً من رسالتك، اللهم الا العذاب الذي سببته لي . ماذا اخبرك اذن السيد دي فالمون ؟ وما الذي جعلك تعتقد انني لم اعد اهواك ؟ لعل ذلك سيكون اكثر سعادة لي ، لأنني اكيداً سأكون اقل عذاباً وغماً . وانه لمن المؤلم جداً حين اكون اهواك كما افعل ، واراك تعتقد دائماً اني على خطأ ، وانك بدلاً من ان تؤاسيني ، اجد ان جميع الآلام التي تشجيني تصدر عنك . انت تظن انني أخدعك ، واقول لك ما لا اشعر به ؟ يا لها من فكرة عاتية طرأت عليك ! ولكن حين اكون كاذبة كما تتهمني فما هي مصلحتي في ذلك ؟ من المؤكد لو انني لا احبك ، لكنت قلت لك ذلك ، واحرزت ثناء الجميع . ولكن حبك مع الاسف اقوى مني . ولا بد ان يكون كذلك من اجل شخص لست ملزمة نحوه بشيء !

ماذا فعلت اذن لكي اكدرك الى هذا الحد ؟ انني لم اجرؤ على اخذ مفتاح خشيت ان تلاحظ امي فقدانه، وان يسبب ذلك وجع رأس لي ولك ايضاً بسببي . ثم أيضاً لأن الأمر بدا لي غير شريف، ولكن لم يحدثني عنه إلا السيد دي فالمون، ولم اكن اعلم انك تريده ، لانك لا تدري شيئاً . اما الآن وانا اعلم انك ترغب فيه ، فانني لن ارفض اخذه . وسآخذه ابتداء من الغد ، ثم سنرى ماذا يمكن ان تقوله ايضاً .

يستطيع السيد دي فالمون ان يكون صديقك المخلص ، ولكنني اعتقد انني احبك بقدر ما يحبك على الأقل ، ومع ذلك فهو وحده على صواب ، وانا على خطأ . اؤكد لك انني متكدرة جداً وهذا لا يهمك . لانك تعرف انني سأهدأ في ما بعد . اما وقد قررت ان آخذ الآن هذا المفتاح ، فسأستطيع ان اراك متى أشاء . واؤكد لك انني لا أريد ذلك حين تتصرف بهذه الطريقة . بل

twitter @baghdad_library

افضل ان يكون عندي الشجن الذي يصدر عني ، بدلاً مما يصدر عنك، وعليك ان ترى ماذا تريد ان تفعل .

فاذا شئت ، سيحب احدنا الآخر حباً جماً ! وعلى الأقل سنتحمل العذاب الذي يسببه لنا الآخرون ! أؤكد لك انني لو كنت سيدة مصيري لما كان عندك ما تشكوه مني ، ولكن اذا كنت لا تصدقني ، فسنكون دائماً تعيسين ، وليس الذنب ذنبي. آمل أن نتمكن قريباً من ان نتقابل، وعندئذ لن تكون عندنا فرصة لكي نحزن كما هو الحال الآن .

آه ، لو كنت توقعتُ ذلك ، لكنت اخذت هذا المفتاح حالاً ، ولكني في الحقيقة احسنت صنعاً بعدم اخذه . فلا تحقد عليَّ اذن ، ارجوك ، ولا تكن كئيباً ، وأحبني دائماً بقدر ما احبك . وعندئذ سأكون مسرورة جداً . الوداع يا صديقي العزيز .

٩٥

من سيسيل دي فولانج الى الفيكونت دي فالمون

في ٢٨ ايلول ؟؟ ١٧

ارجوك ، يا سيدي ، ان تتفضل بأن تعيد اليَّ هذا المفتاح الذي كنت قد اعطيتني اياه لكي اضعه مكان الآخر . وما دام كلا كما يريده ، فلا بد من ان اوافق . .

لست أدري لماذا عمدتَ الى اخبار دانسني بأنني لم اعد احبه ، أذ لا اظن انني تركتك تظن ذلك . وقد سبب هذا الظن كثيراً من الشجن له ولي ايضاً . انا اعلم جيداً انك صديقه ، ولكن هذا ليس سبباً لكي تسبّب الغم له ولي ايضاً. وسأكون مسرورة جداً منك لو اعلمته العكس عند اول فرصة تكتب اليه فيها ، وانت متأكد من ذلك ، لأنه يثق فيك اكثر مني ، وانا حين اقول شيئاً، ولا يصدقه مني لا أدري ماذا افعل .

في ما يتعلق بالمفتاح ، تستطيع ان تكون مطمئناً ، لقد وعيتُ كل ما أوصيتني به في رسالتك. ومع ذلك اذا كنتَ ما زلتَ تحتفظ بها ايضاً ، وشئت ان تعطيني اياها في الوقت نفسه، أعدك انني سأهتم بها كل الاهتمام .ما رأيك لو تم ذلك غداً عند توجهنا الى العشاء . وانا سأعطيك المفتاح الآخر عند الغداء ، ثم تعيده لي بالطريقة ذاتها، اتمنى أن لا يستغرق ذلك وقتاً طويلاً ، لانه ستكون هناك فترة اقل لكي تلاحظ أمي الأمر .

ثم حين سيكون هذا المفتاح بيدك تفضل باستخدامه ايضاً لأخذ رسائلي، وهكذا سيحصل السيد دانسني على المزيد من اخباري . صحيح أن الحال سيكون اكثر سهولة مما هو عليه الآن ، ولكن ذلك يثير في نفسي كثيراً من الخوف . ارجوك أذن ان تعذرني . وآمل ان تستمر كالسابق في ان تكون لطيفاً . وسأكون دوماً شاكرة فضلك .

لي الشرف سيدي بأن اكون خادمتك المطيعة جداً .

ملاحظة – حين تحصل على هذا المفتاح ، ارجوك ان تحافظ عليه جيداً بحيث لا يراه أحد ، لأن ذلك سيكون خطيراً للغاية .

٩٦

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

قصر ... في أول تشرين أول؟؟ ١٧

اراهن على انك، منذ مغامرتك الأخيرة، تنتظرين كل يوم تهانيَّ وثنائي . ولا شك بأنك قد تكدرت قليلاً من صمتي الطويل ، ولكن ماذا تريدين ؟ لقد فكرتُ دائماً انه حين لا تكون هناك سوى الثناءات لتقديمها الى امرأة، فبالامكان الاعتماد عليها والاهتمام بشيء آخر. ومع ذلك اشكرك على ما فعلته من اجلي، واهنئك على ما فعلته من اجلك . وأود ايضاً لكي اجعلك تماماً سعيدة ، ان اعترف بأنك في هذه المرة قد تجاوزتِ ما انتظره منكِ . وبعد لنرى اذا كنت

twitter @baghdad_library

من جهتي قد حققتُ على الأقل جزءاً من رغباتك .

لا اريد ان أحدثك عن السيدة دي تورفيل اليوم لأن سيرها البطيء لا يعجبك ، وانت لا تحبين سوى القضايا الجاهزة ، لأن المشاهد المتسلسلة تضجرك ، اما انا فعلى العكس لم اذق في حياتي مثل هذه المتعة التي اشعر بها في هذا التباطؤ المزعوم .

اجل ، احب ان أرى واتأمل هذه المرأة الحذرة منساقة - دون أن تلاحظ - في طريق لا تسمح لها بالتراجع . إن انحدارها السريع الخطر يقودها رغماً عنها ، ويحملها على اللحاق بي . أما وقد افزعها هذا الخطر الذي تسير فيه فهي تريد ان تتوقف ، ولا تستطيع ان تتمالك زمام امرها . وان احتراسها وبراعتها يجعلان خطواتها أشد بطئاً ، ولكن يجب ان تتلاحق. وهي لا تريد في بعض الأحيان ان تحدق في الخطر ، بل تغمض عينيها عنه ، وتترك نفسها تنساق وراءه ، تاركة نفسها تحت رحمتي . وفي أغلب الاحيان تجد ان خوفاً جديداً يقودها نحوه . وهي في فزعها المميت ما زالت تحاول ان تتراجع على اعقابها . فتنهك قواها لتصعد مسافة قصيرة ، ولكن قوة سحرية ما تلبث ان تدفعها نحو هذا الخطر نفسه الذي كانت قد هربت منه بجهود شاقة . وهكذا لم يبق لديها سواي كدليل واعتماد ، فهي تتوسل إلي ان أؤخر سقوطها دون ان تفكر بأن تلومني كثيراً على هذا السقوط المحتم . ان التوسلات الحارة ، والالحاحات العميقة ، وكل ما يشعر به الناس في حالات خوفهم، فيقدمونه للقدرة الإلهية ... هذا ما أتلقاه منها . ثم تريدين مني ان اعمل على استعجال هذه القوة التي تتوسل اليها لكي اعينها، بعد ان صُمَّتْ اذني عن سماع امنياتها، وحطمتُ بنفسي العبادة التي تكرسها إليّ ؟ آه ، دعي لي على الأقل الوقت الكافي لكي اراقب هذه المعارك المؤثرة بين الحب والفضيلة !

ثم ماذا ! هذا المشهد نفسه الذي يجعلك تركضين الى المسرح لكي تصفقي له باعجاب ، هل تظنين انه أقل امتاعاً في دنيا الحقيقة ؟ وهذه المشاعر الصادرة عن روح صافية بريئة تخشى السعادة التي ترغبها ، ولا تكفُّ عن منع نفسها

منها ، حتى بعد ان كفت عن مقاومتها ، أراك تصغين اليها بحماسة : فهل تكون دون ثمن بالنسبة لذلك الذي يخلقها ؟ وهذه على كل حال هي المتـع اللذيذة التي تقدمها إلي تلك المرأة السماوية كل يوم ! ثم تلومينني على تذوق حلاوتها ! آه ، ان الوقت لن يكون إلا قريباً حين تخف قيمتها ، بسبب سقوطها ، فلا تعود تصبح بالنسبة لي الا امرأة عادية .

ولكنني أنسى وانا احدثك عنها ، انني لم اكن أود ذلك. بيد أني لا أعرف أية قوة تجعلني اتعلق بها وتقودني باستمرار اليها ، حتى حين أهينها . فلنستبعد إذن فكرتها الخطيرة ، ولأستعيد نفسي لكي اعالج موضوعاً آخر اكثر مرحاً . انه يتعلق بحضينتك التي اصبحت في الوقت الحاضر حضينتي . وآمل هنا ان تجديني كما تعرفينني .

لقد لاحظت منذ بضعة ايام ان الصغيرة فولانج – بعد ان اخذت امها تحسن معاملتها ولا تشدد مراقبتها عليها – على جانب كبير من الجمال ، وانه اذا كانت هناك حماقة في ان يحبها دانسني بهذا الشكل، فلربما ليست هناك حماقة اقل من جانبي اذا لم ابحث في قربها عن تسلية جعلتها عزلتي ضرورية . وقد بدا لي من الانصاف ان اكافىء نفسي على جهود العناية التي ابذلها من اجلها : لقـد تذكرت أيضاً انك كنت قد عرضتِـا عليّ قبل ان يصبح دانسني عشيقها . ورأيت ان ثمة اساساً لكي اطالب ببعض الحقوق على ملكية لم يملكها دانسني إلا بفضل رفضي وتخليّ له عنها. ان شكل هذه الفتاة الصغيرة وسذاجتها الجميلة، وفمها المنعش ، ومظهرها الطفولي نفسه ، قد عزز هذه الافكار الحكيمة في نفسي ، فقررت ان أعمل على نيلها ، وقد كللت مساعي بالنجاح .

ها أنت تفكرين بأية طريقة استطعت ان أحل سريعاً محل العاشق العزيز، واي أغواء يتفق مع هذا العمر ، ومع هذه الفتاة العديمة الاختبـارات . وفري على نفسك كثيراً من العناء ، فلم استخدم أية وسيلة . اذ بينما كنت تديرين ببراعة أسلحة جنسك ، وتنتصرين عن طريق النعومة واللباقة . كنت انا أعيد للرجل حقوقه غير القابلة للفسخ ، فأخضع عن طريق السيطرة والسلطة . وكنت واثقاً

twitter @baghdad_library

من التقاط فريستي اذا أستطعت أن اجتمع بها ، فلم اكن بحاجة الى الحيلة إلا لكي اقترب اليهـا . لا بل وحتى الحيلة التي استخدمتها من اجـــل ذلك لا تستحق هذا الاسم .

لقد اغتنمت فرصة اول رسالة وصلتني من دانسني الى حسنائه ، وبعد أن أنذرتها بالاشارة المتفق عليها بيننا استخدمت براعتي ليس لتسليمها اياها كالمعتاد، بل لعدم ايجاد اي وسيلة تمكنني من ذلك ؛ وكان ان بعثتُ في نفسها نوعـــاً من نفاد الصبر كدت اشاطرها اياها ، وهكذا بعد آن سببتُ الألم وصفت الدواء .

ان الفتاة الصغيرة تنام في غرفة ذات باب يفضي الى الرواق ، وبما ان الوالدة قد اخذت المفتاح لاسباب لا تجهلينها فلم يكن امامي سوى ان استولي عليـــه . وليس هناك اسهل من ذلك عند التنفيذ . فلم اطلب منها سوى الحصول عليه لمدة ساعتين فقط ، وعندئذ سيكون لدي مثيل له . وهكذا بعد مراسلات ومقابلات ومواعيد ليلية اصبح كل شيء ملائماً واكيداً : ومع ذلك هل تصدقين ؟ لقـــد خافت الفتاة الخجول ورفضت اعطائي هذا المفتاح . ولكن لو كان هناك احـد غيري مكاني لكانت ثبطت همته . أما أنا فلم أر في ذلك إلا مناسبة لشحـذ همتي وللحصول على متعة اقوى . فكتبت إلى دانسني اشكو اليه هذا الرفض ، وقد كتبت اليه ببراعة حتى حملت هذا الطائش على أن يطلب من صديقته الوجلة ان تسلمه اياي ، وأن تمتثل لكل ما اطلبه منها وتعتمد على تكتمي .

انا اعترف بإنني كنت مسروراً جداً لأن أبدل دوري ، وقد فعل الشاب من اجلي ما كنت انوي ان افعله من أجله ، وقد ضاعفت هذه الفكرة بنظري ثمن المغامرة : وهكذا ما ان حصلت على المفتاح الثمين حتى سارعت الى استخدامه . وقد حدث ذلك فى الليلة الماضية .

بعد أن تأكدت أن كل شيء هادىء في القصر ، تسلحت بمصباحي الصامت ، وبلباسي الخفيف الذي يتفق مع الوقت ويقتضيه الظرف ، وقمت بزيارتي الاولى الى حضينتك ، وكنت قـــد اعددت للامر عدته (وذلك بواسطتها) لكي أستطيع الدخول دون ضجة . وكانت غارقة في نومها الاول ، وفي نوم مـن هم

في سنها ، بطريقة انني وصلت حتى سريرها دون ان تستيقظ . وقـــد حاولت أولاً ان أذهب بعيداً ، واجعلها تعتقد ان القضية قضية حلم . ولكنني ، وقـد خشيت تأثير المفاجأة والضجة التي تنتج عنها ، فضلتُ أن اوقظ النائمة الحسناء بحذر ، وقد توصلت بالفعل إلى تفادي صيحة كنت أخشاها . ثم هدّأت من مخاوفها الأولى ، وبما أنني لم أحضر إلى غرفتها لكي اتحدث فقط ، فقد سمحت لنفسي ببعض الحريات ، وبدون شك لم تتعلم في مدرستها كم ان البراءة الخجولة تعرض صاحبتها الى الخطر ، ولم تعلمهـا كل ما يجب ان تفعله حتى لا تفاجأ ، لأنـــني وجهت كل انتباهها وكل قواها لكي تدافع عن نفسها ضد قبلة واحدة لم تكن سوى هجوم زائف ، بينما تركتْ كل الباقي دون دفاع . وهي وسيلة لكي لا أستغل ذلك !

وكان أن بدلت اذن خطتي ، وتمركزت على الفور . وهنا فكرنا اننـــا قد انفضحنا كلا الاثنين : فقد أرادت الفتاة ، بعد أن نفرتها ، ان تصيح بكل نية حسنة . ولحسن الحظ خنقت صوتهـــا في البكاء . ثم ارتمت على حبل الجرس ، ولكن براعتي حالت دون وصول ذراعها اليه في الوقت اللازم .

وقلت لها عندئذ « ماذا تريدين ان تفعـلي ؟ هل تريدين أن تضيعي نفسك الى الأبـــد ؟ فليحضروا وأنا لا يهمني شيء . اذ من تستطيعين ان تقنعي انني لم احضر الى هنا بموافقتك ؟ ومن غيرك زودني بوسيلة دخولي الى غرفتك ؟ وهـذا المفتاح الذي احتفظ بـه منك ، ولم احصل عليه إلا بواسطتك ، هل تتكفلين بايضاح الغاية من استخدامه؟ » ولكن هذا الخطاب القصير لم يخفف من عذابهـا ولا من غضبها ، بل أدى الى اذعانها للأمر الواقـــع . ولا أدري اذا كنت قد أضفتُ على لهجتي شيئاً من البلاغة . في الحقيقة على الأقل لم تكن بلاغتي قوية إلا بالحركات ، اذ انني خصصت يداً للقوة والأخرى للحب ، واي خطيب يستطيع ان يزعم مثل هذه البلاغة في مثل هذا الموقف ؟ واذا وصفتها لك جيداً ، فانك تقرين معي انها كانت بالاحرى مشجعة على الهجوم . ولكنني لا أجازف بشيء مقابل لا شيء . وكما تقولين فان المرأة الاكثر بساطة ، حتى التلميذة الداخلية ، تجرني كالطفل .

twitter @baghdad_library

وقد شعرتُ هذه وهي تتحسر انه لا بد من اتخاذ قرار ، وراحتْ تفكر ، ولكن توسلاتها جعلتني متصلباً عديم الشفقة ، وهكذا كان لا بد لها من أن تنتقل الى العروض . فهل تظنين انني بعت موقفي الهام هذا غالياً ؟ كلا : بل وعدت بكل شيء مقابل قبلة واحدة . صحيح انني بعد ان أخذتُ القبلة لم أفِ بوعدي ، ولكن كانت عندي اسباب وجيهة لذلك . إذ هل اتفقنا على ان تؤخذ أو تعطى ؟ ولفرط ما ساومنا ، اتفقنا على قبلة ثانية . وهذه المرة كانت هي التي ستعطيها وانا الذي سأتلقاها كما اتفقنا . وعندئذ قدتُ ذراعيها الخجولين حول جسدي ، وضغطتها بأحد ذراعيّ بهيام شديد . وكان ان تلقيت القبلة الناعمة بالفعل ، ولكن بصورة جيدة ، لا بل تلقيتها بصورة تامة إلى درجة ان الحب ما كان ليفعل افضل منها .

ان هذا القدر من النية الحسنة يستحق المكافأة. وهكذا ما ان لبّت الطلب على الفور حتى سَحبتُ يدي ، ولا أدري بأية مصادفة وجدتُ نفسي مكانها . وهنا تفترضينني متعجلاً جداً ، ونشيطاً جداً . أليس ذلك صحيحاً ؟ كلا ابداً . بل اخذتُ أتذوق التباطؤ . إذ ما دمت قد أيقنتُ انني سأصل . فلماذا أتعجل الرحلة ؟

لقد كنت في الحقيقة مسروراً جداً بأن أراقب مرة أخرى قوة المناسبة ، ووجدتها هنا محرومة من اية مساعدة خارجية . ومع ذلك كان عليها ان تكافح الحب . الحب المرتكز على العفة والخجل ، والحب الذي قوّاه ما اظهرته من حنق وقد أُخذ بشكل بالغ . والمناسبة كانت وحدها . ولكن كانت هنا دائماً معروضة ، دائماً حاضرة ، والحب كان غائباً .

ولكي أضمن ملاحظاتي ، تخابثت بحيث لا استخدم القوة إلا ضد ما يقاوم . إنما لو كانت عدوتي الفاتنة شاءت انتستغل سهولتي فتستعد للأفلات مني لكنت جعلتها توافق بالتخويف نفسه الذي سبق أن شعرت بتأثيراته السعيدة . وهكذا تناست العاشقة الرقيقة، دون أية جهود من جانبي، أقسامها وأيمانها المغلظة ، فأذعنت اولاً ، ثم انتهت بأن وافقت ، ليس لأن

الملامات والدموع لم تأت بعد هذه الفترة الاولى في آن واحد ، وانا اجهل اذا كانت صحيحة او زائفة ، بل كما يحدث دائماً ، توقفت عنها حين أهتممتُ بالقيام بمعركة جديدة . واخيراً ، من تخاذل الى ملامة ، ومن ملامة الى تخاذل لم ننفصل إلا ونحن راضين تمام الرضى أحدنا عن الآخر ، وبعد ان اتفقنا ايضاً على موعد آخر هذا المساء .

ولم انصرف إلا عند مطلع الفجر ، بعد ان اخذ التعب والنعاس مني كل مأخذ ، وفي هذه الاثناء ضحيت بهذا وذاك في سبيل الرغبة بأن اكون هذا الصباح على الغداء . وانا احب حتى العبادة سحنات النساء غداة المعركة . وليست لديك فكرة عن سحنة صاحبتنا هذه . فقد كانت مرتبكة في تصرفاتها تجد صعوبة في المشي ، وعيناها دائماً منخفضتان واسعتان ذابلتان ! و كان وجهها المدوّر قد استطال ! وليس فيه ما يسرّ . ولاول مرة خافت أمها من هذا التبدل المفرط الذي طرأ عليها ، فأظهرت نحوها عناية بالغة الحنان ! وكانت الرئيسة ايضاً تحوطها بعنايتها ورعايتها ! آه في ما يتعلق بهذه العناية فهي دائماً جاهزة . وسيأتي يوم أستطيع ان ابادلها اياها ، ولن يكون هذا اليوم بعيداً . الوداع يا صديقتي الحسناء .

٩٧

من سيسيل فولانج الى المركيزة دي ميرتاي

قصر ... في اول تشرين الاول ؟؟ ١٧

آه ! يا إلهي ! كم أنا مفجوعة يا سيدتي ! كم انا تعيسة ! من يستطيع ان يواسيني في عذابي ؟ ومن ينصحني في هذا الارتباك الذي ألمّ بي ؟ انه السيد دي فالمون ! ... ودانسني ! كلا ان فكرة دانسني تودي بي الى اليأس ... كيف اروي لك ما حدث ؟ كيف اجرؤ على ان اخبرك ؟ ... لست أدري كيف أفعل . ومع ذلك فان قلبي ممتلىء ... ويجب ان اتكلم الى احد . وانت الوحيدة التي أستطيع ان أفعل ذلك معها ، والتي اجسر على ان افضي اليها بأسراري .

twitter @baghdad_library

أنك تشعرين بكثير من العطف نحوي ! ولكنك لا تشعرين الآن. فلم أعد جديرة بهذا العطف ، ماذا سأقول لك؟ انني لا أرغب البتة في ذلك . لقد أولاني الجميع هنا اليوم عناية خاصة لا أستحقها ! بـــل انـّبيني ، وقرّ عيني كثيراً. لانني مذنبة ، ولكن انقذيني في ما بعد ، واذا لم تتكرمي عليّ بالنصيحة ، فسأموت من الغمّ .

إعلمي اذن ... ان يدي ترتجف كما ترين ، اذ لا استطيع ان اكتب تقريباً ، وأشعر بوجهي ملتهباً . آه ! انها حمرة العار ! وسأكابدهـــا ، وستكون اول عقوبة لي على غلطتي . اجل سأقول لك كل شيء .

ستعلمين اذن أن السيد دي فالمون الذي كان يسلمني حتى الآن رسائل دانسني، قد وجد فجأة ان هذه الطريقة صعبة جداً . وشاء ان يحصل على مفتاح لغرفتي ، واستطيع ان اؤكد لك أنني لم أرغب في ذلك مطلقاً ، ولكنه كتب الى دانسني، وكان ان طلبه هذا مني ايضاً . وأنا اشعر بكثير من الألم حـين ارفض له طلباً . لاسيما منذ ان جعله غيابي تعيساً للغاية . وهكذا كان ان وافقت . ولم اكن اتوقع الكارثة التي وقعت لي .

فقد استخدم السيد دي فالمون أمس هذا المفتاح لكي يحضر الى غرفتي وانا نائمة . ولم اكن انتظر حضوره مطلقاً في مثل تلك الساعة. مما اثار لديّ كثيراً من الوجل وهو يوقظني . ولكن بما انه تكلم معي حالاً ، فقد عرفته ، وظننته يحمل الي رسالة جديدة من دانسني ، ولذلك لم انادِ احداً. وبعد مضي لحظة على ذلك اراد ان يقبلني ، واخذت أدافع عن نفسي كما هو طبيعي . ولكنـــه تصرف بشكل جعلني لا اريـد ابداً ان يبقى على هذه الحـــال . ولكنه كان يريد قبلة واحدة . وكان لا بد من ذلك، وكيف العمل ؟ وقد حاولت ان انادي احداً ، ولكنني بالاضافة الى عدم تمكني من ذلك ، فقد عرف جيداً ان يقول انه اذا حضر احدهم، فسيعرف هو كيف يضع المسؤولية كلها على عاتقي ،وبالفعل لقد كان ذلك امراً سهلاً بسبب هذا المفتاح . ثم لم يكتفِ بذلك ، بل طلب قبلة ثانية .ولم اعرف كيف حدثت هذه القبلة ، ولكنها ضعضعتني وهزت كياني كله ، وبعد ذلـــك

حدث ما هو اسوأ من السابق . أوه ! انها لخطيئة ! واخيراً بعد ان... ارجو ان تعفيني من ان اروي لك التتمة ، ولكنني تعيسة إلى أقصى حد .

ان ما ألوم نفسي عليه أشد اللوم ـ ومع ذلك يجب انا احدثك به ـ هو انني أخشى الا اكون قد دافعت عن نفسي بقدر ما استطيع . ولا اعرف كيف يتم الدفاع . انا لا احب اكيداً السيد دي فالمون ، بل على العكس . وقد مرت بي لحظات كما لو كنت احبه . وتستطيعين ان تتصوري ان ذلك لم يمنعني من ان اقول له دائماً : كلا . ولكنني شعرت جيداً انني لا افعل كما اقول . وقد حدث ذلك كما لو كان رغماً عني . ثم انني كنت ايضاً متضعضعة . واذا كان الدفاع عن النفس صعباً الى هذا الحد ، فلا بد من ان يكون المرء معتاداً عليه . صحيح ان لدى السيد دي فالمون هذا اساليب في الكلام لا اعرف ماذا افعل لكي اجيب عليها . واخيراً صدقيني انه حين انصرف بدوت وكأنني غاضبة ، ومع ذلك أصبت بوهن ووافقت على ان يعود هذا المساء ثانية . وهذا ما يؤسفني اكثر من كل شيء .

آه ، على الرغم من ذلك ، اعدك بأنني سأمنعه من الحضور . اذ ما كاد يخرج حتى شعرت بأنني كنت على خطأ في وعدي اياه . وهكذا بكيت بقية الوقت . كما ان دانسني بصورة خاصة هو الذي يثير لواعجي ! اذ انني كلمرة افكر به ، تتضاعف دموعي حتى اصاب بالذهول . وقد فكرت به دائماً ... وفي الوقت الحاضر ايضاً ، ترين تأثير ذلك على هذا الورق الذي بللته بدموعي . كلا لا شيء هناك يعزيني ابداً ، اذ لم يحدث ذلك إلا بسببه .. واخيراً لم اعد احتمل ، ولم أنم دقيقة واحدة . وحين نهضت هذا الصباح ورأيت نفسي في المرآة ، وجدت نفسي مخيفة لفرط ما تغيرت .

لقد لاحظت أمي تغيّري ما أن شاهدتني ، وسألتني عما بي ، فأخذتُ أبكي على الأثر . واعتقدتُ انها ستؤنبني ، لربما كان ذلك قلل من عذابي ، ولكنها على العكس اخذت تتكلم معي بعذوبة لا أستحقها ابداً .

وطلبت إلي ألا أغتمّ على هذا الشكل ! وهي لا تعرف سبب لوعتي . سأغدو

twitter @baghdad_library

مريضة ، وكم تمنيت في لحظات أن أصبح ميتة ! لم أعـــد أتحمل ، فارتميت بين ذراعيها وانا اجهش بالبكاء واقول لها : « آه يا ماما ان ابنتك تعيسة جداً » ولم تستطع والدتي ان تمنع نفسها من البـــكاء قليلاً ، كل ذلك لم يؤد إلا الى مضاعفة اشجاني. لحسن الحظ لم تسألني لماذا أنا تعيسة، لأنني لما كنت عرفت كيف أجيب.

أرجوك، يا سيدتي ، ان تكتبي إليّ في اقرب فرصة تستطيعين، اعلميني ماذا يجب أن افعل ، لأنه لا توجد لديّ شجاعة كافية على التفكير بشيء ، ولا أعمل الا على التحسر واللوعة . هـــل تتفضلين بتوجيه رسالتك اليّ بواسطة السيد دى فالمون ، ولكنني ارجوك اذا كتبت اليه في الوقت نفسه ، ألا تخـبريه بأنني قلت لك شيئاً .

لي الشرف ، ياسيدتي ، ان اكون خادمتك المتواضعة المطيعة مع كل صداقتي.

لا اجرؤ على توقيع هذه الرسالة .

٩٨

من السيدة دي فولانج إلى المركيزة دي فالمون

قصر ... في ٢ تشرين الاول ؟؟ ١٧

منذ ايام قليـــلة ، كنتِ انت ، يا صديقتي الفاتنة ، تطلبين مني المؤاساة والنصيحة، اما الآن فقد جاء دوري، وها انا اتقدم اليك بالطلب ذاته الذي تقدمت به اليّ لنفسك . فانا مبتئسة حقيقة . واخشى ألا اكون قـد انتهجتُ الوسائل الفضلى لتجنب الحزن الذي أشعر به .

تلك هي ابنتي التي تسبب قلقي . فمنذ سفرها اراها دوماً كئيبة حزينة . ولكنني كنت اتوقع ذلك ، وقد سلّحت قلبي بصرامة وجدتها ضرورية . وكنت آمل أن يحطم الابتعاد والتسليات سريعاً حبها الذي كنت اعتبره مجرد نزق حقيقي . وعلى الرغم من انني لم أفز بشيء منذ وصولي الى هنا ، فقد لاحظتُ ان هذه الطفلة اخذت تستسلم شيئاً فشيئاً الى كآبة خطيرة . وأخشى بصورة جدية

أن يؤثر ذلك في صحتها . وبصورة خاصة رأيتها تتبدل منذ بضعة أيام بشكل ظاهر . وأمس فقط أدهشتني سحنتها ، وقد خاف الجميع هنا عليها .

ان ما يثبت لي ذلك رؤيتها محزونة كثيراً ، واراها مستعدة للتغلب على حيائها الذي كانت تقابلني به . وصباح امس حين سألتها عما اذا كانت مريضة ، سارعتْ الى الارتماء بين ذراعي وهي تقول لي انها تعيسة جداً ، ثم أجهشت بالبكاء ! ولا استطيع ان أصف لك الألم الذي احدثته في نفسي ، اذ اغرورقت عيناي بالدموع حالاً ، واضطررت ان ادير وجهي عنها لكي امنعها من رؤيتي . ولحسن الحظ حاذرتُ ألا اطرح عليها اي سؤال آخر . ولم تجرؤ ان تقول لي شيئاً اكثر. ولكن يبدو من الواضح ان هذا النزق التعيس هو الذي يسبب لها كل هذا الاضطراب .

فما هو القرار الذي يجب اتخاذه اذا استمر الحال على هذا المنوال ؟ وهل أُسبب شقاء ابنتي ؟ هل أحوّل ضدها أثمن صفات الروح : الحساسية والثبات ؟ وهل من اجل ذلك اقوم بدوري كأم ؟ وحين سأخنق في نفسها هذه العاطفة الطبيعية التي تسبب سعادة ابنتنا ، وحين اعتبر من جانبها ضعفاً ما اعتبره على العكس أقدس واجباتنا ، وحين اجبرها على الاختيار ، أفلن اكون مسؤولة عن النتائج الرهيبة التي يمكن ان تحدث ؟ واية قيمة تبقى لسلطة الام اذا وضعت ابنتها بين الجريمة والشقاء ؟

كلا يا صديقي ، إنني لن أُقلد أبداً ، ما استنكرته بدوري غالباً لدى الآخرين . لقد كان بامكاني ، بدون شك ، ان احاول القيام باختيار عريس لفتاتي ولا اكون عملت بذلك الا على مساعدتها باختباراتي. وهذا ليس حقاً أُلزم بممارسته بل اكون قد أديت واجباً فقط . وانني اخون هذا الواجب ـ على العكس ـ اذا تصرفت بها رغم ميلها الذي لم استطع منعها منه ، والذي لاتستطيع ، لا هي ولا انا ، ان نعرف مداه ولا مدته . كلا . انني لن اتحمل ابداً ان تتزوج هذا لكي تحب ذاك ، بل افضل ان اورط سلطتي بدلاً من فضيلتها .

اعتقد إذن انني سأتخذ القرار الاكثر حكمة ، وهو ان اسحب الوعد الذي

twitter @baghdad_library

قطعته للسيد دي جيركور . وقد رأيت بنفسك ما هي الاسباب التي تبدو لي اقوى من وعدي . وأقول اكثر من ذلك ؛ ففي الحالة التي تسير فيهـــا الامور اجد ان الوفاء بتعهدي معناه انني اخلّ به ، لانني اذا كنت مدينـــة لابنتي بألا أفضح سرها للسيد دي جيركور ، فانني مدينة لهذا بألا أستغل الجهـــل الذي أتركه فيه ، وان افعل من اجله كل ما اعتقد انه سيفعله لو علم بالامر . فهل أعمد على العكس الى خيانته دون شرف ، حين يستسلم لنيتي الحسنة ؟ وبينما يشرّفني باختياري أماً ثانية له، فهل اخدعه باختياره أمّ اولاده ؟ ان هذا التفكير المنطقي يجعلني متألمة اكثر مما يجب ان اقول لك .

حين اقارن ابنتي وهي سعيدة مع زوجها الذي اختاره قلبها ، ولا تعرف سوى متعة واجباتها ، وأجد ان صهري راضياً كل الرضى كل يوم عن اختياره ولا يجد احدهما سعادته الا في سعادة الآخر، فهل يجب ان يُضحى الامل بمستقبل سعيد في سبيل اعتبارات باطلة ؟ وهي في الحقيقة ليست قائمة الا على المصلحة . وما هي الميزة لابنتي اذا كانت قد ولدت ثرية ثم غدت عبدة لثروتها ؟

أنا اعترف بأن السيد دي جيركور هو افضل ، ولعلي لم أكن آمل ان يكون زوجاً لابنتي . واعترف انني كنت فخورة جداً باختياره اياها ، ولكن دانسني هو ايضاً ابن اسرة محترمة . ولا يقل عنه من حيث الخصال الشخصية ، لا بل يمتاز عن جيركور انه محبوب ومحب . صحيح انه ليس غنياً بالحقيقة ، ولكن ألا تكفي ثروة ابنتي لسعادة الاثنين ؟ آه لماذا أسلب منها المتعة الكريمة بأن تغني من تحبه ؟

ان هذه الزواجات التي تُدبَر سلفاً بدلاً من جعلها منسجمة ، ويتم الاتفاق عليها حسب التقاليد دون ان تؤخذ الاطباع والأذواق بعين الاعتبار أليست هي أغزر مصدر للفضائح التي اصبحت متواترة كل يوم ؟ انني أفضّل تأجيل البحث في هذا الأمر ليكون لديّ متسع من الوقت على الأقـــل لدراسة ابنتي التي لا اعرفها جيداً . ولا اجد شجاعة على تسبيب حزن طارىء لهـــا بدلاً من تركها تختار سعادة اكثر رسوخاً . كما ان قلبي لا يطيعني بتركها ضحية يأس أبدي.

هذه يا صديقتي العزيزة الأفكار التي تقلق خاطري، واطلب نصائحك بشأنها. ان هذه المواضيع الصارمة تتعارض مع مرحك ولا تنسجم ابداً مع عمرك. ولكنك انت فوق هذا العمر! وستساعد صداقتك مع ذلك عنايتك، ولا اخشى مطلقاً ان ترفض هذه وتلك الالحاح الذي تتوسل اليك به أم.

الوداع يا صديقتي الرائعة، لا تشكي ابداً بصدق عواطفي.

٩٩

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

قصر ... في ٢ تشرين الاول ؟؟ ١٧ مساء.

اليك ايضاً بعض الحوادث الصغيرة. يا صديقتي الحسناء، ولكنها مجرد مشاهد، وليست اعمال. تجملي اذن بالصبر، لا بل تسلحي منه بكمية كبيرة، لأنه بينما تسير رئيستي بخطواتها الصغيرة، فإن حضينتكِ تتراجع، لا بل أسوأ من ذلك ايضاً.

وهكذا فأن بالي مرتاح الآن لكوني اتسلى بهذه المبائس الصغيرة. وقد اخذتُ في الحقيقة اعتاد كثيراً على اقامتي هنا. واستطيع ان اقول انني لم اشعر قط بأي ضجر في قصر عمتي الكئيب. وفي الواقع الا توجد لدي المتعة، والحرمان، والأمل، والقلق؟ وماذا يوجد اكثر من ذلك فوق المسرح؟ نظارة؟ دعي ذلك فإنهم لن يُعدموا. واذا كانوا لا يرونني اثناء العمل، فسأبرز عملي تاماً، وليس عليهم سوى ان يعجبوا ويصفقوا. اجل سيصفقون. لانني استطيع اخيراً ان اتنبأ بتأكيد بموعد سقوط ورعتي المحتشمة. وقد شهدتُ هذا المساء مرأى الفضيلة وهي في حالة نزاع وسيحل محلها الوهن العذب. إنني لا احدد الموعد بأبعد من مقابلتنا التالية الأولى، ولكن ها انني اسمعك تصرخين يا للادعاء! ولكنني اذا اعلنت انتصاري عليها فمعناه انني سأفتخر سلفاً. فهدئي من روعك، ولكي اثبت لك تواضعي سأبدأ برواية قصة إنهزامي.

twitter @baghdad_library

في الحقيقة ان حضينتك هي شخص صغير سخيف ! بل هي طفـــلة يجب معاملتها كما هي . وان خير ما تستحقه هو وضعها في الاصلاحية ! هل تصدقين انه – بعد كل ما حدث أمس الأول بينهـــا وبيني ، وبعد الطريقة الودية التي افترقنا بها – حين أردت ان اعود في المساء الى غرفتها كما اتفقنا عليه ، وجدت بابهـــا موصداً من الداخل ؟ فماذا تقولين ؟ اننا قد نصادف مثل هذه الولدنات احياناً عشية الحادث ، اما غداته ؟ فان الأمر ليس مقبولاً .

انني لم اضحك في البداية . ولم اشعر ابداً كما شعرت عندئذ بسلطان طباعي. من المؤكد انني ذهبت الى هـذا الموعد دون متعة ، بل فقط من قبيل المبدأ . وقد بدا لي سريري الذي كنت بحاجـــة ماسة اليه افضل من اي سرير آخر ، ولم ابتعِد عنه إلا بندم . ومع ذلك ما ان صادفتُ هـــذه العقبة حتى كنت اتحرق شوقاً للتغلب عليها. فقد كنتُ مهاناً ، لا سيما ان تكون مثل هذه الطفلة قد خدعتني . فانصرفتُ اذن وانا متكدر جـــداً . وقررت بالنسبة للمشروع الذي اعمل على تنفيذه الا اهتم ابداً بهذه الطفلة الحمقاء، ولا بشؤونها. وقد كتبت اليها على الفور كلمة صغيرة نويتُ ان اسلمها اياهـــا اليوم ، لكي افهمها قيمتها الحقيقية . ولكنني بعد ان فكرت طويلاً في الصباح وجدت من الأنسب ان احتفظ بالكلمة ، نظراً لعدم وجود اية تسليات عندي هنا، وكان اذن ان مزقت الكلمةِ ولمتُ نفسي على فكرة رغبتي في انهاء هذة المغامرة قبـل ان احصل في يدي على ما يثبت تحطيم البطلة . واخـــيراً اجلّت ثأري اكراماً لك ولثأرك من جيركور .

اما الآن وقد زال عني غضبي فلا ارى في مسلك فتاتك سوى السخافة ، وبالفعل أود ان اعرف ماذا تأمل من وراء ذلـــك ! إذ في ما يتعلق بي فإنني لن اخسر شيئاً . أما اذا كانت تريد ان تدافع عن نفسها فقد فات الاوان قليلاً . ولا بد من أن تقول لي يوماً ما كلمة عن هذا اللغز ! وقد يكون فقط أنها وجدت نفسها متعبة ؟ صراحة قد يكون ذلك صحيحاً ، لأنها حقيقة تجهل أن سهام الحب كرمح أشيل ، تحمل معها الدواء للجروح التي تحدثها. ولكن كلا

فلو حكمت على وجهها المبتئس طوال نهار امس لبدا لي أنها في حالة من الندم والتحسر.. على شيء من الفضيلة.. من الفضيلة ؟ هذا ما لا يوافقها... فلتدعها الى المرأة التي ولدت حقيقة من اجلها ، وهي الوحيدة التي تستطيع ان تزينها ، وتجعل الناس يحبونها ...

المعذرة يا صديقتي الحسناء ،ففي مساء امس وقع المشهد الذي اود أن احدثك عنه بيني وبين السيدة دي تورفيل. وما زلت احتفظ ببعض الانفعال. واشعر انني بحاجة الى العنف لكي اجعل نفسي تسلو الانطباع الذي تركته فيّ . وقد اخذت في الكتابة اليك الآن لكي اساعد نفسي على ذلك . إذ يجب ان تغفري لشيء ما في هذه اللحظة الأولى .

كانت قد مضت بضعة ايام على توصلنا الى اتفاق — السيدة دي تورفيل وانا - حول عواطفنا . ولم نكن نتنازع الا على الكلمات . وقد كانت هي «صداقتها» دائماً التي ترد بها على « حبي» . ولكن هذه اللغة الاتفاقية لا تبدل شيئاً من جوهر الموضوع . ثم اتفقنا ايضاً على انه ليس ثمة بحث في ان ابتعد عنها كما كانت تريد في البداية ، وعلى تبادل المحادثات اليومية ، وكلما بذلت الجهد لعرض المناسبة عليها ، لا تألو جهداً لأغتنامها .

وبما ان مواعيدنا الصغيرة تتم عادة خلال النزهات، فإن رداءة الطقس اليوم لا تجعلني آمل في لقائها ، لا بل لقد اغاظني هذا الطقس الذي لم اتوقعه فجعلني اضيع وقتي سدى .

وبسبب عدم تمكننا من الخروج ، أخذنا نلعب الورق بعد انتهائنا من تناول الطعام ، وبما انني لا العب إلا قليلاً ، ولم اكن ضرورياً في اللعب ، فقد اغتنمت الفرصة لأصعد إلى غرفتي وانتظر نهاية اللعبة .

ثم عدت بعد فترة من الوقت لأجتمع بالقوم ، فوجدت المرأة الفاتنة في غرفتها ، وقالت بصوتها العذب ، إما عن عدم احتراس او عن ضعف : « إلى اين انت ذاهب اذن ؟ ليس هناك احد في الصالون » ولم اكن بحاجة الى اكثر من هذا القول — كما بامكانك ان تعتقدي — لكي احاول الدخول الى غرفتها . وقد

twitter @baghdad_library

وجدت لديها مقاومة أقل مما كنت انتظر .صحيح انني بدأتُ المحادثة على الباب بشكل مختلف ، ولكننا مـا كدنا نصبح وحدنا حتى بدلت الحديث واخذت أتحدث عن « حبي لصديقي » . وكان جوابهـــا الأول ، رغم بساطته : «اسمع ، دعنا من التحدث عن ذلك هنا » وكانت ترتجف . يا للمرأة المسكينة كانت ترى نفسها تكاد تموت .

ومع ذلك لم تكن على حق بأن تخاف . اذ انني منذ فترة من الوقت ، بعد ان وثقت من النجاح بين يوم وآخر ، رأيتهـا تستهلك كل قواها في معارك غـير مجدية ، وقد قررت ان احتفظ بقواي ، وانتظر دون جهـد ان تستسلم بسبب التعب والكلل .

أنت ترين انه لابد هنا من انتصار كامل، وانا لا أريد ان اكون في انتصاري التام مديناً بشيء الى المصادفـة وحدها . وهكذا عدتُ حسب هذه الخطة الى كلمة الحب التي رَفَضَتْها بإصرار ،لكي اكون متعجلاً ، ولم أتعهد بشيء كثير ، لأنني واثق من انها تعتقدني مفعماً بالنشاط والحيوية ، فكان ان حاولت مخاطبتي بلهجة اكثر نعومة، ولم يدعني هذا الرفض من جانبها اغضب،بل احزنني فقط . ثم أليست صديقتي الحسناء مدينةً لي ببعض العزاء ؟

وهكذا ، اخذتْ حسنائي تواسيني وتخفف من شجني ، وفي هذه الاثناء احتفظتُ باحدى يديها في يدي. وكان جسمها الجميل مستنداً على ذراعي ،وكنا متقاربين جداً . ولعلك لاحظتِ اكيداً في هذا الموقف كم ان المطالبة والرفض يصبحان قريبين من بعضهما البعض،كلما تراخى الدفاع، وكيف ان الرأس يتحول والابصار تنخفض، بينما تصبح الأقوال التي تلقى دائماً بصوت ضعيف نادرة ومتقطعة. إن هذه العوارض الثمينة تعلن بطريقة لا تقبل الجدل موافقة الروح، ولكنها من النادر ان تصل الى موافقة الحواس . واعتقد ايضاً انه من الخطورة دائماً محاولة القيام بأية مغامرة ملحوظة جداً في هذه الحالة ، لان حالة التراخي التي تبديها المرأة لا تخلو من متعة لها، ولا ينبغي اخراجها منها دون تسبيب تكدر قد ينقلب اكيداً لمصلحة الدفاع .

ولكن الاحتراس في مثل هذه الظروف بدا لي ضرورياً جداً الى درجة انني خشيت مما قد يسببه تناسيها لنفسها من خوف لها في ما بعد . وهكذا لم أطلب اليها هذا الاعتراف المطلوب حتى حين أعلنته . لان نظرة واحدة كانت كافية نظرة واحدة ،وكنت سعيداً .

ذلك ان صديقتي الحسناء رفعت ابصارها نحوي ، ولفظ فمها السماوي هذه العبارة : « حسناً ، اجل انني أ ... » ولكن نظرتها انطفأت فجـــأة وخانها صوتها ، ووقعت هذه المرأة المعبودة بين ذراعي . وما كدت اتلقاهـــا ، حتى انفلتت بقوة خارقة ، وشردت نظراتها ، وارتفعت يداها نحو السماء وابتهلت : «يا آلهي ...: آلهي ، انقذني » وفي اقل من لمح البصر ركعت على بعد عشر خطوات مني . ثم رأيتها تكاد تصاب بالاغماء والانفعال ، فتقدمت لمساعدتها ، ولكنها تناولت يديّ فبللتهما بالدموع ، واخذت في بعض الاحيان تقبل ركبتيّ وتقول : « اجل ... ستكون انت ... انت الذي سينقذني ، انت لا تريـــد موتي ... دعني ، انقذني ، اتركني وشأني ، استحلفك بالله ان تتركني وشأني » وكانت هذه الاقوال المتقطعة تندُّ عنها خلال بكائها المتضاعف . وفي هذه الاثناء كانت تمسكني بقوة ولا تتيح لي أن ابتعد عنها، وعندئذ جمعتُ قواي ، فأنهضتها بين ذراعي. وفي اللحظة نفسها توقف بكاؤها، ولم تعد تتكلم، بل بدت جميع اعضائها متصلبة ، وقد عرتها على اثر هذه العاصفة ارتجافات عنيفة .

وهنا أعترف بأنني كنت منفعلاً بعنف . واعتقـد انني كنت وافقت على طلبها ، حتى ولو لم تكن الظروف قد أجبرتني على ذلك ، وفي الحقيقة بعد ان قدمت لها بعض المساعدات تركتها وشأنها كما رجتني ، وكنت مغتبطاً لذلك . لانني تلقيتُ الثمن .

وتوقعت ـ كما حدث يوم صارحتها بحبي لاول مرة ـ أن لا تظهر ابداً في السهرة، ولكنها نزلت حوالي الساعة الثامنة الى الصالون ، واعلنت فقط امام القوم انها كانت متوعكة قليلاً ، وكان وجهها ذابلاً ، وصوتها خافتاً ، وتصرفها جامداً ، ولكن نظراتها كانت رقيقة عذبة، وكانت غالباً ما تصوّبها نحوي . وقد اضطرني

twitter @baghdad_library

رفضها لعب الورق الى الحلول مكانها ، وكان ان جلست الى جانبي . واثناء تناول العشاء بقيت وحدها في الصالون . وحين عدنا خُيل إليَّ انها بكت ، فقلت لها لكي استوضح الأمر : «يبدو لي انك مازلت تشعرين بتوعك في صحتك» . فأجابتني على الفور : «ان هذا المرض لايزول بالسرعة نفسها التي يأتي بها !» واخيراً صافحتها عند انصرافنا ، ثم ضغطتْ على يدي عند باب غرفتها حين افترقنا . وقد بَدَتْ لي هذه الحركة في الحقيقة انها صدرت عنها بصورة عفوية ، ولكن هذا أفضل ، لأنه دليل آخر على سلطاني عليها .

أنا أراهن الآن على انها مفعمةٌ جذلاً لكونها وصلت إلى هذا الحد : فقد بذلتُ جميع الجهود ، ولم يبق عليَّ الا التمتع . ولعلها فيما اكتب اليك الآن ، تهتمّ بهذه الفكرة العذبة ! حتى لو اهتمت على العكس بمشروعٍ دفاعي ، فانني اعرف الى ماذا ستؤول مثل هذه المشاريع ! وانا أسألك الآن ، هل تعتقدين ان تحقيق هذه الفكرة سيتم أبعد من مقابلتنا التالية ؟ أتوقع مثلاً ان تكون هناك بعض الاساليب في منحها نفسها . ولكن حسناً ، هل تعرف هؤلاء المحتشمات الصارمات متى اجتزن الخطوة الأولى ان يوقفن انفسهن ؟ إن حبهن هو إنفجار حقيقي ، والمقاومة تمنحهن مزيداً من القوة ! وستركض ورعتي النافرة ورائي اذا كففتُ عن الركض وراءها .

وأخيراً يا صديقتي الحسناء ، سأصل اليك في القريب العاجل لكي أطالبك بتنفيذ وعدك . هل نسيت ولا ريب انك وعدتني — بعد هذا النجاح — بتنفيذ خيانة معي بالنسبك لفارسك ؟ هل أنتِ مستعدة ؟ في ما يتعلق بي ، انني في أشد الشوق اليها كما لو كنا لم يعرف احدنا الآخر ابداً . وفي الحقيقة ان معرفتك تجعلني ازداد رغبة فيك .

وهكذا ستكون هذه الخيانة هي الأولى التي سأقوم بها نحو معشوقتي الخطيرة ، وأعدك بأنني سأغتنم اول مبرر لكي اغيب أربعاً وعشرين ساعة عنها ، وستكون هذه اول عقوبة لها لأنها حجزتني طوال هذه المدة بعيداً عنك . هل تعلمين انه مضى شهران وهذه المغامرة تستأثر بكل اهتمامي ؟ أجل شهران وثلاثة ايام .

صحيح اني أعدُّ غداً ، لأنـه سيُستهلك سدى . وهذا ما يذكرني بالسيدة دي ب ... التي قاومت ثلاثـة أشهر بكاملهـا . أنا سعيد لأن تكون تلك النزقة الصريحة قد قاومت مدة اطول من الورعة الصارمة !

الوداع يا صديقتي الحسناء ، يجب ان أتركك ، لأن الوقت اصبح متـأخراً جداً . وقد أردتُ ان اجعلك تشاطريني بهجتي في أقرب وقت .

١٠٠

من الفيكونت دي فالمون إلى المركيزة دي ميرتاي

قصر ... في ٣ تشرين الأول .

لقـد خُدعت يا صديقتي وغُدر بي ، لا بل خسرت ... وانا الآن في حالة شديدة من اليأس . ذلك ان السيدة دي تورفيل قـد رحلت . اجل رحلت ، ولم اعلم بالأمر ! ولم اكن حاضراً لكي احول دون سفرها وألومهـا على خيانتها المهينـة ! آه ! لا تعتقدي انني كنت قد تركتها تذهب . بل ستكون قـد بقيت . اجل ستكون قد بقيت . حتى ولو استخدمت العنف . ولكن ماذا كنت افعل في اطمئناني الغافل سوى انني انام بهدوء ؟ انام فيما كانت الصاعقة تنقضُّ عليّ . كلا لست افهم شيئاً من هذا اللغز . يجب ان اقلع عـن معرفة النساء .

حين اتذكر يوم أمس ! ماذا اقول ؟ السهرة نفسها ! هـذه النظرة العذبة ، وهذا الصوت الرقيق الناعم ! وهذه اليد الضاغطة ! واثناء هـذا الوقت كانت تدبر أمر رحيلها . آه يا لكيد النساء !.. أرثين لأنفسكن اذن حين تُخدعنَ . لأن كل فكوص يُقترف هو بمثابة سرقة ترتكب نحوكن .

آه .. أية لذة ستكون لديّ حين أنتقم ! سأعثر على هذه المرأة . وسأستعيد سلطاني عليها . واذا كان الحب كافياً لكي استنبط الوسائل ، فماذا لايفعل الحب اذا ساندته الانتقام ؟ سأراها جاثية عند ركبتيّ ، مرتجفة ومبللة بالدموع ، تصيح بي

twitter @baghdad_library

شكراً بصوتها الخائن ، وسأكون دون رحمة .

ماذا تفعل الآن ؟ ماذا تفكر ؟ لعلها تهنىء نفسها على انها خدعتني ، ان هذا الشعور يبدو لها ألذّ ما يمكن ان تشعر به امرأة . وان مـا عجزت الفضيلة عن احداثه استطاعت الحيلة ان تفعله دون جهد . وانا المغفل كنت اخشى تعقلها ، بينما كان عليّ بالأحرى أن اخشى نيتها السيئة .

إن ما يؤلمني اشد الألم ان اضطر الى ابتلاع نقمتي ، وألا اجرؤ إلا على اظهار ألمي العذب الناعم ، بينما قلبي طافح بالنقمة ،وان أرى نفسي مجبراً على استعطاف امرأة ثائرة استطاعت ان تفلت من سيطرتي . هل يجب ان أُهان الى هذا الحد ؟ ومِن مَن ؟من امرأة خجول لم تتمرن ابداً على الصراع .ماذا يفيدني كوني تمركزت في قلبها وأحطتها بجميع نيران الحب ، وأثرتُ حتى الجنون اضطراب حواسها الهادئة في عزلتها ؟ انها تستطيع اليوم ان تفخر بنفسها لهربها مني اكثر مما افتخر بانتصاراتي . وسأتعذب من اجل ذلك . انك لا تتصورين يا صديقتي كم اصبحت مذلولاً مهاناً .

ولكن أي قدر يجعلني اتعلق بهذه المرأة ؟ أليس هناك مئات غيرها يرغبن في ان احيطهن باهتمامي؟ يُسارعنَ في تلبيته؟ ومع ذلك فليس بينهن من تساوي هـذه . ولكن لماذا نركض وراء من يهرب منا ونهمل من يعرض نفسه علينـا ؟ آه لماذا ؟ انا اجهل ذلك ، ولكنني اشعر به بقوة .

لم تبقَ لي من سعادة وراحـة بال الا بامتلاك هذه المرأة التي اكرهها واحبها بدرجة متساوية من الاشمئزاز . ولن اتحمل مصيري إلا حين اسيطر على مصيرها . وعندئذ اصبح مرتاحاً راضياً ، وسأتركها تعاني الاعاصير التي اشعر بها الآن .لا بل سأثير الف عاصفة اخرى : الخوف ، والحذر والأمان ، وجميع الآلام التي تثيرها الكراهية ، وجميع المحاسن التي يمنحها القلب . أود ان افعم بها قلبهـا حسب مشيئتي ... وسيحين هذا الوقت ، ولكن اية جهود عليّ ان ابذلها أيضاً! وفيما كنت قريباً جداً بالأمس اصبحت اليوم بعيداً جداً . كيف استطيع ان الوم نفسي على ذلك ؟ انني لا اجرؤ على القيام بأي مسعى، أذ أشعر أن عليّ

– من أجل ان اتخذ قراراً ما–ان اكون اكثر هدوءاً، ولكن دمي يغلي في عروقي.

إن ما يضاعف اضطرابي ، هذه البرودة التي أقابل بها هنا في الاجابة على سؤالاتي بشأن هربها . اذ لا يعلم احد شيئاً ، ولا يريد أن يعرف شيئاً . وقد قالت لي السيدة دي روزموند التي هرعتُ اليها حين علمتُ بالنبأ : ان هذا شيء طبيعي بسبب انحراف صحتها بالأمس ، وهي قد خشيت أن تمرض ، ففضلت ان تكون في بيتها . والأمر بسيط للغاية ، وانها لو كانت مكانها لفعلت الشيء نفسه .

أما السيدة دي فولانج التي كنتُ قد ارتبتُ في البداية بأنها شريكتها في عملية الغدر هذه ، فقد بدت متأثرة لكون السيدة دي تورفيل لم تستشرها بشأن هذا السفر . وهكذا أجد نفسي مسروراً لأنها لم تضرّ بي . وهذا ما يثبت لي أنها لم تكن موضع اسرار هذه المرأة كما كنت اخشى . وبإمكاني ان أعتبرها أقلّ عداوة. ولا شك بأنها ستغتبط لو علمتْ انها هربت مني ، وان السبب في ذلك يعود إلى نصائحها ! آه كم أمقتها ! سأعيد علاقاتي مع ابنتها . أريد أن أقولبها على طريقتي وحسب نزواتي . وهكذا سأبقى هنا كما أعتقد بعض الوقت من اجل هذه الغاية .

الا تعتقدين ان خائنتي ستخاف من حضوري بعد هذا الهرب الملحوظ ؟ ولو ساورتها فكرة بأنني استطيع ان ألحق بها ، فإنها ستقفل بابها بوجهي . وأنا لا أريد ان أعوّدها على هذه الطريقة التي تزيد من إهانتي . بل أفضل ان اعلن لها على العكس أنني سأبقى هنا . لا بل سألحّ عليها كي تعود .. وحين ستكون مقتنعة بغيابي سأحضر الى بيتها . وسنرى كيف تتحمل هذه المقابلة . ولكن يجب ان أؤجلها لكي ازيد من وقعها عليها. ولا أدري اذا كان لديّ صبر كاف . إذ كدتُ ان أسرج جيادي والحق بها اكثر من عشرين مرة ولكنني كنت اتمالك نفسي ... أتعهّد بأن اتلقى جوابك هنا ، وأرجوك الا تجعليني انتظر طويلاً .

إن ما يزيد من غيظي هو عدم معرفتي بما يجري هناك . بيد أن خادمي الذي ذهب إلى باريس يستطيع بهذه الطريقة أن يخدمني . وها انا أبعث اليه بتعليمات

twitter @baghdad_library

مع دراهم. وأرجوك ألا تحملي على محمل سيىء كوني بعثت هذه وتلك ضمن رسالتي الحاضرة اليك ، مع الرجاء الاهتمام بارسالها اليه بواسطة أحد خدمك على ان يسلمها يداً بيد ، لأن هذا الشيطان اعتاد الا يتلقى الرسائل التي اكتبها اليه حين تأمره بشيء يضايقه ، ويبدو لي في الوقت الحاضر انـه ليس متعلقاً كل التعلق بخادمتها كما كنت أتمنى .

الوداع يا صديقتي الحسناء . إذا طرأت لـــك فكرة سعيدة ، او احدى الوسائل للتعجيل في مسعاي خابريني بشأنها . إذ شعرتُ اكثر من مرة كم ان صداقتك ثمينة لي وما زلت أشعر بذلك أيضاً . لانني احسُّ بنفسي اكثر هدوءاً منذ ان كتبت اليك . على الاقل استطيع ان اتحدث الى من يفهمني ، وليس الى تماثيل اعيش الى جنبها هذا المساء . في الحقيقة كلما عرفت الناس كلما تبين لي أنه لا يوجد في العالم غيري وغيرك ممن يساوون شيئاً ما .

١٠١

من الفيكونت دي فالمون الى خادمه ازولان

(مرفقة بالرسالة السابقة)

قصر ... في ٣ تشرين الاول ؟؟ ١٧

ينبغي ان تكون غبياً إلى أقصى حد ، وقد سافرت أنت هذا الصباح ، لكي لا تعرف ان السيدة دي تورفيل قد سافرت هي ايضاً ، او لأنك اذا كنت قد عرفت بالأمر لم تأت فتعلمني بالنبأ . فماذا ينفع اذن ان تصرف مالي لكي تشمل مع خدم القصر ؟ وبينما يجب ان تستخـدم هذا الوقت لكي تخدمني ، اجدك تقضي ملذاتك مع خادمتها ولا اعرف شيئاً عما يجري ! هـذه هي نتيجة إهمالك . ولكنني أنذرك اذا تهاملت مرة أخرى في هذه القضية ، فستكون هذه المرة هي الأخيرة التي تبقى فيها في خدمتي .

يجب ان تعلمني بكل شيء عن السيدة دي تورفيل : صحتها ، اذا كانت تنام ،

اذا كانت تعيسة او مرحة ، اذا كانت تخرج غالباً ، والى اين تذهب ، اذا كانت تستقبل اناساً عندها ، ومن هم ، وكيف تمضي وقتهـا ، اذا كانت تسيء معاملة خادمتها ، وبصورة خاصة تلك التي اصطحبتها الى هنا ؟ ماذا تفعل حين تكون وحيدة ؟ وعما اذا كانت تقرأ حـــين تأوي الى سريرها ؟ وعما اذا كانت تقطع قراءتها لكي تحلم ؟ وكذلك حين تكتب . فكر ايضاً بأن تجعل نفسك صديق من يحمل رسائلها الى البريد . واعرض خدماتك عليه لكي تؤدي عنه هذه الخدمة ، وحين يوافق لا ترسل بالبريد إلا الرسائل التي تبدو لك غير مهمة ، وارسل لي الباقي ، لا سيما رسائل السيدة دي فولانج اذا عثرت على شيء منها .

إسعَ لكي تكون عشيق جوليتك الجميلة ، واذا كان لديهـــا عشيق آخر كما اعتقدت، إقنعها بان تجعل لك حصة، ولا تغضب ، بل ستكون مثل عدد كبير من الآخرين الذين هم افضل منك . إما اذا كان غريمك لم يعد مناسباً، وانه يشغل حيزاً كبيراً من وقت جولي في النهار ، وانها تتغيب غالبـاً عن سيدتها ، فابعده عن طريقك بأحدى الوسائل ، واخلق له مشكلة لكي تتشاجر معه ، ولا تخشَ النتائج فسأدعمك . إحرص بصورة خاصة على الا تغادر هذا البيت . اذ نستطيع عن طريق المثابرة ان نعرف كل شيء جيداً. واذا شاءت المصادفة ان تطرد هي احد خدمها فقدم نفسك مكانه كما لو كنت لم تعد في خدمتي ، وقل في هذه الحالة انك تبحث عن بيت اكثر هدوءاً وانتظاماً . وحاول اخيراً ان تجعلهم يقبلونك. وستظل في خدمتي خلال هذا الوقت . وسيكون كما حدث عند الدوقة دي ... وستكافئك السيدة دي تورفيل مثلها .

اذا كنت تملك النشاط والدهاء الكافيين فستكفيك هذه التعليمات لكي تقوم بالعملين معاً . وها انا ارسل اليك المـال اللازم ؛ وان الكلمة المرفقة طيه تسمح لك بأن تقبض خمساً وعشرين ليرة ذهبية من وكيلي التجاري ، اذ لا اشك بأنك خالي الوفاض . تستطيع ان تستخدم هذا المال في ما هو ضروري لإقناع جولي بأن تراسلني ، اما الباقي فهو يكفي لكي ترشو خدمها الاخرين . ولا تنسَ انني لا ادفع هذا المال لمتعك الخاصة ، بل مقابل خدماتك .

twitter @baghdad_library

عوّد جولي على ان تلاحظ كل شيء، وان تنقل كل شيء، حتى ما يبدو لها ضئيل الأهمية. ومن الافضل ان تكتب عشر جمل لا فائدة منها بدلاً من ان تغفل جملة ذات أهمية. وبما انه ينبغي ان احصل على هـــذه المعلومات بصورة عاجلة، ابعث فيليب على الحصان لـكي يقيم في قرية « ... » حيث يبقى حتى إشعار آخر. اذ يستطيع بوجوده في منتصف الطريق بيننا وبين باريس أن يساعد على نقـل الرسائل اذا اقتضت الحاجة. أما المراسلات العادية فان البريد يكفي.

احترس لـكي لا تفقد هذه الرسالة، أعدْ قراءتها كل يوم لـكي تتأكد انك لم تغفل شيئاً، وافعل اخيراً ما يجب عمله، وانت تعرف اذا كنت مسروراً منك انك ستكون مسروراً مني.

١٠٢

من الرئيسة تورفيل الى السيدة دي روزموند

في ٣ تشرين الاول الساعة الواحدة صباحاً.

ستكونين مندهشة جداً يا سيدتي، حين تعلمين انني رحلت من قصرك بهذه السرعة، لا بل قد يبدو لكِ هذا التصرف غريباً جداً. ولكن كم ان دهشتك ستتضاعف كذلك حين تعرفين الاسباب! لعلك ستجدين حين أسرّ اليك بهـا انني لم احترم الهدوء الضروري لسنك. وانني ابتعدت عن مشاعر الاحترام التي تستحقينها من جميـع النواحي. آه يا سيدتي، أستميحك عذراً، ولكن قلـبي مضطهد، وهو بحاجة الى ان ينفس عن كربه في قلب صديقة رقيقة وحذرة ايضاً. فمن غيرك يستطيـع ان يختار؟ اعتبريني كأبنتك، واشعري نحوي بعاطفة الأم. انني اتوسل اليك. ربما كان لي بعض الحق في ذلك بالنظر لعواطفي نحوك.

أين هو الوقت الذي كنت فيه أكرس نفسي بكليتي لهذه العواطف النبيلة، حيث كنت لا اعرف أبداً تلك العواطف التي تحمـــل الى النفس الاضطراب المميت الذي أعانيه، وتنتزع القوة على مكافحتها بيناهي تفرض الواجب؟ آه!

تباً لهذه الرحلة القاضية التي أدت الى ضلالي .

ماذا سأقول لك أخيراً ؟ انا احب .. أجل أحب حتى الجنون . يا للأسف! ان هذه الكلمة التي أكتبها لأول مرة – والتي طالما طُلبت مني بالحاح دون ان اقولها – ادفع حياتي كلها لكي استطيع أن اقولها إلى من أوحى إلي بها . ومع ذلك ينبغي أن ارفضها باستمرار !انه يشك أيضاً في عواطفي . وسيظن أنه يستحق الرثاء . إنني تعيسة جداً ! أليس من السهل عليه ان يقرأ في قلبي بأنه يسيطر عليه ؟ أجل ان عذابي سيهون إذا عرف كم أتعذب ،ولكنك انت نفسك التي أُطلعك على ذلك ، لا تستطيعين أن تكوّني إلا فكرة ضئيلة عما بي .

خلال قليل من الوقت سأهرب منه وأفجعه . وبينما سيعتقد انه ما زال قريباً مني سأكون بعيدة عنه . وفي الساعة التي اعتدتُ أن اراه فيها كل يوم سأكون في مكان لم يحضر اليه ابداً ، حيث ينبغي الا اسمح له بأن يحضر . لقد أعددت كل ترتيباتي واصبح كل شيء جاهزاً باستثنائي انا . وكلما رأيت قلبي يأبى ذلك كلما أثبتَ لي هذا القلب ضرورة الاذعان . وسأذعن لذلك دون ريب . من الافضل أن اموت بدلاً من أعيش مذنبة . وقد اصبحت أشعر بذلك ، وأنا لم انقذ سوى تعقلي ، بينما تلاشت فضيلتي .

هل ينبغي ان أعترف لك : أنني مدينة في ما بقي لي منها إلى كرمه . لقد اسكرتني لذة رؤيته وسماعه ، وعذوبة الشعور به بالقرب مني، وسعادة التمكن من خلق سعادته ، ولذا اصبحتُ خائرة القوى والعزيمة . ولم تبق لي قوة لكي اكافح ، فكيف يتسنى لي أن اقاوم . لقد كنت ارتعب من خطري دون ان اتمكن من الهرب منه . حسناً ! لقد رأى عذابي واحسّ بشفقة علي . كيف لا اعزُّه وانا مدينة له باكثر من الحياة ؟.

آه !لو اتيح لي ان أبقى إلى قربه دون أن ارتجف خوفاً على حياتي ، لما كنت قد وافقت على إبعاد نفسي . وما قيمة حياتي بدونه ! الن اصبح سعيدة جداً بان افقدها ؟ أما وقد حُكم عليّ بأن اسبّب تعاسته وتعاستي ، دون ان اجرؤ على الشكوى أو على مؤاساته ، وان ادافع عن نفسي كل يوم ضده وضد

twitter @baghdad_library

نفسي، وأن ابذل اهتمامي بتسبيب عذابه بينما أود أن اكرس كل شيء في سبيل سعادته. اجل أليس الموت افضل الف مرة من العيش على هذه الصورة ؟ هذا ما سيكون عليه مصيري ، وسأتحمله الآن ، وستكون لديّ الشجاعة على ذلك آه انت التي اخترتك كأمي ، اقبلي قسمي .

واقبلي ايضاً القسم الذي أحلفه بالا اخفي عنك اي عمل من اعمالي . إقبليه، استحلفك بالله ، واطلبه منك بمثابة إغاثة اشعر اني بحاجة اليها . وهكذا بعد ان تعهدتُ بان اقول لك كل شيء ، سأعتاد على الاعتقاد بأنني دوماً في حضورك وستحل فضيلتك مكان فضيلتي. ولن ارض ابداً بعد الآن ان أحمرّ خجلاً بنظرك.

الوداع يا سيدتي المحترمة ، أحبيني كما لو كنتُ ابنتك ، وتبنيني كما انا . وكوني واثقة انني رغم ضعفي سأفضل الموت على ألا اكون جديرة باختيارك .

١٠٣

من السيدة دي روزموند إلى الرئيسة تورفيل

قصر ... في ٣ تشرين الأول ؟؟ ١٧

لقد كنتُ يا سيدتي العزيزة مبتئسة لسفرك أشد من تعجبي للسبب الذي من اجله سافرت . وقد كانت خبرتي الطويلة والاهتمام الذي توحينه إليّ كافيين لأن استنير بصدد حالة قلبك . واذا كان لا بد من ان أقول لك كل شيء ، فانك لم تخبريني تقريباً شيئاً جديداً في رسالتك . ولو انك لم تعلميني بالأمر في رسالتك، لكنت ما زلت اجهل من هو الذي تحبينه . لانك بتحدثك إليّ « عنه » دائماً ، لم تكتبي إسمه مرة واحدة . ولكنني لاحظته ، لانني تذكرتُ ان هذا هو دائماً اسلوب الحب ، وهو أسلوب لم يتبدل عما كان عليه في زماني الماضي .

وقد كنتُ اعتقد أنني لن اكون ابداً في حالة استعيد معها ذكرياتي البعيدة جداً عني ، والغريبة جداً عن عمري . ومع ذلك فقد عكفت عليها منذ أمس ، وذلك رغبة مني في أن اجد فيها شيئاً يمكن ان يكون مفيداً لك.

ولكنني ماذا أستطيع ان افعل سوى ان اعجب بك أو أرثي لك ؟ إنني اثني على القرار الحكيم الذي اتخذته ، ولكنه يخيفني ، لأنني استنتج انك رأيته ضرورياً . وحين تكون المرأة في مثل هذا الموقف ، فمن الصعب جداً ان تبقى دائماً بعيدة عمن يقرّبه قلبها اليه باستمرار .

وعلى كل حال فلا تفقدي الشجاعة . ولا شيء يجب ان يكون مستحيلاً على روحك الجميلة .ولكن اذا ما حدث يوماً ان اضطررتِ الى الوقوع (لا سمح الله) صدقيني يا سيدتي الجميلة ، بأن عليك ان تحتفظي على الأقل بالعزاء الوحيد انك كافحت بكل قواك . ثم ان ما لا يقدر عليه التعقل الانساني ، يقوم الغفران الالهي به حين يشاء . ولعلك الآن عشية الاستغاثة به ، وربما ستخرج فضيلتك المعذبة من هذه المعارك القاسية ، اكثر نقاوة ولمعاناً . وان القوة التي لا تملكينها اليوم ، لربما تتلقينها غداً ، ولا تفكري بأن تعتمدي عليها ، بل لكي تتشجعي في استخدام كل قواك .

إنني – بتركي للعناية الالهية مهمة مساعدتك في مواجهة خطر لا أستطيع ان افعل شيئاً ضده – احتفظ لنفسي بمساعدتك وتعزيتك على قدر استطاعتي . انني قد لا اخفف آلامك ، ولكنني أشاطرك إياها . وانني بهذه الصفة اتقبل بطيبة خاطر كل ما تودين ان تسرّي به اليّ . وأشعر بأن قلبك بحاجة الى التنفيس عن كربه،ولذلك افتح لك قلبي، وان تقدم العمر بي لم يبرّد هذا القلب الى درجة تجعله غير متأثر بالصداقة . وستجدينه دوماً مستعداً لأن يستقبلك . تعالي بثقة لترتاحي اليه من اضطراباتك الفظيعة . وسيكون في ذلك عزاء ضئيل لآلامك . وعلى الأقل سوف لا تبكين وحدك . وحين تصبح سيطرة هذا الحب التعيس قوية عليك ، ستحملك على الافضاء بشجونك ، فمن الأفضل أن يكون ذلك معي بدلاً من ان يكون «معه» . هاانذا اتحدث الآن مثلك . اعتقد اننا نحن لن نتوصل الى تسميته وبالاختصار فان احدانا تفهم الأخرى .

لا ادري ان كنت أحسن صنعاً اذا قلت لك أنه بدا لي متأثراً جداً بسفرك.

twitter @baghdad_library

وسيكون ربما اكثر حكمة اذا لم يحدثك بذلك . ولكنني لا احب هـذه الحكمة التي تحزن اصدقاءه . وانا مع ذلك مضطرة الا اتحدث عن ذلك اكثر مما تحدثت . لأن نظري الضعيف ويدي المهتزة لا تسمحان لي بكتابة الرسائل الطويلة حين يجب ان اكتبها بنفسي .

الوداع يا حسنائي العزيزة ، الوداع يا ابنتي اللطيفة ، اجل انني اتبناك عـن طيبة خاطر كأبنتي ، ولديك كل ما يجب ليكون لك فخر أم وسرورها .

١٠٤

من المركيزة دي ميرتاي الى السيدة دي فولانج

باريس في ٤ تشرين الأول ؟؟ ١٧

في الحقيقة يا صديقتي العزيزة الطيبة ، وجدت صعوبة في منع نفسي من الشعور بالفخر وأنا اقرأ رسالتك . ماذا ! أنت تشرفيني بثقتك التامة ! لا بل وتطلبين مني حق النصائح ! آه ... كم انا سعيدة جداً ، اذا كنت استحق هذا الرأي المشجع من جانبك ، حتى ولو لم اكن مدينة به الى الميل الشخصي للصداقة . الخلاصة مهما يكن السبب ، فانه لا يقل معزة على قلبي . وان كوني حصلت عليـــه يجعلني اسعى لان اكون جديرة به . أودُّ اذن (دون الادعاء باعطائك رأياً ما) ان اطلعك بحرية على طريقة تفكيري . وانا أحترس منها ، لانها تختلف عن طريقة تفكيرك . ولكن حين سأعرض عليك حججي ستحكمين عليها ، واذا مـا استنكرتها فانني اثق بحكمك سلفاً . وستكون عندي حكمة عدم الاعتقاد بأنني اكثر تعقلاً منك .

أما اذا كان رأيي مع ذلك مفضلاً ، فيجب ان تبحثي عن السبب في اوهام الحب الامومي . لأن هذا الشعور جدير بالثناء ، ولا بدَّ ان يكون موجوداً في قلبك . وهو الذي املى عليك بالفعل القرار الذي تحاولين إتخاذه ! كما انه اذا حدث ان اخطأتِ مرة ، فليس ذلك إلا في اختيار الفضائل .

إن الاحتراس هو كما يبدو لي ، ما ينبغي تفضيله حين نملك تقرير مصير الآخرين ، لا سيما حين يكون علينا ان نحدد مصيرهم برباط مقدس غير ممكن الحل كقضية الزواج ، وعندئذ يجب على ام حكيمة وحنونة كما تقولين « ان تساعد ابنتها بخبرتها » . ولكنني اسألك ماذا عليها ان تفعل للوصول إلى ذلك اللهم سوى التمييز بالنسبة لها بين من يُعجب ومن يُلائم .

ثم الا يعتبر انتقاصاً من سلطة الامومة ، لا بل وخرقاً لها ، مراعاة ميل نزق — وليد نزوة طائشة ، وجنون عابر — لا يشعر بقوته الوهمية الا اولئك الذين يخشونه ، وما يلبث ان يزول على الاثر حين يُحتقر ؟ في ما يتعلق بي ، أعترف بأنني لم أؤمن أبداً بهذه الأهواء الجذابة التي لا تقاوم والتي اتفق الجميع على ان يجعلوا منها أعذاراً عامة لانحرافاتنا . كما انني لا ادرك ابداً كيف ان ميلاً خاصاً — يولد في لحظة من اللحظات ليحل محل ميل آخر يزول — يستطيع ان تكون له سلطة أقوى من مبادىء العفة والشرف والتواضع التي لا تتزعزع.

وانا لا افهم كيف تبرر امرأة تخون هذه المبادىء ، بحجة هواها المزعوم ونزوتها الطارئة ، كما يبرر السارق نفسه بحجة ميله للمال ، او القاتل بحجة الانتقام.

ثم من يستطيع ان يقول انه لم يقدر على مكافحة الاهواء والنزوات التي مرت في حياته ؟ بيد اني حاولت دوماً ان أقنع نفسي انه حسبنا لكي نقاوم ان نرغب في ذلك . وحتى الآن على الأقل برهنت لي خبرتي على صواب هذا الرأي . وما قيمة الفضيلة اذن لولا الواجبات التي تفرضها ؟ وان التمسك بها هو في التضحيات التي نبذلها ، ومكافأتها هي في قلوبنا. ان هذه الحقائق لا يمكن ان تُنكر الا من قبل اولئك الذين لهم مصلحة في تجاهلها ، والذين بعد ان حرموا منها يأملون ان يعيشوا في الاوهام محاولين تبرير مسلكهم السيىء بمبررات سيئة.

ولكن هل يمكن ان نخشى ذلك من طفلة بسيطة وخجولة ، من طفلة ولدت منك ، ولم تستطع تربيتها المتواضعة الطاهرة إلا ان تقوّي روح الفضائل السعيدة الطبيعية فيها ؟ ومع ذلك اجرؤ على القول انك في سبيل هذا الخوف المهين ، على ابنتك ، تريدين ان تضحي بالزواج المفضل الذي شاءت عنايتك ان تدبريه

twitter @baghdad_library

لها ! أنا احب كثيراً دانسني منذ وقت طويل كما تعلمين ، ولا أرى السيد دي جيركور إلا قليلاً ، ولكن صداقتي لهذا ولا مبالاتي تجاه الآخر ، لا يمنعاني ابداً من رؤية الفرق الهائل بين هذين الفريقين .

ان عائلتيهما متساويتين ، وانا اتفق معك في ذلك ، ولكن احدهما بدون ثروة ، بينما ثروة الآخر — حتى ولو كان بدون عائلة — تستطيع ان توفر له كل شيء . أعترف بأن المال لا يخلق السعادة ، ولكن يجب الاعتراف ايضاً بأنه يسهلها كثيراً ، ان الآنسة دي فولانج هي موسرة جداً كما تقولين بحيث تكفي عن اثنين . ولكن ستين الف ليرة من الدخل التي ستتمتع بها ليست كثيرة حين تحمل إسم دانسني ، وحين يجب ان تؤسس بيتاً وترعاه بشكل محترم . اننا لم نعد كما كنا في زمان مدام دي سيفينييه * . ذلك ان الكماليات أصبحت الآن تستهلك كل شيء . اننا نستنكرها ولكننا نقلدها .

أما من حيث المزايا الشخصية التي لها بنظرك اهمية كبرى فان السيد دي جيركور ليس عليه اي مأخذ من هذه الناحية ، وقد أثبت ذلك ، اما السيد دانسني فأودُّ الاعتقاد انه لايقل عنه مزايا ولكن هل نحن متأكدون من ذلك؟ صحيح انه بدا حتى الآن خالياً من مساوىء ابناء جيله ، وانه رغم لهجة اليوم يدلل على ميله نحو المعاشرات الفاضلة التي تزيد من قيمته ، ولكن من يعلم إذا كان مديناً في هذا التعقل الظاهر إلى ضآلة ثروته فقط ؟ وانه متى صار يملك ثروة لن ينطلق مع شهواته ونزواته ؟ لان من يريد ان يكون مقامراً او اباحياً يجب ان يملك المال الكافي لذلك ، وانه اذا كان يميل إلى حسن المعشر فذلك لأنه لا يستطيع ان يفعل أفضل منه .

لستُ اقول (لا سمح الله) أنني اعتقد كل ذلك فيه ؛ ولكن قد تكون في اختياره مجازفة غير محمودة العواقب ، وعندئذ اي لوم لا يقع عليك ، حين لا يكون هذا الحدث سعيداً ؟وماذا ستجيبين ابنتك حين ستقول لك : « لقد كنت يا أمي صغيرة السن دون خبرة ، لا بل كنت منساقة وراء غلطة غير مستغربة

* كاتبة فرنسية شهيرة .

على من كان في مثل جيلي ، ولكن السماء التي عرفت ضعفي زودتني بأم عاقلة لكي تنير سبيلي وتكفل لي هنائي. ولماذا إذن تناسيت احتراسك ، فوافقت على تعاستي ؟ فهل كان من حقي ان اختار زوجاً دون ان اعرف شيئاً عن الزواج؟ وحين أردت ذلك، ألم يكن عليك ان تمنعيني؟ ولكن لم تكن عندي ابداً هذه الإرادة المجنونة ، لأنني قررت ان اطيعك فرضيت باختيارك باستسلام محترم . وانني لم استنكف ابداً عن الخضوع الذي يتوجب علي نحو اوامرك وآرائك. ومع ذلك أتحمل اليوم الشقاء الذي ليس جديراً إلا بالابناء العصاة . آه إن ضعفك أضاعني » . ولربما خنق احترامها لك هذه الشكاوى ، ولكن الحب الاموي سيكتشفها . ان دموع ابنتك مهما اخفتها ستسيل مدراراً على على قلبك . اين ستكون عندئذ مؤاساتك ؟ هل ستجدينها في هذا الحب الارعن الذي كان يجب ان تتسلحي ضده ، بينما تركت نفسك على العكس تنساق في مجراه .

أنني أجهل يا صديقتي الطيبة اذا كانت توجد عندي ضد هذا الميل مناعة قوية ، ولكنني اجده مخيفاً حتى في الزواج . وليس معنى ذلك انني لا اقرُّ نشوء عاطفة شريفة تزيّن العلاقة الزوجية وتخفف نوعاً ما الواجبات التي تفرضها . ولكن هذه العاطفة وحدها لا تكفي لقيام تلك العلاقة . ولا يعود امر تقرير أختيار رفيق الحياة بطولها الى اوهام لحظة عابرة . وبالفعل فلا بد من المقارنة عند الاختيار ، وحين نفعل ذلك في الوقت الذي تكون هناك فكرة واحدة مستولية على اذهاننا ، إنما نكون لا نعلم شيئاً عن صاحب هذه الفكرة ، وقد غرقنا فيها حتى النشوة والتعامي .

لقد رأيتُ — كما تعتقدين — كثيرات من النساء المصابات بهذا الشقاء الخطير، وحصلتُ على اعترافات بعضهن . وحين تسمعينهن تجدين أن العاشق لم يكن كائناً مثالياً . بل إن هذه الاوهام لم تكن قائمة إلا في خيالهن . ولم يكن عقلهن المتحمس يحلم إلا بالسعادة والهناء . واذا بهن يضفين على من يحببنه من الميزات ما لم تكن موجودة فيه .

twitter @baghdad_library

إما ان ابنتك لا تحب دانسني ، وإما انها تعاني هذا الوهم نفسه . وهو وهم مشترك بين الاثنين اذا كان حبهما متبادلاً . وهكذا فان منطقك بتوحيدهما الى الابد ينحصر بأنهما يعرفان ويستطيعان ان يعرفا بعضهما البعض . ولكنك ستقولين لي : هل ان السيد جيركور وابنتي يعرفان بعضهما البعض اكثر ؟ كلا بدون شك ولكنهما على الاقل لايستغلان ذلك بل هما يجهلان بعضهما البعض فقط ، وماذا يحدث في هـذه الحالة بين زوجين أفترضُ أنهما شريفان ؟ ان كلاً منهما سيدرس الآخر ، ويراقب نفسه تجاه الآخر. ثم يسعى ويبحث عما يجب ان يتخلى عنه من ميوله وارادته في سبيل الهناء المشترك . ان هذه التضحيات الضئيلة تتم عادة دون عناء ، لانهـا متبادلة ، ولأنها متوقعة ، وما يلبثان بعد فترة وجيزة حتى يولّدان احتراماً متبادلاً . ثم ان العادة تقوي كل الميول ، وتؤدي شيئاً فشيئاً الى هذه الصداقة العذبة المضافة الى الاحترام حيث تشكلان معـاً ، كما يبدو لي ، السعادة الحقيقية الراسخة .

ان اوهام الحب قد تكون اكثر عذوبة . ولكن من يدري ايضاً انها ليست اقل ثباتاً ؟ واية اخطار لا تنجم عنها حين يأتي وقت تتحطم فيه هذه الأوهام ؟ وعندئذ تبدو اقل الهفوات مقيدة ومعدمة بالنظر للفرق الكبير بين فكرة الكمال التي سيطرت اثناء الحب وبين الواقع . وسيعتقد كل من الزوجين ان الآخـر وحده قد تبدل وتغير بعد الزواج ، وانه كان افضل دائماً حين جعلته لحظة خطأ ما تقدره وتجده مثالياً . ان الفتنة التي لم يعد يشعر بها تجعله يندهش من انـه لم يعد يولّدها. فيحسُّ انه مهان لذلك : لأن الكبرياء المجروحة تعكر صفو الاذهان وتزيد من الاخطار ، وتثير الاستياء ، وتولد الكراهية ، وإن المتع النزقـة لا تؤدي إلا الى تعاسات طويلة .

هذه هي يا صديقتي طريقة تفكيري بصدد الموضوع الذي يشغـل اهتمامنا . ولستُ ادافع عنها ، بل أعرضها فقط . وعليك وحدك ان تقرري ، ولكن إذا تمسكتِ برأيك ، ارجوك ان تطلعيني على الاسباب التي هزمت اسبـابي . وسأكون سعيدة لان استنير برأيك ، لا سيما ، ان اطمـئن على مصير ابنتك

اللطيفة التي أتمنى لها السعادة من كل قلبي بسبب صداقتي لها والصداقة التي تربطني بك طول الحياة .

١٠٥

من المركيزة دي ميرتاي إلى سيسيل دي فولانج

باريس في ٤ تشرين الاول ؟؟ ١٧

إذن ! ها أنت يا صغيرتي حانقة وخجلى ! وان هذا السيد دي فالمون هو رجل رديء ، أليس كذلك ؟ كيف ؟ انه يجرؤ على معاملتك كأحسن أمرأة يحبها ! انه يعلمك ما تتحرقين شوقاً لمعرفته ! ان هذه الطرق في الحقيقة لا يمكن التسامح بها . وأنتِ من جانبك ، تريدين ان تحتفظي بتعقلك لعشيقك (الذي لا يستغله) ولا تستمرئين من الحب إلا لواعجه لا لذائذه ! ليس هناك أفضل من ذلك لكي تكوني بطلة روائية : تعلق ، وتعاسة ، وفضيلة فوق كل شيء ، وليس هناك سوى اشياء حسنة ! ووسط هذا الموكب الباهر يتضجر المرء في الحقيقة .

ها هي الفتاة المسكينة كم تستحق الرثاء ! لقد كانت عيناها ذابلتين في اليوم التالي ! ماذا ستقولين لو كانتا عيني عشيقك ؟ هيا يا ملاكي الجميل ، لن تكون عيناك دائماً على هذه الصورة . ان جميع الرجال ليسوا السيد دي فالمون . ثم انت لا تتجرأين بعد ذلك على رفع هاتين العينين ؟ آه ، مثلاً ، أنتِ على حق ، جميع الناس كانوا عرفوا مغامرتك . صدقيني مع ذلك ، لو كان الامر كذلك لكانت نظرات سيداتنا وحتى اوانسنا اكثر تواضعاً !

على الرغم من المدائح التي اجد نفسي مضطرة الى ازجائها اليك ، يجب الاعتراف انك كنت ستضيعين احسن عمل في حياتك ، اذ كان يجب ان تطلعي والدتك على كل شيء . لقد بدأتِ جيداً ، ثم ارتميت بين ذراعيها فاجهشتِ بالبكاء ، ثم بكت هي أيضاً !

twitter @baghdad_library

ياله من منظر مؤثر ! وكم هو مؤسف انك لم تكملي ! اذ لكانت والدتك قد أُفعمت حبوراً ، ولكي تساعد على حفظ فضيلتك كانت قد سجنتك طول حياتك، وهنالك سيكون بأمكانك أن تحبي دانسني بقدر ما تودين دون مزاحمين، ولا أثم ، وستكونين حزينة على هواك ، ولن يأتي فالمون اكيداً فيفسد عذابك بملذات معاكسة .

لنتكلم بجد، هل يمكن لفتاة تجاوزت الخامسة عشرة ان تكون أكثر طفولة مما أنتِ عليه الآن؟ أنت على حق حين تقولين انك لا تستحقين عاطفتي . أريد أن أكون مع ذلك صديقتك ، لأنكِ بحاجة حتماً إلى مثل هـــذه الصديقة ازاء الأم التي لك ، والزوج الذي تريـد أن تمنحك اياه ! ولكن اذا لم تكوّني نفسك كما يجب ، ماذا تريدين أن يفعلوا بك ؟ وماذا يمكن أن يأملوا منك إذا كان ما يشحذ ذكاء الفتيات ، يبدو أنه ينزعه منك ؟

آه ، لو تتمكني من أن تعودي إلى نفسك قليـلاً وتمعنين التفكير لحظة ما ، فستجدين سريعاً انك يجب ان تهنئي نفسك بدلاً من أن ترثي لحالك . ولكنك خجلى ، وهـذا ما يضايقك ! حسناً ، إطمئني ، فالخجل الذي يسببه الحب هو كعذابه ، لا نشعر به إلا مرة واحدة ، ومن الممكن أن نظهره في ما بعـــد ، ولكننا لا نشعر به ابداً . وفي الأثناء تبقى لنا المتعة ، وهذا ما له قيمته .أعتقد أنني فهمت من خلال ثرثرتك الصغيرة انك تقدرين جداً هذه المتعة . هيا ، قليلاً من النية الحسنة ، هل أن مصدر هذا « الاضطراب » الذي منعك من « ان تفعلي كما قلت » ، وجعلك تجـــدين « من الصعب ان تدافعي عن نفسك » ، وحملك ايضاً على ان « تظهري كغاضبة حين انصرف فالمون » ، هو « الخجل » أم اللذة ؟ ثم « أساليبه في الكلام » التي لا تعرفين « كيف تجيبين عليهـا » ألم تتأتّ من أساليبه في العمـل ؟ آه ... ايتهـا الفتاة الصغيرة ، انك تكذبين ، وتكذبين حتى على صديقتك ! وهذا ليس حسناً ، ولكن لننسَ ذلك .

ان ما يعتبر بنظر الجميع لذة ، ولا يمكن ان يكوف خلاف ذلـك يصبح في حالتك سعادة حقيقية .

وبالفعل فمن كانت مثلك موضوعة بين أمٍّ يهمك ان تكوني حائزة على حبها ، وبين عاشق ترغبين في حبه دائماً، كيف لا ترين ان الطريقة الوحيدة لكي تحوزي على هذه النجاحات المتعارضة هي في ان تشغلي نفسك بشخص ثالث ؟ اذ هكذا تستطيعين ان تتسلي بهذه المغامرة الجديدة، بينما تظهرين تجاه امك انك تضحين بميل لا يعجبها بخضوعك لها ، وتحصلين امام عاشقك على شرف دفاع جميل . وانك بتأكيدك حبك له باستمرار ، لا تمنحيه الدلائل الاخيرة .

إن هذا الرفض من جانبك الذي سيكون قاسياً جداً في حالتك ، ستجعلينه يعزوه الى فضيلتك . ربما سيشكو من ذلك ، ولكنه سيزداد حباً لك . ولكي تحصلي على الميزة المضاعفة بنظر احدهما في تضحيتك حبك ، وبنظر الآخر في مقاومتك له . . فلن تخسري شيئاً اذا تذوقت في اثناء ذلك لذائذ الحب . آه ! كم من النساء اضعن سمعتهن ، وكان بامكانهن ان يحتفظن بها بعناية ، لو استطعن ان يحافظن عليها بمثل هذه الوسائل !

ألا يبدو لك هذا الرأي الذي اقترحه عليك اكثر تعقلاً ، وعذوبة ؟ هل تعلمين ماذا ربحت من جراء ما نلته ؟ لقد عَزَتْ والدتك مضاعفة كآبتك الى مضاعفة حبك بحيث اصبحت ثائرة ، وهي لا تنتظر سوى ان تكون متأكدة لكي تعاقبك . وقد كتبت اليَّ بذلك، انها ستحاول لكي تحصل على هذا الاعتراف من فمك بأن تقترح عليك ، كما قالت لي ، الزواج من دانسني . وذلك لكي تحملك على الكلام . واذا خدعتك بهذه الفكرة الزائفة، وأجبتِ حسب ما يمليه عليكِ قلبك ، فانها ستسجنك مدة طويلة ، ربما إلى الأبد ، وستبكين هناك على غباوتك العمياء حسب مشيئتك .

إن هذه الحيلة التي تريد استخدامها ، يجب ان تكافحيها بأخرى . إبدأي اذن بإن تظهري امامها وأنت اقل كآبة ، واجعليها تعتقد انك لا تفكرين كثيراً بدانسني . وستقتنع بذلك بسهولة .

ان هذا هو الوضع العادي للبعاد . وستكون مسرورة جداً منك بحيث تجد متسعاً من الوقت لكي تهنىء نفسها على احتراسها الذي جعلها تنتهج هذه

twitter @baghdad_library

الطريقة. ولكن اذا ظلت تحتفظ ببعض الشك، واستمرت مع ذلك في امتحانك، وحضرت لتحدثك عن الزواج ، فامتثلي تماماً لارادتها كأبنة مهذبة مطيعة . وفي الواقع ماذا ستخسرين ؟ ان ما نفعله بالزوج يجعل من هذا يساوي الآخر ، وان اكثرهم عدم ملائمة يظل اقل مضايقة من الأم .

ومتى أصبحت والدتك أشد جذلاً منك ، فستزوجك أخـــيراً . وعندئذ تصبحين اكثر حرية في تصرفاتك ، اذ تستطيعين حسب مشيئتك ان تتركي فالمون لتسيري مع دانسني ، أو تحتفظي بالاثنين معاً . لانه يجب ان تعلمي أن دانسني هو لطيف جداً ، ولكنه من هؤلاء الرجال الذين نملكهم حين نريد وبقدر مـا نشاء . وبالامكان اذن ان نكون مرتاحات اليه . ولكن الامر ليس كذلك مع فالمون : اذ من الصعب الاحتفاظ به ، كما ان من الخطر تركه ، ولا بدَّ معه من البراعة والحذق حين لا تكون هناك طواعية كثيرة . ولكن اذا توصلت الى جعله يتعلق بك كصديق ، ستحوزين عندئذ على السعادة القصوى ! اذ سيضعك حالاً في المرتبة الأولى من نسائنا البارزات. وبهذه الطريقة تحصلين على مركز في المجتمع، وليس على التورُّد خجلاً والبكاء كما لو أن معلماتك يجعلنك تتناولين عشاءك ركوعاً .

ستحاولين أذن ، اذا كنتِ عاقلة ، ان تتصالحي مع فالمون الذي لا بد أن يكون ناقماً جداً عليك ، وبما انك يجب ان تتعلمي تدارك حماقاتك ، فلا تخشي من أن تتقدمي إليه ببعض العروض .

وهكذا ستعلمين قريباً انه اذا كان الرجال هم الذين يتقدمون الينا بالعروض الأولى فنحن دائماً مضطرات تقريباً الى التقدم اليهم بالعروض الثانية . ولديـك حجة على ذلك ، اذ يجب الا تحتفظي بهذه الرسالة ، ولذا اطلب اليك ، لا بل اطالبك بأن تعيديها اليه بعد ان تكوني قد فرغت من قراءتها . ولا تنسي مـع ذلك ان تعيدي لصقها كالسابق. أولاً لكي أترك لكِ ميزة المسعى الذي ستقومين به تجاهه بحيث لا يبدو كما لو انك قد نُصحتِ به . ثم ليس هناك احد غيرك في العالم أرتبطُ معه بالصداقة القوية وأحدِثُهُ كما افعل الآن .

الوداع ايها الملاك الجميـل ، إتّبعي نصائحي ، وستخبرينني اذا كنت سوف تجدين نفسك في حالة حسنة .

بالمناسبة نسيت ... كلمة واحدة ايضاً . حاولي إذن ان تحسني اسلوبك ، اذ ما زلت تكتبين كطفلة ، وأرى ان السبب في ذلك ، يعود إلى انك تقولين كل ما تفكرين به وليس ما لا تفكرين بـه . وهذا قد لا يضيرك إذا كان الامر بيني وبينك . اذ لا شيء يجب ان يخفى بيننا . ولكن ليس مـع الجميع ، وبصورة خاصة مع عشيقك . اذ انك تبدين دوماً كحمقاء صغيرة . فكري انـك حين تكتبين الى احدهم فذلك من اجله لا من اجلك . اذن يجب الا تحاولي ان تقولي له كل ما تفكرين به بل كل ما يعجبه .

الوداع يا قلبي ، انني اقبلك بدلاً من ان اؤنبك ، على أمـــل ان تصبحي اكثر تعقلاً .

١٠٦

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون

باريس في ٤ تشرين الأول ؟؟ ١٧

هنيئاً لك ايها الفيكونت ! أحبك حتى الجنون ! لقد كنت في الواقع انتظر رسالتك الثانية بعد رسالتك الاولى ، ولذلك فانها لم تدهشني مطلقاً . وفيما كنتَ فخوراً بنجاحك المقبل ، وتطلب المكافأة ، وتسألني اذا كنتُ « مستعـدة » . كنتُ أرى انه يجب الا اكون متعجلة . اجل ، فعند قراءتي وصفك الجميل لذلك المشهد العاطفي الذي « أثار انفعالك بعنف » ، ورأيتُ تحفظك الجدير بأجمل عهود فروسيتنا ، قلت عشرين مرة : « هذه قضية خاسرة ! » .

ولكن ذلك لا يمكن ان يكون خلاف ما حصل . ماذا تريد أن تفعل امرأة مسكينة تستسلم ولكن لا تؤخـــذ ؟ ففي مثل هذه الحالة ينبغي على الأقل ان تنقذ الشرف . وهـــذا ما فعلته رئيستك . انا اعلم فيما لو كان

twitter @baghdad_library

الامر يتعلق بي ، وقد شعرت بأن المسعى الذي قمت به لم يكن له حقيقة أي تأثير ، فانني اقرر استغلاله لحسابي في اول فرصة مهما كانت خطيرة . ولكنني أعد بأنه إذا كان ذلك الذي أتكلف من اجله كل هذه المشاق ، لا يغتنم الفرصة أحسن منك ، فإنه يستطيع أن يقلع عني إلى الابد .

هـا أنت ذا اصبحت الآن خالي الوفاض ، بين امرأتين ، احداهما عشية المغامرة ، والأخرى لا تتمنى سوى ذلك . حسناً . ستعتقد انني اتباهى بنفسي ، وتقول ان من السهل التنبؤ بعد الحادث . ولكنني أستطيع ان اقسم لك انني كنت اتوقع ذلك. لانك لا تملك عبقرية ظروفك ، ولا تعرف إلا كل ما تعلمته ، ولا تخترع شيئاً جديداً . وهكذا ما ان تعاكس الظروف مبادئك المألوفة ، وتجد ان عليك الخروج عن جادتك العادية ، حتى تقف عاجزاً قصير اليد كتلميذ مدرسة . واخيراً هناك رعونة من ناحية ، ورجوع الى الفضيلة من ناحية ثانية لم تألفها كل يوم . واذا بهما كافيين لايقاعك في بلبلة وحيرة ، لا تعرف ان تتخلص منها ولا كيف تعالجها . آه ايها الفيكونت.. انت تعلمني كيلا أحكم على الرجال عن طريق نجاحاتهم فقط ، وقريباً سيقال عنك : « لقد كان شهماً ذات يوم » . ولكن عندما ترتكب حماقة فوق حماقة ، اراك تلجأ إليَّ .

ومهما يكن من شأن هاتين المغامرتين ، فان احداهما قد جرت دون موافقتي ، ولذلك لن أضع فيها يدي مطلقاً . والأخرى اتبناها نظراً لانك بذلت بعض الجهد من أجلي . والرسالة المرفقة طيه التي تستطيع ان تقرأها أولاً ثم تسلمها الى الصغيرة فولانج هي اكثر من كافية لاعادتها اليك . ولكنني ارجوك أن تبذل اهتمامك بهذه الطفلة ، ولنجعل منها معاً موضع يأس أمها وجيركور . كما انه لا بأس اذا اثقلت العيار ، إذ أرى بوضوح أن الصغيرة لن تكون وجلة. واننا متى حققنا غايتنا منها ، تستطيع أن تصبح هي ما تريد .

إنني انفض يدي تماماً من كل ما يتعلق بها ، وقد كان بودي ان أجعل منها مكايدة ثانوية او ادعها تقوم بالادوار الاحتياطية عني ، ولكنني لا اجدها كفؤة لذلك. لأنها ذات تفكير احمق ، لم تستطع أن تفهم الطرق التي استخدمتها انت لايقاعها ،

وهذا بنظري أخطر مرض يمكن ان تصاب به امرأة ، فهي تتصف بضعف بارز في الشخصية لا يمكن الشفاء منه مما يتعارض مع كل شيء ، بحيث اننا بينما نهتم بتدوير عقل هذه الفتاة لجعلها امرأة مكايدة ، اذا بنا لا نجعل منها سوى امرأة سهلة . بينما لا اجد احط من هذه السهولة الناتجة عن الغباوة . وان تلك التي تستسلم لأنها لا تعرف كيف ، ولا لماذا ، بل فقط لأنها تُهاجم ، فلا تعرف ان تقاوم. ان هذه الطبقة من النساء ليست سوى آلات للمتعة فقط .

ستقول لي انه ليس علينا إلا ان نجعلها كذلك، وهذا كاف لمشاريعنا فليكن! ولكن يجب الا ننسى أن الجميع يتوصلون بسرعة الى معرفة رفاصات ومحركات هذه الآلات. وهكذا لابدّ — لكي نستخدم هذه الآلات دون خطر —من العمل بسرعة ، والتوقف في وقت مبكر ،ثم تحطيمها على الأثر ،ولن تعوزنا في الحقيقة الوسائل . وسيعمل جيركور على سجنها حين نريد . وفي الواقع عندما لا يشك بسوء مسلكها ، وحين تصبح عامة ومشهورة بذلك ، فماذا يهمنا اذا انتقم ، شرط الا يتعزى أبداً . إن ما اقوله بصدد الزوج، لا شك بانك تفكر به بصدد الأم . وهذا ما ينبغي عليك ان تفعله .

لقد حملني هذا القرار الذي أعتقد انه أفضل من غيره، والذي اتوقف عنده، على ان أوجه الصغيرة بصورة سريعة كما سترى في رسالتي . ومن المهم جداً الا تدع شيئاً بين يديها مما قد يورطني . وأرجوك ان تهتم بذلك . وانه متى تم هذا الاحتراس سأتكفل بالمعنويات ، اما الباقي فعليك . واذا رأينا مع ذلك أن غباوتها قد اصطلحت على الاثر ، فسنكون مستعدين دوماً لتبديل المشروع ، ومهما يكن فان جهودنا لن تضيع سدى .

هل تعلم ان جهودي اوشكت ان تضيع ، وان حظ جيركور كاد يفوز على احتراسي ؟ ذلك ان السيدة فولانج شعرت في لحظة ما بنوع من التخاذل الامومي ، وفكرت بأن تزوج ابنتها من دانسني . وقد حملها ذلك على اظهار عناية رقيقة نحو ابنتها ، وهو ما لاحظته انت في« اليوم التالي » .قد كنت انت السبب في هذا « العمل العظيم » . لحسن الحظ كتبت الأم الحنون إلي تسألني

twitter @baghdad_library

رأيي ، وآمل انيثبط جوابي عزيمتها من هذه الناحية. إذ تحدثت فيه كثيراً عن الفضيلة ، بحيث يجب ان تجد اني على صواب .

انني حانقة لكوني لم أنقل نسخة عن رسالتي هـــذه لكي ابعث بها اليك ، وأطلعك على صرامة اخلاقي. وستجد كم احتقر النساء اللواتي يستسلمن لعاشق ! من المناسب جداً ان اكون متزمتة في مثل هـــذه الاحوال ! وهذا لا يؤذي سوى الآخرين ، ولا يضايقنا مطلقاً . ثم أنني لا أجهل أنه كانت للسيدة الطيبة بعض الميول الصغيرة كأية امرأة اخرى في صباها ، ولذلك لم آسف مطلقـاً على اهانتها على الأقل في ضميرها . لأن ذلك يعزيني عن المدائح التي كنت اقدمها لها ضد ضميري . ذلك أنني في الرسالة نفسها جعلتني فكرة ايذاء جيركور أتحدث عنه بالثناء والاطراء .

الوداع ايها الفيكونت ، اوافقك على قرارك بالبقاء بعض الوقت حيث أنت الآن . وليست عندي وسائـل للتعجيل بمسعاك ولكنني ادعوك الى التخلص من سأمك عن طريق الصغيرة فولانج . أما في ما يتعلق بي ، فعلى الرغم من رأيك المهذب ، سترى مثلي انه لا بـدّ من الانتظـار . وأنت تعترف بدون شك ان الذنب ليس ذنبي .

١٠٧

من ازولان الى الفيكونت دي فالمون

باريس في ٥ تشرين الأول ؟؟ ١٧ الساعة الحادية عشرة مساء .

حسب اوامرك ، يا سيدي ، قصدت فور استلامي رسالتك السيد بيرتران فسلمني الخمس والعشرين ليرة ذهبية كما اوصيته . وقد طلبت منـــه زيادة عن ذلك ليرتين من اجل فيليب الذي أمرته بان يذهب في الحال كما اعلمني سيدي ، ولكنه لم يكن يحمل مالاً . بيد أن وكيلك التجاري يا سيدي لم يشأ أن يعطيني بارة واحدة زيادة ، قائلاً انه لم يتلقّ أمراً بذلك منك . وهكذا اضطررت الى

منحه المبلغ مني ، وسيحاسبني سيدي به اذا تكرم .

لقد سافر فيليب امس مساء . وأوصيته بألا يفارق الحانة مطلقاً ، لكي نكون متأكدين من العثور عليه اذا كنا بحاجة إليه .

ثم توجهت حالاً الى منزل السيدة الرئيسة لكي اقابل الآنسة جولي ، ولكنها كانت قد خرجت ، ولم أتحدث إلا مع لافلير فلم اعرف منه شيئاً ، لأنه منذ وصوله لم يكن في الخدمة الا اثناء ساعات الطعام . ولكن زميله الثاني هو الذي تولى خدمتها ، وسيدي يعلم انني لا أعرف هذا الرجل بعد ، ولكنني بدأتُ اليوم بالتعرف إليه .

ثم عدت هذا الصباح لأرى الآنسة جولي ، وقد بدت مسرورة لرؤيتي ، فسألتها عن سبب عودة سيدتها ، فأجابتني انها لا تعلم شيئاً . واعتقد انها قالت الحقيقة . وقد عنفتها لأنها لم تنذرني بسفرها ، فأكدتْ لي انها لم تعلم بموعده الا في المساء نفسه حين ذهبت لتساعد سيدتها على النوم . وقد بقيت المسكينة طول الليل توضّب الامتعة ، بحيث انها لم تنم ساعتين . ولم تخرج ذلك المساء من غرفة سيدتها إلا بعد ان تجاوزت الساعة الواحدة ، وقد تركتها سيدتها فقط لكي تكتب رسالة ما .

وفي الصباح سَلَّمتْ السيدة دي تورفيل الرسالة وهي مسافرة الى بواب القصر ، ولا تعلم الآنسة جولي لمن كانت موجهة : وهي تقول أنها قد تكون موجهة اليك يا سيدي ، ولكنك لا تحدثني عنها بشيء .

وكانت السيدة اثناء الرحلة كلها تغطي رأسها ووجهها بلفة واسعة بحيث لا يمكن رؤيتها . ولكن الآنسة جولي تعتقد انها بكت غالباً ، ولم تنبس ببنت شفة خلال الطريق. ولم تشأ ان تتوقف في بلدة « .... » * كما فعلت عند مجيئها ، مما لم يسر جولي كثيراً إذ لم تكن قد أفطرت .

وفور وصول السيدة الى باريس نامت ، ولكنها لم تبق في سريرها سوى ساعتين . وحين نهضت استدعت بوابها وأمرته بألا يدع احداً يدخل عليها .

---

* البلدة نفسها الواقعة في منتصف الطريق بين القصر وباريس .

twitter @baghdad_library

ولم تتزين مطلقاً . ثم جلست إلى مائدة الطعام وقت الغداء ، ولكنها لم تتناول سوى الحساء ،وخرجت على الأثر فتناولت قهوتها في غرفتها الخاصة . ودخلت الآنسة جولي في الوقت نفسه ، فوجدت سيدتها تقوم بتوضيب الاوراق في خزانتها الخاصة . ورأت بين هذه الاوراق عدة رسائل ، واراهن على انها كانت رسائل سيدي . ومن بين الرسائل الثلاث التي وصلتها بعد الظهر ، توجد رسالة واحدة احتفظت بها بين يديها في المساء ، واعتقد انها رسالة أخرى من سيدي . ولكنها لماذا سافرت على هذه الصورة ؟ هذا ما يدهشني انا ، ومهما يكن فان سيدي لا بد انه يعرف الآن السبب وهذا ليس من شأني .

وقد قصدت السيدة الرئيسة بعد الظهر المكتبة حيث تناولت كتابين حملتهما معها الى غرفة جلوسها ؛ ولكن الآنسة جولي تؤكد انها لم تقرأ فيهما اكثر من ربع ساعة طول النهار ، وانها لم تكن تفعل سوى تلاوة تلك الرسالة ، ثم تحلم ، وتستند على يدها ، وبما انني تصورت ان سيدي سيكون سعيداً لو عرف ما هما هذان الكتابان ، وان الآنسة جولي لا تعرفهما ، فقد قصدت المكتبة بحجة التفرج عليها ولم اجد فيها ناقصاً سوى كتابين احدهما الجزء الثاني من كتاب « أفكار دينية » والآخر الجزء الاول من كتاب اسمه « كلاريس » ولعل سيدي يعرف شيئاً عن ذلك .

ولم تتناول السيدة مساء أمس عشاءها ، بل شربت قليلاً من الشاي .

وهذا الصباح نهضت باكراً ، وطلبت خيولها حالاً ، ثم قصدت في الساعة التاسعة الى الكنيسة ، ثم عادت على الاثر فتغدت ، وجلست تكتب عدة رسائل حتى ساعة متأخرة ، وقد انتهزت الفرصة لافعل ما طلبه مني سيدي ؛ فحملت بنفسي الرسائل الى البريد ، ولم يكن بينها رسالة إلى السيدة دي فولانج ، ولكنني أرسل اليه واحدة موجهة الى السيد الرئيس . وقد بدا لي انها اكثر اهمية ، وكانت هناك رسالة الى السيدة دي روزموند ، ولكنني اعتقد ان سيدي يستطيع ان يطلع عليها دائماً حين يريد ، وقد تركتها تذهب بالبريد ، الخلاصة ان سيدي سيعلم كل شيء لان السيدة الرئيسة كتبت اليه ايضاً ، وسأحصل في ما بعد على

الرسائل التي أريدها ، لأن الآنسة جولي هي التي تعطيها دائماً للخدم كي يبعثوا بها في البريد ، وقد اكدت لي أنها ستفعل كل ما اريد عن طيبة خاطر ، اكراماً لصداقتها نحو سيدي . كما رفضت المال الذي عرضته عليها ، ولكنني اعتقد ان سيدي يُحسن صنعاً لو قدم لها هدية ما . واذا شاءت رغبته ان يكلفني بذلك فسأعرف جيداً اية هدية تسرها .

آمل ألا يجد سيدي انني اهملت خدمته ، وبودي لو ابرر نفسي من الملامات التي وجهها الي . واذا كنت لم اعلم بسفر السيدة الرئيسة فذلك بسبب نشاطي في خدمة سيدي ، لانه هو الذي أمرني بأن اسافر في الساعة الثالثة صباحاً ، مما جعلني لا ارى الآنسة جولي عشية سفري كالعادة .

أما ما يأخذه علي سيدي بأنني دوماً خالي الوفاض فذلك لأنني أحب ان اكون مرتدياً احسن الملابس كما يلاحظ سيدي ، لأكون لائقاً به ، وانه لا بد من الظهور بمظهر يتفق وشرف هذه الملابس ، واعلم انه يجب ان اقتصد بعض المال ، ولكنني اعتمد دائماً على سخاء سيدي الكريم .

أما في ما يتعلق بالدخول في خدمة السيدة دي تورفيل فاعتقد ان سيدي لن يصر على ذلك ، لان الامر هنا يختلف عن ما حدث مع الدوقة . ويستطيع سيدي ان يعتمد علي في كل ما تبقى وسأظل خادمه الامين .

روكس ازولان

١٠٨

من الرئيسة تورفيل الى السيدة دي روزموند

باريس في ٥ تشرين الأول ؟؟ ١٧

كم أنا مدينة اليك يا والدتي المتسامحة الواسعة الصدر بشيء كثير من الفضل ، وقد كنت بحاجة اليه في رسالتك الاخيرة التي تلوتها وأعدت تلاوتها باستمرار ، ولم اكن استطيع الافتراق عنها . انني مدينة لها باللحظات الأقل تعاسة التي

twitter @baghdad_library

امضيتها غالباً منذ سفري . كم انت طيبة ! إن الحكمة والفضيلة تعرفان جيداًأن ترأفا بالوهن والتخاذل ، انك تشفقين على آلامي ! آه ، لو كنت تعرفين هـذه الآلام ! . . أنها رهيبة . وكنت اظن انني اعاني عذاب الحب ، ومـــع الأسف فانني لا اعرفه تقريباً الا عن طريقها . ولكن القلق الذي لا يمكن التعبير عنه ، ذلك الذي يجب ان يشعر به المرء لكي يكوّن فكرة عنه،هو البعاد عمن يحب . . البعاد الى الأبد ! . . اجل ان العذاب الذي يرهقني اليوم سيعاودني غداً ، وبعد غد ، طول حياتي ! يا الهي كم انا ما زلت صغيرة السن ايضاً ، وكم ما زال امامي من الوقت لكي اتعذب !

ان كون الانسان صانع شقائه بنفسه ، يمزق قلبه بيديه ، وبينما يعـاني هذه الآلام التي لا تحتمل ، يشعر انه يستطيع ان يوقفها بكلمة واحدة ، وان هـذه الكلمة تعتبر جريمة ! آه يا صديقتي . . هذا فظيـع . .

حين اتخذت هذا القرار المؤلم بالابتعاد عنه ، كنت آمل أن يزيـــد البعاد شجاعتي وقواي : ولكن كم كنت مخدوعة ! إذ يبدو لي على العكس ان هـذا البعاد قد اكمل تحطيمها ، إذ كان عندي قوى اكثر على الكفاح ، هذا صحيح، ولكنني حتى حين كنت اقاوم ، لم أكن اشعر بحرمان . على الأقـل كنت أراه في بعض الاحيان ، لا بل غالباً ، دون أن اجرؤ على رفع ابصاري نحوه . بينما كنت اشعر بأنظاره تحطُّ عليَّ . اجل يا صديقتي ، كنت اشعر بهـــا . وكانت تبدو لي كأنهـا تدفىء روحي ، وتصل الى شغاف قلبي مباشرة دون أن تمر بأبصاري. أما الآن ، وانا في وحدتي القاسية، معزولة عن كل ما هو عزيز عليَّ، وجهاً لوجه امام حظي المنكود ، فان جميع لحظات وجودي مغسَّلة بدموعي . ولا شيء يخفف من مرارتهـا ، وليست هناك اية تعزية تشترك في تضحياتي . إن ما بذلته منها حتى الآن لم تؤدِ إلا إلى جعل التضحيات التي بقي عليّ أن ابذلهـا اكثر تعاسة وعذاباً .

بالامس ايضاً شعرت بـــه بكل حيوية . إذ كانت هناك رسالة منه بين الرسائل التي تسلمتها. وكانت الرسائل على بعد خطوتين مني حين عرفت رسالته

بين الأخريات ، فنهضت رغماً عني وكنت ارتجف ، ولم استطع ان اخفي انفعالي إلا بعناء . ولكن هذه الحالة لم تخلُ من المتعة . وبقيت وحدي في الفترة التالية فإذا بهذه العذوبة الخادعة تنهار ، ولا تترك لي إلا مرارة تضحية اخرى، وبالفعل هل افتح هذه الرسالة التي كنت اتحرّق شوقاً لقراءتها ؟ ولكن هـــذه العوارض السيئة التي تلاحقني ولا مهرب منها، والمؤاساة نفسها التي تبدو معروضة عليّ، ولا تعمل على العكس إلا على فرض حرمان جديد عليّ. وهذا الحرمان الذي أصبح أشد قساوة أيضاً من جراء فكرة جعل السيد دي فالمون يشاطرني اياه.

اليك به أخيراً الإسم الذي يشغلني دون هوادة . وقد شعرت بكثـير من العناء في كتابته . لأن النوع من اللوم الذي قد توجهينه اليّ قد ارعبني حقيقة . والحّ عليك ان تعتقدي أن أي خجل زائف لن يؤثر مطلقـاً على ثقتي بك . ثم لماذا اخاف من ذكر إسمه ؟ انني اخجل من عواطفي، وليس من الشخص الذي يسببها . آه أي أنسان غيره اكثر جـــدارة منه بأن يوحيها !وفي الاثناء لست أدري لماذا لا يتمثل هذا الإسم بصورة طبيعية تحت قلمي . وهـــذه المرة ايضاً كنت بحاجة الى التفكير لكي أضعه ، فأعود اليه .

لقد اخبرتني أنه بدا لك متأثراً جداً بسفري . فماذا فعل اذن ؟ ماذا قال ؟ هل تحدث عن عودته الى باريس ؟ ارجوك ان تحوليه عن هذه الفكرة بقدر ما تستطيعين ! واذا كان قد حكم على موقفي حكماً حسناً ، فعليه الا يحقد عليّ لهذا السبب ، ولكن يجب ان يشعر ان قراري هذا قد اتخذته دون تراجع . وان همي الوحيد الآن هو ألا اعرف ماذا يفكر . ان رسالته ما زالت امامي ... ولكنك اكيداً من رأيي ، ينبغي الا افتحها .

انني استطيع بواسطتك ، يا سيدتي المتسامحة ، الا اكون بعيدة عنه تمامـاً . ولا اريد أن استغل لطفك ، إذ أشعر ان رسائلـك لا يمكن ان تكون طويلة : ولكنك لن ترفضي كتابة كلمتين الى ابنتك ، كلمة تدعمي بها شجاعتها ، واخرى لمؤاساتها . الوداع يا صديقتي المحترمة .

twitter @baghdad_library

١٠٩

من سيسيل فولانج الى المركيزة دي ميرتاي

قصر ... في ١٠ تشرين الأول ؟؟ ١٧

لم اسلّم ، يا سيدتي ، السيد دي فالمون، إلا اليوم فقط رسالتك التي شرفتني بكتابتها إليّ . وقد احتفظت بها اربعة ايام ، رغم الفزع الذي شعرت به غالباً من ان يُعثر عليها معي . ولكنني كنت اخفيها بعناية فائقة ... وحين كان الحزن يستولي عليّ ، كنت اقفل على نفسي لأعيد قراءتها .

ارى جيداً ان ما كنت اعتقده نكبة كبرى ليس فيه تقريباً شيء من ذلك . ويجب الاعتراف انه لايخلو من لذة، بحيث أنني لم أعد أُفجع به تقريباً البتة . وليست هناك سوى فكرة دانسني التي تشغل عليّ تفكيري في بعض الاحيان . ولكن ثمة لحظات كاملة لا افكر به على الاطلاق ! كما ان السيد دي فالمون هو لطيف للغاية !

لقد تصالحت معه منذ يومين . وكان ذلك سهلاً جداً عليّ . لأنني ما ان قلت له كلمتين فقط حتى قال لي : اذا كان لديك ما تقولينه سأحضر هذا المساء إلى غرفتك . فقلت له : أنني ارغب في ذلك ، وما ان حضر حتى بدا أنه لم يكن غاضباً كما لو كنت لم افعل معه شيئاً . ولم يؤنبني الا في ما بعد ، ولكن بنعومة ظاهرة ، وبطريقة ..! كما لو كنت انت بالذات ، وهذا ما يبرهن لي على انه يكنُّ لي هو الآخر صداقة طيبة .

لا اعرف ان اخبرك كم روى لي من الملح الغريبة المضحكة التي لم اكن ابداً أتصورها ، وبصورة خاصة عن امي . وسأكون مسرورة جداً لو أخبرتني اذا كان كل ذلك صحيحاً . ولكن ما هو مؤكد انني لم استطع ان اتمالك نفسي من الضحك الى درجة انني في أحدى المرات ضحكت بقوة ، مما جعلنا نرتعب : خشية ان تكون والدتي قد سمعتنا . ولو كانت قد حضرت لترى ، ماذا كنت غدوت ؟ لعلها كانت لهذا السبب حبستني في الدير !

وبما أنه يجب الاحتراس ، وكما قال لي السيد دي فالمون أنه لا يريد مهما كلف الامر أن يضعني في مأزق ، فقد اتفقنا من الآن فصاعداً على ان يحضر فقط فيفتح الباب ، ثم نذهب الى غرفته . وليس هناك ما نخاف منه . وقد كنت عنده أمس . انني انتظر ، وانا اكتب اليك الآن ، ان يأتي . وآمل في الوقت الحاضر ، يا سيدتي ألا تؤنبيني بعد الآن .

هناك مع ذلك شيء ادهشني في رسالتك، وهو ما أخبرتني اياه بصدد دانسني والسيد دي فالمون حين سأتزوج . ولكن يبدو انك قلت لي يوماً في دار الاوبرا على العكس انني متى تزوجت لا أستطيع ان احب الا زوجي ، وانه يجب عليّ ايضاً ان أنسى دانسني . مهما يكن فقد اكون سمعت خطأ . وأنا افضل ان يكون الأمر خلاف ذلك . لأنني في الوقت الحاضر لم اعد اخشى كالسابق لحظة زواجي ، بل اتمناها كثيراً لانني سأتمتع بمزيد من الحرية . وآمل عندئذ ان اتدبر الامر بطريقةلا افكر معها إلا بدانسني إذ اشعر جيداً انني لن اكون حقيقة سعيدة إلا معه . لان فكرته في الوقت الحاضر تقلقني كثيراً . ولا اشعر بالسعادة إلا حين لا افكر به ، مما هو صعب جداً ، وما ان افكر به حتى اصبح كئيبة حالاً .

ان ما يعزيني قليلاً هو تأكيدك لي بأن دانسني سيحبني اكثر ، ولكن هل انت واثقة من ذلك ؟ آه .. اجل انك لا تريدين ان تخدعيني . انه مع ذلك مما يدعو الى البهجة ان يكون دانسني هو الذي احبه ، وان يكون دي فالمون ... ولكن كما تقولين لعل ذلك هو سعادة ، واخيراً ...سنرى .

لم افهم جيداً ما كتبته بصدد طريقتي في الكتابة . ويبدو لي ان دانسني يجد رسائلي ممتازة كما هي ، وأحسّ مع ذلك جيداً أنه يجب عليّ الا اقول له شيئاً عما يجري مع السيد دي فالمون . وهكذا لا تخشي شيئاً .

لم تحدثني والدتي حتى الآن بشيء عن زواجي ، ولكن دعيها تفعل ، وحين ستحدثني بالامر لكي توقعني ، فسأعرف كيف اكذب .

الوداع يا صديقتي الطيبة ، اشكرك جيداً . واعدك بأنني لن انسى ابداً

twitter @baghdad_library

جميع افضالك عليّ. يجب ان اختم هذه الرسالة لان الساعة الآن هي قرابة الواحدة. ولذلك فلن يتأخر السيد دي فالمون عن الحضور .

١١٠

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

قصر ... في ١١ تشرين الاول ؟؟ ١٧

« يا قوى السماء ، لقد كان عندي روح لتحمل العذاب ، فامنحيني روحاً لتحمل الغبطة ! . » * أعتقد أن القديس بريه الحنون هو الذي قال هذا التعبير . ولكنني اكثر حيرة منه ، لانني أملك في آن واحد الروحين معاً . اجل يا صديقتي ، فأنا سعيد جداً ، وتعيس جداً في الوقت نفسه . وبما انك تتمتعين بثقتي التامة ، سأروي لك القصة المزدوجة عن آلامي ومتعي .

فاعلمي اذن أن ورعتي الجاحدة ما زالت تعاملني دائماً بصرامة . وها انا الآن عند رسالتي الرابعة المرفوضة . ولعلي على خطأ ان اقول الرابعة ، لانني بعد ان حزرت منذ الرفض الاول إنه سيتبعه عدة رفوض أخرى، ولم أشأ لذلك أن أضيع وقتي ، فقد قررت ان أكتب لواعجي بصورة عامة ، وألا أؤرخ أبداً رسائلي ، ومنذ البريد الثاني ، ما زالت الرسالة نفسها تروح وتجيء دائماً ، وستحتفظ بالرسالة ، وسيحين الوقت لكي اعلم بذلك . وهكذا تجدين انني بهذا النوع من المراسلة لا استطيع ابداً ان اكون اكثر تقدماً ، ولا اكثر اطلاعاً من اليوم الاول .

لقد اكتشفت مع ذلك ان المرأة الخفيفة قد استبدلت امينة سرها . اذ تأكد لي على الأقل منذ سفرها من القصر ، انها لم تبعث بأية رسالة الى السيدة دي فولانج ، بينما وصلت منها اثنتان الى العجوز روزموند . وبما ان هذه لم تقل لنا شيئاً عنها ولم تنبس ببنت شفة عن حسنائها العزيزة التي كانت تتحدث عنها في السابق

* من رواية « هيلويز الجديدة » لجان جاك روسو .

باستمرار ، فقد استنتجتُ انها هي التي أصبحت موضع اسرارها . وأفترض ان حاجة الرئيسة للتحدث عني من جهة ، والحياء من ان تتراجع تجاه السيدة دي فولانج عن عواطفها التي استنكرتها مدة طويلة من جهة اخرى ، قد احدثا لديها هذا الانقلاب الكبير . واخشى ان أكون قد خسرت بالمقابل ، لانه كلما تقدمت النساء في السن كلما اصبحن ليّنات متسامحات . فالاولى كانت قد قالت لها كثيراً من الاشياء السيئة عني ، بينما ستقول لها الاخرى كثيراً من الحب ،وهكذا سيكون لدى الورعة الحساسة الخوف من العاطفة اكثر من الشخص .

والطريقة الوحيدة لكي انتقل الى حيز العمل هي كما ترين ان اقطع الطريق على هذه التجارة السرية . وقد سبق ان بعثت بأوامر جديدة الى خادمي ، وما زلت انتظر التنفيذ من يوم الى آخر . وحتى الآن لا استطيع ان افعل سوى ما تمليه المصادفة . وهكذا مضت عليّ ثمانية ايام وانا اراجع عبثاً الوسائل المعروفة ، جميع وسائل الروايات وذكرياتي السرية ، ولا اجد بينها واحدة تتفق مع ظروف هذه المغامرة ، ولا مع طباع هذه البطلة . والصعب في الامر ليس ان ادخل عليها، حتى في الليل، او ان اعمل على تنويمها، واجعل منها « كالاريسا» جديدة : ولكنني بعد مضي شهرين من الجهود والاتعاب أجد انه من غير اللائق ان الجأ الى هذه الوسائل الغريبة عليّ ! وان احذو بدناءة وتذلل حذو الآخرين وانتصر دون مجد ! كلا لن تحصل على « متع الرذيلة وعلى شرف الفضيلة » * . اذ ليس كافياً ان امتلكها ، بل اريدها ان تستسلم. بينما ينبغي من اجل ذلك – ليس الدخول الى بيتها – بل التوصل إلى هذه الغاية بموافقتها .

وان اجدها وحيدة وفي نيتها ان تصغي إليّ . وبصورة خاصة أن اغمض عينيها عن الخطر ، لانها اذا رأته ، فستعرف كيف تتغلب عليه أو تموت . ولكنني كلما عرفت ماذا يجب ان أعمل كلما شعرت بالصعوبة ، ولا بد انك ستسخرين مني ايضاً ، ولكنني اعترف لك ان حيرتي تتضاعف كلما زدتُ اهتماماً بالأمر .

---

* – « هيلويز الجديدة »

twitter @baghdad_library

اعتقد ان رأسي كان سيدور لولا هذه التسليات الممتعـــة التي تتيحها لي «حضينتنا المشتركة» وانا مدين اليها لكوني افعل شيئاً غير الحسرات .

هل تصدقين ان هذه الفتاة الصغـيرة كانت نافرة مرتعبة جداً الى درجة انها ظلت تفكر ثلاثة ايام قبل ان تحدث رسالتك كل تأثيرها ؟

واخيراً لم تأتِ إليَّ إلا نهار السبت لتحوم حولي ، ثم غمغمت امامي ببضع كلمات ، لفظتها بصوت منخفض اخمدها الحياء ، وكان من المستحيل عليّ ان أسمعها، ولكن التوّرد الذي اعتراها بسبب هـذه الكلمات جعلني أفهم قصدها حالا . وقد كنت حتى الآن ما زلت احتفظ بمظهر العجرفة. ولكنني ارتخيت ازاء فكرة الندم ، فوعدتها بأن اذهب في المساء لرؤية المذنبة الحسناء ، وقـــد قوبل هذا العفو من جانبي ، بكثير من الامتنان من جانبها . وهـذا عائد الى احسانها الكبير .

وبما انني لا افقد ابداً بُعد النظر بصدد مشاريعك ومشاريعي، فقد نويت ان انتهز الفرصة لكي أعرف تماماً قيمة هذه الطفلة واسرع في تربيتها. وكنت بحاجة الى استبدال مكان لقائنا لكي اتابع هذا العمل بحرية اكثر. ذلك ان قرب غرفة حضينتك من غرفة امها لا يمكن ان يوحي اليها بالاطمئنان الكافي لكي تنطلق على سجيتها . وكان ان صممتُ على ان اثير بصورة بريئة بعض الضجة التي يمكن ان تسبب لها كثيراً من الخوف ، لحملها على ان تتخذ في المستقبل ملجأ اكثر امانـاً ، وقد وفرت علي ايضا هـذا المجهود .

ذلك ان هذه الطفلة هي ضحوك للغـاية ، ولكي اشجع مرحهـا رأيتُ من المناسب خلال فترات استراحتنا أن أروي لهـــا جميع المغامرات الفاضحة التي مرّتْ برأسي ، ولكي أجعل لهذه المغامرات طعماً اشد مذاقـــاً ، كنت انسبها جميعها إلى والدتها التي كنتُ أتفنّنُ بالصاق جميع الرذائل بها .

ولم اكن افعل كل ذلك دون غاية. فهذه الطريقة تثير افضل من اية وسيلة أخرى شجاعة التلميذة الخجول ، وتوحي اليها في الوقت نفسه باعمق الاحتـــقار نحو أمها . وقد لاحظتُ منذ مدة طويلة انه اذا لم تكن هذه الوسيلة ضرورية لاغواء

فتاة ، فإنهالازمة لذلك ، وهي غالباً ما تكون اكثر فعالية حين يُراد إفسادها . لأنّ تلك التي لا تحترم أمها لن تحترم نفسها : وهذه حقيقة اخلاقية أعتقد انها مفيدة جداً .

وفي الاثناء كانت حضينتك التي لا تفكر بالاخلاق ، تختنق من الضحك عند كل لحظة . واخيراً انفجرت في احدى المرات ضاحكة بقوة . ولم احتج الى كبير عناء لكي أجعلها تعتقد انها قامت بضجة رهيبة . وأظهرت خوفاً كبيراً ما لبثتْ ان شاطرتني اياه بسهولة . ولكي تتذكر هذه الحادثة جيداً ، لم أسمح لها باستئناف المتعة بل تركتها ثلاث ساعات تنتظر اكثر من المعتاد . ولذلك اتفقنا قبل ان نفترق على ان تكون اجتماعاتنا ابتداء من اليوم التالي في غرفتي .

وقد استقبلتها هناك حتى الآن مرتين ، واصبحت في هذه الفترة القصيرة مدرَّبة كالمعلم . اجل لقد علمتها كل شيء في الحقيقة حتى فن الملاطفات ، ولم استثن سوى الاحتياطات ..

وهكذا لا أستطيع ، بسبب انشغالي طوال الليل ، ان استعيد نشاطي إلا في النوم مدة طويلة من النهار . وبما ان المجتمع الحالي للقصر ليس فيه ما يجذبني ، فإنني لا أكاد أظهر سوى ساعة واحدة في الصالون خلال النهار . لا بل قررت هذا النهار أن آكل في غرفتي ، ولا أنوي مغادرتها إلا لنزهات قصيرة . وجميع هذه المغامرات الغريبة تجري على حساب صحتي ، ولذلك أعلنتْ أنني اشعر برشح قوي وحرارة خفيفة . ولن يكلفني اذا تكلمت بصوت بطيء منطفىء اي مجهود . أما في ما يتعلق بتبديل سحنتي ، فبإمكانك ان تثقي بحضينتك لأن ليالي الحب العامرة تضني .

أما اوقات فراغي فأشغلها وانا احلم بالوسائل التي استطيع بواسطتها ان اسجلّ على جاحدتي التقدم الذي فقدتْه ، وعلى تأليف نوع من مجموعة المبادىء عن الفجور مخصصة لتلميذتي ، كما أتسلى بتسمية الأشياء أمامها بأسمائها الفنية . أنني اضحك سلفاً من الحديث الممتع الذي سيدور بينها وبين جيركور في الليلة الأولى من زواجهما . وليس هناك تسلية امتع من الطريقة التي تستخدم بها القليل

twitter @baghdad_library

الذي تعرفه من هذه اللغـــة ! وهي لا تتصور ان من الممكن التحدث خلاف ذلك ! أن هذه الطفلة هي حقيقة جذابة . وان هـــذا التناقض بين سذاجتها البريئة وبين اللغة الجريئة التي بدأت تستخدمها لا يخلو من أثر ظاهر ، ولست أدري لماذا تظل الاشياء الغريبة هي وحدها التي تبهجني .

لعلي اعكف اكثر من اللازم على تدريب هـذه الفتاة ، لأنني أورط بذلك صحتي ووقتي ؛ ولكنني آمل ان يكون مرضي الزائف ذا فائـــدة تجاه الورعة المتزمتة ، التي تتحالف فضيلتها المستمرة مع حساسيتها الرقيقة ، فضلاً عن انها تنقذني من تحمل ضجر الصالون ! ولا اشك بأنها قـد تبلغت حتى الآن شيئاً عن هذا الحدث الكبير ، وكم انا بشوق لأعرف ماذا تفكر به ؛ وكذلك أراهن بأن ذلك يفعمها شوقـاً وغبطة . وهكذا سأكيّف حالتي الصحية بعد الآن حسب الانطباع الذي ستأخذه عني .

هـا أنت يا صديقتي الحسناء مطّلعة على شؤوني مثلي . وأوّد لو تكون عندي اخبار اكثر امتاعاً لاطلاعك عليها. وأرجوك ان تصدقي، انني – للحصول على المتعة التي اعد نفسي بها – اعتمد كثيراً على المكافأة التي انتظرها منك .

١١١

من الكونت دي جيركور إلى السيدة دي فولانج

باستيا (*) في ١٠ تشرين الأول ؟؟ ١٧

كل شيء هنـــا يا سيدتي ، يبعث على الاطمئنان كما يبدو ، ونحن ننتظر من يوم الى آخر ان نحصل على اذن بالعودة الى فرنسا ، وآمـــل ألا يتبادر اليك شك في أنني ما زلت على العهد والتعجيل في أن اعود ، لكي اوثق الروابط التي يجب ان توحدني بك وبالآنسة دي فولانج، وفي الاثناء فإن ابن عمي الدوق دي... الذي تعرفين كم انا مدين اليه بالاحترام ، قد استدعاني لزيارته في

* عاصمة جزيرة كورسيكا .

نابولي ، وهو يعلمني انه ينوي ان يمر بروما ، ويشاهد في طريقه الجزء الذي لا يعرفه بعد من ايطاليا . وهو يدعوني لمرافقته في هذه الرحلة التي ستستغرق حوالي ستة اسابيع او شهرين . ولا اخفي عليك أنه لما يسرني جداً ان انتهز هذه الفرصة ، لعلمي انني متى تزوجت لا أستطيع أن ابتعد اكثر مما تقضيه وظيفتي إلا بصعوبة . ولعله ايضاً سيكون من الأنسب ان ننتظر الشتاء للاحتفال بهذا الزواج . لأن اقربائي لا يستطيعون ان يكونوا جميعاً في باريس الا في هذه الفترة ، وبصورة خاصة المركيز دي .. الذي آمل ان اعرفك عليه . وبالرغم من هذه الاعتبارات القوية ، فان مشاريعي من هذه الناحية تتوقف على مشاريعك . ومتى وضعت ترتيباتك فإنني مستعد للتخلي عن مشاريعي ، ارجوك فقط ان تطلعيني في اقرب فرصة ممكنة على نواياك بهذا الصدد . وسأنتظر جوابك هنا ، وعليه فقط يتوقف مسلكي .

انني ، يا سيدتي ، مع الاحترام ، ومع العواطف التي تليق بك اتقدم اليك الخ... الخ...

الكونت دي جيركور

١١٢

رسالة مملاة

من السيدة دي روزموند الى الرئيسة تورفيل

قصر... في ١٤ تشرين الأول

لم اتلق الا الآن فقط ، يا عزيزتي الحسناء ، رسالتك المؤرخة في ١١ * وما تضمنته من معاتبات رقيقة . وافقي اذن على انه كان بودك ان تقدمي المزيد منها . وانك لو لم تتذكري انك «ابنتي» لكنت حقيقة أنّبتني . ومع ذلك ستكونين

* لم يعثر على هذه الرسالة .

twitter @baghdad_library

ظالمة ! إن ما جعلني اؤجل الكتابة اليك من يوم الى آخر هو رغبتي واملي في ان اتمكن من الاجابة عليك بنفسي . وترين انني حتى اليوم مضطرة الى الإستعانة بيد خادمتي . ذلك ان داء المفاصل اللعين قد عاودني ، وانحصر هذه المرة في ذراعي الايمن ، وانا الآن مشلولة اليد تقريباً . هذه هي نتيجة اتخاذك صديقة عجوزاً انت الصبية النشيطة المنتعشة ! إذ أنك تتألمين بسبب عوارضها الصحية .

اعدك حالما تتخلى عني آلامي بأن اكتب اليك مطولاً . وبالانتظار ، اعلمي جيداً انني تلقيت رسالتيك اللتين ضاعفتا من صداقتي المخلصة نحوك . ولن اكف عن الاهتمام بحيوية بكل ما يهمك .

ان ابن اخي هو ايضاً متوعك الصحة ، ولكن دون أي خطر ودون ان يبعث مرضه على القلق . بل هو عارض خفيف ربما نتج عما حدث من تأثير في مزاجه لا في صحته . ونحن لا نراه تقريباً ابداً .

إن رحيلك واعتكافه قد أزالا جو المرح الذي كان مسيطراً على اجتماعاتنا . والصغيرة فولانج بصورة خاصة تشتاق اليك ، وهي لا تكف عن التثاؤب طول النهار حتى لتكاد تبلع قبضتها ، ثم انها تشرفنا بالنوم بعد الظهر كل يوم .

الوداع يا حسناتي العزيزة ، انني دوماً صديقتك المخلصة وامك وشقيقتك ، اذا سمح لي عمري الكبير بهذه الصفة ، واخيراً سأظل متعلقة بك بأرق المشاعر .

التوقيع : ادلايد عن السيدة دي روزموند

١١٣

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون

باريس في ١٥ تشرين الأول ؟؟ ١٧

اعتقد ان من الواجب ان انذرك ، ايها الفيكونت بأن الناس بدأوا يهتمون بك في باريس ، وانهم اخذوا يلاحظون غيابك ، ويحزرون السبب . وقد كنت امس مدعوة الى عشاء حضره عدد كبير من المدعوين ، وقد قيل خلاله بصورة

ايجابية انك احتُجزت في القرية بسبب حب عاطفي عـــاثر الحظ : وقد ظهر الابتهاج على الأثر على وجوه جميع الذين يحسدون نجاحاتك ، وجميـــع النساء النساء اللواتي أهملتهن . واذا صدقتني لما تركت هذه الاشاعات الخطيرة تتجسم، وحضرت حالاً لكي تحطمها بحضورك .

فكّر بأنك لو تركت الناس يفقدون فكرة انه لا احد يستطيع ان يقاومك، فستشعر قريبـــاً ان الكثيرات سيقاومنك فعلاً بكل سهولة ، وان خصومك سيفقدون احترامهم لك، ويجرأون على محاربتك : لان أي واحد منهم لا يعتقد انه أقوى من الفضيلة ؟ فكّر بصورة خاصـة انه من بين جميـع النساء اللواتي اعلنت انتصارك عليهن ، ستحاول أولئك اللواتي لم تمتلكهن أن يخدعن الرأي العام بصددك ، بينما ستحاول الأخريات أن يستغللنه . واخيراً يجب ان تنتظر ان يقدرك الناس ربما أقل من قيمتك ، بدلا مما كنت اكثر حتى الان .

عد اذن ايها الفيكونت، ولا تضحي بسمعتك في سبيل نزق عارض لا يهدف إلى شيء . فلقد فعلت كل ما نريده من الصغيرة فولانج ، وبالنسبة لرئيستك، فلن تستطيع ظاهراً ، ببقائك بعيداً عنها عشرة فراسخ ، ان تجعلها تقلع عن نزوتها. هل تظن انها ستذهب فتبحث عنك هناك؟ لعلهـا لا تفكر ابداً بك ، أو انها لا تفكر بك إلا لكي تهنىء نفسها على إذلالها لـك . على الاقل ستستطيع هنا ان تجد بعض المناسبة لكي تظهر امام الناس بضجة ، واعتقد انك بحاجة الى ذلك . اما اذا كنت تتمسك بمغامرتك السخيفة فانني لا أرى في عودتـك ما يمكن ان يضرّ بها ، بل على العكس .

واذا كانت رئيستك « تعبدك » بالفعـــل كما اكدته لي مراراً، ولم تشعر به الا قليلاً ، فان تعزيتها وسرورها الوحيـدين ، هما التحدث إليهـــا ، وان تعـــلم ماذا تفعل ، ومـــاذا تقول ، وماذا تفكر ، وحتى اقل الاشياء التي تهمك . ان هذه المبائس الصغيرة ذات قيمة كبرى ، بالنظر للحرمان الذي تشعر به . إنها فتات الخبز الذي يسقط من مائدة الغني . فهذا يهمله ، ولكن الفقـــير يجمعه بعناية ويتغذى به . ولكن رئيستك الفقيرة تتلقى الآن هذا الفتات ، وكلما

twitter @baghdad_library

زاد لديها كلما قـل تعجلها للاستسلام الى شهية الباقي .

وفضلاً عن ذلك بما انك تعرف موضع اسرارها ، افلا تشك بـأن كل رسالة من عمتك تتضمن على الأقل عظة صغيرة ،وكل ما هو ضروري لدعم تعقلها وتعزيز فضيلتها ؟ فلماذا أذن تدع مصادر لتلك بأن تدافع عن نفسها ،ولهذه بأن تؤذيك؟

ذلك ان النساء متى ما تقدمن كثـــيراً في السن يختلفن عن اولئك اللواتي ما زلن يتأرجحن بين الفتوة والكهولة . وقد عرفت دوماً ان اختار صديقاتي بين العجوزات بـــدلاً من الكهلات لأن هؤلاء يستطعن ان يقدّرن مصاعب الصبيات اكثر مـــن سواهن ، كما ان لشهادتهن قيمة في تكوين السمعة العطرة لكل امرأة تحرص على ذلك ؛ ولأعد الآن الى الصغيرة .

اذ على الرغم من الجذل الزائد الذي تبدو انك تشعر به نحو التلميذة الصغيرة ، لا استطيع ان اصدق انها يمكن ان تدخل ضمن مشاريعك . لقد وجدتهـا تحت يدك فتناولتها : فليكن ! ولكنها لا يمكن ان تشكل بالنسبة اليك ميلاً خاصاً . كما انها في الحقيقة ليست متعة كاملة : لانك لا تملك ابداً سوى جسدهـــا ! ولا اريد ان اتحدث عن قلبها الذي لا اشك بأنك لم تهتم به ابداً : ولكنك ايضاً لا تشغل تفكيرها وعقلها . ولا ادري اذا كنت قد لاحظت ذلك . ولكنني وقعت على الدليل في رسالتها الأخيرة التي كتبتها إليّ * وها أنا أعيدها اليك لكي تحكم بنفسك . لا حظ إذن انها حين تتحدث فيها عنك تقول السيد دي فالمون ، بينما تذهب جميع افكارها – حتى التي تولدهـا انت في نفسها – الى دانسني الذي لا تدعوه السيد ، بل يرد اسمه دائماً دانسني فقط ، ومن هذه الناحية فإنها تميزه عن جميع الآخرين ، وحتى باستسلامها اليك فانها لا ترفع الكلفة الا معـــه . واذا بدت لك مثل هذه الغزوة جذابة ، وجعلتك المتع التي تمنحك اياها تتعلق بها ، فإنك حقيقة متواضع جداً ولست صعباً ! اما ان تحتفظ بها فانا موافقة ، وهذا يدخل ضمن خططي ، ولكن يبدو لي ان ذلك لا يستحق ان يستغرق من وقتك ربع ساعة ، وانه يجب ان تفرض سلطانك عليها ،ولا تسمح لها مثلاً بان تقترب

* راجع الرسالة رقم ١٠٩

من دانسني الا بعد أن تجعلها تنساه قليلاً .

وقبل ان اتوقف عن الاهتمام بك ، لكي اتحدث عن نفسي ، أودُّ ان اقول ان حجة المرض التي اعلنت عنها ليست جديدة ، بل هي معروفة جيداً ، وقد استعملها الكثيرون قبلك . في الحقيقة يا فيكونت لم تخترع شيئاً جديداً ! اما انا فانني اكرر نفسي في بعض الاحيان ، كما سترى ولكنني أحاول انقاذ نفسي بالتفاصيل ، لا سيما ان النجاح يبررني . وهكذا سأحاول القيام ايضاً بنجاح آخر ، وأجازف بمغامرة جديدة وأعترف انها لن تتميز بالصعوبة ، بل على الأقل ستكون تسلية جديـــدة لي ، لانني اتضجر حتى الهلاك .

لست ادري لماذا أصبح بيلروش منذ مغامرة بريفان لا يطاق . فلقد ضاعف اهتمامه وحنانـه وتقديره نحوي الى درجة لم أعد احتملها . وقد بدا لي غضبه في البداية ممتعاً ، ومع ذلك كان لا بد من تهدئته والا كان قد ورطني لو تركته يفعل . ولم يكن هناك من سبيل لإفهامـــه بالحسنى . فقررت إذن ان أُظهر له المزيد من الحب ، لكي أصـــل إلى الهدف بسهولة . ولكنه أخذ الأمر بصورة جدية ، ومنذ ذلك الحـين ما فتىء يرهقني بجذله المفرط الدائم . وانني ألاحظ بصورة خاصة الثقة المهينة التي يأخذها عني ، والاطمئنان الذي ينظر به إليَّ كما لو كنت ملكه الى الأبد . وانا في الحقيقة مذلولة ، ولا اشعر نحوه باستلطـاف قوي اذا كان يعتقد انه يستطيع أن يجعلني اثبت على حبه ! الم اقل لك اخيراً انني لن احب احداً مثله ؟ آه . من اجل ذلك ، كنت بحاجـــة الى كل حيطتي لكي لا اخدعه على الفور ، بقولي له ماذا يساوي . انه اكيداً رجل ممتع لكي يكون له حق امتياز خاص ! واعترف أنه حسن التكوين وذو وجـه جميل : ولكن اذا حكمتُ عليه كلياً ، فهو ليس سوى مناورة حب . واخيراً لقد حان الوقت لكي نفترق .

وهكذا بدأتُ أحاول ذلك منـذ خمسة عشر يوماً ، وقد استخدمتُ على التوالي : البرودة ، والنزق ، والغضب ، والمشاجرات ، ولكن حضرة الرجل العنيد لا يريد ان ينفك عن استلطافي . لا بد إذن من اتخاذ قرار أشد عنفـاً .

twitter @baghdad_library

وبالنتيجة سأصطحبه معي الى ريفي الجميل. وسنذهب بعد غد. ولن يكون معنا سوى بضعة أشخاص غير مهمين قصيري النظر ، وستكون لدينا هناك حرية اكثر مما لو كنا وحدنا . وهناك سأشحنه بالحب والمداعبات الى درجة تنوء بها طاقته وسنعيش وحدنا من اجل ذلك ، بحيث اراهن أنه سيرغب اكثر مني في إنهاء هذه الرحلة التي يبدو الآن متحمساً لها أشد الحماس . واذا لم يعد منها أشد سأماً وضنى مني فسأعترف عندئذ انني لا اعرف اكثر منك .

ان سبب هذا النوع من الاعتكاف هو رغبتي في الاهـــتام بصورة جدية في قضيتي الكبرى المعروضة على المحاكم ، والتي سيصدر الحكم فيها في بداية هذا الشتاء . إنني مسرورة جداً لذلك ، لأنـــه من المزعج ان تكون كل ثروتي في الهواء . وليس لانني قلقة من هذا الحدث : بل لأنني أولاً على حق ، ويؤكـد لي ذلك جميع محاميَّ . واذا لم افز بهـذه الدعوى فمعناه أنني في الحقيقة عديمة الدهاء بتاتاً. لأن خصومي ليسوا سوى اطفال قصَّر مع وصيهم العجوز ! وبما انه يجب عدم اهمال شيء في دعوى بمثل هذه الأهمية ، فسيكون معي فعلاً اثنان من محاميَّ . افلا تبدو لك هذه الرحلة مرحة ؟ وهكذا اذا جعلتني هذه الرحـلة افوز في دعواي ، وأخسر بيلروش فانني لا اكون قد اضعت وقتي سدى .

إحزر ايها الفيكونت في الوقت الحاضر من سيكون الخلف ، انني اراهن معك عليه بمئة مقابل واحد ... ولكن حسناً ، لعلمي بأنـــك لن تحزر ابداً شيئاً فاني اعلنه لك: انه دانسني! انت مندهش اليس كذلك؟ لأنني أخيراً لم اصل الى درجة تربية الاولاد ، ولكن هذا يستحق بأن يُستثنى . فهو لا يملك سوى فضائل الفتوة لا طيشها . وان تحفظه الكبير في المجتمعات يلائمني جـداً لإبعاد جميع الشبهات ، اذ يجده الجميع لطيفاً عندما ينساق في حديث خاص على انفراد مع شخص آخر. ولا يعني ذلك أنني حصلت منه على شيء ، اذ لست الآن سوى محط أسراره .

ولكن تحت ستار هذه الصداقة أعتقد انني أرى لديه ميـــلاً قوياً نحوي ، وأعتقد انني أشعر بميل كبير نحوه أيضاً . وسيكون من المؤسف جداً ان يضحي

بكل مواهبه وذكائه من اجل هذه الغبية فولانج ! وآمل ان ينخدع بأعتقاده انه يحبها. وهي أبعد ما تكون جدارة به؟ ليس لأنني غيورة منها ، بل سيكون الأمر انتحاراً ، واريد ان انقذ دانسني من ذلك . أرجوك اذن ايها الفيكونت ان تبذل جهودك اثناء رحلتي لكيلا يقترب من « سيسيلته » كما يحبُّ ان يدعوها غالباً . ذلك أن للهوى الأول دائماً سلطاناً اقوى مما يُظن ، ولن اكون واثقة الآن من شيء اذا عاد فرآها الآن ، لاسيما اثناء غيابي . وسأتولى لدى عودتي الأمر بنفسي واكون مسؤولة عن كل شيء .

وقد فكرت بأن اصطحب هذا الفتى معي : ولكنني وجدت انني سأضحي من اجله باحتراسي العادي . ثم سأخشى ان يلاحظ ايضاً وجود علاقة ما بيني وبين بيلروش . وسأكون في يأس اذا ما ساورته اقل فكرة عما يجري . وانني اود أن اقدم إليه نفسي طاهرة دون لطخة كما يتصورني في خياله . لأكون حقيقة جديرة به .

١١٤

من الرئيسة تورفيل إلى السيدة دي روزموند

باريس في ١٦ تشرين الأول ؟؟ ١٧

صديقتي العزيزة ، انني استسلم لقلقي الحاد ، دون ان اعلم اذا كنتِ في حالة تسمح لك بالرد عليّ . اذ لم اتمكن من منع نفسي من سؤالك . ذلك ان صحة السيد دي فالمون التي تقولين لي عنها انها « ليست خطيرة » لاتجعلني في اطمئنان مماثل لما تبدينه عليه ، وليس من النادر ان تكون الكآبة والقرف من الناس ، هما من العوارض المسبقة لبعض الامراض الخطيرة ، لأن آلام الجسم كآلام الروح تحمل المرء على الرغبة في العزلة ، وغالباً ما يُلام أحدهم على مزاجه بدلاً من أن يُرثى له على آلامه .

يبدو لي ان عليه ان يستشير على الأقل احد الاطباء . ثم كيف لا يوجد الى

twitter @baghdad_library

جانبك طبيب وانت نفسك مريضة ؟

ومن رأي طبيبي الذي رأيته هذا الصباح واستشرته بصورة غير مباشرة كما لا اخفي عليك ، ان هذا العارض المفاجيء بالنسبة للاشخاص الذين هم عـــادة نشيطون لا يجوز إهماله ، وكما قـــال لي ايضاً ان مثل هذه الأمراض لا تنجح فيها العلاجات، اذا لم تؤخذ في الوقت المناسب . ولماذا تجعلين شخصاً يعز عليك يترك نفسه لهذه المجازفة ؟

ان ما يضاعف قلقي هو انني منذ اربعة ايام لم اتلق منه أية اخبار. يا إلهي ! افلا تكوني قد خدعتني بصددحالته ؟ لماذا توقف عن الكتابة إلي فجأة ؟ واذا كان السبب في ذلك فقط ناتجاً عن إصراي على اعادة رسائله ،فاعتقد انه كان بامكانه أن يتخذ هذا القرار قبل هـذا الحين ، واخيراً دون ان اؤمن بالتشاؤم فانني أشعر منذ بضعة ايام بكآبة تخيفني. آه ربما اكون على عتبة أعظم مصائبي !

انك لن تستطيعي ان تتصوري – وإني لخجلى بأن اقول لك ذلك – كم انني متألمة لعدم وصول رسائله التي كنت مع ذلك ارفض قراءتها ، اذ كنت متأكدة على الاقل انه مهتم بي ! وكنت ارى شيئاً ما يأتي منه . انني لم اكن افتح هـذه الرسائل ، بل كنت ابكي وانا انظر اليها . وكانت دموعي ارق واسهل ، وهذه وحدها كانت تزيل عني العذاب الذي اعانيه منـــذ سفري . انني استحلفك يا صديقتي العزيزة بأن تكتبي الي بنفسك حالما تستطيعين . وبالانتظار تكرمي باطلاعي كل يوم على اخبارك واخباره .

ألاحظ انني لم أقل سوى كلمة واحدة لك ؛ ولكنك تعرفين عواطفي نحوك وتعلقي بك دون تحفظ ، واعترافي بجميل صداقتك الحساسة ، ولا شك بأنك تسامحينني على هذا الغم المخيف الذي جعلني اخشى على آلام لعلي انا مصدرها . يا إلهي ان هذه الفكرة اليائسة تلاحقني وتحز في قلبي ، اذ كانت هـذه المصيبة تنقصني بعد . وأشعر انني ولدت لكي اعانيها كلها .

الوداع يا صديقتي العزيزة ، أحبيني ، وارثي لي ، هل احصل على رســـالة منك اليوم ؟

١١٥

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

قصر ... في ١٩ تشرين الاول ؟؟ ١٧

حقاً ان الامر غير مفهوم ، يا صديقتي الحسناء ، وان نكون كلما طال بعادنا كلما بدا من الصعب علينا ان نتفاهم . لانني حين كنت بقربك ، لم يكن لدينا سوى شعور واحد ، وطريقة واحدة في التفكير ، ولكن ما ان مضى علي ثلاثة اشهر لم ارك فيها ، حتى اصبحت انت في واد وانا في واد آخر ، ولم نعد نتفق في الرأي على شيء . من منا اذن على خطأ ؟ انكِ لن تترددي اكيداً في الجواب ؛ ولكنني انا ، الاكثر تعقلاً ، والاكثر تهذيباً ، لن اقرّك على ذلك ، بل اريد فقط ان اجيب على رسالتك ، واتابع عرض مسلكي .

أشكرك اولاً على الرأي الذي عرضته عليَّ في ما يتعلق بالاشاعات التي تنتشر حولي ، ولكنني لا اقلق لها ، لانني اظن نفسي واثقاً من ان احصل قريباً على ما يوقف هذه الاشاعات عند حدها . كوني مطمئنة ، فلن اظهر من جديد في المجتمعات إلا وأنا اكثرة شهرة مما كنت عليه حتى الآن ودائماً اكثر جدارة بك من قبل .

ارجو ان يحسب الناس مع ذلك حساباً ضئيلاً لمغامرتي مع الصغيرة دي فولانج التي تبدين انك تقللين كثيراً من شأنها ، كما لو كانت لا شيء بنظرك . فهل يعتبر لا شيء اختطاف فتاة في ليلة واحدة من عشيقها المحبوب ، واستخدامها على الاثر كما اشاء ، وبصورة مطلقة كما لو كانت ملكي ، دون حرج ، وان احصل منها على ما لا يجرؤ احد ان يطلبه من جميع الفتيات اللواتي يقمن بهذه المهنة ، ودون ان احولها ابداً عن حبها الرقيق ، ودون ان اجعلها غير ثابتة على عهدها ، حتى ولا خائنة ، لأنني بالفعل لا اشغل قط عقلها ! بحيث انني متى اقلعت عن نزوتي هذه ، سأعيدها إلى عشيقها ، اذا صح هذا القول ، دون ان تلاحظ شيئاً . اجل هل يكون ذلك عملاً عادياً جداً ؟ ثم ، صدقيني ، متى

twitter @baghdad_library

خرجتْ من بين يديّ ، فان المبادىء التي لقنتُها اياها ستنمو لديها كثيراً ، وأتكهن بأن التلميذة الخجول ستنطلق في سبيل جدير بأن يشرّف معلمها .

اما اذا كان الناس مع ذلك يفضلون النوع البطولي من المغامرات ، فسأدلهم على الرئيسة ، هذا النموذج الذي يُستشهَدُ به على جميع الفضائل ، ويحترمها حتى أكثر شباننا اباحيةً إلى درجة انهم تخلوا حتى عن فكرة مهاجمتها ! أقول سأدلُّ عليها ، وهي متناسية واجباتها وفضيلتها ، مضحية بسمعتها وبسنتين من التعقل ، لتركض وراء سعادة ارضائي ، وتنتشي بسعادة ان تحبني ، واجدةً نفسها مُعوَّضةً عن كل تضحياتها بكلمة واحدة ونظرة واحدة مني، ولن تحصل عليهما دائماً، وسأفعل اكثر من ذلك،سأتركها ، ولن تعرف هذه المرأة ان يكون لديها خلف لي : بل ستقاوم المؤاساة عند الحاجة ، وعادة المتعة ، والرغبة في المقاومة. واخيراً فلن تعيش إلا لي ، وإن حبها – لو طال أو قصر – سأكون انا الوحيد الذي فتح بابه واقفله . وهكذا متى توصلت الى تحقيق هذا الانتصار سأقول إلى خصومي: إنظروا الى ما صنعته يديّ، وابحثوا في طول القرن وعرضه عن أمثولة ثانية !» .

ستسألينني من أين واتاني هذا الافراط في الثقة ؟ ذلك انني منذ ثمانية ايام اصبحت مطلعاً على اسرار حسنائي . وهي لم تطلعني على اسرارها بنفسها ، ولكنني فاجأتها : رسالتان منها إلى السيدة دي روزموند كانتا كافيتين لاطلاعي على كل شيء. ولم أعد أقرأ الرسائل الباقية إلا من قبيل الفضول . ولم أعد بحاجة لكي انجح الا إلى الاقتراب منها . وقد أعددت وسائلي وسأضعها قريباً موضع التنفيذ .

أعتقد أنكِ فضولية ؟ ولكن لا... سأقاصصك بحرمانك من معرفتها، على عدم الايمان باختراعاتي ، ومهما يكن فانك ستستحقين ان اسحب ثقتي منك،على الاقل في ما يتعلق بهذه المغامرة، وبالفعل لولا الثمن العذب الذي علقتِه انتِ على نجاحها ، لما كنت حدثتك عنها مطلقاً . انت ترين انني غاضب . ومع ذلك املاً في ان تتداركي موقفك فإنني اتمسك بهذه العقوبة الخفيفة،واعود إلى تسامحي،فأنسى

مشاريعي الكبرى ، لكي افكر بمشاريعك معك .

إذن هـا انتِ في الريف مُضجّرة ومتضجرة ! ثم لا تكتفين بتجريـع هذا المسكين ماء النسيان بل بمنحه فيضاً يُغرقه ويجعله في حيرة وتساؤل. كيف يجد نفسه ؟ هل يتحمل غثيان الحب ؟ كم أتمنى ان يصبح اكثر تعلقاً بك، وسأكون فضولياً لأن أعرف اي دواء فعال ستستخدمينه عندئذ للتخلص منه . في الحقيقة انني أرثي لك لاضطرارك الى اللجوء الى هذه الطريقة ، وانا في حيـاتي كلها لم امارس الحب إلا مرة واحدة بصورة قهرية . وكان لديّ سبب قوي لذلك، لأنها كانت الكونتيسة دي... وقد حاولت عشرين مرة وانا بين ذراعيها ان اقول لها « انني اتخلى يا سيدتي عن المكان الذي اطلبه ، واسمحي لي أن اغادر المكان الذي أحتله » . ولذا فإنها الوحيدة — بين جميع النساء اللواتي امتلكتهن — التي يسرني حقيقة ان أذكرها بالسوء.

اما ما لديك من سبب فإنني اجده حقيقة على شيء كثير من السخف النادر، ولديك حق بان تعتقدي انني لن احزر الخلف . ماذا ! من اجـل دانسني تبذلين كل هذا العناء ؟ آه يا صديقتي العزيزة ، دعيه يعبد سيسيلته « الفاضـلة العفيفة » ، ولا تورطي نفسك في لعبة الاطفال هذه ، دعي التلاميذ يتمرنون اولاً مع « الخادمات » أو يلعبون مع التلميذات الداخليات « اللعب الصغـيرة البريئة » . ماذا يفيدك أن تتكفلي بفتى ساذج لا يعرف كيف ينالك ولا كيف يتركك ، ولا بد لك ان تفعلي معه كل شيء ! اقول لك يجـد انني لا اقرك على هذا الاختيار ، ومهما حافظ على كتمان السر ، فانه سيذلك على الأقـل بنظري وفي ضميرك .

تقولين أنك تشعرين بميل قوي نحوه ؛ انت تخدعين نفسك اكيداً ، واعتقد انني اكتشفت سبب خطأك . فقد اعتراك هذا الاشمئزاز القوي من بيلروش في فترة ملل ، ولم تقدم لك باريس مجالاً للاختيار ، وهكذا وقعتْ افكارك الحادة دوماً على اول شخص صادفته . ولكن فكّري بأنك لدى عودتك تستطيعين أن تختاري بين ألف شاب . واذا كنتِ اخيراً تخشين البقـاء دون نشاط فيما

twitter @baghdad_library

تحاولين التأجيل ، فانني اعرض نفسي عليك لكي اسلّي اوقات فراغك .

من الآن حتى تعودين ، اكون قد تخلصت من مشاغلي بطريقة أو بأخرى ، ومـــن المؤكد عندئذ انها لا الصغيرة فولانج ، ولا الرئيسة ستشغلانني عنك ، وتحرمانني من ان اكون لك بقدر ما ترغبين . ولعلي حتى ذلك الحـين ، اكون قد سلمت الصغيرة الى عشيقها اللبق . وانني لا اتفق معك ، مهما تقولـين ، على انها ليست متعة جذابة ، ولكن بما انني نويت ان اجعلها تحتفظ عني طـوال حياتها بفكرة متفوقة على جميـع الآخرين ، فقد انسقت معهـا في نهج مرهق لا استطيـع ان استمر فيه طويلاً دون ان اؤذي صحتي. ومنذ الآن لم اعد ارتبط معها إلا بما يفرضه الاهتمام بالشؤون العائلية .

انك لا تفهمينني؟.. ذلك انني أنتظر فترة اخرى لكي اؤكد أملي، واطمأن الى انني نجحت في خططي . أجل يا صديقتي الحسناء لديّ الآن اول دليل على ان زوج تلميذتي المقبل لا يستطيـع ان يجازف بالموت في سبيل مثل هذا الازدهار. وان رئيس اسرة جيركور المقبلة لن يكون سوى رجل ثانوي بالنسبة لاسرة دي فالمون . ولكن دعيني أُختمُ حسب نزقي هـــذه المغامرة التي لم اقم بها إلا بناءً على رجائك. وفكّري بأنك اذا جعلتِ دانسني متقلباً في هواه، فانك تنزعـــين بذلك كل متعة هذه القصة . واعتبري اخيراً انني – بعرضِ نفسي لكي أمثّله عندك – اعتقد ان لي بعض الحقوق في الافضلية .

أنني اعتمد على ذلك بحيث أخشى ان أعارض آراءك. وذلك بمساهمتي بنفسي في زيادة حدة الغرام العنيف للعاشق المتيم نحو الشخص الاول الجدير باختياره . وهكذا حين وجدت حضينتك أمس منهمكة في الكتابـة اليه صرفتها اولاً عن هذا الانهماك العذب بآخر اكثر عذوبة ، ثم طلبت اليها بعد اطلعتُ على رسالتها ووجدتُها باردة ومخيفة ، ان تكتب اليه رسالة غيرها من املائي ، وقد اقنعتها بأنها يجب ألا تؤاسي عشيقها بهذه الطريقة وهكذا حاولتُ أن اقلّد على قدر الامكان اسلوبها فغذّيتُ غرام الشاب بأمل اكيد . وكانت الصغيرة جذلة جداً إلى درجة انها كما قالت لي، كانت تريد ان تقول له ذلـــك . ومن الآن فصاعداً

سأتكفل بمراسلتها . وأي شيء لم افعله في سبيل دانسني ؟ لقد كنت في آن واحد صديقه ، وموضع أسراه ، ومزاحمـــه ، وعشيقته ! وكذلك في الوقت الحاضر أخدمه بإنقاذه من علاقاتـك الخطرة . اجل الخطرة ، لان امتلاكك ثم هجرانك معناه شراء فترة من السعادة مقابل حسرات أبدية .

الوداع يا صديقتي الحسناء ، تشجعي على التخلص من بيلروش في اقرب وقت ممكن ، ودعي دانسني . واستعدي لأن نستعيد ألذّ متع علاقتنا الاولى .

اهنئك سلفاً بالحـكم المقبل على دعواك الكبرى ، وسأكون مسروراً لأن يأتي هذا الحدث السعيد على عهدي .

١١٦

من الفارس دانسني الى سيسيل فولانج

باريس في ١٧ تشرين الأول ؟؟ ١٧

لقد سافرت السيدة ديميرتاي هذا الصباح الى الريف ، وهكذا يا سيسيلتي الفاتنة اجد نفسي محروماً من المتعة الوحيـدة التي بقيت لي في غيابك ، وهي متعة التحدث عنك مع صديقتك وصديقتي في آن واحد . إذ سمحت لي منـذ وقت قليل بهذه الصفة . وقد اغتنمت الفرصة بكثير من الحماسة ، لأنه بدا لي انني استطيع بواسطتها ان ازداد اقتراباً منك . يا ألهي كم ان هذه المرأة لطيفة ! ويبدو ان هذه العاطفة العذبة تقوى وتتجمل عندها مـكان كل ما ترفضه من حب . لو تعلمين كم تحبك ، وكم تطرب لسماعي احدثها عنك !... وهذا بدون شك ما يجعلني اتعلق بها ، يا لهـــا من سعادة ان يتسنى لي العيش من اجلكما ، وان اشعر باستمرار بعذوبة الحب ، ومتع الصداقة ، وان اكرس كل حياتي في سبيل ذلك ، وان اكون نوعاً ما نقطة التقاء لتعلقكما المتبادل ، وان اشعر دائماً انني باهتمامي بسعادة احدا كما اعمل ايضاً على إسعاد الاخرى ! أحبي ، أحبي كثيراً يا صديقتي الفاتنة هذه المرأة المعبودة ، وشاطريني بكل قواك تعلقي بها .

twitter @baghdad_library

إنني ما ان تذوقت روعة الصداقة حتى تمنيت ان تشعري بها انت بدورك. إن المباهج التي لا اتمتع بها معك تبدو لي وكأني اتمتع بنصفها. اجل يا سيسيلي أود لو أُحيط قلبك بجميع المشاعر الاكثر عذوبة ، وان تجملك كل حركة من حركاتها تشعرين باحساس من الصداقة . كما اعتقد انني لا استطيع ابداً ان اطلعك الا على شطر من الغبطة التي انالها بواسطتك .

لماذا يجب الا تكون هذه المشاريع البديعة سوى وهم في خيالي ، ولا يقدم لي الواقع على العكس سوى حرمانات مؤلمة وغير محدودة ؟ أرى ان عليّ ان اقلع عن الامل الذي بعثته بنفسي في ان اقابلك في ريفك ! ولا تعزية لي سوى اقناع نفسي بأنك غير قادرة على ذلك فعلاً . ثم ها أنت تهملين ان تقوليه لي وان تشاطريني تحمل تعاستي ! وها قد مضت مرّتان وانت ترفضين الاجابة على شكاواي بهذا الصدد . آه سيسيل ! يا سيسيل ! أعتقد انك تحبينني بكل طاقاتك ، ولكن روحك ليست متحرقة كروحي ! هل ينبغي عليَّ وحدي أن أزيل العقبات ؟ ولماذا لا تكون هي مصالحي التي يجب ان أداريها بدلاً من مصالحك ؟ سأعرف قريباً كيف أثبت لك انه لا شيء مستحيل على الحب .

انك لا تخبريني ابداً متى ينبغي أن ينتهي هذا الغياب القاسي . على الاقل هنا سأراك في بعض الأحيان ، وستحيي نظراتك الفاتنة روحي الذابلة ، وسيطمئن تعبيرها المؤثر فؤادي الذي هو بحاجة إلى ذلك احياناً. عفواً يا سيسيل أن هذا الخوف ليس تشككاً . بل أؤمن بحبك وبثباتك على العهد ، آه ! سأكون تعيساً جداً لو شككت . ولكن كم هناك من العقبات ، وكم تتجدد دائماً ! آه يا صديقتي انني تعيس ؛ تعيس جداً. ويبدو أن سفر السيدة دي ميرتاي قد جدّد في نفسي الشعور بجميع أشجاني .

الوداع ، يا سيسيلتي ، الوداع يا حبيبتي ، فكدّري بأن حبيبك يتعذب . وأنت وحدك تستطيعين ان تعيدي اليه السعادة .

١١٧

من سيسيل فولانج إلى الفارس دانسني

(باملاء من فالمون)

قصر ... في ١٨ تشرين الأول ؟؟ ١٧

هل تعتقد ، يا صديقي اللطيف انني بحاجة الى التأنيب لأكون كئيبة تعيسة حين اعلم انك تتعذب ؟ وهل تشك في انني لا اعاني مثلك جميع آلامك ؟ لا بل أقاسمك تلك التي اسببها لك عمداً ، ولديّ منها ما يزيد عنك كونك لا تنصفني ، أوه ، هذا ليس حسناً من جانبك . انني أرى جيداً ما يثير استياءك . ذلك انك في المرتين الأخيرتين اللتين طلبتَ إليّ فيهما أن تحضر الى هنا ، لم أجبك . ولكن هل أن هذا الجواب هو هيّن كما تعتقد ؟ هل تظن انني لا أعلم بأن ما تريده هو إثم ؟ ومع ذلك اذا كان لديّ الكثير من العناء في أن ارفضك عن بعد ، فماذا سيكون عليه حالي لو كنتَ هنا ؟ ثم لو شئتُ أن أرضيك لحظة ما ، فسأظل مفجوعة طول حياتي .

إسمع ، ليس لديّ ما أخفيه عنك ، واليك أعذاري تستطيع ان تحكم عليها بنفسك. انني قد اكون فعلت ماتريده،لولا انني اخبرك بأن هذا السيد دي جيركور الذي يسبّب لنا كل حزننا لن يحضر قريباً . ولولا ان امي تبدي نحوي منذ مدة قصيرة كثيراً من الود والعطف ، وانا بدوري أداريها على قدر الامكان . اذ من يعلم ماذا سأناله ربما على يدها؟ واذا استطعنا ان نكون سعيدين دون ان يكون هناك ما ألوم نفسي عليه ، أفلا يكون ذلك من الأفضل لنا ؟ واذا صدّقت ما قيل لي غالباً فان الرجال انفسهم لا يحبون جداً نساءهم الا حين يكنّ قد احببنهن جداً قبل ان يكنّ لهم . هذا الخوف غالباً ما يعاودني اكثر من كل شيء . ألست واثقاً يا صديقي من فؤادي . ثم ألن يكون لدينا دائماً وقت للحب ؟

إسمع ، انني اذا لم اتمكن من تجنب مصيبة الزواج من السيد دي جيركور الذي أصبحت اكرهه جداً سلفاً قبل ان اعرفه ، فلا شيء سيمنعني من ان اكون

twitter @baghdad_library

لك بقدر ما استطيع ، لا بل وقبل كل شيء وبما انني لا اقلق من ان اكون محبوبة الا من جانبك ، وانك سترى جيداً اذا كنت ارتكب إثماً ، فلن يكون الذنب ذنبي ، والباقي لا يهمني ، شرط ان تعدني بانك ستحبني دوماً كما تفعل الآن . ولكن دعني يا صديقي أستمز في ما أفعله ، ولا تطلب مني شيئاً اكثر مما أجد ان لدي اسباباً وجيهة لكي لا افعله ، ومع ذلك يحزنني ان أرفضه لك .

انني أبغي جيداً ألا يكون السيد دي فالمون اكثر تعجلاً من اجلك ، لان ذلك سيشجيني ايضاً . آه ، ان لك هنا صديقاً طيباً ، اؤكد لك ذلك ، وهو يفعل كل شيء كما لو كنت تفعله بنفسك ! ولكن الوداع يا صديقي العزيز ، لقد بدأت الكتابة اليك في ساعة متأخرة ، وأريد الآن ان انام لأعوض الوقت المهدور . أُقبّلك ، ولكن اياك ان تؤنبني .

١١٨

من الفارس دانسني الى الموكيزة دي ميرتاي

باريس في ١٩ تشرين الأول ؟؟ ١٧

إذا صدّقت تقويمي ، فانه لم يمضِ ، يا صديقتي المعبودة ، سوى يومين فقط على غيابك ، ولكن اذا صدقت قلبي ، فقد مضى على غيابك قرنان . بينما قلت لي ان على المرء ان يصدق قلبه . اذن لقد حان الوقت لكي تعودي ، وان تكون جميع اعمالك قد انتهت . كيف تريدين ان اهتم بدعواك لدى القضاء ان خسرت أو ربحت اذا كان علي ان اكابد مشقات السأم في غيابك ؟ وسأقول كما قال ذلك «النافر من البشر» * « إخسري دعواك وكوني امينة على عهدي» .

أليست هذه خيانة حقيقية ، لا بل خيانة سوداء ، ان تتركي صديقك بعيداً عنك ، بعد ان عودته على ألا يستطيع العيش بدونك ؟ بامكانك ان تستشيري محاميَيْكِ ، فلن يجدا اي مبرر لهذا التصرف . ثم ان هؤلاء لا يحكّمون عادة

* رواية لمولير ، ولكن هذا القول منسوب لمولير ولم يرد في روايته المذكورة .

سوى العقل . والعقل وحده لا يكفي للحكم على المشاعر .

لقد قلت لي مراراً انك تقومين بهذه الرحلة بدافع العقل ، مما جعلني الان على خصومة معه ، ولا أريد ابداً أن اصغي اليه حتى ولو أمـــلى عليّ وجوب نسيانك . أن هذا التفكير هو ايضاً منطقي ، وفي الواقع لن يكون من الصعب جداً أن تستطيعي تصديقه . اذ يكفي فقط ان تجعليني اقلع عن عادة التفكير بك دائماً ؟ واؤكد لك ان لا شيء هنا سيذكّرك بي .

ان اجمل نسائنا ، اولئك اللواتي يقال عنهن انهن اشدهن لطفاً ، مـــا زلن بعيدات جداً عن مضاهاتك ، ولا يستطعن أن يعطين عنك سوى فكرة ضئيلة جداً . واعتقد ايضاً — مع النظرات المدربة — انه كلما خيل إليّ انهن يشبهنك ، كلما وجدت انهن مختلفات عنك كل الاختلاف . وبامكانهن أن يبذلن كل جهدهن ليكنّ جميلات ولكن سيعوزهن دائماً شيء ما لكي يصبحن مثلك ، وهنا تكمن الروعة . لسوء الحظ حين تكون النهارات طويلة وحين لا يكون عندي مـــا يشغلني ، فانني احلم وابني قصوراً على الرمال ، واخلق اوهامي ، وما يلبث الخيال ان يتجسم : اذ نريد ان نزّين ما صنعته ايدينا ، فنجمع كل ما يمكن ان يعجب ، حتى نتوصل اخيراً الى درجة الاتقان . وما ان اصبح هنا ، حتى تنطبق الصورة على النموذج ، فاذا بي منشده لأن أرى بأنني لم افكر إلا فيك .

في هذا الوقت ايضاً ، ما زلت ضحية خطأ مماثل . لعلك تظنين انني اخذت اكتب اليك لكي اهتم بك ؟ كلا على الاطلاق : بل لكي اصرف النظر عن التفكير فيك . فقد كانت لديّ اشياء كثيرة لأقولها لكِ لم تكوني انتِ موضوعها ، وهي كما تعلمين ، تهمني بحرارة . تلك هي التي كانت تلهيني . ومنذ متى تلهي فتنـــة الصداقة إذن عن فتنة الحب ؟ آه ! لو انني نظرت الى الأمر عن كثب لعـــلي اتعرض للأمة صغيرة . ولكن صه ! ولننسَ هذه الغلطة الخفيفة خشية ان اقع بها من جديد ، وان كانت صديقتي نفسها تجهلها .

وهكذا لماذا لست هنا لكي تجيبيني وتعيديني اذا ضللت الى سواء السبيل ، ولتحدثيني عن سيسيلي ، فتزيدي ، اذا امكن ، السعادة التي أتذوقها في حبها ،

twitter @baghdad_library

عن طريق الفكرة العذبة على قلبي بأن صديقتك هي التي احبها ؟ أجل انا اعترف بأن الحب الذي توحيه هي لي اصبح اكثر جدية ايضاً ، منذ ان شئتِ ان تتلقي مسارتي . احب كثيراً ان افتح لك قلبي ، واحتل قلبك بعواطفي ، وأضعها فيه دون تحفظ ! ويبدو لي انني أعزّها اكثر كلما تنازلتِ فالتقطتها ، ثم انني انظر اليك واقول : ان كل سعادتي قد انحصرت فيك .

ليس عندي من جديد أخبرك به بصدد وضعي . والرسالة الاخيرة التي تلقيتها منها تزيد وتؤكد املي ، ولكنها تؤخره أيضاً . ومع ذلك فان حججها حنونة وشريفة جداً بحيث انني لا استطيع ان الومها او آسف من جراء ذلك . لعلك سوف لا تفهمين جيداً ما اقوله لك هنا . ولكنك لماذا لستِ هنا ؟ وعلى الرغم من ان المرء يقول كل شيء لصديقته ، إلا انه لا يجرؤ على ان يكتب اليها كل شيء . ان اسرار الحب بصورة خاصة هي دقيقة جداً بحيث لا يمكن تركها تنطلق على هواها . واذا سمحنا احياناً باخراجها ، فيجب أن لا نبعدها عن انظارنا . فلا بد اذن من رؤيتها تدخل الى ملجأها الجديد .

آه . عودي ، عودي اذن يا صديقتي المعبودة . أرأيتِ كم ان عودتك ضرورية . حاولي ان تنسي أخيراً الدوافع الكثيرة التي تبقيك حيث انت ، او اعيدي اليّ دافعاً يعلمني ان اعيش حيث لست موجودة .

لي الشرف الخ ...

١١٩

من السيدة دي روزموند الى الرئيسة تورفيل

قصر ... في ٢٠ تشرين الأول ؟؟ ١٧

على الرغم من أنني ما زلت أتألم جداً ، يا حسنائي العزيزة ، فأنني احاول مع ذلك ان اكتب اليك بنفسي ، لكي استطيع ان اتحدث اليك عما يهمك . ما زال ابن اخي معتكفاً في غرفته ، وهو يستطلع بانتظام أخباري كل يوم .

ولكنه لم يحضر مرة واحدة للاستطلاع بنفسه ، رغم انني رجوته ذلك : بحيث انني لا أراه الآن اكثر مما لو كان في باريس . غير انني قابلته هذا الصباح ، في مكان لم اكن انتظره ابداً ، وكان ذلك في كنيستي حيث نزلت لاول مرة منذ اصابني بهذا العارض المؤلم . وقد علمت اليوم أنه يذهب منذ اربعة ايام للاستماع إلى القداس ، عساه يستمر في ذلك !

وحين دخلت تقدم نحوي وهنأني بعطف شديد على تحسن حالتي الصحية ، وبما أن القداس كان قد بدأ ، فقد اختصرت حديثي معه على ان اعتزم استئنافه في ما بعد . ولكنه اختفى قبل ان اتمكن من الاجتماع به . لا أخفي عليك انني وجدته متغيراً قليلاً ، ولكن لا تجعليني يا حسنائي العزيزة أندم على ثقتي بتعقلك ازاء منغصات حادة ، وكوني واثقة بصورة خاصة انني افضل أن أفجعك بدلاً من ان اخدعك .

واذا استمر ابن اخي على موقفه المنزوي مني فسأتخذ قراراً في أقرب فرصة أصبح خلالها متحسنة الصحة ، واذهب لرؤيته في غرفته . وسأحاول ان استكشف سبب هذه العادة الغريبة التي اعتقد انك مسؤولة عنها نوعاً ما . وسأخبرك بما اكون قد علمته . اتركك الآن ، لانني لم اعد استطيع تحريك اصابعي . ثم اذا عرفت أدلايد بأنني كتبت اليك فستلومني طوال السهرة ، الوداع يا حسنائي العزيزة .

١٢٠

من الفيكونت دي فالمون الى الأب أنسيلم

القيم على دير سانت أونوريه في باريس

قصر ... في ٢٢ تشرين الأول ؟؟ ١٧

لم يحصل لي الشرف يا سيدي بان اكون معروفاً لديك : ولكنني أعرف الثقة التامة التي تمحضك اياها السيدة الرئيسة دي تورفيل ، واعرف بالاضافة الى

twitter @baghdad_library

ذلك كما انت جدير بهذه الثقة . اظن اذن انني استطيع دون تطفل ان اتوجه اليك للحصول على خدمة هامة جداً ، وهي جديرة حقيقة بمهمتك المقدسة ، حيث ان مصلحة السيدة دي تورفيل مرتبطة بمصلحتي .

توجد بين يديّ اوراق مهمة تتعلق بها ، ولا يمكن تسليمها الى احد . كما انني لا اريد ولا ينبغي عليّ ان اسلمها إلا اليها مباشرة . كما انني لا املك اية وسيلة لابلاغها ذلك ، لان اسباباً لعلك عرفتها منها – ولا اظن انه يحق لي ان اعلمك بها – جعلتها تقرر رفض اية مراسلة معي : وهو قرار أعترف طوعاً اليوم انني لا ألومها عليه ، لأنها لم تكن تستطيع ان تتنبأ بالاحداث التي كنت أنا نفسي بعيداً عن توقعها ، والتي لم تكن ممكنة على القوة الانسانية ونحن مضطرون للتسليم بها .

ارجوك اذن يا سيدي ان تتفضل بابلاغها مقرراتي الجديدة ، وبان تطلب اليها تعيين موعد لمقابلتي بصورة خاصة ، حيث استطيع على الأقل ان استغفر امامها باعتذاراتي عن جزء من اخطائي ، وكتضحية اخيرة سأتلف امام عينيها الاثار الوحيدة الباقية عن خطأ جعلني مسؤولاً اتجاهها .

انني لا اجرؤ الا بعد هذا التفكير التمهيدي على ان اقدم عند اقدامك اعترافي الذليل عن فسادي الطويل ، واتوسل الى تأملاتك للقيام باصلاح اكثر اهمية ايضاً ، وهو مع الأسف اشد صعوبة . هل لي ان آمل يا سيدي في الا ترفض لي هذه الجهود الضرورية الثمينة ؟ وفي ان تتنازل لدعم تخاذلي وتوجيه خطاي نحو سبيل جديد ، ارغب باخلاص في انتهاجه ، واعترف بخجل انني لا اعرفه بعد ؟

انني انتظر جوابك بنفاد صبر التائب الراغب في تدارك اخطائه ، وارجوك ان تثق بامتناني وتقديري .

خادمك المتواضع الخ ...

ملاحظة – انني اسمح لك يا سيدي – لو رأيت من المناسب – باطلاع هذه الرسالة بكاملها على السيدة دي تورفيل التي اعد بأنني سأجد من واجبي احترامها طوال الحياة . ولا اكف ابداً عن تشريف تلك التي شاءت السماء ان تجعلها تقود روحي الى الفضيلة ، برؤية فضيلتها المؤثرة .

١٢١

من المركيزة دي ميرتاي الى الفارس دانسني

قصر... في ٢٢ تشرين الاول ؟؟ ١٧

تلقيت رسالتك يا صديقي الصغير جداً. ولكنني قبل ان اشكرك لا بد لي من ان أؤنبك وأنذرك انك اذا لم تصلح نفسك ، فلن تحصل ابداً على جواب مني . دع إذن — اذا شئت ان تصدقني - هذه اللهجة من الملاطفة والتملق التي تغدو هراء، ما ان تخرج عن نطاق الحب. فهل هذا اذن هو أسلوب الصداقة ؟ كلا يا صديقي: ان لكل عاطفة لغتها التي تتناسب معها . وان استخدام لغة محل اخرى معناه اخفاء الفكرة التي نضمرها . أنا اعلم جيداً ان نساءنا الصغيرات لا يفهمن شيئاً مما يقال لهن اذا لم يترجم نوعاً ما الى هذا الهراء المألوف ، ولكنني كنت اعتقد — واعترف بذلك - انك تميزني عنهن ، انني حقيقة غاضبة ، ربما اكثر مما ينبغي لكونك اسأت الحكم عليّ .

لن تجد أذن في رسالتي ألا ما تحتاج اليه رسالتك من صراحة وبساطة . سأقول لك مثلاً : سأكون مسرورة جداً برؤيتك ، وانني مستاءة الا يكون الى جانبي سوى أناس يضجرونني بدلاً من اناس يعجبونني . ولكنك تترجم هذه العبارة على هذا الشكل : « علّميني ان أعيش حيث لست موجودة » . بطريقة انك حين تكون قرب عشيقتك لن تعرف كيف تعيش الا اذا كنت انا معكما. وهذا ما يثير الشفقة . وهؤلاء النساء اللواتي «يعوزهن دائماً شيء ليصبحن مثلي» لعلك تجد ان هذا الشيء يعوز سيسيلتك ايضاً؟ ارأيت إلى اين تقود لغةٌ أصبحت اليوم لكثرة الافراط في استخدامها احطّ من هراء التقريظ والثناء . ولم تعد سوى رسميات بسيطة لا نؤمن بها كما لا نؤمن بعبارة خادمك المطيع !

حين تكتب اليّ يا صديقي ، فليكن ذلك لكي تعبر لي عن طريقتك في التفكير والشعور ، وليس لكي ترسل الي جملاً سأعثر عليها ، دون مساعدتك ، في جميع الروايات اليومية . أرجو ألا تغضب مما اقوله لك هنا ، حين ترى ان

twitter @baghdad_library

ذلك بعث في نفسك الاستياء ، لأنني لا انكر ان في نفسي شيئـــاً من ذلك . ولكنك تتجنب حتى مظهر الخطأ الذي آخذه عليك ولا اقول لك ان هـــذا الاستياء ربما ازداد قليلاً بسبب بعادي عنك . ويبـدو لي اذا حكمت على الأمر بصورة عامة انك تساوي بنظري افضل من دعوى ومحاميين ، وربما افضل ايضاً من بيلروش الكثير العناية بي .

ارأيت أنه بدلاً من أن احزنك بغيابك ، ينبغي ان تغتبط لذلـك . لأنني لم أُوجّه اليك ابداً مثل هذا الاطراء الجميل . وأظن ان العدوى سرت فيّ ايضاً ، وانني أخذت أبثّك بعض المغازلات : ولكن كلا ، افضل ان احتفظ بصراحتي وهي وحدها التي تضمن لك صداقتي العاطفية ، والأهمية التي توحيها اليّ . انه لعذب جدّاً ان يكون لي صديق شاب قلبه مشغول بأخرى . وليست هـــذه طريقة جميع النساء ولكنها طريقتي . ويبدو لي أن المرء ينطلق بجذل مع عاطفة لا يمكن ان يخشى منها شيئاً . وهكذا توليت القيام منذ زمن مبكر بدور كاتمة اسرارك . ولكنك تختار عشيقاتك صغيرات السن جـداً بحيث تجعلني ألاحظ لأول مرة أنني أخذت اغدو كبيرة السن : انه لحسن جداً بالنسبة اليك أن تعدّ نفسك لحياة طويلة من الثبات . وأتمنى لك من كل قلبي ان تكون هـــذه الحياة متبادلة .

انك على صواب حين تكرس نفسك للنوازع الحنونة الناعمـة ، التي تؤخر كما اخبرتني سعادتك . فـالدفاع الطويل هو المزية الوحيدة التي تبقى لأولئك اللواتي لا يقاومن دائماً . وان ما لا استطيع ان اغتفره للجميع ، باستثناء طفلة كالصغيرة دي فولانج ، هو عدم معرفة التهرب من خطر أُنذِرَت بـه بصورة كافية عن طريق الاعتراف الذي صرحت به عن حبها . أما أنتم معشر الرجال فليست لديكم فكرة عما هي عليه الفضيلة ، وعما تكلف التضحية بها ! ولكن ما أن تفكر المرأة قليلاً وتعود الى عقلها ، ينبغي ان تعلم ـ بغض النظر عن الغلطة التي ترتكبها ـ بأن أي تخاذل من جانبها هو اكبر المصائب بالنسبة اليهـا . ولا أفهم أن تستسلم اية امرأة حين يتسنى لها لحظة التفكير بذلك .

انك لن تعمد الى محاربة هذه الفكرة ، لانها هي التي تعلقني بـــك بصورة رئيسية . ستنقذني من اخطار الحب ، ومع أنني عرفت بدونك أن ادافـع عن نفسي من اخطاره حتى الآن فأنا اوافق على الاقرار بفضلها ، وسأحبـك أحسن وأشد على هذه الصورة .

وعليه يا فارسي العزيز ، ارجو الله ان يحفظك .

١٢٢

من السيدة دي روزموند الى الرئيسة دي تورفيل

قصر ... في ٢٥ تشرين الأول ؟؟ ١٧

كنت آمل يا ابنتي اللطيفة ان اتمكن من تهدئـة وساوسك ، ولكنني أرى باكتئاب أنني سأعمد على العكس إلى زيادتها أيضاً . ومع ذلك هدئي من روعك فان ابن اخي ليس في خطر . ولا يمكن ان يقال انه حقيقة مريض . أنما يحدث لديه شيء ما فوق العادة . ولا افهم من ذلك شيئاً . بيد انني خرجت من غرفته بشعور من الكآبة ، ربما من الفزع الذي الوم نفسي على جعلـك تشاطريني أياه ، ومع ذلك لا استطيع أن أمنع نفسي من التحدث اليك عنه .

واليك رواية ما حـدث ، وبأمكانك ان تكوني واثقـــة من وفائه . لأنني سأعيش ثمانين عاماً أخرى ولن انسى الانطباع الذي تركه في نفسي هذا المشهد.

لقد كنت اذن هذا في الصباح في غرفـــة أبن أخي ، فوجدته يكتب وهو غارق بأكوام لا تحصى من الورق الذي يبدو انها من صنع يديه . وكان منهمكاً بها إلى درجة أنه لم يلتفت ليعرف من القادم. وما ان شاهدني، حتى لاحظت جيداً انه حين نهض كان يحاول أن يبدل سحنته ، وربمـا ليس هذا ما لفت المزيد من انتباهي . لقد كان في الحقيقة دون زينة ودون عنـاية ، ولكنني وجدته شاحباً منحلاً ذا هيئة مشوشة . وكانت نظراته التي عرفناها حادة ومرحة جـــداً قد غدت كئيبة ذابلة . واخيراً – وهذا بيننـــا – لا أتمنى بأن تشاهديه على هذه

twitter @baghdad_library

الصورة . لأنه كان يبدو مؤثراً جداً ، وجديراً بأن يبعث ، كما أعتقد ، على هذه الشفقة الحنونة التي هي من أخطر كائن الحب .

وعلى الرغم من انصعاقي لهذه الملاحظات فقد بدأت معه الحديث كما لو انني لم الاحظ شيئاً . فحدثته اولاً عن صحته ، فلم يتلفظ ابداً امامي بكلمة تعني أنها سيئة رغم انه لم يقل لي انها جيدة . عندئذ شكوت من اعتكافه الذي يبدو كأنه عادة غريبة مستهجنة . وحاولت ان أمزج شيئاً من المزح مع توبيخي الخفيف . ولكنه اجابني فقط بلهجة مؤثرة : « أن هذا خطأ آخر أعترف به ، ولكنه سيصطلح مع البقية » .

وقد اغاض مظهره بشاشتي اكثر من كلامه ، وسارعت الى مخاطبته قائلة بانه عليه الا يعلق أهمية زائدة على مأخذ بسيط من الصداقة .

ثم اخذنا اذن نتحدث بهدوء ، وقال لي بعد فترة وجيزة ان قضية هامة ربما تستدعيه قريباً للذهاب إلى باريس ، « وهي اعظم قضية في حياته » ونظراً لخوفي من ان احزر هذه القضية ، وان تقودنا هذه البداية يا حسنائي العزيزة الى الادلاء بمسارة لم اكن اريدها ، فلم اطرح عليه اي سؤال واكتفيت بأجابته بأنني أرجو ان يكون المزيد من التسلية مفيداً لصحته . وأضفت الى ذلك قولي انني في هذه المرة لن اوجه اليه أي إلحاح ، وذلك حباً باصدقائي من أجلهم فقط . وعند هذه العبارة البسيطة ضغط على يدي ، وحدثني باحتداد لا أستطيع ان اصفه لك فقال :

« اجل يا عمتي ، احبي ، احبي ابن اخيك الذي يحترمك ويعزك . وكما قلت أحبيه من اجله . ولا تحزني لسعادته ، ولا تعكري بأي ندم الهدوء الأبدي الذي يأمل ان يتمتع به قريباً . كرري معي بأنك تحبينني ، وانك تسامحينني ، اجل تسامحينني ، وانا اعرف مدى طيبتك ، ولكنني كيف آمل بمثل هذا التسامح من اولئك الذين اهنتهم ؟ » وعندئذ انحنى عليّ لكي يخفي عني آثار الالم التي كشفتها لي لهجة صوته رغماً عنه .

ونهضت بسرعة ، بعد ان تأثرت اكثر مما اقول لك ، وقد لاحظ بدون

شك انفعالي فحاول حالاً ان يبدّل ملامحه واستطرد قائلاً : « عفواً ، عفواً يا سيدتي ، اشعر بأنني اشرد رغماً عني . ارجوك ان تنسي كلامي ، وان تتذكري فقط احترامي العميق . ولن اتخلّف عن ان اجدده لكِ قبل سفري » وبدت لي هذه الجملة الاخيرة بأنها كانت ايذاناً بإنهاء زيارتي . وكان ان انصرفتُ بالفعل .

ولكنني كلما فكرت بذلك كلما عجزت عن ان احزر ما عناه . فما هي اذن هذه القضية التي هي اهم قضية في حياته ؟ وحول اي موضوع يطلب عفوي ؟ ومن اين جاءه هذا الحنان العفوي اثناء محادثتي ؟ لقد كررت الف مرة هذه الاسئلة دون أن اتمكن من ايجاد جواب عليها ، ولا أرى شيئاً هنا له علاقة بك . ومع ذلك نظراً لأن عيون الحب هي اكثر تبصراً من عيون الصداقة لم ادعك تجهلين ماذا جرى بين ابن اخي وبيني .

لقد توقفت اربع مرات عند كتابة هذه الرسالة الطويلة التي كنت أود ان اجعلها اطول ايضاً ، لولا العناء الذي اعانيه . الوداع يا حسنائي العزيزة .

١٢٣

من الاب أنسيلم الى الفيكونت دي فالمون

باريس في ٢٥ تشرين الاول ؟؟ ١٧

تلقيت يا سيدي الفيكونت الرسالة التي شرفتني بها ، وتوجهت امس وفق رغباتك الى منزل الرئيسة المشار اليها فشرحت لها الغاية والدوافع التي حدت بك الى المسعى الذي كلفتني بان اقوم بها لديها . وعلى الرغم من انني وجدتها متمسكة بالقرار الحكيم الذي اتخذته في البداية ، فقد أظهرت لها انها تجازف – بسبب رفضها – بوضع عقبة بوجه ارتدادك السعيد ، وتعارض بذلك نوعاً ما النظرات الرحيمة للعناية الالهية . وكان ان وافقت على زيارتك شرط ان تكون هذه المرة هي الاخيرة ، وكلفتني بأن اعلمك انها ستكون في انتظارك يوم الخميس

twitter @baghdad_library

المقبل في ٢٨ الجاري . واذا كان هذا اليوم لا يوافقك ، هل لك ان تتفضل بان تبلغها ذلك وتعين لها يوماً آخر . وستتلقى رسالتك هذه المرة .

مع ذلك ، يا سيدي الفيكونت ، إسمح لي ان أدعوك إلى عدم تأجيل هذا الموعد إلا لأسباب قاهرة . لكي يتسنى لي توجيهك في أقرب وقت وبصورة تامة نحو الاستعدادات الحميدة التي اعربت لي عنها . فكر بان من يتأخر عن الافادة من فترة النعمة يتعرض الى سحبها منه . واذا كانت الرحمة الالهية غير محدودة فان استخدامها منظم كالعدالة . وانه قد يأتي وقت يبدل الله الغفور فيه رحمته الى عقاب .

اذا تابعت تشريفي بثقتك ، فأرجوك ان تعتقد ان جميع جهودي هي تحت تصرفك كلما رغبت فيها . ومهما كانت مشاغلي كبيرة ، فان قضيتي الأهم ستكون دائماً القيام بواجبات المهمة المقدسة التي كرست لها نفسي بصورة خاصة . وان اجمل فترة في حياتي هي تلك التي أرى فيها جهودي تكلل بالنجاح وببركة الله العلي القدير . اننا لا نستطيع نحن الضعفاء الخاطئون ان نفعل شيئاً لانفسنا ، ولكن الله الذي يدعوك يستطيع كل شيء . ونحن مدينون ايضاً لكرمه ورحمته بالرغبة الدائمة في ضمك اليه بالوسائل التي اقودك الى بركته . انني بمعونته تعالى آمل ان اقنعك قريباً بأن الدين المقدس يمكن ان يمنح وحده ، حتى إلى هذا العالم ، السعادة المتينة الثابتة التي يسعى اليها الناس عبثاً في عمى الاهواء الانسانية .

لي الشرف ، سيدي ، مع اعتباري المحترم ان اكون ... الخ ..

١٢٤

من الرئيسة تورفيل الى السيدة دي روزموند

باريس في ٣٥ تشرين الأول ?? ١٧

بلغني أمس نبأ أثار لدي كثيراً من الدهشة والذهول ، ولذلك لم انس ، وسط هذا الذهول ، واجب اطلاعك عليه ، نظراً لما يبعثه في نفسك من الرضى

والارتياح . وها انا اسارع الى زفه اليك . فالسيد دي فالمون ليس مشغولاً بي ولا يحبه . بل يرغب في التكفير عن خطاياه أو بالاحرى يريد ان يعوّض عن آثام شبابه بحياة اكثر فعالية . وقد تبلغت النبأ بواسطة الأب أنسيلم الذي اختاره لكي يقود خطاه نحو المستقبل ، ولكي يهيء له ايضاً مقابلة معي اعتقد ان هدفها الرئيسي هو إعادة رسائلي التي احتفظ بها حتى الآن رغم مطالبتي بردها .

لا استطيع بدون شك إلا ان اغتبط لهذا التبدل السعيد ، واهنىء نفسي به ، اذ أنني كما قال ، تمكنت من المساهمة به بعض الشيء . ولكن لماذا كان ينبغي أن اكون أنا الاداة ، وأن افقد هناء حياتي ؟ وهل كان لا يمكن لسعادة السيد دي فالمون ان تأتي إلا على حساب شقائي ؟ آه ، اغفري لي يا صديقتي المتسامحة هذه الشكوى ، أنا اعلم أنه لا يحق لي أن اعترض على مشيئة الله ، ولكن بينما اتوسل اليه باستمرار ، ودائماً دون جدوى ، ان يمنحني القوة للتغلب على حبي التعيس ، اذا به يمنح القوة إلى من لم يكن يطلبها ، ويتركني دون مساعدة ، مستسلمة بكليتي لتخاذلي .

ولكن لنخنق هذا الاعتراض المذنب . افلا اعلم ان الأبن الضال سينال لدى عودته من والده نعماً وصفحاً اكثر مما يناله الابن كما لو لم يكن قد تغيب ؟ واي عتاب يمكن ان نوجهه الى من ليس مديناً لنحونا بشيء ؟ وعندما يصبح ممكناً ان تكون لنا بعض الحقوق عليه ماذا يمكن ان تكون حقوقي ؟ هل أفتخر بتعقل انني أصبحت مدينة بها الى فالمون ؟ لقد انقذني ، واذا بي اجرؤ على الشكوى لكوني اتعذب من أجله ! كلا ان عذابي سيكون عزيزاً عليّ ، اذا كانت سعادته هي الثمن . ولا شك في انه ينبغي ان يعود بدوره الى إلهنا المشترك . وان الاله الذي كوّنه يجب ان يعتز بما صنعته يداه . وهو لم يخلق هذا الكائن لكي يجعل منه موضع استنكار المجتمع ، وان عليّ وحدي ان اكابد عناء عدم احترامي الجريء . الم يكن عليّ ان اشعر بأنه لا ينبغي ان أراه ما دام قد حُظر عليّ ان احبه ؟

ان خطأي و تعاستي هما في انني رفضت طويلاً هذه الحقيقة . وانت شاهدة

twitter @baghdad_library

عليّ يا صديقي العزيزة المحترمة ، بأنني خضعت لهذه التضحية مـا إن عرفت ضرورتها . ولكن هذه التضحية كانت بحاجة – لتصبح كاملة – الى عدم مشاطرة السيد دي فالمون لي اياها مطلقاً . هل اعترف لـك بأن هذه الفكرة هي في الوقت الحاضر كل ما يشغل بالي ؟ انها لكبرياء لا تطاق تلك التي تخفف ما نعانيه من آلام . بواسطة الآلام التي نجعل الغير يتعذب بها ! آه ! سأنتصر على هذا القلب الثائر ، وسأعوّده على الذل .

لقد وافقتُ على أن اتلقى ، يوم الخميس المقبـل ، زيارة السيد دي فالمون القاسية لكي اتوصل الى اذلال قلبي أخيراً . وعندئذ سأسمعه يقول لي بنفسه : أنني بت لا أشكل بالنسبة اليه اية أهمية ، وان الانطباع الضئيل العابر الذي أثّرتُ به عليه قد امحى وزال بكليته ! وسأرى نظراته تحط عليّ دون انفعال بينما سيحملني الخوف من ان افضح نظراتي على خفض بصري إلى الارض. وهذه الرسائل التي رفض ان يعيدها إليّ رغم طلباتي المتكررة سيلقي بها إليّ بلامبالاة، كما لو كانت اشياء لا قيمة لها ، ولا أهمية لها بنظره . وستشعر يداي المرتجفتان وهي تتلقى هذه الرزمة المخجلة، بانها تُسلَّم اليها من يد ثابتة هادئة ! واخيراً سأراه يبتعد ، يبتعد الى الأبد. وأن نظراتي التي ستتبعه لن ترى نظراته تلتفت نحوي .

وبذلك اكون قد تحملت الخزي وحدي! آه ! فلأجعل هذا الخزي مفيداً لي على الأقل . أجل سأحتفظ بهذه الرسائل التي لم يعد يحرص على الاحتفاظ بها . وسأفرض على نفسي خجل قراءتها كل يوم الى أن تمحو دموعي آثارها الاخيرة ، وسأحرق رسائله كما لو كانت ملوثة بسم خطير أفسد روحي . آه ! اي شيء أذن غير الحب يجعلنا نندم حتى على الاخطار التي يعرضنا لها . واذا كنا نظل نخشى ان نعاود الشعور به حتى ولو لم نعد نوحيه ابداً ! لنهرب من هذا الميل الارعن الذي لا يترك مجالا للاختيار الا بين العار والشقاء، والذي غالباً ما يجمعهما معاً، وليحل الاحتراس على الاقل مكان الفضيلة .

كم ان هذا الخميس ما زال بعيداً ! وكم انني لا استطيع ان اهضم الآن هـذه التضحية المؤلمة ، وانسى في آن واحد سببها وغايتها ! ان هذه الزيارة لا تلائمني،

وانا نادمة لكوني وعدت بها . آه ، ما هي حاجته لكي يعود فيراني ايضاً ؟وهل ما زال احدنا الآن للآخر ؟ واذا كان قد اهانني فانني اسامحه . لا بل وأهنئه لرغبته في تدارك اخطائه واثني عليه . وسافعل اكثر منه ، ساحذو حذوه ، لأنني وقد أُغريتُ بالأخطاء نفسها فان امثولته تعيدني الى جادة الصواب .

ولكن اذا كانت غايته التهرب مني ، فلماذا يبدأ في البحث عني ؟ أليس القصد العاجل لكل منا ان ينسى الآخر ؟ آه هذا مؤكد ، وسيكون من الآن فصاعداً موضع اهتمامي الوحيد .

اذا سمحت يا سيدتي المحترمة ، سأقصد جوارك واكون بالقرب منك لكي انكبّ على الاهتمام بهذا العمل الصعب ، وإذا كنت بحاجة الى المساعدة وربما ايضاً الى العزاء ، فلا أريد ان اتقبل ذلك الا منك . انت وحدك تعرفين ان تفهمي قلبي وتتحدثي اليه . وان صداقتك الثمينة ستفعم كياني . لا شيء سيبدو لي صعباً لكي ادعم الجهود التي ستتفضلين ببذلها من اجلي ، وسأكون مدينة لك بهنائي وسعادتي وفضيلتي ، وان ثمرة لطفك وكرمك ستكون بالنسبة لي انك جعلتني محترمة مرفوعة الرأس .

اعتقد انني شردت مراراً في هذه الرسالة ، وانني اعزو ذلك على الاقل الى الاضطراب الذي لم اكف عن معاناته حين اكتب اليك . واذا كان قد تضمن بعض الشعور المخجل ، فاستريه بسعة صدر صداقتك التي ارضخ لحكمها كل الرضوخ . اذ لا يحق لي ان اخفي عنك اي شعور يصدر عن قلبي .

الوداع يا صديقتي المحترمة . آمل ان أنبئك قريباً بموعد وصولي .

١٢٥

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

باريس في ٢٩ تشرين الأول ؟؟ ١٧

ها هي ذي اذن مهزومة ، هذه المرأة الرائعة التي تجرّأتُ على الاعتقاد بأنها تستطيع مقاومتي ! أجل يا صديقتي ، إنها لي ، وقد اصبحت لي بكليتها . ومنذ

twitter @baghdad_library

أمس لم يبق لديها اي شيء لتمنحني إياه .

ما زلت حتى الآن مفعماً جداً بنشوتي ، بحيث لا استطيع بعد ان اقدّرها. ولكنني مشدوه بهذا السحر المجهول الذي شعرت به . افيكون صحيحاً ان فضيلة المرأة تزيد من قيمتها ، حتى في الساعات التي تفقدها فيها ؟ ولكن لا : لننبذ هذه الفكرة الصبيانية مع حكايات النساء الفاضلات. افلا نلقى في كل مكان تقريباً مقاومة ظاهرة حسب الظروف ازاء اول انتصار ؟

ولكن هل وجدت في اي مكان السحر الذي احدثك عنه ؟ انه ليس مع ذلك سحر الحب . لأنني اذا كنت قد شعرت في بعض الاحيان أزاء هذه المرأة المدهشة ببعض لحظات التخاذل التي تشبه ذلك الهوى الجبان ، فقد عرفت دوماً أن أقضي عليها وأعود الى مبادئي .

ومع ذلك فقد كادت حادثة الامس ، كما اعتقد ، ان تقودني الى ابعد مما كنت أنويه ، وذلك حين شاطرتها في احدى اللحظات ما أوحيته اليها من اضطراب ونشوة، وهو وهم ما لبث أن تبخر الآن، ولكن السحر نفسه ما زال باقياً . ولو لا بعض القلق الذي سبَّبَتْهُ لي المتعة العذبة التي تذوقتها لكنت استسلمت إلى هذه المتعة بكل سرور . فهل أكون ، وانا في مثل سني ، واقعاً تحت تأثير شعور تلقائي مجهول كتلميذ مدرسة ؟ كلا ، إذ ينبغي قبل كل شيء محاربته واستئصاله .

لعلني تقصّيت السبب من قبل ! ان هذه الفكرة تعجبني ، واتمنى لو تكون صحيحة .

انني لم ألقَ حتى الآن بين حشد النساء اللواتي قمت ازاءهن حتى اليوم بدور ومهام العاشق ، اية واحدة كانت تملك رغبة عظيمة في الاستسلام مماثلة لما كان لديّ من رغبة في حملها على ذلك . لا بل اعتدت ان أدعو اولئك اللواتي لا يقطعن سوى نصف الطريق بالفاضلات التقيات ، وذلك اذا قورنّ باولئك اللواتي لا تستر العروض الأولى التي قدمنها دفاعهن الاستفزازي ابداً .

أما هنا فقد وجدت على العكس وقاية غير مشجعة ، قائمة على أساس نصائح

وعلاقات امرأة نفور ، ولكنها بعيدة النظر . ووجدت خفراً طبيعياً مفرطاً يعزّز تعففاً مستنيراً ، وتعلقاً بالفضيلة يُوجهـــه الدين ، ويعتمد على سنتين من الانتصار ، واخيراً تصرفات رائعة مستوحاة من هذه الدوافع المختلفة ، وهدفها كلها قطع الطريق على ملاحقاتي .

لم يكن الأمر اذن كما حدث في جميع مغامراتي السابقـــة ، مجرد استسلام مشجع او غير مشجع ، من السهل استغلاله بدلاً من الزهو به . بل كان نصراً كاملاً كلفني حملة مجهدة ، وفرضته مناورات بارعـة . فليس من المدهش اذن أن يكون هذا النجاح الذي يعود فضله إليّ وحدي ، اكثر قيمـة من اي نجاح آخر . وان الفيض من المتعة الذي شعرت بـه في انتصاري – وما زلت أشعر به ايضاً – ليس سوى الانطباع العذب الذي يخلقـــه الانتصار والمجـد . انني أستمرىء هـــذه الطريقة في النظر الى الامور ، وهي تنقذني من عار التفكير بأنني لجأت الى طريقة جعل نفسي عبداً ذليلاً لهذه المرأة ،لا بل استعبدت نفسي من اجلها ، ولم يكن لديّ وحدي الافراط في السعادة .

ان هذه الملاحظات القيمة ستنظم مسلكي في هذه المناسبة الهامة، وبأمكانك ان تكوني واثقة من انني لن أدع نفسي مقيداً بالسلاسل، الى درجة لا أستطيع معها فكاكاً من هذه القيود الجديدة وفق إرادتي . ولكن ها أنذا أحدثك عن انفصالي،بينما ما زلت تجهلين الوسائل التي حصلت بواسطتها على حق هذا الانفصال. اقرأي اذن ، وانظري الى ما يتعرض له التعقل ، عند محاولته دعم الجنون . فلقد كنت ادرس بعناية كل كلمة من كلماتي والأجوبة التي أتلقاها وهو ما آمل ان اطلعك عليه الواحد بعد الآخر بدقة تسرُّك .

وسترين – باطلاعك على نسختي الرسالتين اللتين أبعث اليك بهما طيه * – اني وسيطٌ استخدمتُ لكي يقربني من حسنائي ، وما بذله هذا الكاهن المقدس من حماسة لكي يجمع بيننا. وانما ينبغي ان تعرفيه أيضاً – وقد علمته أنا بواسطة رسالة قطعتُ عليها الطريق حسب العادة – ان الخوف والخذلان لدى العاشقة

* راجع الرسالتين ١٢٠ و ١٢٣

twitter @baghdad_library

المتيمة من ان اتخلى عنها ، قد حوّلا كثيراً عفتها ، وملآ قلبها ورأسها بافكار رغم انها لم تكن ذات معنى مشترك ، ولكنها كانت كثيرة الاهمية بالنسبة لي . وهكذا ، وبعد هذه الترتيبات الضرورية وصلت أمس الخميس في ٢٨ ، وهو اليوم الذي حددته الجاحدة كموعد للقائنا . وقد اعلنت عن وصولي بوصفي عبداً خجولاً تائباً ، ولكنني خرجت منتصراً متوجاً .

كانت الساعة قد بلغت السادسة مساء حين دخلت على الحسناء المنزوية ، لانها منذ عودتها جعلت بابها مقفلاً بوجه جميع الزيارات . وحاولتْ ان تنهض ، حين أُبلغتْ بنبأ وصولي ولكن ركبتيها المرتجفتين لم تسمحا لها ان تبقى في هذا الوضع : فجلست فوراً . وبما ان الخادم الذي ادخلني كان عليه ان يقوم ببعض الخدمة في غرفتها ، فقد بدت نافدة الصبر ، وقد شغلنا هذه الفترة بالمجاملات المألوفة . ولكنني حتى لا أضيع شيئاً من وقتٍ كانت كل لحظاته ثمينة ، اخذتُ اتفحص المكان بدقة ، وما لبثت عيناي ان وقعتا على مسرح انتصاري ، وقد كان بامكاني ان اختار مسرحاً آخر اكثر ملاءمة ، لانه كان هناك في الغرفة نفسها ديوان عثماني عريض : ولكنني لاحظت ان صورة الزوج معلقة فوقه ، وخشيت مع هذه المرأة الغريبة من نوعها ، ان تشاء المصادفة توجيه نظرتها الى هذه الناحية ، فتحطم في لحظة واحدة المجهود الذى كلفني اياماً وليالي طويلة . واخيراً اصبحنا وحدنا ، ودخلت في الموضوع رأساً .

وبعد ان اوضحت لها ، بكلمات قليلة ، أن الأب انسيلم لا بدّ ان يكون قد أطلعها على اسباب زيارتي ، اخذتُ اشكو من المعاملة القاسية التي عانيتها ، وشدّدت بصورة خاصة على «الازدراء» الذي قوبلت به . وبطبيعة الحال كان ان دافعتْ عن نفسها كما كنت اتوقع وكما تتوقعين ايضاً . وقد برهنتُ على ذلك بدليل الحذر والخوف اللذين اوحيتُها لها ، والفرار الفاضح الذي تلا ذلك ، ورفض الاجابة على رسائلي ، لا بل وحتى رفض تسلمها الخ .. الخ .. وبما انها بدأت تبرر نفسها بطريقة كان يمكن ان تكون هينة ، فقد وجدتُ من المناسب ان أقاطعها ، وأخذتُ أفعمها على الأثر بالملاطفات لكي اجعلها تغتفر لي طريقتي

الفجة في المقاطعة واستطردتُ قائلاً :

« اذا كان مثل هذا السحر العميم قد ترك في قلبي اثراً عميقاً ، ومثل هـــذه الفضائل البارزة تركت آثاراً أقوى في نفسي . وقد انجذبتُ بدون ريب برغبة التقرب منها ، فقد جرؤتُ على الاعتقاد انني جدير بهـــا . انني لا ألومك ابداً لكونك حكمت على الأمور خلاف ذلك ، ولكنني اقاصص نفسي على خطأي » . وبما انها التزمتْ الصمت بسبب الارتباك فقد استأنفتُ قائلاً : « لقد رغبتُ يا سيدتي إما ان أبرر نفسي بنظرك وإما ان انال منك عفواً على الاخطـــاء التي تفترضينها فيَّ ، وذلك بقصد التمكن من إتمام أيام لم أعد اعلق عليها أية قيمـة منذ ان رفضتِ أن تزينيها » .

وهنا حاولت مع ذلك ان تجيب قائلة : ان واجبي لم يكن يسمح لي ... ولكن صعوبة اكمال اكذوبة يتطلبها الواجب لم تتح لها اتمام الجملة . وكان ان استطردتُ عندئذ بلهجة أشد رقـة : « صحيح أذن انني كنت السبب في فرارك ؟ »

— لقد كان هذا السفر ضرورياً .

— وانك تبعدينني عنك ؟

— لا بد من ذلك .

— إلى الأبد ؟

— يجب علي ان افعله .

لست بحاجة الى ان اقول لك ان صوت الورعة الرقيقة خلال هذه المحادثة القصيرة كان مضطرباً ، ولم تكن عيناها ترتفعان نحوي .

ورأيت من المناسب ان ابعث قليلاً من الحيوية في هذا المشهـد المتراخي ، فكان إن نهضتُ وانا بادي الإكراه ، وقلت : « ان صرامتك تعيد إلي صرامتي كلها ، وبناء عليه ، اجل يا سيدتي ، سنفترق ، سنفترق اكثر مما تظنـين ، وستهنئين نفسك كما تشاءين بما صنعته يداك » . وهنا ذُهلت قليلاً لهذه اللهجة من التقريع ، فأرادت ان تردَّ قائلة : ان القرار الذي اتخذته ...

twitter @baghdad_library

فقاطعتها : ليس إلا نتيجة يأسي . لقد شئتِ ان اكون تعيساً ، وسأبرهن لك انك نجحتِ الى ابعد مما كنت تتمنين.

واجابت : « ولكنني ارغب في سعادتك! » وهنا اخذت لهجة صوتها تميل نحو الانفعال القوي . وهكذا سارعتُ فارتميت عند اقدامها وقلت لها بلهجة تمثيلية دراماتيكية تعرفينها :

— « آه يا لك من قاسية القلب ... هل يمكن ان توجد لي سعادة دون مشاطرتك اياها ؟ اين يمكن لي ان اجدها اذن بعيداً عنك ؟. آه ...! أبداً ! ».

واعترف حين وصلت الى هذه النقطة انني كنت اعتمد كثيراً على مساعدة دموعي : ولكنني إما عن وضع سيء ، واما عن تأثير الاهتمام العنيف المستمر الذي ركزته في كل شيء ، وجدت ان من المستحيل عليّ ان ابكي .

لحسن الحظ تذكرتُ ان جميع الوسائل هي صالحة من اجل الاستيلاء على امرأة . وأنه يكفي لمفاجأتها ان اقوم بحركة كبرى ، لكي تحدث في نفسها تأثيراً عميقاً مشجعاً . فاستبدلت الحساسية التي لم تواتني بالتخويف . ولذلك بدّلت فقط طبقة صوتي ، واحتفظت بوضعي نفسه وتابعت قائلاً: اجل انني اقسم عند قدميك اما ان انالك أو أموت » . وعند تلفظي بهذه الكلمات الأخيرة ، التقت نظراتنا. ولا أدري ماذا شاهدت المرأة الخجول أو اعتقدت انها شاهدت فيها : ولكنها نهضت بمظهر مفزع ، وافلتت من بين ذراعي اللتين كنت قد أحطتها بهما.ولم افعل في الحقيقة شيئاً لكي احتفظ بها : لأنني لاحظت عدة مرات ان مشاهد اليأس اذا اقتيدت بحماسة زائدة ، قد تفقد فعاليتها لو طالت ولم تتضمن سوى وسائل محزنة . وفي الاثناء بينما كانت تتملص مني ، أضفت بلهجة خافتة ولكن بطريقة جعلتها تسمعني: « إذن ! الموت!»..

ونهضت على الأثر ، وبقيت لحظة صامتاً ، ورحت أوجه نحوها — كما لو كان الامر من قبيل المصادفة — نظرات وحشية مخيفة ، الا انها كانت دقيقة الملاحظة رغم انها بدت تائهة زائغة النظرات . وكانت وقفتها غير ثابتة ، وتنفسها قوياً ، وجميع عضلاتها متوترة ، وذراعاها مرتجفتين نصف مرتفعتين . كل ذلك برهن

لي جيداً ، على ان التأثير كان قوياً عليها كما أردت إحداثه : ولكن بما انه لا يتم شيء في الحب الا عن قرب ، وقد كنا بعيدين الواحد عن الآخر ، فقد كان لابد قبل كل شيء من ان نقترب . فانتقلت – للوصول الى ذلك – الى هدوء ظاهر خليق بان يهدىء تأثيرات هذه الحالة العنيفة ، دون ان يخفف من اثرها .

وكان انتقالي على الشكل التالي ، اذ قلت : « انني تعيس جداً ، فلقد أردت أن اعيش من اجل سعادتك ، ولكنني عكرتها عليك ، ولذا فانني اكرّس نفسي من اجل هنائك وهدوئك ، ومع ذلك فها أنا اعكره أيضاً » . ثم بدلت سحنتي ، واتخذت مظهر الوجل وتابعت : « عفواً يا سيدتي ، انني غير معتاد الا قليلاً على عواطف الحب ، ولذلك لم اعرف ان أكبت حركاتها . واذا كنت قد اخطأت في استسلامي اليها ، ففكري بأن هذه المرة هي الاخيرة ، آه ارجوك ان تهدئي من روعك ، هدئي نفسك... اتوسل اليك » .وكنت اثناء هذه الجملة الطويلة أقترب بدون شعور نحوها ، وقالت لي حسنائي النافرة : « اذا كنت تريد ان اكون اكثر هدوءاً ... فكن انت نفسك اذن اكثر هدوءاً» وقلت :

– حسناً ، أجل أعدك بذلك . ثم أضفت بصوت اكثر تخاذلا : اذا كان الجهد كبيراً ، فعلى الأقل يجب ألا يكون طويلاً .

ولكنني استأنفت فوراً بلهجة شاردة : «لقد حضرت لكي أعيد اليك رسائلك أليس ذلك صحيحاً ؟ فتنازلي اذن لاخذها . وهذه ايضاً تضحية اخرى اقوم بها من اجلك، فلا تدعي لي ما يضعف شجاعتي » ثم سحبت من جيبي المجموعة الثمينة وقلت : « إليك به هذا المستودع الزائف لتأكيدات صداقتك ! فقد يجعلني أتعلق بالحياة ... خذيه ، واعطِ بنفسك ايذاناً يجب ان يفصلني عنك الى الابد »

وهنا استسلمت العاشقة الوجلة تماماً الى قلقها الرقيق وقالت :

– ولكن يا سيد فالمون ماذا فعلت ؟ وماذا عنيت بذلك ؟ ألم يكن المسعى الذي تقوم به اليوم طوعاً ؟ ألم يكن ثمرة تفكيرك ؟ أليس هذا التفكير هو الذي جعلك توافق على القرار الضروري الذي املاه عليّ الواجب ؟

– حسناً ان قرارك هذا هو الذي املى عليّ قراري .

twitter @baghdad_library

– وما هو ؟

– الوحيد الذي يستطيع ، بافتراقي عنك ، ان يضع حداً لآلامي .

– ولكن أجبني ما هو ؟

وهنا عصرتها بذراعي دون ان تدافع عن نفسها ابداً ، واستنتجت عن طريق هذا التناسي المفتعل للواقع كم ان الانفعال كان قوياً جباراً ، فقلت لها وانا أجازف بالحماسة : « ايتها المرأة المعبودة ، ليست لديك فكرة عن الحب الذي توحينه . ولن تعرفي ابداً الى اية درجة كنت معبودة، وكم كان هذا الشعور عزيزاً على كياني ! فلتكن جميع ايامك محظوظة وهانئة ! ولتكن مزينة بكل السعادة التي حرمتني منها ! وادفعي على الأقل هذه الأمنية الصادقة بحسرة ودمعة ، وصدقي أن آخر تضحياتي لن تكون اقساها على قلبي . الوداع » .

وبينما كنت اتكلم على هذه الصورة ، شعرت بقلبها يخفق بعنف ، ولاحظت اكتئاب وجهها ، ورأيت بصورة خاصة دموعاً تخنقها ، ولا تسيل في الاثناء الا نادراً وبصعوبة . وعندئذ قررت ان اظهر نفسي بأنني ابتعد ، ولكنها امسكت بي بقوة ، وقالت لي بحدة :

– كلا... اصغ اليّ ...

– دعيني .

– ستصغي اليّ ، أريد ذلك .

– يجب ان اهرب منك . لا بد من ذلك .

وصاحت : كلا ...

وعند هذه الكلمة الأخيرة سارعت ، أو بالاحرى سقطت مغمية عليها وهي بين ذراعي.. وبما أنني كنت ما ازال اشك في هذا النجاح السعيد، فقد اظهرت فزعاً كبيراً . ولكنني قدتها وانا خائف وحملتها نحو المكان الذي اشرت اليه كمسرح لمعركة انتصاري وبالفعل فأنها لم تستعد وعيها الا وهي خاضعة مستسلمة للمنتصر السعيد عليها .

حتى هنا تجدين يا صديقتي الحسناء ، كما أعتقد طريقة رائعة خاصة بي تهنئينني

عليها . وترين انني لم أحد بشي عن المبادىء الصحيحة لهذه الحرب التي لاحظنا مراراً انها لا تختلف عن الأخرى بشيء واحكمي عليّ أذن كتورين وفريدريك : وقد تجرأتُ على محاربة عدو لا يريد الا تهدئة الموقف، واخترت بنفسي بمناورات بارعة ميدان المعركة واستحكاماتها ، وعرفت كيف أوحي الامان للعـــدو لكي التقي به بسهولة عند تراجعه . وعرفت ان اجعل التخويف يتلاحق ، قبل ان اصل الى المعركة ، ولم ادع شيئاً للمصادفة ، الا من حيث استغلالها لصـالحي في حالة الانهزام . وأخيراً لم ابدأ بالعمل الا بعد ان أمّنت تراجعي، مـــن حيث استطيع ان اعطي واحتفظ بكل ما غزوته سابقاً . وهذا كما اعتقد كل مايمكن القيام به ، ولكنني اخشى الآن بأن اكون قد تراخيت كهنيبعل امام لذائـــذ كابو . واليك ما حدث بعد ذلك :

لقد كنت اتوقع ان حادثاً من هذا النوع لا بدّ ان يخلّف آثاراً من الدموع واليأس المألوف . ولاحظت اولاً وجودها في حالة من التضعضع والذهول ثم في نوع من التأملات . ولكنني عَزَوتُ هذا وذاك الى حالة الورع . وهكذا لم ألقِ بالاً الى هذه الاختلافات الضئيلة التي اعتبرتُها محلية بحتة ، واتبعت فقط طريق المؤاساة الواسع ، وانا مقتنع ، كما يحدث عادة في مثل هـذه الظروف ، بأن الملامسات ستساعد العاطفة ، وان عملاً واحـــداً سيؤثر اشد من جميع الخطب والاقوال التي لم اغفلها مع ذلك ، ولكنني قوبلت حقيقة بمقاومة مخيفة، من حيث الشكل لا من حيث المبالغة فيها .

تصوري امرأة جالسة وهي جامدة كالتمثال ، ذات وجه لا يتبدل ، لاتبدو بأنها تفكر ولا بأنها تصغي او تسمع ، بل تحدق فقط بعينين ثابتتين والدموع تسيل منهما مدراراً وبصورة مستمرة ، لا بل تسيل دون جهد . تلك هي حالة السيدة دي تورفيل فيما كنت احاول ملاطفتها بكلماتي ، ولكنني جرّبتُ أن اعيد انتباهها نحوي بواسطة مداعبة ، او حركة بريئة . وكان ان اعترتها على اثر هذا الجمود الظاهر حالات من الرعب والاختنـــاق والتشنج والشهيق ، وبعض الصيحات المتقطعة ، ولكن دون ان تتلفظ بكلمة احدة .

twitter @baghdad_library

وعاودتها هذه الأزمات عدة مرات وكانت دائمـــاً بشكل اقوى ، وكانت الأزمة الاخيرة من العنف بحيث انها ثبطت همتي ، وخشيت في وقت من الاوقات ان اكون قد احرزتُ انتصاراً لا قيمة له . وكان أن انتقلتُ في حـــديثي الى المواضيع العادية المشتركة ، وصادف ان وقعتُ على هذه الجملة فقلت : « وانت في يأس لانك وفّرت لي سعادتي » . وعند هذه العبـارة التفتت المرأة المعبودة نحوي ، واستعاد وجهها تعبيره السماوي رغم انه ظل شارداً قليـــلاً . وقالت : « سعادتك ؟ » . وانت تحزرين هنا مـــاذا كان جوابي . وقالت : « انت اذن سعيد ؟ » فضاعفتُ احتجاجاتي . ولكنها قالت : وأنتَ سعيـد بواسطتي ! » فأضفتُ مقدماً لها الاطراء والكلمات اللطيفة الناعمـــة . وبينما كنتُ اتكلم اخذتْ جميع اعضائها تلين ، وانهارتْ بارتخاء فاستندتْ فوق مقعدها . وتخلتْ لي عن احدى يديها التي تجرأتُ على أخذها ، وقالتْ :

« انني أشعر بأن هذه الفكرة تعزيني وتريحني » .

وبامكانك ان تتصوري انني ، وقد وقعتُ هنا على هذا الموضوع ، لم أتخـلْ عنه إبداً . وكان حقيقة الموضوع الصحيح وربما الوحيـــد الذي استطيع عن طريقه أن اخفف من غلوائها . وهكذا حين اردتُ أن احاول نجاحـــاً ثانياً ، شعرتُ اولاً ببعض المقاومة . ولكن ما حدث من قبل جعلني أشد احتراساً ، بيد انني استعنت بهذه الفكرة لمساعدتي على اقناعهـــا بسعادتي . وكان ان شعرت بتأثيرات مشجعة ، وقالت لي برقة وحنو : « أنت على حق ، لم أعد استطيـع أن اتحمل كياني ، وما دام الامر كذلك فليُستخدم لجعلك سعيداً ، وأنني اكرس لك نفسي بكليتها . ومنذ الآن سأمنحك نفسي ، ولن تعاني من جانبي رفضاً ولا تأسفاً » وكان ان سلمتني جسدها ومفاتنها بهذه السذاجة البريئة او الرائعـة وزادتْ من سعادتي بمشاطرتها اياي هذه السعادة ، وكانت النشوة كاملة متبادلة. ولاول مرة تجاوزت نشوتي حدود اللذة . ولم افلت من ذراعيها الا لأجثو عند ركبتيها ، وأقسم لها على حب دائم نحوها . وينبغي ان اعترف بكل شيء فقد كنت اقول كل ما افكر به . واخيراً لم تفارقني فكرتها ابـــداً ، حتى بعد افتراقنا ، وقد

احتجت الى اشغال نفسي عنها بكل جهد لكي أسلوها .

آه ! لماذا لستِ هنا لكي تعدّلي كفّة متعة العمل بكفة متعة المكافأة ؟ ولكنني لن أضيع وقتي في الانتظار . أليس ذلك صحيحاً ؟ وأرجو أن يتسنى لي اعتبار الترتيبات السعيدة التي اقترحتها عليك في رسالتي الأخيرة كما لو اصبحت في حكم المتفق عليها . وها أنت ترين أنني نفّذتُ المطلوب مني ، وكما وعدتك فان أعمالي قد تقدمت سريعاً ، بحيث استطيع الآن ان أخصص لك جزءاً من وقتي .

سارعي أذن الى التخلص من ثقيلك بيلروش ، ودعي هنا دانسني التافه الحلاوة . لكيلا تهتمي إلا بي . ولكن ماذا تفعلين طوال هذه المدة في الريف بحيث انك لا تردين عليّ ؟ هل تعلمين انني سأؤنبك بكل طيبة خاطر ؟ ولكن السعادة تبعث على التسامح، ثم لا أنسى انك باستعادتي بدلاًمن اولئك الطامعين بك، يجب أن اخضع لنزواتك الصغيرة . وتذكري في الاثناء ان العاشق الجديد لا يريد ان يفقد شيئاً من حقوق الصديق القديمة .

الوداع كالماضي ... اجل الوداع يا ملاكي ! ابعث اليك بجميع قبلات الحب.

ملاحظة – هل تعلمين ان بريفان قد اضطر في نهاية الشهر الذي أمضاه في السجن الى الاستقالة من فرقته العسكرية ؟ وهذا النبأ هو اليوم ما يشغل باريس كلها . وهكذا يكون في الحقيقة قد عوقب معاقبة جديدة على خطأ لم يرتكبه ، وقد أصبح انتصارك عليه كاملا .

١٢٦

من السيدة دي روزموند الى الرئيسة تورفيل

قصر ... في ٣٠ تشرين الأول ؟؟ ١٧

لقد كان بودي ان أجيب على رسالتك يا ابنتي اللطيفة ، قبل هذه المدة ، ولكن العناء الذي سببته لي رسالتي الأخيرة اليك جعلت آلامي تعاودني من

twitter @baghdad_library

جديد ، وحرمتني مرة أخرى من استخدام ذراعي طوال هذه الأيام . وكنت تواقة لأن اشكرك على الانباء السارة التي اطلعتني عليها بصدد ابن اخي ، فتقبلي اذن تهانيَّ المخلصة . ونحن مجبرون على الاعتراف هنا حقيقة بأن هذا الاتجاه هو نعمة من نعم العناية الآلهية التي أصابت شخصاً وانقذت آخر . أجل يا حسنائي العزيزة ، ان الخالق الذي شاء الا يعذبك ، قد اغاثك في الوقت المناسب بعد أن خارت قواك . ورغم اعتراضك الصغير ، فان لديك بعض الاعمال الخيرة التي يجب ان تقومي بها تقديراً لهذه النعم .

ولا يعني ذلك أنني لا أشعر بتقدير للقرار الحكيم الذي اتخذتـه اولاً ، وان قرار السيد دي فالمون لم يأتِ إلا على الأثر ، بل يبدو لي من الناحية الانسانية ان حقوق جنسنا نحـن النساء يجب ان تظل محفوظة جيداً ولا نريـد ان نفقد منها شيئاً ! ولكن ما قيمة هذه الاعتبارات الخفيفة تجاه المقاصـد الهامة التي حُققت ؟ وهل يمكن ان يُرى ذلك الذي يُنقذ من الغرق يشكو لانه لم يختر وسائل انقاذه ؟

ستشعرين قريباً ، يا ابنتي العزيزة ، ان الآلام التي تخشينها ستزول من تلقاء نفسها شيئاً فشيئاً . واذا كان لا بد لها من ان تبقى دائماً وبكاملها ، فستشعرين اكثر ان تحملها سيكون اهون من تحمل تبكيت الضمير بسبب الخطيئة واحتقار الذات . لقد كان من غير المجدي لو حدثتك قبل اليوم بمثل هـذه الصراحة الظاهرة ؛ لان الحب هو شعور مستقل ، يستطيع الاحتراس وحده ان يتجنبه ، ولكنه لا يستطيع ان يتغلب عليه ، وان الحب متى وُلد لا يمكن ان يموت الا بنفسه او من جراء يأس تام ، وان الحالة الاخيرة التي أنت فيهـا الآن تمنحني الشجاعة والحق على ان اطلعك على رأيي بحرية . وانه لمن الظلم إخافـة مريض يائس ، لا يتقبل العزاء والمؤاساة . ولكنه من التعقـل تنوير مريض في طور النقاهة حول الاخطار التي مر بها ، لكي نوحي اليه بالاحتراس الذي هو بحاجة اليه ، واخضاعه للنصائح التي يمكن ان تكون ضرورية اليه .

وبما انك تختارينني كطبيبك فانني اتحدث اليك بلغته ، وان الوعكات الصغيرة

التي تشعرين بها في الوقت الحاضر والتي تحتاج ربما الى بعض العلاجات ، ليست شيئاً اذا قيست بالمرض الكبير المفزع الذي تأكد شفاؤك منه الآن .

واخيراً فانني بوصفي صديقتك ، صديقة امرأة متعقلة وفاضلة اسمح لنفسي بأن أضيف قائلة ان هذا الميل التعيس الذي سيطر عليك ، قد اصبح اشد تعاسة بسبب الشخص الذي أثاره . واذا صدّقت ما يقال فان ابن اخي الذي اعترف بحبي الشديد له ، والذي يجمع بالفعل كثيراً من الخصال الحميدة ، وكثيراً من الظرف والكياسة ، لا يخلو من خطر على النساء، كما لا يخلو من اخطاء تجاههن ، وهو يبذل جهداً مساوياً لاغرائهن وتضليلهن . واعتقد جيداً انك عملت على هدايته . ولا ريب بأنه ليس هناك شخص اكثر منه جدارة بذلك . ولكن كثيرين غيره تباهوا مثله وخاب الامل فيهم ، وارجو الا يصل بك الامر الى هذا الحد .

فكري يا حسنائي العزيزة ، انه عوضاً عن الاخطار التي كنتِ ستلقينها ، ستنعمين براحة ضميرك وهنائك ، وكذلك بالارتياح لكونك كنت السبب الرئيسي في الهداية السعيدة للسيد دي فالمون . ومن جهتي فانني لا اشك بان هذا العمل هو ، في جزء كبير منه ، نتيجة مقاومتك الشجاعة ، وان لحظة تخاذل من جانبك كانت قد تركت ابن اخي في ضلال دائم . احب ان افكر بهذه الطريقة وارغب في ان اراك تفكرين مثلي ، وهكذا ستجدين تعزياتك الاولى ، وسأزداد حباً لك .

انني انتظر يا ابنتي اللطيفة وصولك الى هنا في غضون ايام قليلة، كما اعلمتني. وستجدين الهدوء والسعادة في الاماكن نفسها التي غادرتها ، تعالي لكي تتمتعي بعطف والدتك الحنون ، بعد ان حافظتِ على عهدكِ الذي وعدتها به ، وهو ألا تفعلي شيئاً لا يكون جديراً بها وبك !

twitter @baghdad_library

١٢٧

من المركيزة دي ميرتاي إلى الفيكونت دي فالمون

قصر ... في ٣١ تشرين الأول ؟؟ ١٧

اذا لم أكن قد أجبتُ ، ايهـا الفيكونت ، على رسالتك المؤرخة في ١٩ ، فليس لأنه لم يكن لديّ وقت لذلك، بل فقط لأنها أثارت حنقي ، ولم أجد فيها معنى مألوفاً . لقد اعتقدتُ إذن أنه ليس هناك أفضل من تناسيها . ولكن بما انك قد عدتَ اليها ، وبدوتَ متمسكاً بالافكار التي تضمنته ، واعتبرت صمتي كموافقة ، يجب ان اقول لك رأيي بصراحة .

لقد تسنى لي في بعض الاحيان الادعاء بأنني استطيع ان أحلّ وحدي محل جيش كامـــل من النساء ، ولكن لم يتفق لي أن كنت جزءاً منهن . وكنت اظنك تعرف ذلك عني . وبامكانك ان تلاحظ ، بعد أن اصبحت لا تجهل ذلك الآن على الأقل ، كم بدا لي اقتراحك سخيفاً . من ؟ أنا ؟ اضحي بميل جديد ، بميل لم اتذوقه بعد ، في سبيل الاهتمام بك ؟ ولكي اهتم بـك بأية طريقة ؟ انتظر دوري كجارية محكوم على امرها لكي اتلقى الملاطفات الرفيعة من سموك العالي. ومتى ؟ مثلاً حين تريـد ان تسلو لحظة ما هذا « السحر المجهول » الذي جعلتك « المعبودة السماوية » السيدة دي تورفيل وحدها تشعر به ، وحين تخشى ان تتورط لدى « المغرية سيسيل » بالفكرة الرائعة التي يسرك أن تحفظها عنك : وعندئذ تتنازل اليّ ، وتأتي للبحث عندي عن متع أقل حدة في الحقيقة ولكنها دون نتائج : وان بقية مـكارمك الثمينة رغم ندرتها ستكفي لسعادتي ؟

إنك غني اكيداً في الافكار الحسنة عن نفسك : ولكنني ظاهرياً لست غنية بالتواضع ، لانني مهما نظرت الى نفسي لا استطيع ان اجد أنني قـد وصلت إلى هذه الدرجة من الانحطاط . ولعل هذا خطأ من جانبي . ولكنني أنذرك أن لديّ اخطاء كثيرة غيره .

ومن بين هذه الاخطاء انني اعتقد ان التلميذ التافه الحلاوة دانسني المشغول

بي الآن فقط ، والذي يكرس لي هواه الأول دون أن يجعل من ذلك ميزة له ، والذي يحبني اخيراً كما يحب كل من كان في مثل عمره ، يستطيع ان يعمل ، رغم سن العشرين بفعالية أشد منك ، من اجل سعادتي وملذاتي . واسمح لنفسي ايضاً بأن اضيف انه لو طرأت علي نزوة ما لكي استعين معه بمساعد فلن يكون هذا المساعد انت في الوقت الحاضر .

فما هي الاسباب التي تحدوك لأن تطلب ذلك مني ؟ ولكن من الممكن جداً إن لا يكون لديك اي سبب ، لأن النزوة الطائشة التي تجعلك مفضلاً ، يمكن ايضاً ان تجعلك مستبعداً . واود مع ذلك ، من قبيل اللياقة ان ابرر لك رأيي . اذ يبدو لي بأن عليك ان تبذل تضحيات كثيرة من اجلي ، وانا بدلاً من ان يكون لدي الامتنان الذي ستنتظره مني ، سأكون معتقدة بأنك مدين لي ايضاً بمثل هذا الامتنان ! ارأيت كيف اننا — نظراً لاختلاف كلٍ منا في طريقة تفكيره — لا نستطيع ان نتقارب بأية طريقة من الطرق ، واخشى ان احتـــاج الى وقت طويل لكي ابدّل هـذا الشعور . وحين ساصطلح ، اعدك بـــأن ابلغك الامر وبالانتظار — صدقني — قم بترتيبات اخرى ، واحتفظ بقبلاتك لانك بحاجة الى ان تحسن طبعها بشكل أفضل !

الوداع ، كعهدنا السابق ، كما تقول ؟ ولكنك في الماضي كنت تهتم بي اكثر من الآن ، ولم تكن قد خصصتني بعد للادوار الثالثة . وبصورة خاصة كان عليك ان تنتظر ان اقول كلمـــة نعم قبل ان تحصل على موافقتي . الا تجد من الافضل ان اقول لك بدلاً من الوداع كعهدنا السابق ، الوداع كما نحن الآن .

خادمتك ايها الفيكونت !

١٢٨

من الرئيسة تورفيل الى السيدة دي روزموند

باريس في اول تشرين الثاني ؟؟ ١٧

لم أتلق سوى أمس فقط ، يا سيدتي ، جوابك المتأخر . ولو كان كياني ما

twitter @baghdad_library

زال ملكي لكان جوابك قتلني على الفور، ولكن هنـــاك شخصاً آخر أصبح يمتلكه . وهذا الشخص هو السيد دي فالمون . ارأيت ، انني لا أخفي عليك شيئاً. واذا كان عليك إلا تجديني جديرة بصداقتك فانني أخشى من اضاعتها اقل من ادهاشها ، كل ما استطيع ان اقوله لك ان السيد دي فالمون جعلني اختار بين موته وسعادته ، فقررت ان اختار سعادته . وانني لا افتخر بذلك ، ولا ألوم نفسي ، بل أروي فقط ماذا حدث .

وانك لتشعرين بسهولة كم كان تأثير جوابك ، والحقائق الصارمة التي تضمنها ، في نفسي. لا تعتقدي مع ذلك انه كان يمكن ان يبعث فيّ ندماً ما ، أو يستطيع ان يبدل شيئاً من العاطفة او المسلك . ليس لانه لا توجد لدي لحظات قاسية ، بل حين يكون قلبي هو الاكثر تمزيقاً ، وحين أخشى الا أستطيع تحمل الوساوس والهموم ، اقول لنفسي : « فالمون هو سعيد » . وكل شيء يزول امام هـــذه الفكرة ، أو بالاحرى يتبدل كل شيء إلى سرور .

وهكذا اكون قد كرست نفسي لابن شقيقك . وبسببه قد ضللت . وقد اصبح المركز الوحيد لافكاري ومشاعري واعمالي . وما دامت حياتي ضرورية لسعادته ، فستكون ثمينة لديّ ، وسأجدها سعيدة الحظ ، اما اذا بدّل رأيه يوماً ما ... فلن يسمع من جهتي اية شكوى ولا ملامة ، وقد سبق لي ان فكرت بهذه اللحظة ، واتخذت قراري .

أرأيت في الوقت الحاضر كم ان مخاوفك يمكن الا تؤثر بي كثيراً ، إلا اذا شاء السيد دي فالمون ان يفقدني ، انه قبل ان يرغب في ذلك سيكون قد كف عن محبتي . وماذا يمكن ان تفعل لي مآخذ غير مجدية سوى انني لن اصغي اليها؟ وسيكون وحده الحكم . وبما انني لن اعيش الا من اجله ، فان ذاكرتي ستعتمد عليه ، وهو مجبر على ان يعترف بأنني احببته ، وعندئـــذ سأكون معذورة بصورة كافية .

ها انك يا سيدتي قد قرأت ما بقلبي ، وقد فضلت تعاسة فقدان احترامـك بصراحتي ، على جعل نفسي غير جديرة به بتصنع الكذب . واعتقد انني مدينة

بهذه الثقة التامة إلى مكارمك السابقة نحوي . ولو اضفت كلمة واحدة زيادة عما قلته ، لجعلتك ترتابين بأن لدي الكبرياء في الاعتماد عليها ايضاً . بينما على العكس احكم على نفسي بالتوقف عن الطمع فيها .

انني يا سيدتي بكل احترام خادمتك المتواضعة المطيعة .

١٢٩

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

باريس في ٣ تشرين الثاني ؟؟ ١٧

أخبريني اذن ، يا صديقتي الحسناء ، من اين يمكن ان تأتي هذه اللهجة من الفظاظة والاستهزاء التي تسود رسالتك الاخيرة ؟ وما هي هذه الجريمة التي ارتكبتها ، ظاهرياً دون ان اشك بها ، والتي تثير فيك هذا القدر من الاستياء؟ انت تلومينني على كوني بدوت بأنني اعتمدت على موافقتك قبل ان احصل عليها : ولكنني كنت اعتقد ان ما يمكن ان يبدو من قبيل الافتراض بالنسبة لجميع الناس لا يمكن ان يؤخذ بينك وبيني إلا من قبيل الثقة .

ومنذ متى كانت الثقة تضرُّ بالصداقة أو بالحب ؟ وانني بضمي الأمل إلى الرغبة ، لا افعل سوى أنني رضخت للاغراء الطبيعي الذي يعمل على وضعنا اقرب ما يمكن من السعادة التي نبحث عنها . وقد اعتبرتِ ما كان قد صدر مني بسبب التعجل على انه بدافع الخيلاء والعجرفة .

انا اعلم جيداً أن رفع الكلفة بيننا قد اثار هنا شكاً محترماً ، ولكنك تعلمين ايضاً ان هذه الامور ليست سوى شكليات ، بل مجرد رسميات، وقد بدا لي انه مسموحٌ لي بأن اعتقد ان هذه الاحتياطات الدقيقة لم تعد ضرورية بيننا .

ويبدو لي ايضاً أن هذا المنهج الصريح الحر ، حين يكون قائماً على اساس علاقة قديمة ، هو أفضل من الملاحظة السخيفة التي تجعل الحب فاتر المذاق. ولعل القيمة التي اجدها في هذه الطريقة لم تأتِ إلا من القيمة التي أُعلقها على السعادة التي

twitter @baghdad_library

تذكرني بها : ولكن حتى بهذا التعليل نفسه سيكون من الصعب جداً عليّ ايضاً ان اراك تحكمين على الأمر خلاف ذلك .

اليك مع ذلك الخطأ الوحيد الذي اعرفه في نفسي : لأنني لا أتصور انك استطعت ان تفكري بصورة جدية انه توجد امرأة وحيدة في العالم تبدو لي مفضلة عليها . أو انني استطعت الا اقدرك جيداً كما بدوت انك تظنين .

لقد قلت لي انك نظرت إلى نفسك ووجدت انك لن تصلي إلى هذا الدرك . وهذا ما اعتقده جيداً ، وهو يدلُّ على ان مرآتك امينة . ولكن الم يتسنَّ لك ان تستنتجي ، بسهولة وعدالة اكثر ، انني اكيداً لم احكم عليك ابداً بهذه الصورة .

انني ابحث عبثاً عن سبب لهذه الفكرة الغريبة ، ويبدو لي انها تعود الى الثناء الذي سمحتُ لنفسي بتقديمه للنساء الأخريات . وقد استنتجته من تظاهرك بالاستشهاد بنعوت « المعبودة والسماوية والمغرية » التي استخدمتها وانا احدثك إما عن السيدة تورفيل واما عن الصغيرة فولانج . ولكن الا تعلمين ان هذه الكلمات — اذا أخذت من قبيل المصادفة ، او من قبيل التفكير — لا تعبّر كثيراً عن المعنى المقصود منها حقيقة بالنسبة للاشخاص الذين تُطلق عليهم ، بقدر ما تعبر عن الموقف الذي يكون فيه القائل حين يتحدث عن هؤلاء الاشخاص ؟ وحتى اثناء اللحظات التي كنت متأثراً فيها بحرارة هذه او تلك ، لم اكن اقلّ رغبة فيك عما قبل . واذا كنتُ قد اعطيتك افضلية ملحوظة عليها ، فلأنني لا استطيع ان اجدد علاقتنا الاولى الا على حسابها ، ولا ارى هنا موضعاً للعتب .

لن يكون من الصعب عليّ ان ابرّر نفسي بصدد «السحر المجهول» الذي تبدين لي انك قد صُدمت به قليلاً : ولكن الشيء المجهول لا يعني مطلقاً أنه الأقوى . ثم من يستطيع أن يتفوق على الملذات العذبة التي تعرفين انت وحدك أن تجعليها دائماً جديدة ، ودائماً اكثر حدة كالسابق ؟

لقد عنيتُ فقط ان هذا السحر كان من نوع لم اشعر به بعد . ولكن دون أن ازعم تحديد درجة له . وقد اضفت الى ذلك — ما اكرره اليوم — انه مهما كان عليه هذا السحر فانني سأعرف ان احاربه واهزمه . وسأبذل المزيد من

النشاط ايضاً ، اذا تسنى لي ان أرى في هذا الجهد الخفيف مبعث اطراء لك .

اما الصغيرة فولانج فاعتقد انه من غير المجدي ان احدثك عنها . وانك لم تنسِ أنني قد تكفلتُ بهذه الطفلة بناء على طلبك ، ولا انتظر الا اجازتك لكي اتخلص منها ، وقد استطعتُ ان الاحظ مهارتها ونضارتها ، وخيّل لي في وقت من الاوقات انها مغرية ، لانه مهما كان الحال ، فانها تثير الغبطة في اعماقهـــا . ولكنها اكيداً لا تدرك شيئاً مما يلفت الانتباه .

وهكذا احتكم الآن، ياحسنائي إلى عدالتك وإلى مكارمك الأولى نحوي،وإلى الصداقة الطويلة الكاملة ، والثقة التامـــة التي اوثقت الروابط بيننا منذ ذلك الحين : فهل استحق هذه اللهجة الصارمة التي تستخدمينها معي ؟ ولكن سيكون من السهل عليك أن تعوضيني عن ذلك متى تشائين ! قولي فقط كلمة واحـدة ، وسترين اذا كان كل السحر ، وكل الاغراء سيمسكان بي هنا . كلا ، حتى ولا يوماً واحداً، ولا دقيقة واحدة . وسأطير حتى قدميك . وسأبرهن لك الف مرة ، وبألف طريقة على انك ، وستكونين دوماً ، سيدة قلبي .

الوداع يا صديقتي الحسناء ، إنني انتظر جوابك بصبر نافد .

١٣٠

من السيدة دي روزموند إلى الرئيسه تورفيل

قصر ... في ٤ تشرين الثاني ؟؟ ١٧

ولمـــاذا ، يا حسنائي العزيزة ، لا تودّين أن تكوني كأبنتي ؟ ولماذا تظهرين وكأنك تعلنينأن المراسلة ستتوقف بيننا ؟ هـــل تفعلين ذلك لكي تعاقبينني على عدمٍ حدسي بما كان بعيد الاحتمال ؟ أم انك ترتابين بي لأنني أشجيتك عن غير قصد ؟ أنا أعرف قلبك جيداً ، ولا أعتقد أنه يفكر على هذا النحو . وكذلك فإن الكرب الذي سبّبتهُ رسالتك لي لم يكنبالنسبة لي أقل مما هو بالنسبة لك .

أقول لك بكل عذوبة يا صديقتي الشابة انك جديرة بأن تكوني محبوبة إلى

twitter @baghdad_library

درجة يجعلك الحب سعيدة إلى الأبد ، ثم ! أية امرأة رقيقة حساسة لم تلقَ في حياتها نكداً في هذه العاطفة نفسها التي كانت تَعِدُها بكثير من السعادة ؟ وهل يعرف الرجال أن يقدّروا قيمة المرأة التي يمتلكونها ؟

وليس هذا عائداً إلى ان ثمة كثيرين من الرجال غير شرفاء في أساليبهم ، وغير ثابتين على العهد في عواطفهم . بل لأن هناك حتى بين الشرفاء الأوفياء قلةٌ تعرف ان تتّحد مع قلوبنا ! فلا تظني يا ابنتي العزيزة ان حبهم مماثل لحبنا . اذ غالباً ما يضعون فيه هياماً أشد . وهم يشعرون حقاً بالنشوة ذاتها ، ولكنهم لا يعرفون هذا التعجل القَلِق ، وهذا الالحاح الرقيق ، اللذين يحدثان فينا تلك الملاطفات الحنونة المستمرة وهدفها الوحيد هو الشخص المحبوب . أن الرجل يتمتع بالسعادة التي يشعر بها ، والمرأة بالسعادة التي تُحدِثها . وهذا الفرق – المهم جداً ، والملحوظ قليلاً – يؤثر مع ذلك بطريقة حساسة على مسلكهما المتبادل بكليته . كما ان متعة هؤلاء هي في إرضاء شهواتهم ، بينما متعتنا نحن هي في اثارة هذه الشهوات . واذا كان الرجل يسعى للحصول على إعجاب النساء به ، فلكي يستخدم هذا الاعجاب كوسيلة للنجاح ، بينما يعتبر البحث عن اعجاب الآخرين لدى المرأة هو النجاح بعينه . وهكذا فان حب التزيُّن الذي غالباً ما تؤاخذ عليه المرأة، ليس إلا افراطاً في هذه الطريقة من الشعور، ومن هنا تتضح الحقيقة . وأخيراً فان هذا المذاق الذي يتميز به الحب وحده ليس لدى الرجل سوى أفضليةٍ تُستَخدم على الأرجح لاضفاء قيمة على المتعة قد يضعفها هدف آخر ، ولكنه لا يقضي عليها، بينما هو لدى المرأة شعور عميق لا يمحق اية رغبة غريبة فحسب ، بل هو أقوى من الطبيعة ، يخضعها لسلطانه ، ويجعلها تعاني التعزز حيث يجب ان تشعر بأوج اللذة .

ثم لا تظني ان هناك استثناءات – قد تكون كثيرة أو قليلة العدد – يمكن الاستشهاد بها على انها تخالف هذه الحقائق العامة بنجاح ! ولكنني وجدت يا حسنائي العزيزة انه قد يكون من المفيد ان اعرض عليك هذه الافكار الرزينة الناضجة مقابل الأوهام التي تتخيلها عن وجود سعادة كاملة ، يكون الحب

مبعثها . انها أمل خادع، ما زلنا نتمسك به ايضاً، حتى ولو اضطررنا الى التخلي عنه ، لا بل يثير فقدانه الاشجان الحقيقية التي لا تنفصل عن كل هوى حاد ويضاعفها !

إن هذه الرغبة في تخفيف آلامك أو التقليل من عددها هي الوحيدة التي أبغيها والتي استطيع ان اقوم بها في الوقت الحاضر. وان النصائح ازاء الامراض المستعصية لا يمكن ان تنحصر إلا في نظام الأكل والحمية. وما اطلبه اليك فقط، هو أن تتذكري ان الرثاء لحالة مريض ليس معناه لومه وتأنيبه . ثم من نحن لكي نلوم بعضنا البعض ؟ ولندع حق الحكم علينا اذن إلى من يقرأ وحده ما في الصدور . وأجرأ على الاعتقاد أيضاً أن مجموعة الفضائل يمكن أن تنقذ المرأة —بانظاره الابوية— من تخاذل مرت به .

ولكنني اناشدك ، يا صديقتي العزيزة ، ان تبعدي عنك هذه القرارات العنيفة التي تدل على الضعف وتثبيط الهمة ، ولا تنسي انك بجعلك رجلاً آخر يملك كيانك — وانا هنا استعمل عبارتك — لن تستطيعي ان تحرمي اصدقاءك من حقوقهم عليك التي يملكونها سلفاً ، والتي لا يكفون ابداً عن المطالبة بها .

الوداع يا ابنتي العزيزة ، فكري احياناً بأمك الحنون ، وثقي انك ستكونين دوماً ، ومهما حدث ، موضع افكارها العزيزة .

١٣١

من المركيزة دي ميرتاي إلى الفيكونت دي فالمون

قصر ... في ٦ تشرين الثاني ؟؟ ١٧

حسناً ايها الفيكونت. انا مسرورة منك هذه المرة اكثر من المرة السالفة . ولكن لنتحدث بصداقة طيبة . وآمل ان أقنعك بأن الاجراء الذي تبدو انك ترغب فيه سيكون —بالنسبة لك كما هو بالنسبة لي— جنوناً حقيقياً .

ألم تلاحظ إذن حتى الآن ان اللذة التي هي بالفعل الدافع الوحيد لاتحاد

twitter @baghdad_library

جنسين ، لا تكفي مع ذلك لقيام علاقة بينهما ؟ وانها اذا كانت مسبوقة بالشهوة التي تقرّب ، فهي غالباً ما تكون متبوعة بالتقزز الذي ينفّر ؟ هـــذا هو قانون الطبيعة الذي يستطيع الحب وحده أن يبدله . ولكن هل يكون لدينا مـن الحب متى نشاء ؟ ومع ذلك فلا بد منه دوماً . وسيكون الأمر محيراً جداً لو لم نلاحظ لحسن الحظ أنه يكفي لذلك ان يكون الحب موجوداً لدى طرف واحد. وعندئذ تصبح الصعوبة في منتصف الطريق . لا بل دون ان يكون هناك مـا يبعث على الخسران . وبالفعل سيتمتع احدهما بسعادة ان يحب ، والآخر بلذة ان يعجب بشكل اقل حدة في الحقيقة ، ولكنه يضفي على ذلك متعة الخداع ، مما سيوازن الكفة . واذا بكل شيء يسير على ما يرام .

ولكن قـــل لي ، ايها الفيكونت ، من منا سيتعهد بان يخـــدع الآخر ؟ انت تعرف قصة ذينك المخادعين اللذين اكتشفا ان احدهمـــا يخدع الاخر وهما يقامران ؛ فقالا : لن نفعل شيئاً ، بل لنتقاسم الارباح والخسائر مناصفة . وكان ان تخليا عن اللعبة . فلنقتد اذن بامثولتهما الرائعة ولا نحـــاول ان نضيـع معاً وقتاً نستخدمه جيداً في مكان آخر .

ولكي أُثبت لك هنا ان مصلحتك هي التي تجعلني اتخذ هـــذا القرار بقدر مصلحتي ، وانني لا أتصرف بدافع النقمة ولا بدافع النزق الطـــائش ، فانني لا ارفض أن ادفع لك الثمن المتفق عليه بيننا : وأشعر ان سهرة واحدة تستطيع ان تكفينا . ولا أرتاب ابداً باننا نعرف كيف نجعل منهـا سهرة رائعة نندم على انتهائها . ولكن يجب ألا ننسى ان هذا الندم هو ضروري للسعادة . ومهما كان وهمنا عذباً يجب ألا نعتقد انه سيكون مستمراً .

أرأيت أنني أُنفذ بدوري ما وعدت به دون ان تكون قـد نفذت انت ما طلبته منك : لأنني اخيراً يجب ان احصل على رسالة أولى من الورعة السماوية ، ومع ذلك إما انك ما زلت تتمسك بشروط المساومة وإما انـــك نسيتها ولا يهمك القيام بها كما يجب . وهكذا فانني لم اتلق شيئاً . وفي الاثناء إما ان اكون مخطئة وإما ان الورعة يجب ان تكتب كثيراً ؛ لأنها ماذا تفعل حين تكون

وحدها ؟ وهي لا تملك اكيداً ذهناً صافياً يحملها على التسلية والسلوان . وهكذا كان ينبغي عليّ ان اوجه اليك بعض الملامات الصغيرة ، ولكنني أفضل السكوت عليها ، تعويضاً عن الاستياء الذي أبديته لك في رسالتي الأخيرة .

والآن ايها الفيكونت ، لم يبق لي الا أن اتقدم اليك بطلب بسيط يهمك كما يهمني : وهو أن تؤجل ما أرغب فيه ، مثلما ترغب انت ، الى حين عودتي الى المدينة . فمن ناحية لن تكون لدينا هنا الحرية اللازمة ، ومن ناحية اخرى اخشى ان اتعرض لبعض المجازفات بسبب حضورك : لأن هذا التعيس بيلروش لا يحتاج إلا الى بعض الغيرة لكي يزداد تعلقاً بي ، بينما لم يعد مرتبطاً بي الآن إلا بخيط واهي . وقد اصبح الآن في تضجر من حبه لي الى درجة انني ابذل احياناً من الخبث بقدر ما أبذل من الاحتراس في المداعبات التي أُشحنه بها فوق طاقته . ولكنك ترى في الوقت نفسه انني لا استطيع ان اقوم هنا بأية تضحية من أجلك ! وان خيانة متبادلة تجعل السحر اكثر متعة .

هل تعلم انني اتأسف في بعض الاحيان لكوننا اخذنا نلجأ الى هذه الأنواع من السبل ؟ ففي العهد الذي كنا نحب خلاله احدنا الاخر ـ واعتقد ان ذلك كان حباً ـ كنت سعيدة ، وانت يا فيكونت ؟ ولكن لماذا نشغل انفسنا ايضاً بسعادة لا يمكن ان تعود ؟ كلا ان عودتها مستحيلة مهما تقول . لأنني أولاً سأطالب بتضحيات جسيمة لا تستطيع اكيداً أو لا تريد ان تقوم بها ، ومن الممكن ايضاً ألا استحقها . ثم كيف العمل لجعلك تثبت على العهد ؟ آه ! كلا . كلا ... لا أريد ابداً ان اهتم بهذه الفكرة . ورغم السرور الذي اجده الآن وانا اكتب اليك فانني افضل ان اتركك فجأة . الوداع ايها الفيكونت .

twitter @baghdad_library

١٣٢

من الرئيسة تورفيل الى السيدة دي روزموند

باريس في ٧ تشرين الثاني ؟؟ ١٧

أما وقد غمرتني يا سيدتي بمكارمك نحوي ، فأنني استسلم اليها بكليتي ، لولا ان ما يمسكني عنها هو خشيتي من ان انتهك حرمتها بقبولها . ولماذا ينبغي حين أجدها ثمينة جداً ، الا أشعر بأنني غير جديرة بها ؟ آه ! انني اجرأ على الأقل على ان اقدم اليك امتناني لفضلك ، وسأعجب بصورة خاصة بهذا التسامح الصادر عن الفضيلة الذي لا يعرف تخاذلنا إلا لكي يرأف به ، والذي يحتفظ سحره الجبار على قلوبنا بسلطان عذب قوي حتى الى جانب سحر الحب .

ولكن هل استطيع ان استحق ايضاً صداقةً لم تعد كافية لسعادتي ؟ واقول الشيء نفسه عن نصائحك .

انني أشعر بقيمتها ، ولا استطيع أن أتقيد بها . وكيف لا أؤمن بسعادة كاملة حين أشعر بها الآن ؟ اجل ، اذا كان الرجال هم كما تقولين ، فلا بد من ان نهرب منهم ، انهم مكروهون . ولكن كم ان فالمون بعيد عن ان يشبههم ! واذا كان لديه مثلهم هذا العنف في الهوى الذي نسميه هياماً ، فانه يعرف كيف يتجاوزه بالافراط في رقته ! آه يا صديقتي . تقولين لي انك تشاطرينني اشجاني ، فتمتعي أذن بسعادتي . وانا مدينة بها الى الحب . وكم يزيدُ مَن أحبه مِن قيمتها ! انت تحبين ابن اخيك كما تقولين بتخاذل ، ولكن ماذا تقولين لو عرفته كما أعرفه انا ؟ انني أحبه بشغف وولع ، لا بل أقلّ ايضاً مما يستحقه . لقد انقاد بدون شك وراء بعض الاخطاء . وهو يُقرُّ بذلك . ولكن من الذي عرف مثله الحب الحقيقي ؟ ماذا استطيع ان اقول لك علاوة على ذلك ؟ انه يشعر به كما يوحيه .

ستعتقدين ان هذه الفكرة هي « إحدى الأفكار الوهمية التي يبعثها الحب فينا مستغلاً خيالنا » . ولكنه في هذه الحالة لماذا أصبح اكثر رقة واكثر تعجلاً منذ ان حصل على كل شيء؟ أعترف انني كنت اجد فيه قبلاً مظهراً من التفكير

والتحفظ لم يكن يتخلى عنه الا نادراً ، مما كان يقودني غالباً رغماً عني إلى تلك الانطباعات الزائفة القاسية التي نقلوها إليّ عنه . ولكنه ما ان استسلم دون وجل الى نوازع قلبه حتى بدا أنه أخذ يحزر كل رغبات قلبي . من يعلم اذا لم نكن قد خلقنا لنكون احدنا للآخر ، واذا لم تكن هـذه السعادة التي اشعر بها هي ضرورية لسعادته ؟ آه ، لو كانت هذه أوهاماً فلأمت اذن قبل أن تنتهي . ولكن لا . اريد ان احيا لكي أعزّهُ وأعبده . لماذا سيكفُّ عن حبي ؟ واية امرأة اخرى تجعله اكثر سعادة مني ؟ أشعر بنفسي ان هذه السعادة التي اخلقها هي اقوى رابطة ، لا بل الوحيدة التي تربط حقيقة بين كائنين ، اجل ان هذا الشعور العذب هو الذي يجمّل الحب ويطهره نوعاً ما ، ويجعله حقيقة جديراً بروح رقيقة ناعمة وكريمة كروح فالمون .

الوداع يا صديقتي العزيزة المحترمة المتسامحة ، اود عبثاً ان اكتب اليك رسالة اطول ، ولكن ها ان الساعة التي وعد بالحضور فيها قد حانت . ولذلك تتخلى عني كل فكرة اخرى. عفواً !..بيد انك تريدين سعادتي ، وانها لعظيمة جداً الآن .

١٣٣

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

باريس في ٨ تشرين الثاني ؟؟ ١٧

ما هي اذن ، يا صديقتي الحسناء ، تلك التضحيات التي ترين انني لن أقدم عليها ، والتي سيكون ثمنها مع ذلك نيل اعجابك ؟ آه دعيني أعرفها فقط ، وسترين ما اذا كنت اتردد في تقديمها اليك ام لا للحصول على عطفك . كيف تحكمين عليّ منذ حين قصير ، اذا كنت حتى في تسامحك ترتابين ايضاً في مدى عواطفك وطاقتي ؟ هناك تضحيات لا استطيع ولا أريد أن ابذلها ؟ هكذا اذن تظنين انني عاشق مقهور على أمره ؟ وكل القيمة التي علقتها على النجاح

twitter @baghdad_library

تشتبهين بأنني اوقفها على المعشوقة ؟ انني لم أصل ، بفضل السماء الى هـذا الحد بعد . وها أنا أعرض نفسي لكي اثبت لك ما أعنيه . اجل سأثبت لك ما يجب ان يكون تجاه السيدة دي تورفيل . ومن المؤكد بعد ذلك انه ينبغي ان تزول كل ريبة لديك .

لقد تسنى لي كما أعتقد ان أمنح بعض الوقت - دون أن اتورط - إلى امرأة تتميز على الأقل بأنها من النوع الذي لا نلقاه الانادراً . ولعل ايضاً الموسم الكاسد الذي وقعت لي فيه هـذه المغامرة ، جعلني أنساق فيها الى حد بعيد . وحتى في الوقت الحاضر - ليس من المدهش ان تشغلني هذه المغامرة بكليتي تقريبـاً . ولكن تذكّري اذن انه لم تمضِ عليَّ سوى ثمانية ايام فقط وانا أتمتع بثمرة ثلاثة أشهر من الجهود . وفي بعض الاحيان كنت احتـاج الى وقت اطول مع من هنَّ اقل قيمة منها . ومع ذلك فلم تستنكري ابداً موقفي .

ثم هل تريدين أن تعلمي السبب الحقيقي لهذا النوع من التعلق الذي ابديه ؟ اليك به : أن هذه المرأة هي خجولة بطبيعه الحـال ... وقد كانت تشك طيلة الأيام الأولى من علاقتنا في سعادتها ، وكان هذا الشك كافياً لأن يقضَّ مضجعها : وقد أخذتُ الاحظ إلى أين تمضي قوتي في هذا الميدان . وهـذا أمر كنت مع ذلك تواقاً لمعرفته . ولكن الفرصة لم تكن مؤاتية بسهولة .

اولاً ان اللذة لدى جميع النساء هي لذة بحت ، وليست خلاف ذلك . ولسنا نحن معشر الرجـال بنظر هؤلاء - مهما كانت الصفة التي ينعتوننا بها - سوى عوامل لبعث اللذة . أو بالاحرى مجرد وسطاء . وان من ينشط اكثر من غيره بين هؤلاء الوسطاء هو دائماً المفضل .

وعند طبقة أخرى من النساء - لعلهـا هي الاكثر عدداً اليوم - لا تهتم المرأة ، إلا بشهرة العاشق ، ومتعة انتزاعه من احدى المزاحمات ، والخوف من أن يُنتزع بدوره ، وهكذا ندخل نوعاً ما ضمن النمط من السعادة التي يتمتعن بها . بيد ان ذلك يتوقف على الظروف اكثر مما يتوقف على الشخص . وهذه السعادة تأتيهن بواسطتنا وليس من قبلنا !

وكان لا بدّ من أن أعثر إذن – من اجل ملاحظاتي – على امرأة رقيقة حساسة، تجعل من الحب همها الأوحد، وحتى في الحب لا ترى سوى حبيبها، ويكون انفعالها صادراً – بعكس الطريقة المعتادة – عن القلب دائماً، لكي يصل الى الحواس، وكما رأيتها مثلاً (ولا أتحدث هنا عن اليوم الاول) تخرج من اللذة متكدرة، ثم تعود فتجد بعد فترة وجيزة أوج المتعة في كلمة واحدة تستجيب لروحها. وأخيراً كان لا بد من أن تجمع الى ذلك، هذه السذاجة الطبيعية التي اصبحت بحكم العادة لا يمكن التغلب عليها، ولا تسمح لها بان تخفي اي احساس من احاسيس قلبها. أما والحالة كما ذكرت فانك تقرّين معي أن مثل هؤلاء النساء هن نادرات. وأعتقد انني لولا هذه لما كنت حظيت بواحدة منهن.

فلن يكون من المدهش إذن ان تكون قد جعلتني اثبت عليها مدة اطول من غيرها. واذا كان العمل الذي سأؤديه معها يقتضي بأن أجعلها سعيدة، سعيدة تماماً، فلماذا أقلع عنه ما دام يخدمني بدلاً من ان يعاكسني؟ ولكن هل ان ما يشغل التفكير يحتّم ان يجعل القلب عبداً؟ كلا بدون شك. ولذلك فان الجهد الذي لا احرم نفسي من بذله في سبيل هذه المغامرة لا يحول بيني وبين الانسياق وراء مغامرات اخرى، أو أضحي بها في سبيل مغامرات امتع.

وهكذا فأنا حرّ طليق الى درجة أنني لم اهمل الصغيرة فولانج التي لا أتمسك بها كثيراً. وستعيدها امها الى المدينة في غضون ايام ثلاثة. وقد استطعت منذ امس ان اؤمن اتصالاتي المقبلة معها: بعض الدراهم الى البواب، وبعض الزهور الى زوجته، وكل شيء سيكون على ما يرام. هل تدركين لماذا لم يعرف دانسني ان يعثر على هذه الوسيلة البسيطة جداً؟ ثم من قال ان الحب يجعل المرء عبقرياً؟ انه يحطم على العكس اولئك الذين يسيطر عليهم! وكيف لا اعرف ان امنع نفسي منه؟ آه! كوني مطمئنة. سأعمد في ايام قليلة الى تخفيف هذا الانطباع الحاد جداً الذي شعرت به، وذلك باتخاذ عشيقة اخرى واذا لم تكفِ واحدة فسأتخذ اكثر من واحدة.

كما انني لن اكون اقلّ استعداداً لاعادة التلميذة الداخلية الى عشيقها اللبق،

twitter @baghdad_library

متى وجدت الامر مناسباً . ويبدو لي انه لم تبق لديك اسباب لمنعه من ذلك ، وانا اوافق بكل طيبة خاطر على تأدية هذه الخدمة المعينة الى المسكين دانسني . وهذه في الحقيقة اقل خدمة ينبغي ان اردها اليه مقابل جميع الخدمات التي اداها لي . وهو الآن في قلق شديد لمعرفة ما اذا كان سيُستقبل لدى السيدة دي فولانج ام لا . انني أعمل على تهدئته بقدر ما استطيع ، مؤكداً له استعدادي لمساعدته في اول يوم . وبالانتظار ساتابع تعهد المراسلة التي يريد استئنافها مع « سيسيلته » لدى وصولها . وقد سلّمني حتى الآن ست رسائل منه ، وقد يسلّمني رسالة او اثنتين اخريين قبل اليوم السعيد . لا بد ان يكون هذا الفتى في بطالة متناهية !

ولكن لندع حديث هذين الغلامين ولنعد الى شؤوننا ، لكي استطيع ان اهتم فقط بالأمل العذب الذي بعثته فيّ رسالتك . اجل ستجعليني بدون شك وفياً تائباً لك . ولن اغفر لك ارتيابك فيّ . هل كففتُ مرة عن ان اكون دائماً ثابتاً على عهدك ؟ لقد انحلّت روابطنا ولكنها لم تنقطع ، كما ان انفصالنا المزعوم لم يكن سوى غلطة من بنات خيالنا ؛ ألم تستمر عواطفنا ومصالحنا موحدة متضامنة . وانا أشبه ما اكون بذلك المسافر الذي عاد مخدوعاً . وسأعترف مثله بأنني تركت السعادة لكي اركض وراء الأوهام ، وسأقول كما قال داركور :

« كلما رأيت قوماً غرباء كلما أحببت وطني » .

لا تحاربي اذن مطلقاً هذه الفكرة ، او بالاحرى هذه العاطفة التي تعيدك اليّ . وبعد ان جربنا جميع المتع في طريقينا المختلفتين ، فلنتمتع بسعادة أنه لا يوجد بين هذه المتع ما هو مماثل لما شعرنا به ولما سنجده اكثر عذوبة ايضاً !

الوداع يا صديقتي الفاتنة ، اوافق على انتظار عودتك ؛ ولكن عجلي بها ، ولا تنسي كم أودُّها .

١٣٤

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون

قصر ... في ١١ تشرين الثاني ؟؟ ١٧

في الحقيقة ايها الفيكونت ، انك كالاطفال الذين يجب الا يقال لهم شيء ، والذين ينبغي عدم اظهار اي شيء امامهم ، حتى لا يرغبوا في الاستيلاء عليه في اسرع وقت ! وهكذا عرضت لي فكرة بسيطة ، وقد انذرتك بأنني لا اريد ان اتوقف عندها ، ولكن ما ان تحدثت بها اليك ، حتى سارعت الى استغلالها الى اقصى حد لكي تعيد انتباهي اليها ، وحاولت ان تقيدني بها فيما انا اسعى لكي اسلوها ، وتجعلني نوعاً ما اشاطرك رغماً عني رغباتك الرعناء !

فهل يعتبر كرماً منك ان تتركني اتحمل وحدي كل هذا العبء من الاحتراس؟ أعيد عليك القول ، واكرره لنفسي غالباً ، ان هذا الاجراء الذي تقترحه عليَّ هو حقيقة مستحيل . وحين تبذل كل هذا السخاء الذي تظهره لي في الوقت الحاضر ، هل تظن انني لا املك انا ايضاً عزة نفسي حتى ارضى بقبول تضحيات تؤذي سعادتك ؟

بينما انت في الحقيقة ايها الفيكونت واهم بصدد العاطفة التي تعلقك بالسيدة دي تورفيل . انها الحب نفسه ، والا فانه لم يوجد مطلقاً . تستطيع ان تنكره ، بمئة طريقة وطريقة ، ولكنك تبرهن عنه بألف اخرى ، فما هو مثلاً هذا التبرير الذي تستخدمه تجاه نفسك ، لأنني أظنك صادقاً معي . ومن يحملك على الرغبة في ملاحقة شهوة لا تستطيع ان تخفيها ولا تقاومها من اجل الاحتفاظ بهذه المرأة ؟ ألن يُقال انك لم تجعل ابداً امرأة ما سعيدة ، سعيدة تماماً ؟ آه ، لو كنت تشك في ذلك ، فانك حقاً تملك ذاكرة ضعيفة ! ولكن ليس هذا ما يعنيني . كل ما هنالك أن قلبك يستغل ذهنك ، ويجعله يخلق دوافع سيئة . ولكني انا التي من مصلحتي الا انخدع ، ليس من السهل عليك أن ترضيني .

وهكذا بعد ان فرض عليك تهذيبك ان تحذف بعناية جميع الكلمات التي

twitter @baghdad_library

تخيلت انها لم تعجبني ، احتفظت دون ان تنتبه بالافكار نفسها . وبالفعل لم تعد المعبودة السماوية السيدة دي تورفيل ، بل اصبحت المرأة المدهشة المرأة الرقيقة الحساسة ، ثم المرأة النادرة التي لا يمكن ان نلقى لها مثيلاً . وقلت الشيء نفسه عن هذا السحر الغامض الذي ليس هو الأقوى . فليكن ، ولكن بما انك لم تجد له مثيلاً حتى اليوم ، فمن المحتمل ألا تجد في المستقبل ايضاً. والخسارة التي تقترفها بالتخلي عنه لا يمكن ان تعوّض . فاما أن هذه الدلائل هي ايهـــا الفيكونت عوارض الحب التي لا تخطىء، واما يجب الاقلاع عن العثور على أي حب .

كن متأكداً انني هذه المرة اتحدث اليك دون غضب . وقـد وعدت نفسي بألا أشعر بذلك مطلقا . وتبين لي ان من الممكن ان يصبح هذا الشعور كمينـاً خطراً . ولكن صدقني ، فلنكن صديقين فقط ولنبق كذلك . وكن مديناً لي بالفضل فقط لشجاعتي في الدفاع عن نفسي : اجل شجاعتي ، لانه لا بد من ذلك في بعض الاحيان ، في سبيل عدم اتخاذ قرار نعلم انه سيء .

وهكذا سألبي اذن طلبك الذي سألتني اياه بصدد التضحيات التي اتطلبها ولا تستطيع ان تقوم بها ، ليس الا من اجل حملك على الموافقة على رأيي باقتناع. وانني استخدم عن قصد هذه الكلمة «اتطلبها» لأنني متأكدة جيداً أنـــك في احدى اللحظات ستجدني بالفعل كثيرة المتطلبات : ولكن هذا أفضل ! وانني ابعد ما اكون عن الاستياء بل سأشكرك . اليك بها لانني لا اريـد ان اخفي عنك شيئاً ، وانا بحاجة ربما الى ذلك .

انني اتطلب إذن — لاحظ القساوة ! — ان تكون هذه المدهشة هذه النادرة السيدة دي تورفيل بالنسبة لك امرأة عادية ، امرأة كما هي فقط : لانـــه ينبغي عدم الانخداع بذلك . وان هذا السحر الذي تظن انك وجدته لدى الاخريات، موجود عندنا ، وان الحب وحده هو الذي يزيّن الشخص المحبوب . وان ما اطلبه منك هنا ، مهما كان مستحيلاً ، يجب ان تبذل ربما جهداً لكي تعدني به، وتقسم لي عليه ايضاً . ولكنني — واعترف بذلك — لن اؤمن بالاقوال المعسولة ولن يتسنى لي ان اقتنع إلا بمجموع تصرفاتك .

وهذا ليس كل شيء ايضاً ، فأنا ذات اهواء فجائية دون داع . وان هذه التضحية بالصغيرة سيسيل التي تقدمها لي بكل طيبة خاطر ، لا اهتم بها ابداً . بل سأطلب منك على العكس ان تتابع هذه الخدمة الشاقة حتى إشعـــار آخر من قبلي .

وهذا عائد اما إلى ميلي الى استغلال سلطاني عليك بهذه الطريقة ، واما الى تسامح أو انصاف مما يكفيني أن اتصرف بعواطفك دون ان ارغب في معاكسة ملذاتك.. ومهما يكن فانني اود ان اكون مطاعة. وستكون اوامري شديدة .

وعندئذ سأعتقد في الحقيقة انني مضطرة الى شكرك . ومن يدري ؟ ربما ايضاً الى تعويضك. ومن المؤكد مثلاً انني سأختصر غياباً سيصبح لي غير محتمل. وسأراك اخيراً ، ايها الفيكونت ، وسأراك... كيف ؟ ولكنك تتذكر ان هذا ليس إلا محادثة بسيطة ، مجرد عرض لمشروع مستحيل . ولا اريـــد ان انسى ذلك وحدي .

هل تعلم أن دعواي تقلقني قليلا؟ وقد أردت ان اعرف أخيراً ما هي وسائلي على وجه التحديد. ان محاميّ يستشهدان لي ببعض القوانين ، وبكثير من السلطة بصورة خاصة كما يزعمـــان : ولكنني لا ارى فيها كثيراً من المنطق والعدالة. وقد اصبحت تقريباً نادمة لرفضي الاتفاق على تسوية. وفي الاثناء اطمئن نفسي حين افكر بأن النائب العام بارع ، والمحامي بليغ، والمدعية جميلة. واذا لم تكن لهذه العوامل الثلاثة اية قيمة ، فيجب تبديل مجرى جميع القضايا ، وماذا يصبح عليه احترام التقاليد القديمة ؟

ان هذه الدعوى هي حالياً الشيء الوحيد الذي يحتجزني هنا . لان قضيـة بيلروش قد انتهت : براءة مع إلزام بالمصاريف . وهو الآن نادم على عدم تمكنه من حضور حفلة هذا المساء وهو ندم العاجز الذي لا عمل له ! سأعيد اليه حريته بكاملها عند عودتي الى المدينة. وسأقدم له هذه التضحية المؤلمة، وأتعزى بالسخاء الذي يجده فيها .

الوداع ايها الفيكونت ، اكتب اليّ غالباً : ان تفاصيل ملذاتك تعوضني على الأقل عن جزء من السأم الذي أشعر به هنا .

twitter @baghdad_library

١٣٥

من الرئيسة تورفيل الى السيدة دي روزموند

باريس في ١٥ تشرين الثاني ؟؟ ١٧

أحاول ان اكتب اليك دون ان اعلم اذا كنت سأتمكن من ذلك، آه يا آلهي! عندما افكر ان الافراط في سعادتي هو الذي حرمني من متابعة رسالتي الاخيرة! فاذا بالافراط في اليأس هو الذي يرهقني في الوقت الحاضر ، ولا يدع لي قوة على الشعور بآلامي ، وينزع مني حتى قوة التعبير عنها .

فالمون ... فالمون لم يعد يحبني ابداً ، وهو لم يكن يحبني البتة . ان الحب لا يزول على هـذه الصورة . فهو يخدعني ، ويحقرني . ولا أشعر الان إلا بكل ما يمكن جمعه من أنكاد ومنغصات وإهانات ، وقد جاءتني كلها منه .

لا تظني أنها مجرد شبهة بسيطة. فأنا ابعد ما اكون عن الاعتقاد بالشبهات! ولا توجد لديّ سعادة الشك والاشتباه. بل رأيته بنفسي : ماذا يستطيع ان يقول لي تبريراً لموقفه ؟ ولكن ماذا يهمه من ذلك ؟ فلن يحاول التبرير ... يا لي من تعيسة ! وماذا تنفع فيه ملاماتي ودموعي ؟ اجل انه مشغول بي جداً !

صحيح انه ضحى بي ، وتخلى عني ... في سبيل من ؟... مخلوقة ساقطة حقيرة ... ولكن ماذا اقول ؟ آه لقد فقدت حتى حق ازدرائها . وهي لم تخن مثلي واجباتها ، بل هي اقل ذنبا مني. آه كم ان العذاب مؤلم حين يستند على تبكيت الضمير ! احس بوساوسي تتضاعف . الوداع يا صديقتي العزيزة ، مهما جعلت نفسي غير جديرة بأية شفقة ، فستكون لديك شفقة عليّ : اذا استطعت ان تكوّني فكرة عما اعانيه .

لقد أعدتُ قراءة رسالتي فلاحظت أنهـــا لا تستطيع ان تنبئك بشيء . سأحاول اذن ان اتسلح بالشجاعة لأروي لك هذا الحادث الفظيع . كان ذلك أمس ، وكان علي لأول مرة منذ عودتي ان اذهب لتناول العشاء خارج منزلي . وقد حضر فالمون لزيارتي في الساعة الخامسة ، ولم يظهر لي ابداً بمثل تلك الرقة

وذلك العطف ، واعلمني ان فكرة خروجي تضايقه . وبامكانك ان تتصوري انني قررت البقاء في بيتي .ومع ذلك بعد ساعتين ، اذا بظهره ولهجته يتبدلان فجأة بشكل ملحوظ ، ولا ادري اذا كانت قـــد أفلتت مني بعض الكلمات التي يمكن ألا تكون قد اعجبته . ومهما يكن فقد ادعى بعد فـــترة وجيزة انه تذكر ان ثمـة قضية هامة تجبره على تركي ،ثم أنصرف . ومع ذلك لم ينسَ أن يظهر لي أسفه الحاد على ما بدر منه مما بدا لي أنه رقيق وصادق في ذلك.

وبعد ان وجدت نفسي وحدي رأيت من المناسب الا اتخلف عن مواعيدي الأولى لأنني كنت حرة في القيام بها . فأنهيت زينتي وصعدت الى العربة. ولسوء الحظ مرَّ بي الحوذي امام دار الاوبرا، ووجدت نفسي في زحمة خروج النظارة . ولاحظتُ على بعد أربع خطوات مني وفي الصف الجانبي وجود عربة فالمون ، فخفق قلبي حالاً ، ولكن لم يكن من الخوف ، وكانت الفكرة الوحيـدة التي شغلتني هي الرغبة في ان تتقدم عربتي . وبـدلاً من ذلك كانت عربته هي التي حُملت على التراجع . واذا بها تقف الى جانب عربتي . وتقدمتُ على الفور : وكم كانت دهشتي كبيرة حين وجدت الى جانبه فتاة معروفة بتبذلها . فانسحبتُ كما يمكن ان تفكري . وقد كان ذلك كافياً لتمزيق فؤادي . ولكن ما تكادين ألاَّ تصدقينه هو ان هذه الفتاة نفسها ، التي بدت ظاهرياً انها مطلعة على سري لم تترك باب العربة ولم تكف عن التحديق بي وهي تضحك ضحكات قوية صاخبة.

وبهذا الاضمحلال الذي كنته ، تركت نفسي أُقـــاد الى المنزل الذي كنت مدعوة للعشاء فيه ، ولكنني لم استطع البقاء هنـاك ، اذ شعرت مراراً انني سأصاب بالأغماء . وبصورة خاصة لم استطع ان أكبت دموعي .

ولدى عودتي كتبت الى السيد دي فالمون ، وبعثت برسالتي اليه حـــالاً . ولكنه لم يكن في منزله . وقـد أمرت خادمي بانتظاره لأنني أردت أن اخرج من حالة الموت هـذه او اتأكد منها مهما كلف الأمر . ولكن خادمي عاد عند منتصف الليل وقـد علم من حوذي عربته الذي عاد في تلك الساعة ان سيده ابلغه انه لن يبيت تلك الليـلة في المنزل . وقد ظننت هذا الصباح انه لم يبق لي

twitter @baghdad_library

إلا ان اطلب رسائلي منه مرة اخرى ، وارجوه الا يأتي مطلقاً الى بيتي . وقد اصدرت بالفعل اوامري بهـذا الصدد ، ولكن كانت بدون شك غير مجدية . لأن الوقت قد تجاوز الآن الظهر ولم يحضر ، ولم تصلني منه اية كلمة ايضاً .

والآن يا صديقي العزيزة ليس عندي ما اضيفه الى ذلك ، وها انت مطلعة على الأمر وتعرفين قلبي . واملي الوحيدهو ألا اطيل أيضاً إنزال الشجن بصداقتك الحساسة .

١٣٦

من الرئيسة تورفيل الى الفيكونت دي فالمون

باريس في ١٥ تشرين الثاني ؟؟ ١٧

لا تنتظر بدون شك ، يا سيدي ، بعد الذي حدث امس ان تُستقبَـل في بيتي ، ولا ترغب بدون شك ايضاً في ذلك بعد الآن ! ان هذه الكلمة لا تهدف لكي ارجوك عدم الحضور الى بيتي وحسب ، بل الى الطلب منـك مرةً أخرى إعادة رسائلي التي كان يجب ألا تُكتب أبداً . واذا كانت هذه الرسائل قد شغلت اهتمامك في وقت من الاوقات كدليل على التهور الذي جعلته يولد ، فانها لم تعد تشكل اية اهمية تذكر بالنسبة اليك في الوقت الحاضر ، بعد ان زال هذا التهور ، ولم تعد تُعبّر عن عاطفة حطمتها أنت بنفسك .

أنا اعترف وأقر بأنني كنت على خطأ في ان اضع فيك ثقة كانت كثيرات قبلي قد وقعن ضحيتها . ومع ذلك لا أضع اللوم الا على نفسي ، ولكنني اعتقد انني لم اكن استحق أن تدفع بي الى الازدراء والإهانة . وكنت اعتقد انني ، حـين ضحيت من اجلك بكل شيء ، وفقدت من اجلك وحدك حقوقي في نيل احترام الآخرين ونفسي ، استطيع ان انتظر في الاثناء ألا يُحكم عليّ من قبلك بقساوة أشد مما يحكم عليّ الجمهور الذي ما زال يفرّق في رأيه بمسافة بعيـــدة بين المرأة الضعيفة والمرأة المفسودة . ان هذه الاخطاء التي يمكن ان يقع فيها الجميـع هي

الوحيدة التي أحدثك عنها ، وانني اسكت على اخطاء الحب ، لأن قلبـــك لن يستمع الى قلبي ، الوداع يا سيدي .

١٣٧

من الفيكونت دي فالمون الى الرئيسة تورفيل

باريس في ١٥ تشرين الثاني .

لقد تسلمتُ الآن فقط رسالتك يا سيدتي ، وقد ارتجفتُ رعباً وأنا أقرأها ولم تدعْ لي سوى قوة ضئيلة للرد عليها . أية فكرة فظيعة لديـك عني ! آه ! لا ريب بأن عندي اخطاء . وتلك التي لا اسامح نفسي عليها طول الحياة ، فقـد شملتِها بسعة صدرك وحلمك. ولكن هذه التي تأخذينها عليّ الآن قد كانت دوماً بعيدة عن روحي ! مَن أنا ؟ أهينك ، وأحقّرك ، بينما أحترمك بقدر ما أعزك وبينما لم أعرف الزهو إلا حين حكمتِ عليّ بأنني جدير بك ؟ لقد خيبتُ أملك المظاهر . وانا اوافق على انها كان يمكن ان تكون ضدي ، ولكن ألم يكن في فؤادك ما ينبغي لمحاربتها ؟ أفلم يثر لفكرة انه يستطيع أن يشكو من فؤادي؟ ومع ذلك فقد صدقتِه ! وهكذا لم تحكمي علي فقط بأنني قادر على إقتراف هذا الجنون الفظيع بل ظننتِ انني عرّضتُك له ، بسبب مكارمك نحوي . آه ! اذا كنت تجدين نفسك مذلولة إلى هذا الحد من جراء حبك ، فهل أنا نفسي اذن مفسود منحط بنظرك ؟

أما وقد كدّرني هـــذا الشعور المؤلم الذي تسببه لي هذه الفكرة ، فإنني أضيع في دفعهـا الوقت الذي يجب ان استخدمه للقضاء عليها . سأعترف بكل شيء ، ولكن اعتباراً آخر ما زال يحتجزني . هل يجب اذن أن أروي الوقائع التي سأود محقها ، واحصر انتباهك وانتباهي في لحظة خطأ أريد أن افتديهـــا ببقية حياتي ، وما زلت لا افهم سببهـا ، وان ذكراها يجب ان تعمل على اهانتي ويأسي ؟ آه ، لو كنت باتهـام نفسي ينبغي أن أثير غضبك ، لما كان عليك على

twitter @baghdad_library

الاقل ان تبحثي بعيداً لتحقيق انتقامك . بل يكفي أن تسلميني الى تبكيت ضميري .

ومع ذلك مَن يصدق أن السبب الأول لهـــذا الحادث الفظيع هو السحر القوي الذي أشعر به حيالك ؟ وقد كان هو الذي جعلني أنسى لمدة طويـــلة قضية هامــة لا يمكن تأجيلها . وكان ان تركتك في ساعة متأخرة ، ولم أجد الشخص الذي ذهبت أبحث عنـــه . وأمّلت ان القاه في دار الأوبرا ، ولكن مسعاي كان ايضاً خائباً ، وهناك صادفت اميلي التي عرفتهـا في وقت كنت ما ازال بعيداً عن معرفتك ومعرفة الحب ، ولم تكن معها عربتها فطلبت إليّ ان انقلها الى بيتها البعيد قليـلاً من هناك . فلم أرَ في ذلك اي مانع ووافقت ، وكان عندئذ ان صادفتك وشعرت على الفور انك ستحكمين عليّ كمتهم مذنب .

ان الخوف من ألاّ اقـع في نفسك موقع الاستحسان ، ومن ان اشجيك ، هو قويٌّ جداً عليّ الى درجة انه كان لا بد ان يُلاحظ في الحال . واعترف انني حاولت ان احمل هذه الفتاة على ان تخفي نفسها ، ولكن هـذه الحيطة الرقيقة انقلبت ضد الحب . ذلك بأنها معتادة كجميع الفتيات اللواتي هن من نوعها على ألا تكون واثقة من سلطان مغتصب دائماً ، إلا بالافراط الذي تسمح لنفسها بصدده ، فقد شاءت ألا تدع مثل هذه المناسبة الباهرة تفوتها . وكلما رأت ارتباكي يزداد كلما جهدت بأن تتظاهر . وكان مرحها المجنون ـ الذي اخجل لكونك استطعت في وقت من الاوقات ان تعتقدي انه موجّه اليك ـ عائداً الى العناء القاتل الذي كنت أعانيه ، والذي نتج هو نفسه عن الاحترام والحب اللذين اكنهما لك .

وحتى الآن لا شك في أنني لست سوى تعيس اكثر مني متهم . وان « هـذه الاخطاء التي يرتكبها جميع الناس والوحيدة التي تحدثينني عنهـــا » ، ليس لها وجود ولا يمكن ان ألام بسببها . ولكنك تسكتين بحثاً عن اخطاء الحب : وانا لن اعتصم حولها بالصمت نفسه لأن هناك أهمية كبيرة جداً تجبرني على قطع صمتي بصددها .

ليس لأنني ـ في البلبلة التي تحيط بي بسبب هذا الضلال غير المفهوم ـ استطيع

أن آخذ على عاتقي استعراض ذكراها دون ألم شديد ، بل انني سأرضى بتحمل العناء، وقد هزتني اخطائي ، أو أنتظر العفو عني من الزمن ، ومن رقتي الابدية، ومن تسامحك وتكفيري عنها . ولكن كيف يتسنى لي ان اسكت ، بينما ان ما يبقى عليّ ان اقوله يهم لطفك ورقة ضميرك ؟

لا تظني انني ابحث عن حيلة لكي أعذر أو أخفف غلطتي . بل اعترف بذنبي. ولكنني لا اعترف ابداً ولن اعترف مطلقاً ان هذه الغلطة المهينة يمكن ان تعتبر كخطأ في الحب . وماذا يمكن ان يكون هناك شيء مشترك بين مفاجأة الحواس ولحظة نسيان النفس اللتين يليهما الخجل والندم وبين شعور طاهر لا يمكن ان يولد الا في نفس حساسة رقيقة، ولا يقوم إلا على أساس الاحترام، واخيراً تكون السعادة ثمرته . آه ، لا تدنسي الحب بهذه الطريقة. وحاذري ايضاً من ان تدنسي نفسك حين تجمعين ما لا يمكن جمعه ابداً تحت سقف واحد . ودعي النساء الساقطات يخفنَ من مزاحمة يشعرن بأنفسهن أنهن لا يستطعن بلوغ مرتبتها . دعيهن يعانين من منغصات غيرةٍ هي ايضاً مهينة قاسية . ولكن أشيحي انتِ بأبصارك عن هذه الخيالات التي تلطخ عينيك . وعاقبي الاهانة بوصفك طاهرة كالألوهية دون ان تشعري بها .

ولكن اي عذاب تفرضين عليّ ان اعانيه أشد مما أعاني الآن ؟ وما الذي يمكن ان يماثل الحسرة على فقداني اعجابك ؟ وما الذي يمكن ان يجاري اليأس من ان اكون قد أشجيتك ، والفكرة المرهقة بأن اكون قد جعلت نفسي أقل جدارة بك ؟ انتِ تهتمين بالعقاب ، وانا اطلب اليك تعزيتي : كلا ... انني لا استحقها . بل هي ضرورية اليّ فقط ولا يمكن ان تأتيني الا منك .

اذا شئتِ فجأة ان تتنامي حبي وحبك ، ولا تضعين أية قيمة لسعادتك ، وأردت على العكس ان تتركيني فريسة عذاب ابدي فلكِ الحق بذلك : واضربي ضربتك. ولكن إذا تذكرت ايضاً هذه المشاعر الرقيقة التي توحّد ما بين قلبينا ... وكنت اكثر تسامحاً واشد حساسية ، وتذكرت متعة الروح الرفيعة التي تتجدد على الدوام وتشعرين بها بحيوية ، وتذكرت تلك الايام العذبة السعيدة التي قضيناها

twitter @baghdad_library

معاً والتي كان كل منا مدين بها للآخر، وتذكرت جميع ممتلكات الحب هـذه التي يخلقها الحب وحده ... فلعلك عندئذ ستفضّلين ان تتمكني من جعلها تولد من جديد بدلاً من تحطيمها. ماذا سأقول اخيراً؟ لقد أضعتُ كل شيء، وقد اضعته بسبب غلطتي. ولكنني استطيع ان استعيد كل شيء بفضل إحسانك، وعليك الآن ان تقرري، ولا أضيف كلمة واحدة. وبالأمس فقط أقسمتِ ان سعادتي اكيدة وهي ما زالت تتوقف عليك! آه يا سيدتي! هل تدعينني اليوم فريسة يأسٍ ابدي؟

١٣٨

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي تورفيل

باريس في ١٥ تشرين الثاني ؟؟ ١٧

ما زلت مصراً على موقفي، يا صديقتي الحسناء: كلا. لم أعد عاشقاً البتة، وليس الذنب ذنبي اذا كانت الظروف تحملني على القيام بدور العاشق. وافقي فقط، وعودي، وسترين بنفسك قريباً كم أنا صادق. وقد قمت ببراهيني أمس، ولا يمكن ان تحطّم بما يجري اليوم.

فقد كنت اذن في زيارة الورعة الحنونة. وكنت أزورهـا دون أية غاية أخرى سوى الحب، لأن الصغيرة فولانج، رغم حالتها، كان عليهـا أن تقضي الليل بطوله في حفلة الرقص المبكرة التي اقامتها السيدة ف... وقد جعلتـني البطالة أرغب في إطالة هذه السهرة مع السيدة دي تورفيل، لا بل طالبت بهذا الصدد بتضحية صغيرة، ولكنها ما كادت تمنحني اياها حتى شعرتُ بأن المتعة التي وعدتُ نفسي بها قد اضطربت من جراء فكرة هذا الحب الذي تصرين على اعتقاده فيّ، أو على الأقل تأخذينه عليّ، بحيث انني لم اعد أشعر بأية رغبـة اخرى سوى التمكن في آن واحد من ان أطمئن نفسي، واقنعـك بأن هذه الفكرة هي مجرد اتهام باطل من جانبك. يؤذي سمعتي وشرفي.

وكان أن اتخذتُ اذن قراراً عنيفاً. وتركتُ حسنائي فجأة متذرعاً بحجة

واهية ، وقد بدت مندهشة ومتألمة لذلك ، وقصدتُ بهدوء الى دار الاوبرا لمقابلة أميلي . وتستطيع هذه ان تخبرك اننا بقينا معاً حتى هذا الصباح وقد قضينا اوقاتاً ممتعة جداً ولم يعكر ملذاتنا أي ندم او تأسف .

ولكن كان هناك موضوع جميل للقلق ، لولا أن لا مبالاتي التامة قد أنقذتني. لأنك ستعلمين انني كنت ما أزال على بعد قليل من دار الاوبرا ، ومعي اميلي في عربتي ، حين مرت عربة الورعة المتزمتة ووقفت الى جانبنا بسبب عرقلة في السير دامت بضع دقائق . وكنا نرى بعضنا البعض كما لو كنا في عز النهار، ولم تكن هناك وسيلة للافلات .

ولكن لم يكن هذا كل شيء ، بل أخبرتُ أميلي أن هذه المرأة هي التي كتبتُ اليها الرسالة من غرفتها (و لعلك تتذكرين هذا الجنون حين كتبت اليها مرة وانا بين ذراعي اميلي) . أما هي فلم تكن قد نسيت ذلك ، وهي الساخرة الضحوك ، فلم تكفّ عن التحديق بتحدٍ « بهذه الفضيلة » كما كانت تسميها ، وعن اطلاق ضحكات قوية ساخرة تثير الفضيحة والاستياء .

وليس هذا كل شيء ايضاً ، اذ بعثت المرأة الغيورة خادمها إلى منزلي ، وبما انني لم اكن موجوداً ، فقد أمرته بعناد أن ينتظرني حتى أعود . ولكنني ما ان قررت أن امضي الليل مع اميلي حتى صرفت حوذي عربتي وطلبت اليه ان يعود اليّ في الصباح لاحضاري . وكان ان وجد فور وصوله الى بيتي رسول الحب بانتظاري ، فأبلغه انني لن اعود هذه الليلة، وتستطيعين ان تتصوري مبلغ تأثير هذا النبأ عليها . وهكذا حين عدت هذا الصباح وجدت كلمةً منها تحمل اليّ نبأ عزلي من منصبي حسب ما تقتضيه عزة النفس في هذه الظروف .

وهكذا كان بالامكان ان تنتهي هذه المغامرة الطويلة كما تقولين هذا الصباح . واذا كانت لم تنتهِ فليس لأنني كما ستعتقدين ، ابذل جهداً لمتابعتها ، بل لأنني لم أجد من اللائق أن أترك بهذه الطريقة من جهة ، ومن جهة اخرى أردت ان احتفظ باحترام التضحية .

وكان أن اجبت على الكلمة القاسية برسالة عاطفية طويلة وابديتُ فيها

twitter @baghdad_library

مبررات مفصلة ، واعتمدتُ على الحب لكي اجعلها تجد مبرراتي صالحة . وقد نجحت ، وها انا اتلقى منها كلمة أخرى – دائماً قاسية – تؤكد الانفصال الدائم ، ولكن لهجتها تبدّلت ، وهي لا تريد بصورة خاصة أن تراني . وقد اعلنت هذا التحزب ضدي وكررته أربع مرات بطريقـــة لا يمكن الرجوع عنها . وقد استنتجت من ذلك بأنّ عليّ ألا اضيع لحظة من الوقت لكي أذهب فأراهـــا ، وقد أوفدتُ خادمي لكي يسيطر على بوابهـا ، وبعد قليل سأذهب بنفسي أوقع قرار العفو عني. لأنه في حالة الذنوب المماثلة ليس هناك أجدى من الحضور بالذات للحصول على الصفح التام .

الوداع يا صديقتي الفاتنة ، سأركض لمحاولة القيام بهذا الحدث العظيم .

١٣٩

من الرئيسة تورفيل الى السيدة دي روزموند

باريس في ١٦ تشرين ؟؟ ١٧

كم أؤاخذ نفسي يا صديقتي الحساسة على أنني تحدثتُ إليـــك كثيراً لا بل وبصورة سابقة لأوانها عن آلام عابرة ! وانا السبب في تكديرك في الوقت الحاضر . اذ ما زالت تلك الاشجان التي تأتيك مني مستمرة ، بينما أنا سعيدة . أجل لقـد نُسيَ كل شيء ، وسومح ، ولنقل بالأحرى أن كل شيء قـد أُصلح . وقد تلت هذه الحالة من الألم والضيق ، الملذات والهدوء . يا لبهجة قلبي ! كيف اعبر لك عنها ! فالمون بريء ، ولا يمكن ان يكون مذنبـاً ولديه مثل هذا الحب . ان الاخطاء الخطيرة المهينة التي لُمتـُهُ عليها بكثير من المرارة لم يكن مسؤولاً عنها ، واذا كنت قد احتجتُ بصدد قضية واحدة الى شيء من سعة الصدر ، ألم اكن بحاجة إلى تدارك ظنوني السيئة ؟

لن اطلعك على وقائع الاحداث أو الاسباب التي تبرر موقفه ، لأن العقل لن يقدرها على حقيقتهـــا ، بل يعود للقلب وحده ان يشعر بها . واذا كان

عليك مع ذلك ان تتهميني بالتخاذل ، فإنني اترك الأمر لحكمتك كي تدعم حكمتي . وقد سبق ان قلتِ لي أن الخيانة لدى الرجال ليست دليلاً على عدم ثباتهم على العهد .

وليس لأن هذا التمييز لا يجرح عنفواني ، بل ان ما يشكو عنفواني منه هو ان يكون فالمون يتعذب اكثر مني ؟ لا تعتقدي أن هذا الخطأ الذي تناسيته قابل للعفو والعزاء . ومع ذلك كم تدارك فالمون هذه الغلطة البسيطة عن طريق الافراط في حبه وبعث سعادتي .

فإما ان تكون غبطتي عظيمة واما انني اشعر بمدى قيمتها منذ أن خشيت فقدانه — ولكن ما استطيع ان أخبرك اياه هو انني اذا كنتُ قد شعرتُ بالقوة على تحمل احزان قاسية كما عانيت اخيراً ، فلا اظن انني قد دفعت غالياً ثمن الفيض من السعادة الذي اتذوقه منذ وقت قليل . آه يا صديقتي الحنونة ، تستطيعين ان تؤنبي ابنتك غير الموزونة لكونها أحزنتك بكثير من التسرع . أنبيها لكونها حكمت بصورة اعتباطية على ذلك الذي يجب ألا تكف عن عبادته . ولكن مع اعتبارك اياها غير محترسة ، انظري الى سعادتها وزيدي من بهجتها بمشاطرتك إياها .

١٤٠

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

باريس في ٢١ تشرين الثاني ?? ١٧ .

ماذا حدث يا صديقتي الحسناء لكيلا اتلقى منك اي جواب ؟ وقد بدت لي رسالتي الاخيرة بأنها تستحق مع ذلك جواباً ، كان يجب ان يصلني منذ ثلاثة ايام ، وما زلت أنتظره حتى الآن ! انني حانق على الأقل ، وان احدثك ايضاً مطلقاً عن شؤوني الكبرى .

ولن اقول لك كلمة واحدة عن المصالحة التي كان لها تأثيرها البالغ ، وعن

twitter @baghdad_library

الملاطفات الجديدة التي حلّت محل الملامات والحذر ، وعن انني انا الذي اتلقى الاعتذارات عن براءتي المشتبه بها . ولولا الحادث غير المنتظر الذي وقع في الليلة الماضية لما كنت كتبت اليك ابداً . ولكن بما ان هذا الحادث يتعلق بحضينتك ، وأنها اكيداً لن تكون في حالة تسمح لها بالكتابة اليك عنه ، فإنني اتكفل بذلك.

منذ ايام قليلة لم أعد أهتم بالسيدة دي تورفيل لأسباب قد تحزرينهـا أو لا . وبما أن هذه الاسباب معدومة لدى الصغيرة فولانج فقد أصبحتُ اشد ولعاً بها من ذي قبل . وبفضل البواب اللطيف لم أصادف أمامي أية عقبة ، وأخـــذنا – حضينتك وانا – نخوض حياة ملائمة ومنتظمة . ولكن العادة تقود الى الإهمال ، وفي الأيام الأولى لم نتخذ ابداً احتياطات كافية للمحافظة على امننا وكنا نرتجف خلف الابواب المقفلة . وبالأمس سببتْ لنا غفلةٌ لا تُصدَّق ذلك الحادث الذي سأطلعك عليه . واذا كنت في ما يتعلق بي قد شعرت بخوف شديد ، الا أنـه كلّف الصغيرة غالياً .

وكنا غير نائمين ، ولكننا كنا في فترة الراحـة والاسترخاء التي تعقب أوج المتعة ، حين سمعنا الباب ينفتح فجأة . فقفزتُ على الفور إلى سيفي للدفاع عن نفسي وعن حضينتنا المشتركة ، وتقدمتُ بضع خطوات لأرى ، ولكنني لم أجد أحداً ، ولكن الباب كان بالفعل مفتوحاً . وبما أنـــه كان لدينا ضوء ، فقد خرجتُ أبحث عن الطارق ، ولم اعثر على أحـد . وعندئذ تذكرت اننا نسينا احتياطاتنا المعتادة ، وأن الباب قد اندفع بدون شك وحده ، أو انه كان غير مقفل بصورة محكمة ، فانفتح من تلقاء نفسه .

وحين عدتُ إلى رفيقتي الخجول لكي أطمئنها ، لم أجدها في سريرها ، فإما أنها سقطت ، أو أنها أفلتت بين السرير والجدار . واخيراً كانت منطرحة ارضاً دون وعي ، ودون اية حركة سوى بعض التشنجات . وبامكانـك ان تتصوري مبلغ ارتباكي ! وقد توصلت مـــع ذلك إلى إعادتها إلى سريرها ثم إلى وعيها ، ولكنها جرحت نفسها من جراء سقطتها هذه ولم تلبث ان احذت تشعر بالآلام . وكانت تحسُّ بآلام في ظهرها وبغص عنيف في بطنها وبعوارض أقل تعقداً

جعلتني استنير بصدد حالتها . ولكن كان لا بدّ لكي اطلعها على حالتها هذه ، من أن انبئها بالحالة التي كانت فيها سابقاً . لأنها لم تكن تشكُّ بشيء .. آه ان هذه الفتاة حقيقة لا تضيع وقتها في التفكير !

ولكنها كانت تضيع وقتاً طويلاً لكي تتعزى . وشعرتُ انه يجب إتخاذ قرار ما . وكان ان اتفقتُ معها على أنني سأذهب فوراً الى طبيب العائلة وجراحها لكي انبئهما بأنهما قد يُستدعيان لزيارتها ،وسأروي لهما كل شيء على ان يحتفظا بالسر . وانهامن ناحيتها ستنادي خادمتهاحين أخرج من غرفتها، وتطلب اليها أرسال الاسعاف ، ثم تحول بصورة خاصة دون إنهاض السيدة دي فولانج من النوم ! وهذا تصرف طبيعي ومهذب من جانبها لكي لا تقلق والدتها .

وقتُ بزيارتيّ إلى الطبيبين وأدليت أليهما باعترافي بكل رشاقة وحذق ، وعدت إلى بيتي ولم أخرج منه حتى الآن . ولكن الجراح الذي أعرفه جيداً حضر لزيارتي عند الظهر وأطلعني على حالة المريضة . ولم اكن مخدوعاً بما خمنت ولكنه يأمل اذا لم يقع حادث آخر بألا يلاحظ أحد نوع المرض ، وقد اطلعتُ الخادمة على السرّ ، واعطى الطبيب إسماً إلى المرض ، وستسوّى القضية كجميع القضايا الأخرى . اللهم الا اذا كان من المفيد لنا ان نتكلم في ما بعد .

ولكن هل هناك بعض المصلحة المشتركة بينك وبيني ؟

ان صمتك يجعلني أشكُّ في ذلك ، لا بل لن اؤمن بها أبداً ، لولا أن الرغبة جعلتني أبحث عن جميع الوسائل للمحافظة على الأمل .

الوداع يا صديقتي الحسناء ، أقبلك .

١٤١

من المركيزة دي ميرتاي إلى الفيكونت دي فالمون

قصر ... في ٢٤ تشرين الثاني ؟؟ ١٧

يا إلهي كم تضايقني ايها الفيكونت بعنادك ! وماذا يهمك صمتي ؟ هل تظن

twitter @baghdad_library

انني اذا كنت اعتصم به فلأن الاسباب تعوزني لكي ادافع عن نفسي ؟

آه ، انني أحمد الله على ذلك . ولكن كلا ، بل ان ذلك عائد الى ان الكلام معك يكلفني جهداً .

قل لي حقيقة : هل تخدع نفسك بنفسك أم انك تحاول ان تخدعني ؟ لان الفرق بين أقوالك واعمالك لا تدع مجالاً للاختيار الا بين هـــذين الاحساسين ؛ فأيهما الصحيح ؟ وماذا تريدني ان اقول لك حين اكون انا نفسي لا اعرف سوى التفكير ؟

تبدو انك تكيل لنفسك المـــديح من جراء مشهدك الاخير مع الرئيسة . ولكن ماذا يمكن ان يبرهن هـــذا المشهد لصالح طريقتك أم ضد طريقتي؟ من المؤكد انني لم اقل لك انك تحب هذه المرأة بصورة كافية الى درجة لا تخدعهـا معها ولا تغتنم جميع الفرص التي تبدو لك ممتعة وسهلة ؛ ولم اشك في انـــه لا يهمك الا ان ترضي الرغبات التي اثارتها فيك هذه المرأة مع أية امرأة اخرى أو مع الاولى التي تقع عليهـــا يدك ، . ولست مندهشة ابداً نظراً لما عندك من أباحية في التفكير لا ينازعك فيه احد ، في ان تفعل مرة واحدة عن سابق تصميم وخطة مدروسة ، ما فعلته الف مرة اخرى من قبيل المصادفات والمناسبات . من يعلم ان هذا هو التيار البسيط للناس . وان من يمتنع اليوم عن هذا العمل ، يُعتبر خيالياً ، وليس هذا ما أؤاخذك عليه كما اعتقد .

ولكن ما قلته وفكرت به وأفكر به ايضـاً ، انك ما زلت على حب نحو رئيستك . وليس هذا في الحقيقة حباً رقيقاً ناعماً ، ولكنه من نوع الحب الذي تستطيع ان تشعر به . من النوع الذي يجعلك مثلاً تجد في امرأة ظرافة ومزايا لا تملكها وتضعها في طبقة خاصة بها ، وتضع الأخريات الباقيات في درجة ثانية . من الذي يجبرك على التعلق بها أيضاً حـــين تهينها ، كما يشعر سلطان نحو سلطانته المحبوبة وهذا ما لا يحول بينه وبين ان يفضل عليها جارية بسيطة . ان مقارنتي تبدو لي صحيحة جداً بحيث انك مثله ، لست صديقاً ولا عشيق امرأة . بل دائماً إما جبارها العاتي او عبدها . وهكذا فأنا متأكدة انك ستكون مهـاناً

مذلولاً كي تنال صفح الجنس اللطيف ! وستكون سعيداً جداً متى توصلت إلي ، ولكنك ما ان تجد الفرصة مؤاتية للحصول على العفو عنك ، حتى تتركني في سبيل هذا الحادث العظيم .

وكذلك اذا كنت لم تحدثني في رسالتك الاخيرة عن تلك المرأة وحدها ، فلأنك لا تريد ان تقول لي شيئاً عن « شؤونك الكبرى » . وهي تبدو لك مهمة جداً ، بحيث ان الصمت الذي تعتصم به عنها ، تظنه عقوبة لي . وبعد هذه الألوف من الدلائل على تفضيلك امرأة اخرى تأتي فتسألني بكل بساطة اذا كان ثمة « بعض المصلحة المشتركة بيني وبينك » ! فكن على حذر ايها الفيكونت واني اذا اجبت مرة فسيكون جوابي غير قابل للتعديل او الرجوع عنه ، وان خوفي من اعطاء هذا الجواب الآن ربما يعني شيئاً كثيراً ، وهكذا لا اريد ان اتحدث عنه مطلقاً .

كل ما استطيع ان افعله هو ان اروي لك حكاية ، ربما ليس عندك وقت لقراءتها او للالتفات اليها التفاتاً كافياً لكي تفهمها جيداً . بيد انك حرّ في تصرفاتك ، ولكنها لن تكون حكاية دون فائدة مهما كان الحال :

لقد أُولع رجل من معارفي مثلك بامرأة كانت لا تشرّفه كثيراً . وكان لديه خلال فترات مختلفة ذهن جيد لكي يفكّر انه عاجلاً ام آجلاً ستسيء هذه المغامرة الى سمعته . ولكنه على الرغم من جرأته كانت تخونه الشجاعة على اعلان الانفصال . وكان ارتباكه قوياً الى درجة انه اخذ يتباهى امام اصدقائه انه طليق غير مقيد ، ولم يكن يجهل ان ما عندنا من سخف يزداد دائماً بنسبة ما ندافع عن انفسنا منه . وامضى حياته على هذه الصورة وهو لا يكف عن ارتكاب الحماقات ، ولا يكف عن القول بعدها : ان الذنب ليس ذنبي . وكان لهذا الرجل صديقة وَدّت لو تفضحه امام الجمهور وهو في هذه الحالة من النشوة والذهول ، وجعل سخافته اثراً لا يمحى ، ولكنها ربما كانت كريمة اكثر مما هي خبيثة ، او ربما لأسباب اخرى ، فكان ان شاءت ان تحاول معه وسيلة اخيرة لكي تكون ـ عند كل حادث ـ في حالة يصح معها القول كصديقها : ليس

twitter @baghdad_library

الذنب ذنبي . وكان ان بعثت اليه دون اي رأي بالرسالة التالية كعلاج مفيد يمكن استخدامه لدائه :

●

« اننا نسأم كل شيء ، يا ملاكي ، وهذا هو قانون الطبيعة : وليس الذنب ذنبي . »

واذا كنتُ اسأم اليوم مغامرة شغلتني بكليتي منذ اربعة اشهر مميتة فليس الذنب ذنبي .

« واذا كان لديّ مثلاً من الحب بقدر ما كان لديك من الفضيلة ، وهذه اكيداً مبالغة في القول ، فليس من المدهش اذن ان ينتهي الحب في الوقت الذي تنتهي فيه الفضيلة . وليس الذنب ذنبي .

« وقد نتج عن ذلك أنني منذ وقت قصير قد خنتك : ولكن رقّتك التي لا تشفق قد أجبرتني نوعاً ما على ذلك ! وليس الذنب ذنبي » .

« واليوم هناك امرأة أحبها حتى الجنون ، تطالب بأن أضحي بك من اجلها وليس الذنب ذنبي » .

« وأشعر انني بذلك اتيح لك فرصة طيبة لكي تصيحي : يا لنكث اليمين ! ولكن اذا كانت الطبيعة لم تمنح الرجال الاستقرار بينما منحت النساء العناد والاصرار ، فليس الذنب ذنبي . »

« صدقيني ، إختاري لك عشيقاً آخر ، كما اتخذت خليلة جديدة ، وهذه النصيحة جيدة جداً حتى ولو وجدتها رديئة ، والذنب ليس ذنبي .

الوداع يا ملاكي ، لقد نلتك بلذة ، واتركك دون أسف ، ربما سأعود اليك. تلك هي سنة الحياة وليس الذنب ذنبي » .

●

لم يحن الوقت بعد لكي اقول لك ما هو تأثير هذه المحاولة الأخيرة ولا ما سيعقبها : ولكنني أعدك بأن أخبرك ذلك في رسالتي المقبلة ، وستجد فيها « إنذاري » بصدد تجديد المعاهدة التي تقترحها عليّ ، وحتى ذلك الحين وداعاً

بكل بساطة .

بالمناسبة أشكرك على تفاصيلك بصدد الصغيرة فولانج . وهو مقال يصلح الاحتفاظ به الى ما بعد الزواج ، لنشره في جريدة القيل والقال . وبالانتظار اقدم اليك تعازيَّ الحارة على فقدان نسلك . أنعم مساء ايها الفيكونت .

١٤٢

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

باريس في ٢٧ تشرين الثاني ؟؟ ١٧ .

لست أدري في الحقيقة يا صديقتي الحسناء اذا كنتُ قد أسأت قراءة اوسماع رسالتك والحكاية التي رويتها لي فيها ، ونموذج الرسالة الصغيرة التي ضمنتها بداخلها . ولكن ما استطيع ان أخبرك إياه هو أن هذا النموذج بدا لي فريداً من نوعه وصالحاً لاحداث التأثير المطلوب . وهكذا نسختُهُ بكل بساطة ، وبعثتُ به بكل بساطة ايضاً الى الرئيسة السماوية . ولم أضع اية لحظة من وقتي ، لأن الرسالة الرقيقة أرسلت منذ مساء الامس . وقد فضلتها على هذا الشكل لانني أولاً كنت وعدتها بأن اكتب اليها أمس ، ثم لانني فكّرتُ أيضاً بأنها ستستطيع في الليل ان تفكر وتتأمل بهذا « الحدث العظيم » . هل ستأخذين علي مرة ثانية هذه العبارة ؟

كنت آمل ان ابعث اليك هذا الصباح بالجواب ، ولكن الساعة قاربت الظهيرة ولم يصلني بعد . وسأنتظر حتى الساعة الثالثة ، واذا لم اتلقَ عندئذ اخبارها ، فسأذهب لاتقصاها بنفسي . لانه في ما يتعلق بهذه العمليات ، تكفي الخطوة الاولى .

انني الآن ، كما تستطيعين ان تعتقدي ، توّاقٌ جداً لاعرف نهاية حكاية هذا الرجل من معارفك ، إذ انه اتهم ظلماً وعدوناً بأنه لا يعرف عند الحاجة ان يضحي بامرأة . أفلم يتدارك موقفه بعد ؟ افلم تمنحه صديقته الكريمة العفو ؟

twitter @baghdad_library

إنني في أشد الرغبة لأن اتلقى « انذارك » : كما تقولين بلغة السياسة ! وانا توّاق لأن اعلم اذا كنت ستجدين في هذا المسعى الأخير الحب أيضاً ! ولكن لمن ؟ وفي الاثناء لا أطمع في ابراز قيمة اي شيء . وانتظر كل شيء من مكارمك .

الوداع يا صديقتي الفاتنة ، لن أقفل هذه الرسالة الا عند الساعة الثانية على أمل ان اتمكن من الحاق الجواب المرغوب فيها .

في الساعة الثانية بعد الظهر

دائماً لا شيء ، الزمن يضغط عليّ بسرعة ، وليس لديّ وقت لكي اضيف كلمة واحدة : ولكن هل ترفضين هذه المرة قبلات الحب الاشد رقةً ؟

١٤٣

من الرئيسة تورفيل الى السيدة دي روزموند

باريس في ٢٧ تشرين الثاني ؟؟ ١٧

لقد تمزق يا سيدتي الستار الذي كان قد رُسمَ فوقه وهم سعادتي . وأخذت الحقيقة المشؤومة تنيرني ، ولا تدعني أرى سوى موت مؤكد وقريب ، وقد خطّ طريقه إليّ بين العار وتبكيت الضمير . وسأنتهجه واستمرىء منكدات عيشي التي تختصر وجودي ، انني ارسل اليك الرسالة التي تلقيتها أمس ، ولا أضيف عليها اية ملاحظة ، فهي كافية كما هي ، ولم يعد الزمن صالحاً للشكوى ، فلم يبق لي سوى التألم والعذاب ، ولست بحاجة الى الشفقة بل الى القوة .

تقبلي يا سيدتي الوداع الوحيد الذي أُوجهه ، ونفذي رجائي الأخير ، وهو ان تتركيني ومصيري ، وان تتناسيني تماماً ، ولا تعودي تحسبينني فوق هذه الارض . وهناك حد للشقاء ، حيث الصداقة نفسها تزيد آلامنا ولا تستطيع ان تشفيها . وعندما تكون الجراح مميتة فان أية اغاثة تصبح غير انسانية . وان اي شعور

آخر سوى اليأس اصبح لديّ غريباً . لا شيء يمكن ان يلائمني سوى الليـــل الطويل حيث سأدفن عاري : وسأبكي اخطائي ، آه لو استطيع ان ابكي ايضاً ! لانني منذ امس لم اذرف دمعة واحدة . وان فؤادي الذاوي قد نضب.

الوداع يا سيدتي، لا تجيبي على كلمتي هذه ابداً. لقد أقسمت على هذه الرسالة القاسية بألا اتلقى ابداً اية رسالة .

١٤٤

من الفيكونت دي فالمون إلى المركيزة دي ميرتاي

باريس في ٢٨ تشرين الثاني ?? ١٧

بعد إن نفد صبري ، يا صديقتي الحسناء ، وانا أنتظر ورود اية انبـاء حتى الساعـــة الخامسة من مساء امس ، توجهت إلى دار الحسناء المهجورة ، وهناك قيل لي انها خرجت . فلم اجد في هذه العبارة الا رفضاً من قبلها في استقبالي ، وهو رفض كنت أتوقعه ولم يكدّرني ، وانصرفت على امل ان يدفع هذا المسعى من جانبي المرأة المهذبة على الأقل بتشريفي بكلمة جواب . وقد جعلني الشوق في تسلم هذا الجواب منها ، امر على بيتي في الساعة التاسعة ليـلاً ، ولكنني لم أجد شيئاً . فدهشتُ لهـــذا الصمت الذي لم اكن اتوقعه ، وعندئذ كلّفتُ خادمي بأن يستطلع ما اذا كانت المرأة الحساسة قـــد ماتت او على وشك الموت . واخيراً حين عدتُ أعلمني ان السيدة دي تورفيل قد خرجت بالفعـــل في الساعة الحادية عشرة صباحاً مع خادمتها التي قادتها الى دير «...» . ثم صَرفت في الساعة السابعة مساء عربتها وخادمتها ، وابلغت اهل بيتهـــا بألا ينتظروا عودتها . وفي الحقيقة يبدو ان الدير هو الملجأ الصحيح للارملة ، واذا استمرت على موقفها الحميد ، فسأضيف الى جميع الافضال التي غمرتني بها فضل الشهرة التي ستنتج عن هذه المغامرة .

لقد سبق ان أكدت لك منذ وقت قصير انني – رغم وساوسك – سأعود إلى

twitter @baghdad_library

الظهور على مسرح المجتمـــع وانا اكثر شهرة مما كنت . فليبرز اذن الى الميدان هؤلاء المنتقدون الذين يتهمونني بحب خيالي تعس ، وليقوموا بانفصالات أشد سرعة ورهجة مما قمت به ، ولكن ليس افضل ممـــا حققت حتى الآن ، وليتقدموا كمؤاسين فالسبيل امامهم مفتوح . حسناً ! وليتجرأوا فقط عـلى القيام بهذه المحاولة التي خضتها حتى النهاية . واذا أحرز احدهم اقل نجاح فسأتخلى له عن المركز الاول . ولكنهم سيقرُّون جميعهم – حين أبذل بعض العنـاية – بأن التأثير الذي اتركه لا يمكن ان يزول . آه : بدون شك ان اثر هذه المغامرة لن يزول ، وستكون جميع انتصاراتي الأخرى لا شيء اذا قورنت بها ، لو كان عليّ ان اجد مزاحماً مفضلاً إزاء هذه المرأة .

ان الموقف الذي اتخذته السيدة دي تورفيل يدغدغ عزة نفسي ، ولكنني مبتئس مع ذلك لكونها وجدت في نفسها قوة كافية على الانفصال بقدر ما لديّ . وستقوم بيننا عقبات أخرى غير تلك التي وضعتها بنفسي ! ماذا ؟ لو شئتُ أن أتقرب اليها ، ستتمكن من عدم الرغبة في ذلك ؟ ماذا أقول ؟ إنهـا لن ترغب فيّ أبداً ؟ ولا تجعل مني سعادتها القصوى ؟ فهل الحب على هذه الصورة ؟ وهل تعتقدي يا صديقتي الحسناء ان عليّ ان أتعـذب من جراء ذلك ؟ أفلن أستطيع مثلاً ، او ليس من الافضل ، أن اجرب اعادة هذه المرأة الى نقطة أتوقع معهـا إمكان المصالحة التي قد ترغب فيها ما دام هناك أمل ؟ سأتمكن من محاولة القيام بهذا المسعى دون أن أعلق عليـــه أية اهمية ، ودون أن يريبك بشيء . بل على العكس ستكون محاولة بسيطة نقوم بها معاً . وحين سأنجح فيها فلن نعـــدم وسيلة اخرى لكي نجـــدد ، حسب مشيئتك ، تضحيةً بدت لك انها ممتعة . أما الآن يا صديقتي الحسناء فـــلم يبقَ لي إلا تلقي الثمن ، وكل أمنياتي معقودة الآن على عودتك . فاحضري اذن بسرعة لتستعيدي عاشقك وملذاتك واصدقاءك وتيار المغامرات .

أما مغامرة الصغيرة فولانج فقد سارت بصورة رائعة ، وكان ان قادتني غدواتي أمس ، حـين كانت وساوسي لا تدعني أستقر في مكان ، إلى دار السيدة

دي فولانج . فوجدت حضينتك قد خرجت الى الصالون ، ولكنها ما زالت في لباس المرض ، وكانت في نقاهـــة رائعة ، وبدت على مبلغ كبير من النضارة والإغراء ، بينما تبقين أنتن معشر النساء في مثل هـــذه الحالة شهراً واحداً في السرير . في الحقيقة :فلتعش الآنسات ! لأن هذه في الواقع قد أثارت في نفسي الشوق لأن اعرف اذا كان الشفاء قد أصبح تاماً ام لا !

وعندي ما اخبرك به وهو ان حادث الفتـاة الصغيرة كاد يجعل صديقك دانـني المتـكلف العواطف مجنونـــاً . وفي البداية كان متأثراً ، أما اليوم فهو مبتهج . لقـد كانت سيسيلته مريضة ! تستطيعين ان تتصوري كم يـــدور الرأس في مثل هـــذه الحالة ! وقد بعث ثلاث مرات في النهار يستفسر عن عن صحتها ، ولم يدع الفرصة تمر دون أن يحضر بنفسه . وأخيراً سمح لهعـــن طريق رسالة جميلة الى الام ، بتهنئة الفتاة العزيزة بمناسبة إبلالها من مرضها. وقد رحبت بهالسيدة دي فولانج الى درجة انني وجدت الشاب جالساً على سجيته في المنزل كما كان يفعل في الماضي،لولا بعض التحفظ الذي ما زال لا يسمح لنفسهبه.

وقد عزفت هذه التفاصيل منه ، لأنني خرجت معه في آن واحـد ثم جعلته يتكلم . ولا يمكن أن تكون لديك فكرة عن مدى التأثير الذي احدثته هـذه الزيارة في نفسه . يا للبهجة ، والخيلاء ، والرغبات التي لا استطيع ان اصفهـا لك . وانا الذي احب المبالغة في جميع المظاهر والحركات ، عمدت إلى إلهـاب رأسه مؤكداً له انني سأتيح له رؤية حسنائه عن كثب في غضون ايام قليلة.

وبالفعل فقد قررت ان اعيدها اليه حالما اقوم باختبـاري . وسأكرس لك نفسي بكليتي . ثم هل كانت حضينتك تستحقهذا العناء لكي اجعل منها تلميذتي لو كان عليها ان تخدع زوجها فقط ؟ والشيء الرائع في هذا العمل ان اجعلهـــا تخدع حبيبها الأول . لأنه في ما يتعلق بي ليس عندي ما اؤاخـــذ به نفسي على انني تلفظت بكلمة حب .

الوداع يا صديقتي الحسناء ، عودي إذن بأسرع ما يمكن لتتمتعي بسلطانك عليَّ ، وتتقبلي التعظيم ، وتدفعي لي الثمن .

twitter @baghdad_library

١٤٥

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون

قصر ... في ٢٩ تشرين الثاني ؟؟ ١٧

هل تخليت بصورة جدية ، ايها الفيكونت ، عن الرئيسة ؟ وهل بعثت بالرسالة التي وضعتها لك من اجلها ؟ في الحقيقة انك رائع ! وقد تجاوزت ما انتظره منك ! انني اعترف بصراحة أن هذا الانتصار يطريني اكثر من جميع الانتصارات التي احرزتها حتى الآن . لعلك تجد أنني اقدّر هذه المرأة بقيمة رفيعة جداً ، بينما كنت في الماضي لا أوليها مثل هذا التقدير . ولكنني لم احقق فوزي عليها بقدر ما حققته عليك . وهذا هو المضحك في الأمر ، وهو حقيقة لذيذة .

اجل ايها الفيكونت لقد أحببتَ كثيراً السيدة دي تورفيل ، لا بل ما زلت تحبها ايضاً ، تحبها كمجنون : ولكن بما انني كنت اتسلى في جعلك تخجل من حبها ، فلقد ضحيت بها بشجاعة . ولعلك كنت تضحي بألف امرأة اخرى بدلاً من ان تتعذب من جراء مداعبة . أرأيت الى اين يقودنا مع ذلك حب التظاهر والصلف ! لقد كان ذلك الحكيم على حق حين قال : « ان الصلف هو عدو السعادة » .

اين ستكون الآن لو لم أشأ ان اقوم بهذه الخباثة ؟ ولكنني عاجزة عن الخداع . انت تعلم ذلك جيداً ، وقد كان ينبغي عليك ان تدفعني بدوري الى اليأس والدير ، فاتحمل هذه المخاطر ، واستسلم لمنتصري .

ومع ذلك إذا كنت أستسلم ، فذلك بالحقيقة من قبيل التخاذل البحت ، لأنني لو كنت ارغب في المماحكات لكان عليّ ان استمر . ولعلك تستحقها ؟ انني معجبة مثلاً بالبراعة أو عدم الحذاقة التي عرضت فيها عليّ بكل نعومة ان ادعك تستأنف علاقتك مع الرئيسة . فهل سيلائمك كثيراً ـ أليس كذلك ؟ ـ أن تعيد لنفسك ميزة هذا الانفصال دون ان تفقد فيه ملذات المتعة ؟ وستظن

الورعة السماوية نفسها ، عن طريق هذا الاجراء السعيد انها الوحيدة التي اختارها فؤادك ، بينما سأفتخر بأن اكون مزاحمتها المفضلة . وسنكون مخـــدوعتين كلتا الاثنتين ، ولكنك ستكون مسروراً ، وماذا يهمك الباقي !

من المؤسف ، يا صديقي ، أن تتمتع بمثل هذه الموهبة في وضع الخطط ، ولا تكون لك الموهبة نفسها في تنفيذها . وإنك في مسعى ليس فيـــه شيء من التبصر ، وقد وضعت بنفسك عقبـة لا يمكن التغلب عليهـــا للوصول الى ما ترغب فيه .

ماذا ! انت تنوي ان تعيد علاقتك معها ، وقـد كتبت اليها رسالتي ؟ هل ظننتني هوجاء جداً بدوري ؟ إسمع يا فيكونت ، حـين توجه امرأة ضربتها الى قلب امرأة اخرى ، فمن النادر ألا تصيب المـكان الحساس ، ويصبح الجرح غير قابل للشفاء . وفيما كنت أضرب هذه الضربة ، أو بالأحرى كنت أوجّه ضرباتك لم أنس ان هذه المرأة كانت مزاحمتي ، وقد وجدتها مفضّلة عـليّ ، وانك اخيراً قـــد وضعتني في مستوى أقل منها . اما اذا كنت قد اخطأت في انتقامي ، فانني اوافق على تحمل نتائج خطأي . وهكذا ايها الفيكونت أجد من المستحسن ان تجرّب جميع الوسائل ، لا بل أدعوك إلى ذلك ايضاً . وأعدك بأنني لن اكون حـانقة لنجاحاتك ، هذا اذا توصلت الى إحرازها . . . وانا مطمئنة جداً من هذه الناحية بحيث لا أريد ان أشغل نفسي بها ، لنتحدث عن شيء آخر .

عن صحة الصغيرة فولانج مثلاً . وستطلعني على اخبار ايجابية لدى عودتي ، أليس صحيحاً ! وسأكون مسرورة للحصول عليها . وبعد ذلك سيكون عليك ان تفكر اذا كان سيلائمك أن تعيد الفتاة الى عشيقها ، أو تجرب ان تصبح مرة ثانية مؤسس فرع أسرة فالمون تحت إسم جيركور . وقـد بدت لي هذه الفكرة رائعة جداً ، وأدع لك الخيار ، إنما اطلب اليك في الاثناء ألا تتخـــذ الموقف النهائي دون أن نكون قد بحثنا الأمـــر معاً ، ولا يعني هذا أنني اؤجلك إلى موعد بعيد ، بل سأكون في باريس قريباً جداً . ولكن لا تشك بأنك ستكون متى عدت الأول الذي يعرف بنبأ وصولي .

twitter @baghdad_library

الوداع ايها الفيكونت . وعلى الرغم من مشاحناتي ، وخباثاتي ، وملامـاتي احبك دائماً جداً ، واهيىء نفسي لكي أثبت لك حبي . إلى اللقاء يا صديقي .

١٤٦

من المركيزة دي ميرتاي الى الفارس دانسني

قصر ... في ٢٩ تشرين الثاني ؟؟ ١٧

أخيراً سأرحل يا صديقي الشاب، وسأكون في باريس مساء الغد. انني لا أنوي ان استقبل احداً اثناء زحمة مضايقات الانتقال. ومع ذلك اذا كانت لديك مسارة عاجلة لكي تطلعني عليها ، فأنني أود جيداً ان استثنيك من القاعدة العامة . ولكنـني لن استثني سواك : وهكذا اطلب اليك المحافظة على سر موعـد وصولي . لأن فالمون نفسه لن يطلع عليه .

من كان يظن ، منذ زمن قصير ، انك ستصبح قريباً موضع ثقـتي الخاصة ؟ بيد ان ثقتك جذبت ثقتي . ويخيل اليَّ انك وضعتَ فيهـا كثيراً من البراعة ، لا بل من الاغواء ايضاً . وهذا ليس امراً حسناً على الأقل . ومهـما يكن فلن تكون خطرة في الوقت الحاضر ، لان لديك شخصاً آخر لتهـتم به ! إذ حين تكون البطلة على المسرح فلا يهتم الناس بمن تكون موضع الأسرار .

أهكذا لم تجد متسعاً من الوقت لكي تطلعني على نجاحك الجديد ؟ وحـين كانت سيسيلتك غائبة ، لم تكن الايام تبدو لك طويـلة لكي أسمع شـكاواك الرقيقة ، ولكنت تحدثت بها مع الاصداء لو لم اكن هناك لأصغي أليها . وحين كانت مريضة قبل حين ، فقد شرفتني بالتحدث عن لواعجك وهمومك ، وكنتَ بحاجة في ذلك الحين إلى اطلاع أحد عليها . ولكن ما أن اصبحتُ الآن في باريس ، في صحة جيدة ، وبصورة خاصة أخذت تراها في بعض الاحيان ، حتى غدت كافية عن الجميع ، ولم تعد لاصدقائك اية قيمة .

انا لا ألومك البتة ، بل هذه هفوة من هم في سنك العشرين . أفلا تعلم منذ

أقصى العهود حتى يومنا هذا ان الفتيان لا يعرفون ابداً الصداقة إلا في أشجانهم؟ وأن السعادة تجعلهم احياناً متكتمين ولكن ليس مناجين ابـــداً . وسأقول كسقراط : « أحب ان يأتي اصدقائي إليَّ حين يكونون بائسين » . ولكنـه بوصفه فيلسوفاً فقد كان يستغني عنهم حين لا يأتون . وفي ذلك لست تمامـــاً فيلسوفة مثله . وقد تأثرتُ لصمتك بكل تخاذل نسائي .

ومع ذلك أرجو ألا تخالني متطلبة في هذا الميدان فقط . وان الشعور نفسه الذي يجعلني الاحظ هذا الحرمان ، يجعلني ايضاً أتحمله بشجاعة ، حين تكون سبباً او برهاناً على سعادة اصدقائي . انني لا أعتمد اذن على حضورك غداً مساء الا اذا تركك الحب حراً غير مشغول . وانني أحظر عليك أن تبذل من اجلي اقل تضحية .

الوداع ، أيها الفارس . سأكون مبتهجة جداً بان اراك . هل تحضر ؟

١٤٧

من السيدة دي فولانج الى المركيزة دي روزموند

باريس في ٢٩ تشرين الثاني ؟؟ ١٧

ستكونين مبتئسة اكيداً كما انا الآن ، يا صديقتي المحترمة ، لدى اطلاعك على ما وصلت اليه حالة السيدة دي تورفيل . انها مريضة منذ أمس ، وقـــد تفاقم مرضها بشدة ، وهو يتجلى بعوارض خطـــيرة جداً حتى انني اصبحت قلقة حقيقة عليها .

حمى شديدة ، وغيبوبة عنيفة مستمرة دائماً تقريباً ، وظمأ لا يمكن أطفاؤه . تلك هي العوارض التي تُلاحظ عليها . ويقول الاطباء انهم لا يستطيعون ان يشخّصوا شيئاً حتى الآن . كما ان العلاج سيكون اشد صعوبة أيضاً ، ما دامت ترفض بعناد تناول اي نوع من انواع الأدوية ، الى درجـــة انه كان لا بد من امساكها بالقوة لاجراء الفصاد لها . وكان لا بد منذ ذلك الحين من استخدام

twitter @baghdad_library

الطريقة نفسها مرتين أخريين لإعادة وضع الضماد لها ، بحيث انها تريدحتى فيحالة غيبوبتهاإنتزاعه دائماً .

أنت يا من رأيتها مثلي رقيقة القوى ، شديدة الحيـاء ، بالغة العذوبة ، هل تستطيعين أن تدركي اذن أن اربعة اشخاص لا يكادون أن يمسكوا بها ، وما ان يُقدَّم أليها أي علاج حتى تغدو في حالة من الهياج الفظيع الذي لا يُفسَّر ؟ وانا أخشى الا تكون مصابة فقط بهذيان، بل هناك ماهو أدهى... اي اختلال عقلي حقيقي .

إن ما يزيد مخاوفي بهذا الصدد ما حدث امس الأول ..

ففي ذلك اليوم وصلت حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى دير « ... » مع خادمتها . ونظراً لكونها تلقت تعليمها في ذلك الدير ، وكان من عادتها ان تحضر في بعض الاحيان اليه. فقد استُقبلت كالعادة ، وبدت للجميع بانها هادئة وفي صحة جيدة .

وبعد مضي ساعتين سألت عمـا اذا كانت الغرفة التي شغلتها في الماضي وهي طالبة داخلية شاغرةً الآن . وحين أُجيبت بالايجاب ، طلبت أن تراها. فرافقتها احدى الراهبات . وعندئذ اعلنت انهـا ستعود للاقامة في هذا البيت الذي كان عليها الا تغادره مطلقاً ، واضافت بأنها لن تخرج منه « إلا حـين تموت » وكانت هذه هي عبارتها بالذات .

ولم يعرف المسؤولون في البداية ماذا يقولون ، ولكنهم قالوا لها بعد ان زالت دهشتهم الاولى ان صفتها كامرأة متزوجة لا تسمح لها بالدخول دون إذن خاص . بيد ان هذا السبب وغيره من الوف الاسباب لم تجدِ نفعاً كما لم تثنها عن عزمها ، بل أصرت ليس فقط على عدم الخروج من الدير، بل على احتلال غرفتها بالذات . واخيراً بعد اخذ ورد طويلين وُوفق في الساعة السابعة مساء على ان تقضي تلك الليلة هناك . ثم صرفت عربتها وخدمها وأُجِّل إلى اليوم التالي اتخاذ قرار بشأنها .

ويؤكدون انها كانت طوال السهرة واجمة مفكرة ، وأنها وقعت أربع أو

خمس مرات في حالة من السهوم العميق وقد سبحت في بحران تخيلاتها وهواجسها بحيث لم يتمكنوا من اخراجها من هذه الحالة عن طريق التحدث اليها . وفي كل مرة كانت تخرج من هذه الحالة كانت تضع يديها على جبينهـا وتبدو بأنها تضغط عليه بقوة . وقد سألتها احدى الراهبات في الاثناء عمـا اذا كانت تشعر بألم في رأسها ، ولكنها حدقت فيها طويلاً قبل ان تجيب : « كلا ليس الألم هنـــا » ! وبعد فترة وجيزة طلبت أن تُترك وحدها والا يُطرح عليهـا في المستقبل أي سؤال .

فأنسحب الجميع من الغرفة مـا عدا خادمتها التي كان عليها ان تنـام لحسن الحظ معها في الغرفة نفسها لعدم وجود مكان آخر .

واستناداً إلى ما روته هذه الفتاة فان معلمتها كانت هادئة جداً حتى الحادية عشرة ليلاً ، وعندئـذ قالت انها تريد أن تنـام ، ولكنها قبل ان تخلع ملابسها اخذت تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً وهي تقوم بحركات غريبة متواترة . ولم تجرأ جولي التي شهدتْ كل ما حدث في النهار على أن تقول لها شيئاً .

وانتظرت بصمت حوالي ساعة واحدة واخيراً استدعتها مرتين على التوالي ، وما ان تهرع الى سيدتها حتى تسقط بين ذراعيها وهي تقول: « لم اعد استطيع » . ثم تركت نفسها تُقاد الى السرير ، ولم تشأ أن تتناول شيئاً ولا أن يُؤتى لها بأي اسعـاف . بل وضعت فقط قليلاً من الماء الى جانبها ، وأمرت جولي بأن تنام .

وتؤكد هذه انها لم تستطع الى النوم سبيلا حتى الساعة الثانية صباحاً . وانها لم تسمع خلال نومها اية حركة او تذمر . ولكنها تقول إنها أفاقت في السـاعـــة الخامسة صباحاً على هذيان معلمتها التي كانت تتحـــدث بصوت قوي مرتفع . وعندئذٍ سألتها عما اذا كانت بحاجة الى شيء ، ولكنها لم تتلق جواباً ، فحملت السراج وقصدت سرير السيدة دي تورفيل التي لم تتعرف عليها البتة ، وانها فقط قطعت هذيانها لتقول لها : فليدعوني وشأني ، فليدعوني في هذه الغياهب المظلمة التي تناسبني . وقد لاحظتُ امس بنفسي انها كانت تكرر هذه العبارة غالباً .

twitter @baghdad_library

وأخيراً انتهزت جولي هذا النوع من الهـــدوء لكي تخرج وتستدعي بعض الناس والاسعاف . ولكن السيدة دي تورفيـــل رفضت هؤلاء وذاك بفورات شديدة من الغضب والتشنجات التي أخذت تصاب بها غالباً منذ ذلك الحين .

وقد أدت البلبلة التي اوقعتها حالة السيدة دي تورفيل في الدير، الى اضطرار القيّمة لاستدعائي في الساعة السابعة صباحاً. ولم يكن النهار قد مَتُعَ بعد، حين هرعت على الفور ، وحين أُبلغتْ السيدة دي تورفيل بحضوري بدت بأنهـــا استعادت وعيها وقالت : « أجل فلتدخل »، ولكنني حين جلست قرب سريرها، حدّقت فيّ طويلاً ، وتناولت يدي فضغطتهـــا وقالت بصوت قوي متجهّم : « اموت لكي لا أصدقك » . وعادت على الاثر بعد ان خبأت عينيها الى هذيانها المعتاد « فليدعوني وشأني الخ . الخ .. » ثم فقدت كل وعيها .

ان ما قالته لي وما افلتت منها من اقوال اثناء هجرانهـــا ، تجعلني أخشى بأن يكون هذا المرض الخطير ناتجاً عن سبب خطير ايضاً . ولكن لنحـــترم اسرار صديقتنا، ولنكتفِ برثاء حالتها .

وكذلك كان نهار الأمس بطوله عاصفاً ، وقد أصيبت أثناءه بحـــالات من الانفعالات العنيفة والتشنجات الجنونية ، ولم استطع ان أُفارق سريرهـــا الا في الساعة التاسعة ليلاً . وسأعود هذا الصباح لأقضي النهار معها . ومن المؤكد انني لن اترك صديقتك التعيسة ، ولكن ما هو مؤسف هو عنادهـــا في رفض جميع العلاجات والعنايات .

انني ارسل اليك النشرة الطبية عن هذه الليلة وقد تلقيتها الآن وهي كما ترين لا تبعث على الاطمئنان . وسأهتم بارسال جميع النشرات اليك .

الوداع يا صديقتي المحترمـــة ، سأذهب للسهر على المريضة . وإن ابنتي التي شفيت تماماً لحسن الحظ تقدم اليك احترامها البالغ .

١٤٨

من الفارس دانسني الى السيدة دي ميرتاي

باريس في اول ايلول ؟؟ ١٧ .

أنتِ يا من أحبك ! أنت يا من أعبدك ! انت يا من بـدأتِ سعادتي ! أنت يامن غمرتِها ! ايتها الصديقة الحساسة ، والحبيبة العذبة لماذا تأتي ذكرى عذوبتك فتعكر السحر الذي أشعر به ؟ آه يا سيدتي هدئي من روعك ، فهي الصداقة التي تطلب اليك ذلك . آه يا صديقتي ، كوني سعيدة ! وهذا رجاء الحب .

حسناً ! أية مآخذ إذن ستوجهينها إلى نفسك ؟صدقيني بأن عنفوانك يستغل طيبتك . فالحسرات التي يسببها لك ، والاخطاء التي تلومينني عليهـا هي ايضاً موهومة . وأشعر ضمن قلبي أنه لميقم بيننا نحن الاثنين اي غاو آخر سوى الحب . فلا تخشي اذن ابـداً الاستسلام إلى المشاعر التي اوحيتها انت لي، ولا تدعي جميع النيران التي تشعلينها تتسرب إلى نفسك . ماذا ! هل ان قلبينا سيكونان اقـل براءة اذا استنيرا في ما بعد ؟ كلا ولا ريب ، بل على العكس فان الغواية التي لا تؤثر إلا عن سابق تصميم ،تستطيع ان تمزج مجراها مع وسائلها وتتوقع الاحداث البعيدة . ولكن الحب الحقيقي لا يسمح بالتأمل والتفكير . بـل يلهي افكارنا بواسطة مشاعرنا . وان سلطانه ليس ابداً أقوى إلا حين يكون مجهولاً ، وهو يحيطنا عبر الظلال والسكون بارتباطات من المستحيل ملاحظتها أو قطعها .

وهكذا خُيِّل إليَّ بالأمس ايضاً رغم الانفعال الحـاد الذي سببته لي فكرة عودتك : ورغم المتعة القصوى التي شعرت بها عند رؤيتك ، انني لم أستدع ولم أُقاد الا من قبل الصداقة الهادئة : او بالأحرى بعـــد ان أنسقت بكليتي وراء مشاعر فؤادي ، لم أهتم الا قليلاً بالبحث عن أسبابها ومسبباتها .

وهكذا كُنتِ مثلي ، يا صديقتي الرقيقة ، تشعرين دون ان تـدري ، بهذا السحر المتسلط الذي قاد روحينا إلى تأثيرات المحبة العذبة . وكلانا لم يكتشف الحب الا بعد خروجنا من النشوة التي أغرقنا هذا السلطانُ الجبار فيها .

twitter @baghdad_library

ولكن ذلك يجب ان يبررنا بـــدلاً من أن يثبط همتنا . كلا ، إنك لم تخوني الصداقة ، وانا لم أُسيء الى ثقتك . كلانا — وهذا صحيح — كنا نجهل عواطفنا. ولكننا شعرنا بهذا الوهم فقط دون ان نبحث عن توليده . آه ! ينبغي علينا بدلاً من ان نتذمر منه ، ان نفكر فقط بالسعادة التي زودنا بها. وبدلاً من ان نعكره بمآخذ تعسفية ، فلنهتم بمضاعفته ايضاً بسحر الثقة والأمان . آه يا صديقتي ،كم ان هذا الشعور عزيز على فؤادي ! اجل،من الآن فصاعداً ستتحررين من مخاوفك، واكرس انا كل نفسي للحب ، وستشاطريني رغباتي وهيامي ، وجنون حواسي ، ونشوة قلبي ، وكل لحظةمن لحظات ايامنا السعيدة ستكون مفعمة بلذة جديدة .

الوداع ، يامن اعبدها ! سأراك هذا المساء ، ولكن هل سأجدك وحدك . لا أجرأ على أمل انت لا ترغبين فيه بقدر ما أرغب .

١٤٩

من السيدة دي فولانج الى السيدة دي روزموند

باريس في ٢ كانون الأول ؟؟ ١٧

لقد أمّلتُ أمس طول النهار تقريباً يا صديقتي المحترمـــة ، ان اتمكن من اطلاعك هذا الصباح على اخبار مشجعة عن صحة مريضتنا العزيزة ؛ ولكن هذا الامل ما لبث ان تحطم منذ مساء امس ، ولم يبق لي سوى الاسف لكوني فقدته. غير ان ثمة حادثاً — لا اهمية له في الظاهر ، ولكنه قاس جداً في عواقبه — قد وقع وجعل حالة المريضة على الاقل مقلقة كالسابق ان لم يكن قـــد ازدادت سوءاً .

ولو لم اتلق امس مسارة صديقتنا التعيسة برمتها ، لما كنت فهمت شيئاً من هذا الانقلاب المفاجيء . ونظراً لأنها لم تدعني اجهل انك مطلعة انت ايضاً على جميـع اسرارهـــا المنكودة الحظ ، فأنا استطيع ان احدثك دون تحفظ عن وضعها البائس .

حين وصلت صباح امس الى الدير ، قيل لي ان المريضة ما زالت نائمة منذ اكثر من ثلاث ساعات ، وان نومها كان عميقاً هادئاً ، بحيث انني خشيت في احدى اللحظات ان تكون غارقة في سبات مرضي . وبعد فترة وجيزة أفاقت وفتحت بنفسها أستار سريرها . ونظرت الينا جميعاً بمظهر مفاجيء . وحين نهضتُ لكي أتوجه اليها ، عرفتني ودعتني باسمي ورجتني ان اقترب منها . ولم تدع لي الوقت لأطرح عليها اي سؤال ، بل سألتني اين هي ؟ وماذا نفعل نحن هنا ؟ واذا كانت مريضة ؟ ولماذا ليست في منزلها ؟ وخُيّل إليّ في البداية ان هذه نوبة جنون جديدة ، ولكنها أهدأ من سابقاتها . ولكنني لاحظتُ انها كانت تفهم جيداً أجوبتي . وبالفعل كانت قد استعادت عقلها ولكن ليس ذاكرتها .

وسألتني بكثير من التفاصيل عن كل ما جرى لها منذ أن وُجدت في الدير حيث لا تتذكر انها جاءت اليه . فأجبتها بكل دقة عن كل شيء ، وانا احذف فقط ما كان يمكن ان يفزعها : وحين سألتها بدوري : كيف تجد نفسها ؟ أجابتني ؟ انها لا تتألم الآن ، وانها كانت مضطربة جداً في نومها ، وانها تشعر بنفسها متعبة جداً . فشجعتها على ان تطمئن نفسها وعلى ان تتحدث قليلاً ، فأقفلتْ أستارها قليلاً وتركتها نصف مفتوحة ، وجلستُ معها فوق السرير ، وفي الوقت نفسه عُرِضَ عليها تناول حساء فشربته ووجدته حسناً .

وبقيتُ على هذه الحال نصف ساعة تقريباً ، لم تكفّ خلالها عن شكري على عنايتي بها ، ووضعت في شكرها كثيراً من الظرف واللطف اللذين تعهدينهما فيها . ثم اعتصمت فترة قصيرة بالصمت ، ولم تقطعه الا لتقول : « آه ، اجل انا اتذكر الآن انني حضرت إلى هنا »، وبعد لحظة صاحت بكل تألم «ياصديقي ، إرثي لحالي ، انني اكتشف جميع تعاساتي » ، فتقدمتُ نحوها عندئذ فالتقطتْ يدي ، وأسندت رأسها عليها واستطردت : « يا إلهي ، ألا استطيع ان أموت ؟ » ، وقد أثّرت فيّ تعبيرات وجهها اكثر من كلامها حتى سالت دموعي . ولاحظتْ ذلك عليّ فقالت : « انت ترثين لي ! آه لو تعلمين ... » ثم

twitter @baghdad_library

قاطعت نفسها قائلة : « إعملي على ان نكون وحدنا ، وسأروي لك كل شيء » .

وهكذا كما كنت قد قلته لك سابقاً ، كانت لدي شبهات حول ما ينبغي ان يكون عليه موضوع هذه المسارة . ولخشيتي من ان تكون هذه المحادثة طويلة وبائسة مما قد تؤذي حالة صديقتنا التعيسة ، فقد رفضت في البداية الاستماع اليها بحجة انها بحاجة الى الراحة ، ولكنني ازاء إلحاحها اضطررت الى الموافقة . وما ان بتنا وحيدتين حتى روت لي كل التفاصيل التي تعرفينها . وانني لهذا السبب لا اكررها لك .

واضافت اخيراً وهي تحدثني عن الطريقة المفجعة التي ضحيت بها : « لقد خيل اليّ اكيداً انني سأموت بسببها ، وكانت لدي شجاعة على ذلك ، ولكن المستحيل عليّ هو ان اعيش وانا متحملة شقائي وعاري» . وقد حرصت على محاربة هذا التشاؤم أو بالاحرى هذا اليأس القاتل ، بأسلحة الدين التي كانت حتى ذلك الحين قوية . ولكنني ما لبثت ان شعرت انه لم تكن عندي قوى كافية على متابعة هذه المهام الجبارة،واقترحت عليها استدعاء الاب أنسيلم الذي اعلم انه يتمتع بكل ثقتها . فرضيت بذلك وبدت انها ترغب كثيراً في رؤيته . وكان ان استدعي فحضر على الفور . ومكث مدة طويلة عند المريضة ، وقال لدى خروجه : اذا كان الاطباء يعتقدون مثله ، فهو يظن ان من الممكن تأجيل حفلة القربان الاخير الى الغد ، وانه سيعود غداً .

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر ، وظلت صديقتنا هادئة حتى الساعة الخامسة بحيث اننا جميعاً استعدنا الأمل بامكان شفائها . ولسوء الحظ حملت اليها رسالة في الاثناء ولكنها رفضت تسلمها . ثم سألت بعد لحظة من اين جاءت هذه الرسالة ؟ ولكنها لم تكن تحمل ختماً بريدياً . ومن جاء بها ؟ ومن قبل من بعثت ؟ كل ذلك لم يعرفه أحد . وهنا صمتت بعض الوقت ولكنها عادت الى الكلام ، وكانت اقوالها متقطعة لا رابطة بينها . مما جعلنا نوقن ان جنونها قد عاودها .

وفي الاثناء مرت فترة هدوء اخرى طلبت على اثرها تسليمها الرسالة . وما

ان ألقت انظارها عليهـا حتى صاحت : « انها منه ، يا إلهي ! » ثم اضافت بصوت قوي متهدج : « خذوها ، خذوها عني » ثم أقفلت حالاً أستار سريرها، وحظرت على الجميع الاقتراب منها : ولكننا ما لبثنا ان اضطررنا الى العودة الى قربها . ذلك ان نوبة الهذيان قد عاودتها هذه المرة أقوى من سابقاتها ، وقـد اصيبت معها بتشنجات مخيفة . ولم تكف هـذه العوارض عن ملاحقتها طوال السهرة ، وقد أعلمتني نشرة هذا الصباح انها قضت ليلة عاصفة . واخيراً فهي في حالة أعجب معها كيف انها لم تلفظ انفاسها بعد . ولا أخفي عليك انني قطعت كل أمل تقريباً .

أفترض ان هذه الرسالة التعيسة هي من السيد دي فالمون ولكن ماذا يمكن أن يجسر أيضاً على ان يقول لها ؟ عفواً يا صديقتي العزيزة ، انني أمتنع عن ابداء اية ملاحظة : ولكن من المؤلم جداً رؤية امرأة كانت حتى الآن سعيـدة وجديرة بالسعادة تهلك بهذه الصورة التعيسة .

١٥٠

من الفارس دانسني الى المركيزة دي ميرتاي

باريس في ٣ كانون الاول ؟؟ ١٧

إنني انساق الآن يا صديقتي الرقيقة ، بانتظار سعادة رؤيتك ، في متعة الكتابة اليك ، وانني عن طريق الاهتمام بك ، أتخلص من التحسر على كوني بعيداً عنك . إنّ بثّي إياك عواطفي ، وتذكير نفسي بعواطفـك ، هما بالنسبة لقلبي متعة حقيقية ، ومن جراء هذه المتعة يتيح وقت الحرمان لحبي آلاف الملذات الثمينة . ومع ذلكٌ اذا كان لا بدّ من ان أصدقك ، فلن أحصل على أي جواب منـك . وهذه الرسالة ستكون الاخيرة ، وسنحرم نفسينـا من « تجارة » — هي حسب رأيك — خطيرة ، ولسنا بحاجة اليها . وأنا سأصدّقك اكيداً اذا الححت : إذ ماذا يمكن أن تريدي ، ولا أريده أنا لهذا السبب ؟ ولكن قبل أن تقرري نهائياً،

twitter @baghdad_library

أفلاتسمحي لي بأن نتحدث معاً ؟

في ما يتعلق بالاخطار ، ينبغي عليك ان تحكمي عليها وحدك : ولا استطيع ان احسب مداها . ويهمني أن ارجوك السهر على سمعتك ، لأنني لا استطيع أن اكون مطمئناً حين تكوني قلقة . وفي هذه القضية لسنا كلانا واحداً ، بل عليك ان تقرري عنا نحن الاثنين .

ولكن الأمر مختلف في ما يتعلق بالحاجة الى ذلك . وهنا لا يمكن ان تكون لدينا الا الفكرة نفسها . واذا كنا نختلف في الرأي ، فذلك عائد ربما الى اننا بحاجة الى التفاهم . واليك اذن ما اظن انني أشعر به .

لا شك بأن المراسلة تبدو غير ضرورية حين نستطيع أن نتقابل بحرية . وماذا يمكن لرسالة أن تقوله ولا تعبر عنه بصورة افضل ، كلمة واحدة او نظرة واحدة او حتى صمت ؟ وهذا ما يبدو لي صحيحاً ، حتى انك حين طلبت اليّ الانتراسل فقد دخلت هذه الفكرة بسهولة الى نفسي . ولعلها ضايقتها ، ولكنها لم تؤثر فيها أبداً كما لو أنني حين أريد أن اطبع قبلة على قلبك ، فأصادف شريطاً ، أو قطعة من الشاش ، فألحيها فقط ، ولا أشعر بأي حاجز .

ولكننا منذ ذلك الحين إنفصلنا ، وما دمتِ لم تعودي هناك ، فقد عادت فكرة المراسلة تشغل بالي . وقلت لنفسي لماذا اتحمل حرماناً آخر ؟ ثم الا نستطيع ان نقول شيئاً حين نبعد واخيراً مهما كان الوقت الذي نقضيه في المتعة ، فاننا نصل الى الافتراق ، واذا بي أشعر بوحدتي ! وعندئذ تصبح الرسالة ثمينة ! واذا لم تُقرأ ، فعلى الاقل يمكن النظر اليها ... آه ! بدون شك من الممكن النظر الى رسالة دون قراءتها ، كما أشعر في الليل ببعض السرور حين ألمسُ صورتك ...

لقد قلت صورتك ؟ ولكن الرسالة هي صورة الروح ... وهي لا تتضمن كالصورة ذلك المظهر البعيد كل البعد عن الحب . بل هي تمثل جميع حركاتنا . وهي في آن واحد ، تحيا ، وتتمتع ، وترتاح ... وان مشاعرك هي ثمينة جداً بالنسبة لي ! فهل تحرمينني من وسيلة التقاطها ؟

هل انت متأكدة بأن حاجة الكتابة إليّ لن تشغل بالك ابداً ؟ واذا كان قلبك في العزلة يتمدد او ينقبض ، واذا كانت لحظة حبور تتغلغل حتى روحك، واذا جاءت تعاسة تلقائية تعكر روحك لحظة ما،أفلن تعمدي إلى بث سعادتك ولواعجك في روح صديقـــك ؟ هل سيكون لديك شعور لا يشاطره اياك ؟ آه يا صديقتي ... يا صديقتي الحنونة ... ولكن الأمر يعود اليك لكي تقرري . لقد أردت فقط ان اتباحث معـــك ، لا أن اغريك . ولم اقل لك إلا اسباباً منطقية ، واعتقـــد انها كانت اقوى من الرجاءات . وسأحاول اذن – اذا ألححتِ – بألا أشجيك. وسأبذل جهودي لكي اقول لنفسي مايمكن ان تكوني قـد كتبته لي . ولكنك ستقولينه بشكل افضل مني. وسأحصل على سرور اعظم في سماعه منك .

الوداع يا صديقتي الفاتنة . لقد اقتربت الساعة التي استطيع فيها ان اراك . اتركك سريعاً لكي اذهب فألقاك مبكراً .

١٥١

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

باريس في ٣ كانون الأول ؟؟ ١٧

لا ريب ، ايها المركيزة ، بأنك لا تخالينني قليل اللياقـــة حتى افكر بأنني استطيع أن أشتبه في إجتماعك المنفرد حيث وجدتك هذا المساء ، وفي «المصادفة المدهشة » التي قادت دانسني إلى بيتك ! وليس لأن سحنتك المتمرنـة لم تعرف أن تتخذ بصورة رائعة تعبير الهدوء والصفاء ، ولا لأنك قد فضحتِ نفسك بأية عبارة من هذه العبارات التي تفلت أحياناً فتكشف عن الاضطراب والندم . وأعترف ايضاً أن نظراتك المرنة قد خدمتك تماماً ، وقد عرفتْ أن تبعث على التصديق كما تبعث على التفاهم . ودون ان أُبدي أو أحتفظ بأية ريبة ، لم أشكّ لحظة في ما سببه لك هذا الشخص الثالث غير الملائم من غمٍّ بالغ . وكان لا بد

twitter @baghdad_library

أن نشرت عبثاً كل هذه المواهب لتحقيق نجاح وعدتِ به نفسك ،واحداث الوهم الذي تبحثين عن خلقـــه ، كان لابد لك من أن تدرّبي عاشقك الساذج بكثير من العناية .

ونظراً لأنك بدأت في القيام بالتربية .درّبي تلاميذك على ألا يتوردوا خجلا ، والا يرتبكوا عند أول مزاحة ، وألا ينكروا بحماس ازاء امرأة واحدة، الأشياء نفسها التي يمنعون انفسهم من ذكرها بكثير من اللين تجـــاه الباقيات جميعهن . علّميهم ايضاً أن يُحسنوا الاستماع إلى إطراء معلمتهم دون أن يعتقـدوا أن عليهم ان يقدموا اليها كل تشريف وتقـــدير . واذا سمحتِ لهم بأن ينظروا اليك في المجتمع ، فليعرفوا على الأقل سلفاً ان يخفوا نظرة التملك التي ليس من الصعب اكتشافها ، وألاّ يزعجوها بعدم حذق بنظرة الحب . وعندئذ تجعلينهم يظهرون في تمريناتك العامة ، دون أن يشين مسلكهم سمعة معلمتهم الحكيمة . وانا نفسي سأكون سعيداً جداً بالمساهمة في شهرتك ، وأعدك بأن أنشر برامج هذه المدرسة الجديدة .

ولكنني حتى الآن أعجبُ – وانا اعترف بذلك – لكونك عمـدتِ الى معاملتي كتلميذ مـدرسة . آه ، بينما كان بامكاني مع أية امرأة اخرى ان انتقم على الفور ، وبكل سرور ! وان يكون سروري قد تجاوز بكل سهولة السرور الذي اعتقدتِ انك ستفقديني اياه ! أجل انني استطيع معك وحدك ان افضل تدارك الخطأ على الانتقـام . ولا تعتقدي ان ما يمنعني عن ذلك وجود اي شك عندي او اقل عدم تأكيد ... بل اعلم كل شيء .

لقد وصلتِ الى باريس منذ اربعـة ايام ، وفي كل يوم كنتِ ترين دانسني ، ولم تقابلي احداً غيره . واليوم ايضاً كان بابك مقفـــلاً . ولم يكن يعوز بوابك – لكي يمنعني من الوصول اليك – إلا تأكيد مماثل لتأكيدك . ومـع ذلك كان يجب عليّ ألا اشك – كما اخبرتني في رسالتك – بأنني سأكون الأول الذي أعلم بنبأ وصولك . هذا الوصول الذي لم تكوني تعرفين ايضاً ان تحددي لي موعده . بينما كتبتِ لي في الواقـع عشية سفرك . هل تنكرين هذه الوقائع ؟ أو تحاولين

أن تجدي الاعذار لنفسك . ان هـــذا وذاك مستحيل . ومع ذلك فانني اردع نفسي ايضاً . واعلمي هنا مدى سلطانك . ولكن صدّقيني ، بعد ان سُررتُ بمعرفة ذلك ،ارجوك الا تطيلي استغلاله . فنحن نعرف بعضنا البعض جيداً كلا الاثنين ايها المركيزة . وهذه الكلمة يجب ان تكفيك .

لقد قلتِ لي ، انك ستخرجين غداً طيلة النهار ؟ حسناً فليكن . واذا كنت ستخرجين بالفعل، فسيتبين لك انني سأعرف بالأمر . ولكنك ستعودين اخيراً في المساء ، ومن اجل مصالحتنا الصعبة لن يكون عندنا وقت لليوم التالي ، عرفيني اذن اذا كانت المصالحة ستتم في بيتك او «هناك» لكي نقوم بتوضيحاتنا العديدة المتبادلة . وبصورة خاصة، لكي ابحث بعد الآن عن دانسني ، فلقد أُفعم رأسك الرديء بفكرتـــه ، واستطيع ألا اكون غيوراً من جنون خيالك . ولكن فكّري منذ هذه اللحظة ان ما كان صادراً عن نزق سيصبح تفضيلاً ملحوظاً . ولا اظن نفسي انني مخلوق لهذه الاهانة . ولم اكن انتظر ان اتلقاها منك .

وآمل كذلك ألاّ تبدو هذه التضحية من جانبك على انها تضحية . ولكن حين ستكلفك جهداً ما يبدو لي انني ضربت المثل الحسن امامك! لأن هنـــاك امرأة صبية حسناء وحساسة ايضاً ، لم تكن تعيش الا من اجلي، وهي في الوقت الحاضر ربما تموت بسبب الحب والحسرة ، وقد ضحيت بها من اجلك وأظن انها تعادل جيداً فتى تلميذاً ، لا يعوزه – اذا شئت – الجمال والفطنة، ولكن تنقصه التجربة والمثابرة .

الوداع ايها المركيزة ، لن احدثك بشيء عن عواطفي التي اكنها لك ، وكل ما استطيع القيام به الآن ، هو ألا أجس قلبي وانا انتظر جوابك . فكري عند كتابته ، فكري جيداً أنه كلما كان من السهل ان تجعليني أنسى الاهانـــة التي وجهتها اليَّ ، كلما أدى اي رفض من جانبك أو مجرد تأجيـل بسيط الى زيادة خطورة هذه الاهانة في قلبي بحيث لا يمكن أن تزول آثارها .

twitter @baghdad_library

١٥٢

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون

باريس في ٤ كانون الاول ؟؟ ١٧

كن على حذر أذن ايها الفيكونت ، وارفق بحيائي البالغ ! كيف تريد ان أتحمل الفكرة المرهقة باثارة استنكارك ، وبصورة خاصة ألا أقع فريسة الخوف من انتقامك ؟ وفضلاً عن ذلك — كما تعلم — اذا قمت نحوي بأية اساءة فسيكون من المستحيل عليّ أن أردها لك . ومهما تكلمت فان وجودك لن يكون أقل لمعاناً ولا أقل هدوءاً . وفي الواقع ماذا بامكانك أن ترهب ؟ ان تضطر إلى الرحيل اذا ترك لك متسع من الوقت . ولكن أفلا يعيش المرء في الخارج كما يعيش هنا ؟ وفي أسوأ الافتراضات — شرط ان يدعك بلاط فرنسا تحدد اقامتك في المكان الذي تختاره — سيكون الأمر بالنسبة اليك استبدال مسرح انتصاراتك . وبعد هذه المحاولة في تهدئة اعصابك بهذه الاعتبارات الاخلاقية ، لنعد الى شؤوننا .

هل تعلم ايها الفيكونت لماذا لم أتزوج مرة ثانية مطلقاً ؟ من المؤكد ان السبب لا يعود الى عدم وجود صفقات رابحة . بل فقط لكي لا يكون لأحد الحق بأن يجد ما يعترض به على أعمالي وتصرفاتي . وليس ابداً لأنني خشيت الا اتمكن من تنفيذ رغباتي كما اشتهي ، وقد كان بامكاني ان اتوصل إلى ذلك في جميع الأحوال ، بل ان ما كان سيضايقني ان يغدو لشخص واحد فقط الحق بأن يتذمر من مسلكي . واخيراً لأنني لم أشأ أن أخدع أحداً إلا بدافع لذتي الشخصية ، وليس بدافع الحاجة . ولكن ها أنت تكتب إلي الرسالة الاكثر شبهاً برسائل الازواج . ولا تتحدث إليّ إلا عن اخطاء ارتكبتها من جانبي ، وعن الفضل والمنة من جانبك ! ولكن كيف يمكن أن يخلّ الانسان بعهد من لا يدين له بشيء ؟ في الحقيقة يصعب عليّ أدراك ذلك !

لنرى الآن ما هي المشكلة ! لقد وجدت دانسني في بيتي وهذا لم يعجبك ؟ ولكن ماذا استطعت ان تستنتج ؟ إما أن وجوده مجرد مصادفة كما قلت لك ،

وإما أنه حضر بناء على ارادتي كما لم اقل لك . ففي الحالة الأولى تكون رسالتك على حق . وفي الحالة الثانية تكون سخيفة ، وما كان ينبغي ان تكتب ! ولكنك غيور . والغيرة لا منطق لها . حسناً سأفكر منطقياً عنك .

إما ان يكون لك مزاحم ام لا يكون . فاذا كان لك مثل هـذا المزاحم ، فيجب أن تثير الإعجاب لكي تجعل نفسك مفضّلاً عليـــه ، واذا لم يكن لك مزاحم ، يجب ان تبعث على الاعجاب ايضاً لكي تتفـادى ان يكون لك من يزاحمك . وفي جميع الاحوال يجب ان تنتهج المسلك نفسه . وهكذا لماذا تريد إشغال بالك ؟ ولماذا تشغل بالي انا بصورة خاصة ؟ ألا تعرف ان تكون الاكثر لطفاً من سواك ؟ ألست متأكداً من نجاحك ؟ اذن فأنت مخطىء يا فيكونت . ولكن الأمر ليس كذلك ، لأنني في نظرك لا أساوي أن تبذل من اجلي كل هذا العناء . فأنت لا ترغب كثيراً في امتناني ، بحيث لا تريد ان تستغل سلطانك . انك لجحود . وأليك مـــا أعتقده عاطفة ، ولو تابعت هذه الرسالة على هذا النحو فستصبح رقيقة جداً ، ولكنك لا تستحقها .

كما أنك لا تستحق أن ابرر نفسي اكثر مما بررت . ولكي أعاقبـــك على شبهاتك سأجعلك تحتفظ بها ، وهكذا لن اقول لك شيئاً بصدد فترة عودتي ولا بصدد زيارات دانسني . فلقد بذلت جهداً كبيراً لكي تطلـــع على التفاصيل ، اليس ذلك صحيحاً ؟ حسناً . فهل تقدمت ؟ أتمنى ان تكون قد وجـدت في ذلك متعة كبرى . أما في ما يتعلق بي فان ذلك لم يؤذِ متعتي .

كل ما أستطيع اذن ان اجيب به على رسالتك التهديدية هو أنهـــا لم تمتلك المقدرة على إعجابي ولا على تخويفي . وفي الوقت الحاضر لست اكثر استعداداً لمنحك مطالبك .

في الواقع انني اذا قبلتك كما ظهرتَ اليوم فهذا معناه انني ارتكب بحقك خيانة حقيقية . ولا أريد بهذه الطريقة ان اعيد علاقتي مع عاشقي القديم ، بل سيكون معناه انني أتخذ عاشقاً جديداً لا يساوي الآخر كثيراً . وانا لم أنسَ الأول بعد بصورة كافية لكي أخدع نفسي على هـذه الصورة . لأن الفالمون السابق الذي

twitter @baghdad_library

أحببته كان ممتعاً فاتناً . واعترف انني لم ألقَ رجلاً اكثر لطفاً منه بعد . آه ! ارجوك يا فيكونت إذا عثرتَ عليه ، فاحضره إليّ . وهو سيُستقبل دائماً بكل ترحاب .

وأنذره مع ذلك انه لن يكون ذلك لا اليوم ولا غداً ، لأن حنقه قد أضرّ به . واذا ضغط علي كثيراً فانني أخشى ان أخدع نفسي . أو لعلي وعدت دانسني بتخصيص هذين اليومين له ؟ وهكذا أعلمتني رسالتك انك لا تمزح حين يخلّ المرء بوعده . ارأيت أنه لا بد من الانتظار .

ولكن ماذا يهمك ؟ تستطيع ان تنتقم دائماً من مزاحمك . ولن يفعل ما هو أسوأ مع خليلتك اكثر مما فعلت مع خليلته . وبعد كل شيء ألا تساوي امرأة امرأةً أخرى ؟ تلك هي مبادئك نفسها . وحتى تلك المرأة التي ستكون رقيقة وحساسة ولا تحيا الا من اجلك والتي ستموت أخيراً اسفاً وكمداً على حبك ، أفلم تضحي بها عند أول مناسبة . ثم تريد أن نتضايق ؟ آه ! كلا ، هذا ليس عدلاً .

الوداع ايها الفيكونت ، عد الى لطفك ، وانني لا اطلب اكثر من ان أجدك فاتناً لطيفاً ، وما ان اصبح متأكدة من ذلك حتى أتعهد بان ابرهن لك عن حبي . في الحقيقة أنني طيبة القلب جداً .

١٥٣

من الفيكونت دي فالمون الى المركيزة دي ميرتاي

باريس في ٤ كانون الأول ؟؟ ١٧

ها أنذا اجيب حالاً على رسالتك ، وسأحاول ان اكون واضحاً ، مما هو ليس بالسهل معك حين تكونين قد قررت عدم الفهم .

ان الخطابات الطويلة ليست ضرورية لإثبات ان كلاً منا يملك بيده كل ما يجب لتدمير الآخر . ولذلك فإن من مصلحتنا المشتركة ان يرفق أحدنا بالآخر

بصورة متبادلة . ثم ان القضية لا تتعلق بذلك بيد أن هناك بين القرار العنيف في ان يدمر احدنا الاخر ، وبين القرار الافضل ولا ريب بأن نظل متحدين كما كنا ، وكما سنصبح اشد اتحاداً اذا استأنفنا علاقتنا الأولى ... أقول بين هذين القرارين هناك ألف قرار آخر يمكن اتخاذهـا . أفلم يكن أذن من السخف ان اقول لك واكرره لك أنني ابتداءً من هذا اليوم سأصبح عشيقتك أو عدوك ؟

أشعر جيداً ان هذا الاختيار يضايقك ، وأنك تفضلين المواربة . ولا أجهل انك لم تحبي مطلقاً ان تكوني في وضع يحـــتم عليك أن تقولي : نعم أو لا : ولكن عليك ان تشعري أيضاً انني لا استطيع ان ادعك تخرجين من هذه الحلقة الضيقة ، دون ان اجازف بأن اكون مخدوعاً . وكان عليك أن تتوقعي أنني لن أهادن . والآن عليك انتِ أن تقرري : واستطيع أن ادع لك الخيار لا البقاء في التذبذب .

انما أنذرك فقط بأنك لن تستطيعي أن تخدعيني بمبرراتك الصالحة أو السيئة ، وانك لن تغويني ببعض المداعبات والملاطفـــات التي ستحاولين ان تستري بها رفضك ، واخيراً لقد حان عهد الصراحة . وأنني لا أتمنى سوى اعطائك المثل على ذلك بنفسي ، وأعلن بسرور أنني افضل المسالمة والاتحاد . ولكن اذا كان علينا ان نقطع الصلة انا وأنت ، فأظن ان عندي الحق والوسائل .

أضيف أذن الى ذلك ان اقل عقبة من جانبك سأعتبرها من جانبي اعلان صريح بالحرب . ارأيت ان الجواب الذي اطلبـه منك لا يتطلب عبارات طويلة ولا جميلة . بل كلمتين فقط ، وهما تكفيان .

●

جواب من المركيزة دي ميرتاي كتب في ذيل الرسالة نفسها :

حسناً ! الحرب .

twitter @baghdad_library

١٥٤

من السيدة دي فولانج الى السيدة دي روزموند

باريس في ٥ كانون الأول ؟؟ ١٧

ان النشرات تنبئك افضل مما أستطيع القيام به ، يا صديقتي العزيزة ، عن الحالة المؤسفة التي وصلت اليها مريضتنا . أنا اقضي كل وقتي في تقديم العنايات اللازمة لها بحيث لا أملك اي متسع من الوقت للكتابة اليك ، مع العلم ان هناك احداثاً اخرى غير احداث المريضة . واليك حادثاً لم اكن اتوقعه ابداً . فقد تلقيت رسالة من السيد دي فالمون الذي أعجبه أن يتخذني موضع اسراره ، لا بل ووسيطته لدى السيدة دي تورفيل التي بعث اليها برسالة ضمن رسالتي . وقد رفضت احداهما واجبت على الأخرى . وأنني أبعث اليك بالأخيرة ، وأعتقد أنك تحكمين على الأمور مثلي ، وهو أنني لا أستطيع ولا يجب أن افعل ما يطلبه مني . حتى ولو أردت القيام بذلك فإن صديقتنا البائسة ليست في حالة تسمح لها بأن تفهم شيئاً ، لأن جنونها مستمر . ولكن ما رأيك في يأس السيد دي فالمون ؟ ثم هل يجب تصديقه ؟ أم انه يريد فقط ان يخدع جميع الناس حتى النهاية * ؟ واذا كان هذه المرة صادقاً فإنه يستطيع ان يقول أنه سبَّب هو نفسه تعاستها. أعتقد أنه لن يكون مسروراً من جوابي ، بيد انني أعترف ان كل ما أراه في هذه المغامرة البائسة يثيرني اكثر فأكثر ضد صاحبها .

الوداع يا صديقتي العزيزة . أعود الآن إلى عنايتي الكئيبة رغم ضآلة الأمل في ان أراها تنجح . انت تعرفين عواطفي نحوك .

---

* لقد رأينا الاستغناء عن نشر هذه المراسلة لأننا لم نعثر في نتيجتها على ما يبدد هذا الشك .

١٥٥

من الفيكونت دي فالمون الى الفارس دانسني

باريس في ٥ كانون الأول ؟؟ ١٧

مررت مرتين بمنزلك يا عزيزي الفارس ، ولكنك منذ أن استبدلت دور العاشق المتيم بدور الباحث عن الحب لدى كل امرأة ، أصبحت كالتعقـــل لا يمكن العثور عليه . لقد أكد لي خادمك مـــع ذلك انك ستعود هذا المساء إلى منزلك ، وانك أمرته بانتظارك . ولكنني انا المطلع على مشاريعك فهمت جيداً انك لن تعود إلا للحظة قصيرة لكي ترتدي لبـــاس « الشيء » ثم تستأنف على الفور غزواتك الموفقة . هنيئاً لـــك ، وأنا لا أستطيع إلا أن أهلّل لك . ولكن لعلك تبدل اتجاهك هذا المساء .. لأنك لا تعرف إلا نصف شؤونك . ولا بدّ من أطلاعك على النصف الآخر . ثم عليك ان تقرر موقفك . خذ اذن الوقت الكافي لتلاوة رسالتي هذه . وهي لا ترمي الى صَرفِك عن ملذاتك ، بل على العكس لا تهدف إلا إلى ترك الخيار لك لأن تختار بينها .

ولو كنت لم اجهل معرفة مسارتك بكاملها ، ولو كنت قد عرفت منك جزءاً من أسرارك التي تركتني استنتجها، لكنت عرفت بالأمر في الوقت المناسب ولما كان نشاطي الأهوج قد ضايق اليوم مسعاك . ولكن لننطلق من النقطـــة التي نحن فيها . ومهما كان القرار الذي ستتخذه ، فإن اسوأ ما يكون سيبعث على سعادة الآخر .

لديك موعد هذه الليلة أليس صحيحاً ؟ مع امرأة فاتنة تعبدها ؟ لأن من كان في مثل سنك فأية أمرأة لا يعبدها ؟ على الأقـل في الأيام الثمانية الأولى ! وإن مكان المسرح يجب أن يضيف على ملذاتك ملذات أخرى : بيت صغير لذيذ لم يتخذ الا من اجلك ، ينبغي أن يُزيّن أوج المتعـة ، ومفاتن الحرية ، ونشوة الغموض . كل شيء متفق عليه . وهناك من ينتظرك ، وانت تتحرق شوقاً لكي تذهب اليه ! وهذا ما نعلمه كلا الاثنين رغم انك لم تقل لي شيئاً . والآن اليك ما

twitter @baghdad_library

لا تعلمه ، ولا بدّ من ان اقوله لك .

منذ عودتي إلى باريس وأنا أهتم بالوسائل التي تُقرّبك من الآنسة فولانج . وقد كنتُ وعدتُك بذلك . وحتى في المرة الاخيرة التي حدثتك بها عنها ، استنتجت من أقوالك واندفاعك ما جعلني أهتم بذلك من أجل تحقيق سعادتك. ولم اكن لأستطيع أن أنجح وحدي في هذه المحاولة الصعبة جداً ، ولكنني بعد ان مهّدتُ السبل ، تركت الباقي لحماسة خليلتك الصغيرة . وقد وجدت في حبها وسائل لم استطع ان اكتشفها بخبرتي . واخيراً فان تعاستك تأبى الا أن تنجح في ذلك ، وقد قالت لي هذا المساء انها تغلّبتْ منذ يومين على جميع العقبات ، ولا تتوقف سعادتك الآن الا عليك .

ومنذ يومين أيضاً وهي تتباهى بأنها ستطلعك على النبأ بنفسها ، ورغم غياب الأم كان بامكانك ان تحضر وتلقى صدراً رحباً، ولكن ليس انك لم تحضر فحسب ، بل اقول لك الحقيقة لقد بدت لي الفتاة – إما عن نزق وإما عن حق – غاضبة منك بسبب هذا الفتور من جانبك . واخيراً عثرتْ على وسيلة جعلتني أصل بواسطتها إلى غرفتها ، وطلبت إليّ أن اقطع لها وعداً على نفسي لكي ابلغك هذه الرسالة التي ابعث بها اليك طيه . وانا أراهن نظراً لما أبدته من تعجل انها حددت لك موعداً هذا المساء . ومهما يكن فقد وعدت بشرفي وصداقتي بأن اسلّمك الرسالة الرقيقة هذا النهار ، وانا لا أريد أن احنث بوعدي .

والآن ايها الشاب أي مسلك ستنتهج ؟ اما وقد وقعتَ بين نزوات الحب ، وبين المتعة والسعادة ، فماذا سيكون اختيارك ؟ ولو كنت أتحدث إلى دانسني كما أعرفه منذ ثلاثة أشهر لا بل قبل ثمانية ايام فقط لكنت متأكداً من قلبه ، ولعرفته من مساعيه . ولكن دانسني اليوم ، الذي انترعته النساء الراكضات وراء المغامرات وأصبح حسب العادة فاسقاً ، هل يفضل فتاة صغيرة خجولة لا تملك سوى جمالها وبراءتها وحبها على متع امرأة متمرنة خبيرة ؟

في ما يتعلق بي يا صديقي العزيز ، يبدو لي – حتى في مبادئك الجديدة التي أعترف انها مبادئي أيضاً – أن الظروف تجعلني أفضّل العاشقة الصغيرة . اولاً

أنها واحدة اضافية ، ثم هناك الجدّة ، وأيضاً الخوف من فقـــدان ثمرة جهودك باهمالك اقتطافها ، لأنك ستكون من هذه الناحية قد فوّتّ عليك فرصة ثمينة لا تتسنى لك دائماً ، لا سيما ازاء اول تخاذل. وتكفي في مثل هذه الحالة غالباً لحظة استياء ، او شبهة غيورة ، او ربما أقل ايضاً لتحول دون تحقيق اجمل إنتصار . والفضيلة التي تُغرق تتعلق احياناً بالغصون ، وما ان تفلت حتى تبقى حذرة ولن يكون من السهل مفاجأتها .

اما من الناحية الأخرى فعلى العكس ، ماذا تخسر ؟ انك لن تجازف حتى بمجرد الانفصال ، بل مجرد شقاق . وبإمكانك أن تشتري متعة المصالحة عن طريق بعض الملاطفات . وماذا يبقى للمرأة التي سبق ان استسلمت اليك سوى أن تتحلى بالتسامح ؟ وماذا ستكسب من جراء القساوة ؟ انهـا تكسب فقدان ملذاتها دون اية فائدة لجدها .

واذا قررت – كما افترض – اتباع مسلك الحب الذي يبدو لي بأنه عين التعقل ، فإني أعتقد ان من الاحتراس ألا تعتذر عن الموعد المخل به ، بل دع غيرك ينتظرك بكل بساطة ؛ لانك لو حاولت أن تبرر عدم حضورك بحجة ما ، فقد تخاطر بجعل الفريق الآخر يتحرى حجتك . فالنساء هن فضوليات وعنيدات . وكل شيء يمكن ان ينكشف ؛ وها أنـــذا اصبح الآن أمثولة على ذلك . ولكن اذا تركت الامل يبقى ، فسيكون مدعوماً بحب الذات ، ولن يضيـع الا بعد مضي الساعة المناسبة للاستعلامات ؛ عندئذ تستطيع غداً ان تختار العقبة الصعبة التي حجزتك عن حضور الموعد ، قد تكون مريضاً ، ميتاً اذا لزم الامر ، او اي مبرر آخر يمكن ان يبعث ايضاً على اسفك وتحسرك ، وكل شيء سيصطلح في المستقبل .

ومهما تكن الناحية التي تقرر بشأنها فإني أرجوك فقط ان تعلمني بالامر . وبما انه لا مصلحة لي في ذلك ، فسأجد دوماً أنك حسناً فعلت .

وان ما اضيفه ايضاً الى ذلك هو انني متأسف جداً على تركي السيـــدة دي تورفيل . وانا الآن في يأس لانفصالي عنها . وانني ابذل نصف حياتي في سبيـل

twitter @baghdad_library

سعادة تكريس النصف الآخر من اجلها . آه صـــدقني ، اننا لسنا سعداء الا في الحب .

١٥٦

من سيسيل فولانج إلى الفارس دانسني

رسالة مرفقة مع السابقة

باريس في ٤ كانون الاول ؟؟ ١٧

كيف حدث اذن ، يا صـــديقي العزيز ، انني لم أعد أراك بينما لم اكف عن الرغبة فيك ؟ ألم يعد لديك من الاشتهاء نحوي بقدر ما لدي من الاشتهاء نحوك ؟ آه إنني الآن اشعر فقط بشدة تعاستي ! وهي تعاسة أشد مما كنت عليه حين كنا مبتعدين تماماً الواحد عن الآخر ، وان الحزن الذي عانيته من الآخرين ، يأتيني الآن منك ، وهذا ما يؤلم اشد الألم .

منذ بضعة ايام وأمي لا تمكث في البيت ابداً ، وانت تعرف ذلك حتماً . وكنت آمل بأن تحاول انتهاز هذا الوقت من الحرية ! ولكنك لا تفكر حتى في وانا تعيسة جداً ! لطالما قلتَ لي انني انا التي أحب اقل منك ! ولكنني كنت أعلم انني على العكس ، واليك الآن الدليل على ذلك. ولو حضرت لرؤيتي لكنت رأيتني بالفعل ، لانني امست مثلك، ولا افكر الا بكل ما يتيح لنا فرصة الاجتماع وانك لتستحق الا اطلعك على شيء مما بذلته من اجل تحقيق ذلك ، وقد سبب لي كثيراً من العناء . بيد انني احبك حباً جماً وأشعر برغبة قوية في لقياك بحيث لا امنع نفسي من قوله لك . ثم سأرى على الاثر اذا كنتَ تحبني حقيقة ام لا !

لقد دبرت الامور بحيث ان البواب اصبح يخدم مصالحنا وقد وعدني بانه سيدعك دائماً تدخل كل مرة حضرت كما لو كان لا يراك . ونستطيع ان نثق به تماماً لأنه رجـــل شريف جداً . ولا يبقى بعـــد ذلك الا الحيلولة دون ان يرانا احد في البيت . وهذا ايضاً أمر سهل ، شرط ان تحضر في المساء فقط ، حـين لا يكون هناك ما يخشى منه على الاطلاق . فمثلاً منذ ان

اخذت امي تخرج كل يوم اخذت تنام في الساعة الحادية عشرة . وهكذا سيكون لدينا متسع كافٍ من الوقتٍ .

وقد قال لي البواب انك حين تريد المجيء على هذه الصورة ، فليس عليك ان تدق الباب ، بل تدق على نافذته ، ثم ستجد بسهولة السلم الصغير . وبما انك لا تستطيع ان تحمل معك ضوءاً فسأدع باب غرفتي نصف مفتوح ، مما يتيح لك الاستضاءة دوماً قليلاً . يجب ان تحاذر تماماً بألا تقوم بأية ضجة ، لا سيما حين تمر بقرب باب أمي الصغير . اما في ما يتعلق بباب خادمتي ، فالامر غير مهم لأنها وعدتني بأنها لن تستيقظ . وهي ايضاً فتاة طيبة ! ولدى خروجك سيكون الامر مماثلاً . والآن سنرى اذا كنت ستحضر .

يا إلهي لماذا يخفق قلبي بقوة وانا اكتب اليك؟ هل سيحدث لي بعض الشقاء، أو هل أن الامل في ان أراك يقلقني الى هذا الحد ؟ ولكن ما أشعر به جيداً هو انني لم احبك ابداً بهذا المقدار . وانني لم ارغب فيك ابداً بمثل هذه الصورة . تعال إذن يا صديقي ، يا صديقي العزيز حتى استطيع ان اكرر لك مئة مرة انني احبك ، انني اعبدك ، وانني لن احب سواك .

لقد وجدت وسيلة لكي أبلغ السيد دي فالمون ان لديّ ما أريد ان أقوله له. وبما انه صديق ممتاز فسيحضر اكيداً غداً ، وسأرجوه ان يسلمك رسالتي هذه حالاً . وهكذا سأنتظرك مساء الغد ، وستحضر مهما كلف الأمر ، اذا كنت لا تريد أن تصبح سيسيلتك تعيسة .

الوداع يا صديقي العزيز . أقبلك من كل قلبي .

١٥٧

من الفارس دانسني الى الفيكونت دي فالمون

باريس في ٥ كانون الأول ؟؟ ١٧

لا تشك ، يا عزيزي الفيكونت ، في قلبي ولا في مساعيّ : كيف يتسنى لي ان اقاوم رغبة سيسيلتي؟ آه انها هي... هي وحدها التي أحب ، والتي سأحبها

twitter @baghdad_library

دوماً ! ان لصراحتها وحنوها سحراً طاغياً عليّ . وقد اعتراني تخـــاذل عابر جعلني أسلوه بعض الوقت ، ولكن لا شيء يمكن ان يمحوه ابداً . وبعد ان انسقت وراء مغامرة أخرى ، دون أن الاحظ ذلك على نفسي اذا صح هذا التعبير ، فان ذكرى سيسيل كانت غالبـاً تروادني فتعكر عليّ صفو خواطري حتى في أرق الملذات . ولعل قلبي لم يقدم لها من التقدير اكثر مما قدمه خلال هذه الفترة التي خنت فيها عهدها . ومع ذلك يا صديقي لنرأف بكرامتها ، ولنحاول ان نخفي عنها اخطائي . ان سعادة سيسيل هي أحر أمنية أرجو تحقيقها . ولن اغفر لنفسي ابداً هفوة تكون قد كلفتها دمعة واحدة .

أظن انني أستحق السخرية التي وجهتها اليّ بصدد ما تسميه مبادئي الجديدة . ولكنك لا تستطيع أن تصدقني بأنني لا أتصرف الآن وفق هذه المبادىء . وقد قررت ابتداء من الغد ان ابرهن على ذلك .

سأذهب فأتهم نفسي لدى تلك التي سببت ضلالي وشاطرتني اياه . وسأقول لها : « اقرأي في قلبي انه يكن لك الصداقة الرقيقة ، وان الصداقة اذا اتحدت مع الشهوة تشبه الحب !... ولكننا انخدعنا كلانا . وانني اذا كنت قابلاً للخطأ فلست قادراً على الشعور بنيـة سيئة » وانا اعرف صديقتي . فهي شريفة كما هي متسامحـــة ، وستغفر لي خطأي وتقرني على رأيي . وهي غالبـــاً ما تؤاخذ نفسها لكونها خانت الصداقة . وغالباً ما تخيف عزة نفسها حبها . وهي ستدعم في نفسي هـذه المخاوف المفيدة التي كنت أحاول بجرأة ان اخنقها في روحها . ولكنها أشد حكمة مني . وانا مدين لها بأن اكون افضل ، كما مدين لك بأن اكون اكثر سعادة . آه يا صديقيّ العزيزين تقبلا امتناني .

الوداع يا عزيزي الفيكـونت . إن بهجتي البالغـــة لا تمنعني من ان افكر بأشجانك واشاطرك اياها . وماذا بإمكاني ان اخدمك ؟ هل ماتزال السيدة دي تورفيل صارمة متعنتة ؟ يقال انها مريضة جداً . يا آلهي كم ارثي لك ! عساها تستعيد في آن واحد صحتها وتسامحها ، وتوفر إلى الابد سعادتك ! انها أمنيات الصداقة ، وآمل ان تتحقق عن طريق الحب .

كنت اود ان اتحدث اليك مطولاً ، ولكن الوقت يزحمني وربما سيسيل تنتظرني .

١٥٨

من الفيكونت دي فالمون إلى المركيزة دي ميرتاي

(لدى نهوضه من النوم)

باريس في ٦ كانون الاول ؟؟ ١٧

إذن ، أيها المركيزة ، كيف تجدين نفسك بعد ملذات الليلة الفائتة ؟ ألستِ متعبة قليلاً ؟ اعترفي اذن أن دانسني ممتع ! وان هذا الفتى يقوم بالاعاجيب ! لم تكوني تنتظري ذلك منه ! اليس صحيحاً ؟ ها انذا انصف نفسي ، فإنّ مثل هذا المزاحم يستحق جيداً ان يُضحى بي من اجله . انه حقيقة يمتلك مزايا حميدة ! وبصورة خاصة الحب والمثابرة، وعزة النفس ! آه لو كنت محبوبة من قبله كما يحب سيسيلته ، فلن تكون لك مزاحمة يُخشى منها . وقد اثبت لك ذلك هذه الليلة. وربما لشدة تزقه تستطيع امرأة اخرى ان تختطفه لفترة ثانية. وان اي فتى مثله لا يعرف ابداً ان يرفض مضايقات استفزازية ، ولكن كوني مطمئنة، إذ تكفي كلمة واحدة من الشخص المحبوب، كما ترين، لإزالة هذا الوهم. وهكذا لا يُعوزك إلا أن تكوني هذا الشخص لكي تكوني سعيدة تماماً .

أكيداً انك لا تخدعين نفسك، ولديك من اللياقة الاكيدة ما تجعلين الآخرين يخشون منك . ومع ذلك فان الصداقة التي تربط بيننا – وهي مخلصة جداً من جانبي ، ومعترف بها جيداً من جانبك – جعلتني أقوم بتجربة الليلة الماضية من اجلك . انها من صنع يدي ، وقد نجحت تماماً . ولكنني لا أريد شكراً عليها . فهي لا تستحق الشكر ، إذ كانت على جانب كبير من السهولة .

في الواقع أنها لم تكلفني شيئاً ؟ تضحية خفيفة ، وبعض البراعة . وقد رضيتُ أن أشاطر مع الشاب مكارم خليلته ، ولكنه اخيراً يملك عليها حقوقاً

twitter @baghdad_library

مماثلة لحقوقي . ولا أهتم بها إلا قليلاً ! وإن الرسالة التي بعثت محبوبته بها إليه أمليتها عليها بنفسي ، وقد كان ذلك فقط لكي اكسب الوقت ، لأننا كنا نعلم لأيّ غرض نستخدمه . أما الرسالة التي ارفقتها بها فقد كانت لا شيء ، تقريباً لا شيء بعض الملاحظات بصدد الصداقة لكي أوجّه اختيار العاشق الجديد ، ولكنها في الحقيقة كانت غير مجدية . ويجب ان اقول الحقيقة ، فهو لم يتردد مطلقاً .

ثم أنه سيذهب بكل ما لديه من سذاجة ، إلى زيارتك اليوم ويروي لك كل شيء . ومن المؤكد ان هذه الرواية ستسرك كثيراً . وعليه ان يقول لك : « اقرأي في قلبي » وقد ابلغني ذلك . وترين جيداً ان كل شيء سيصطلح . وآمل عند قراءتك فيه كل ما يريد ، ان تقرأي ربما ايضاً ان للعشاق الشبان مخاطرهم وانه من الافضل ان اكون لك صديقاً بدلاً من ان اكون عدواً .

الوداع ايها المركيزة ، والى مناسبة أخرى .

١٥٩

من المركيزة دي ميرتاي الى الفيكونت دي فالمون

(مذكرة)

باريس في ٦ كانون الاول ؟؟ ١٧

لا أحب مطلقاً ان تضيف سخريات رديئة إلى أساليب أردأ . ولم تعد هذه طريقتي ولا من ذوقي . اذ حين يكون عليّ أن أتذمّر من أحدهم فإنني لا أسخر منه بعبارات هازئة ، بل اقوم بما هو أفضل : أنني انتقم . ومهما كنت مسروراً من نفسك كما تستطيع أن تكون الآن ، فلا تنسَ ابداً انها لن تكون المرة الأولى التي تطرب فيها لنفسك وحدك ، مؤملاً في انتصار قد أفلت منك في اللحظة نفسها التي تهنىء نفسك به . الوداع .

١٦٠

من السيدة دي فولانج إلى السيدة دي روزموند

باريس في ٦ كانون الأول ؟؟ ١٧

اكتب إليك من غرفة صديقتنا التعيسة ، التي مـــا زالت حالتها لم تتبدل تقريباً. وستجري بعد ظهر اليوم مشاورة بين أربعة اطباء بصدد حالتها .ولسوء الحظ كما تعلمين فان هذه المشاورة هي غالباً ما تكون دليلاً على الخطر بدلاً من ان تكون وسيلة لدرئه .

ويبدو مع ذلك أن وعيها قد عاد اليها قليلاً في الليلة الماضية . وقد ابلغتني الخادمة هذا الصباح انها استدعتها عند منتصف الليل ، وطلبت اليها ان تكون وحدها معها ، ثم املت عليها رسالة طويلة . وقالت جولي انها فيما كانت مهتمـة باعداد المغلف ؟ اذ بنوبة هستيريا تعاودها بحيث ان الفتـاة لم تعرف إلى اي عنوان تستطيع ان تبعث بهذه الرسالة.وقد اندهشت في البداية لكون الرسالة لم تكن كافية لكي تجعلها تعرف الى من هي موجهة . ولكنها اجابتني انها تخشى ان تخطىء ، مـع ان معلمتها قد أوصتها بإرسال الرسالة على الفور . وكان ان رأيتُ من واجبي ان افتح المظروف .

وقد وجدت بداخله المخطوط الذي ابعث اليك به طيه ، وهو بالفعل ليس موجهاً الى احد بقدر ما هو موجه الى الجميـع ، وأظن انها ارادت ان تكتب الى السيد فالمون اولاً ، ولكنها استسلمت دون ان تلاحـظ الى فوضى افـكارها . ومهما يكن فقد استنتجت ان هذه الرسالة يجب ألا توجه الى احد ، وانني ارسلها اليك لانكَ سترين فيها – اكثر مما استطيـع ان اقوله لك – الافـكار التي تشغل تفكير مريضتنا البائسة . وما دامت ستبقى مضطربة الى هـــذه الدرجة فلن يكون عندي أي أمل بشفائها .والجسم لا يشفى بسهولة إلاَّ حين يكون الفكر مرتاحاً .

twitter @baghdad_library

الوداع يا صديقتي المحترمة العزيزة ، اهنئك لكونك بعيدة عن رؤية المشهد المفجع الذي القاه باستمرار تحت انظاري .

١٦١

من الرئيسة دي تورفيل إلى ...

(رسالة مملاة من قبلها ومكتوبة من قبل خادمتها)

باريس في ٥ كانون الأول ؟؟ ٩٧

بعد ان كنت قاسياً ومؤذياً ، افلا تتعب أبداً في اضطهادي ؟ الم يكفك ان تكشّفتَ بي ، وأنزلت من قـــدري ، وأذللتني . وأنت تريـد الآن ان تسلبني الهدوء وأنا في قبري؟ ماذا ! أفي اثناء اقامتي في هذه الغياهب المظلمة التي حملني العار على ان ادفن نفسي بها ، لا تكف الآلام عن اجتياحي ولا يأتي الأمل اليّ ؟ انني لا اتوسل ابداً للحصول على اي تسامح لا أستحقه قطعاً . ولكي اتعذب دون ان اتذمر ، حسبي أن عذاباتي لا تتجاوز قواي . ولكن لا تجعل عذابي غير محتمل ، وارجوك بتركك لي آلامي ، ان تنزع عني الذكرى المـريرة للممتلـكات التي فقدتها . وحين سلبتني اياها ، لا تَعُدْ فترسم لي صورتها المؤسفة . لقـــد كنت بريئة مرتاحة . ولكنني فقدت الراحة لدى رؤيتك . وأصبحت مجرمة في الاصغاء اليك . انت يا صاحب اخطائي أي حق لك في معاقبتها ؟

اين هم الاصدقـــاء الذين كانوا يعزونني ، اين هم ؟ ان سوء طالعي يرعبهم ؛ ولا يجسر احد على الاقتراب مني . انني غارقـة ولا يفعلون شيئاً لإنقاذي ! انني اموت ولا احد يبكي عليّ ، وان كل عزاء قد حُظر عليّ . ان الشفقة تقف عند شفا الهاوية حيث يهوي معهـــا المجرم . ان تبكيت الضمير يمزقـه ولا يسمع صرخاته احد !

وأنت الذي أهنته .. انت الذي يضيف احترامه الى تعذيبي . وانت وحدك اخيراً الذي يحق لك ان تنتقم ماذا تفعل بعيداً عني ؟ تعال عاقب امرأة خائنة .

وكم اعاني اخـــيراً الآلام التي استحقها . لقد كان بودي قبلاً ان استسلم الى انتقامك ، ولكن الشجاعة خانتني لكي ابلغك نبأ عارك. ولم يكن الأمر عن تستر بل عن احترام. وأرجو أن تبلغك هذه الرسالة ندمي . فقد تولت السماء قضيتك. وهي تثأر لك عن إهانة جهلتها . وهي التي عقـدت لساني وامسكت اقوالي . اذ خشيت أن تجهل هفوتي التي أرادت ان تعاقبني عليهـــا . لا بل ابعدتني عن تسامحك الذي كان قد جرح عدالتها .

انها غير مشفقة في انتقامها ، فسلمتني الى هذا الذي أضلني ، وانني في آن واحد أتعذب بسببه ومن أجله . وأود ان أهرب منه عبثاً . فهو يتبعني ، وهو هنا يلاحقني على الدوام . ولكن كم هو مختلف عن نفسه ! ان انظاره لا تعبر إلا عن الكراهية والاحتقار . ولا يلفظ فمـــه إلا الشتيمة والملامة . ولا تحيط بي ذراعاه إلا لكي تمزقاني . من الذي ينقذني من غضبه البربري ؟

ولكن ماذا !.. انه هو... لست مخطئة . انه هو الذي أراه . آه ياصديقي اللطيف . إستقبلني بين ذراعيك . خبأني في حضنك . اجل هذا أنت ... هذا أنت تماماً ! أي وهم كريه جعلني أجهلك . كم تعذبت من غيابك ؟ آه ، يجب ألا ننفصل ابداً . يجب ألا نفترق بتاتاً ، دعني أتنفس . جسّ كم يخفق نبضي . آه انه لا يخفق من الخوف، بل من الانفعال العذب للحب . لماذا ترفض ملاطفاتي الرقيقة ؟ حوّل نظراتك الحنونة نحوي . وما هي هـــذه الروابط التي تسعى لقطعها ؟ ولمن تعدُّ جهاز الموت هذا ؟ ومن يستطيع ان يفسد تقاطيعك على هذا الشكل ؟ ماذا تعمل ؟ دعني : انني ارتجف ! يا إلهي انه هذا الشيطان ايضاً .

يا صديقاتي لا تتركنّني . أنتن اللواتي تدعونني الى الهرب منه . ساعدنني على محاربته. وأنتِ الاكثر تسامحاً التي وعدتني بتخفيف آلامي تعالي اذن الى جانبي. أين انتما كلتا الاثنتين ، اذا لم يتح لي ان أراكما بعد الآن جاوبا على الأقل على هذه الرسالة . لكي اعلم انكما تحبانني .

دعني اذن ايها الظالم ! أية نقمة جديدة تلهبك ؟ هـل تخشى ان يتسرب الى نفسي شعور عذب رقيـــق ؟ انك تضاعف عـذابي ، وتحملني على كرهـك .

twitter @baghdad_library

آه كم ان الكراهية مؤلمة ، وكم تتأكل القلب الذي يكررها ! لماذا تضطهدني ؟ ماذا يمكن ان تقول لي ايضاً ؟ الم تضعني في استحالة الاصغاء اليك أو اجابتك ؟ لا تنتظر مني شيئاً . الوداع يا سيدي .

١٦٢

من الفارس دانسني الى الفيكونت دي فالمون

باريس في ٦ كانون الأول ؟؟ ١٧

لقد اطلعتُ يا سيدي على وسائلك التي استخدمتها نحوي . واعلم ايضاً انك لم تكتفِ بأنك خدعتني بكل إهانة وذل ، بل لم تخشَ أن تتباهى بذلك ، وان تهنىء نفسك على ما فعلت . لقد رأيت دليل خيانتك مكتوباً بخط يدك . وأعترف ان قلبي كان متأسفاً لذلك ؛ وشعرتُ ببعض العار لكوني ساعدت بنفسي على الاستغلال غير المحتمل الذي قمتَ به تجاه ثقتي العمياء ومع ذلك فإنني لا أحسدك على هذا السبق المخجل ، بل أنني تواق لأن اعرف اذا كنت ستحتفظ بكل ذلك عليَّ ايضاً وسأطلع على الامر اذا شئت . ولذلك ارجو ان تتلطف بالحضور غداً بين الساعة الثامنة والتاسعة الى باب غابة « فانسين » قرب قرية سان ماندي ، وسأبذل الجهد لكي اجد هناك كل ما هو ضروري للحصول على التوضيحات التي يبقى علي ان آخذها منك .

الفارس دانسني

١٦٣

من السيد برتران الى السيدة دي روزموند

باريس في ٧ كانون الأول

سيدتي .

إنني بأسف بالغ أؤدي الواجب التعيس بابلاغك نبأ سيسبب لك حزناً

قاسياً شديداً . إسمحي لي ان ادعوك اولاً الى التجمل بالصبر الحميد الورع الذي أُعجب به كلٌ منا لديك ، والذي يستطيع وحده ان يجعلنا نتحمل الآلام التي تنوء بها حياتنا البائسة .

انه السيد ابن شقيقك ... يا إلهي ! هل يجب ان أُفجع الى هذا الحد سيدةً محترمة ! لقد شاء سوء طالع السيد ابن شقيقك أن يلفظ أنفاسه في معركة فريدة من نوعها تبارز فيها هذا الصباح مع السيد الفارس دانسني . أنني أجهل تماماً السبب الذي من أجله تعاركا . ولكن يبدو أن الورقة التي وجدتها في جيب السيد دي فالمون والتي لي الشرف بأن أبعث بها أليك طيه ، أقول يبدو انها تدل على أنه ليس هو المعتدي . ويجب ان يكون هو الذي سمحت السماء بأن يقع .

لقد كنتُ في منزل السيد الفيكونت أنتظره في الساعة نفسها التي حمل إليه فيها جريحاً . تصوري جزعي لدى رؤية السيد دي فالمون محمولاً بواسطة اثنين من خدمه ، وهو مضرج بالدماء . وكان مصاباً بطعنتي حسام في جسده . وكان خائر القوى تماماً . وكان السيد دانسني هنا ايضاً . حتى أنه اخذ يبكي . آه ! بدون شك يجب ان يبكي ، ولكن هناك متسعاً من الوقت لذرف الدموع حين يكون قد سبّب فاجعة لا تعوض .

أما انا ، فلم استطع ان املك نفسي ، ورغم انني لست شيئاً يذكر فلم اخفِ عنه طريقة تفكيري . ولكن السيد الفيكونت أظهر هنا أنه عظيم جداً . إذ أمرني بأن اسكت . وتناول يد قاتله ، ودعاه يا صديقي ، ثم قبلها امامنا جميعاً وقال لنا : «انني آمركم جميعاً ان تظهروا نحو هذا السيد كل التقدير والاحترام اللائقين برجل شجاع شهم» . ثم سلمه فضلاً عن ذلك امامي اوراقاً كثيرة ذات حجم ضخم لا اعرف مضامينها ، ولكنني أعرف انه كان يعلق عليها اهمية كبرى . واخيراً شاء ان ندعها معاً وحيدين فترة قصيرة . وفي الاثناء كنت قد استدعيت على الفور جميع الاسعافات الروحية والزمنية . ولكن المصيبة كانت دون علاج . وبعد مضي اقل من نصف ساعة ، غاب الفيكونت عن وعيه . ولم

twitter @baghdad_library

يستطع ان يتناول القربان الاخير ، وما كاد الاحتفال ينتهي حتى لفظ أنفاسه .

يا الهي حين تلقيت بين ذراعي عند الولادة هذه السلالة الثمينة لبيت عريق . هل كان بامكاني ان اتوقع أنني سأتلقاه بين ذراعي عند الوفاة وانني سأبكي موته موتاً مبكراً جداً وتعيساً . ان دموعي تسيل من عيني رغماً عني . واطلب اليك المعذرة ، ياسيدتي ، لكوني اجسر على مزج احزاني بهذا الشكل مع احزانك . ولكننا في جميع الاحوال نملك قلباً وحساسية ، وسأكون جاحداً كل الجحود اذا لم أبكِ طوال حياتي سيداً كريماً كان يخصني بكثير من المكارم والافضال ، وكان يشرفني بثقته .

« غداً بعد رفع الجثمان سأفرض الحجز على جميع الممتلكات والأغراض ، وبامكانك ان تعتمدي عليّ كل الاعتماد . وانك لا تجهلين يا سيدتي ان هذا الحدث التعيس ينهي توكيلي ، ويجعلك حرة في تصرفاتك . فأرجوك اذن ان توجهي إليّ أوامرك : وسأضع كل نشاطي في تنفيذها حرفياً .

أنني يا سيدتي بكل احترام عميق خادمك الخ ...

برتران

١٦٤

من السيدة دي روزموند الى السيد برتران

قصر ... في ٨ كانون الأول ؟؟ ١٧

تلقيت رسالتك في هذه اللحظة نفسها يا عزيزي برتران ، وعرفت منها هذا الحادث الرهيب الذي كان ابن شقيقي ضحيته المؤسفة . اجل بدون شك لدي اوامر لكي اوجهها اليك . وانني في سبيلها أستطيع ان أهتم بشيء آخر غير فاجعتي المميتة .

أن كلمة السيد دانسي التي بعثت بها إليّ هي دليل مقنع على انه هو الذي استفز المبارزة ، وفي نيتي ان تقيم الدعوى على الفور بإسمي ، وان ابن شقيقي

بسماحته عدوه وقاتله قد استطاع ان يرضي سخاءه الطبيعي . وانا علي أيضاً ان انتقم لموته من الناحيتين الانسانية والدينية في آن واحد . ولا بد من تطبيق القوانين ضد هذه المخلفات البربرية التي ما زالت تجتاح عاداتنا، ولا أظن في مثل هذه الحالة ان العفو عن الاهانات يمكن ان ينطبق علينا. انني انتظر منك اذن ان تلاحق هـــذه القضية بكل النشاط والحيوية اللذين أعهـــدهما فيك ، ويجب عليك ان تبذلهما نحو ذكرى أبن اخي .

وسيكون عليك قبل كل شيء ان تقابل الرئيس «دي . . .» من قبلي وان تتباحث معـه في القضية . ولن اكتب إليه ، لكي أستطيع ان أتفرغ لاحزاني ، وارجو ان تقدم اليه إعتذاراتي وتطلعه على هذه الرسالة .

الوداع يا عزيزي برتران ، اثني عليك واشكرك على مشاعرك الطيبـة وانا طول الحياة مدينة الخ . . .

١٦٥

من السيدة دي فولانج الى السيدة دي روزموند

باريس في ٩ كانون الأول ؟؟ ١٧

لقد علمتُ انك اطلعت يا صديقتي العزيزة المحترمة على نبأ الخسارة الجسيمة التي نكبت بها ، وقد عرفت حنوك البالـغ على السيد دي فالمون ، وانني اشاطرك بكل اخلاص التفجع الذي تشعرين به . وانا حقيقة متألمة لأن يكون عـليّ أن أضيف إلى احزانك احزاناً أخرى جديدة ، ولكن يا للأسف ، لم يبق لديك سوى الدموع لذرفها على صديقتنا التعيسة ، فلقد فقدناها أمس في الساعة الحادية عشرة مساء ، وقد شاء القدر المعلق بمصيرها أن يلعب باحتراس إنساني ، وقـد كانت هذه الفترة القصيرة التي جعلتها تعيش بعد موت دي فالمون ، كافية لأن تعـــلم خلالها بنبأ هذه الوفاة . وكما قالت هي نفسها فانها لم تستطع ان تسقط تحت ثقل تعاساتها الا بعد ان اضيفت اليها التعاسات اللازمة .

twitter @baghdad_library

وبالفعل فقد علمت منذ اكثر من يومين أنها أصبحت فاقدة الوعي تمامـــاً ، ولم تستطع صباح أمس ايضاً ، حين وصل طبيبها ، وحين اقتربنا من سريرها ان تتعرف علينا ، ولم نتمكن من الحصول منها على أية كلمة أو أقل اشارة . ولكن ما كدنا نعود الى المدفأة ، وبينما كان الطبيب يخبرني بالنبأ المفجع عن وفاة السيد دي فالمون حتى استعادت هذه المرأة المنكودة وعيها ، إما ان الطبيعة وحدها قد انتجت هذا الانقلاب ، أو ان تكرار كلمات « السيد دي فالمون مات » التي رُددت عدة مرات هي التي جعلت المريضة تتذكر الافكار الوحيدة التي تحتلها منذ مدة طويلة .

ومهما يكن ، فقد فتحت بسرعة ستائر سريرها وصاحت : « ماذا تقولون؟ السيد دي فالمون مات؟» وكنت آمل أن أجعلها تعتقد أنها مخطئة الظن ، واكدت لها اولاً أنها اساءت السمع ، ولكنها لم تشأ ان تقتنع فطلبت إلى طبيبها ان يعيد روايته المؤلمة . وحين حاولت ان اثنيها عن ذلك ، دعتني بصوت خافت وقالت : « ولماذا تريدين ان تخدعيني ؟ ألم يسبق له أن مات من قبـل بالنسبة لي ؟ » وكان لا بد من الاذعان .

وقد استَمعَتْ الى قصة وفاته في البداية بمظهر هادىء ولكنها ما لبثت ان قاطعت الرواية وقالت : « كفى ، لم أعد أطيق» . وطلبت على الفور اقفـال الستائر . وحين اراد الطبيب بعد ذلك ان يهتم بمعالجة حالتهـــا ، رفضت ان يقترب منها .

وما ان خرج حتى اخرجت من كان في الغرفة وبقينا وحدنا ، فرجتني أن أساعدها لكي تركع فوق سريرها ، وان امسك بها . وبقيت على هذا الوضع بعض الوقت صامتة دون اي تعبير سوى دموعها التي كانت تهطل بغزارة . واخـيراً حملت يديها ورفعتهما نحو السماء وقالت بصوت متهدج ؟ ولكن بحماسة :

« يا الـهي القوي الجبار ، انني أذعن لعدالتك ، ولكنني اتوسل اليك بان تغفر لفالمون ، وألا تضيف ما سببه لي من آلام – اعترف بأنني أستحقها – إلى ذنوبه ومآخذه ، وأنني مؤمنة برحمتك » .

لقد سمحتُ لنفسي يا صديقي العزيزة المحترمـــة ،بأن أستغرق في سرد هذه التفاصيل اليك حول موضوع أشعر جيداً بأنه سيجدد ، ويزيـــد من خطورة أحزانك ولواعجك ، لأنني لا أشك بأن صلاة السيدة دي تورفيل هذه تحمل الى قلبك عزاءً كبيراً .

وبعد ان لفظتْ صديقتنا هذه الكلمات القليلة ، تداعت بين ذراعيّ ، وما كادت تستلتقي فوق فراشها حتى انتابها تخاذل مريع دام مدة طويلة ، ولكنه ما لبث ان زال مع الاسعافات المعتادة . وما أن استعادت وعيها قليلاً حتى طلبت استدعاء الأب أنسيلم وقالت :

« إنه في الوقت الحاضر الطبيب الوحيد الذي احتاج إليه ، وأشعر بأن آلامي ستنتهي قريباً ! » .

ثم شكتْ من اوجاعها الكثيرة وراحتْ تهذي ... وسلمتني بعد وقت قليل بواسطة خادمتها هذه العلبة الصغيرة المرسلة رفقـاً ، وهي تضم اوراقاً تخصها ، وكلفتني بأن أرسلها اليك بعد قضاء نحبها حالاً *. ثم حدثتني عنك وعن صداقتك نحوها بقدر ما سمح لها به وضعها .

ووصل الأب أنسيلم في حوالي الساعة الرابعة ، واختلى بها مدة ساعة كاملة ، وحين سُمحَ لنا بالعودة الى غرفتها ، وجدنا وجهها صافياً هادئاً ، ولكن كان من السهل أن نلاحظ أنّ الاب أنسيلم قد بكى كثيراً . ثم بقي معنا للاشتراك في المراسيم الكنسية الأخيرة . ومما زاد من رهبة هـذا الموقف الذي يكون دائماً مؤثراً ومؤلماً ، ما بدا هناك من تناقض بين وجه المريضة المستسلم الساكن ، وبين وجه الكاهن المحترم الذي كان التأثر واضحاً عليه ، ولا يكفُّ عن ذرف الدموع الغزيرة طول الوقت . وعندئذ عمّ التأثر الجميع وأخـذوا يبكون تلك التي لن تبكي ابداً .

وانقضت بقية النهار في صلوات معتادة لم تكن تقطعها سوى ظواهر الاعياء الشديد المتزايد التي اخذت تبدو على المريضة . واخيراً بلغت الساعة حوالي الحادية

* – تحتوي هذه العلبة على جميـع الرسائل المتعلقة بمغامرتها مع فالمون .

twitter @baghdad_library

عشرة ليلاً وهي أشد ما تكون تألماً وتجهماً، فقدّمتُ اليها يدي لأمسك بذراعها، فكان أن واتتها القوة على تناول يدي ووضعها فوق قلبها ، فلم اشعر عندئذ بأي خفقان ، وبالفعل لفظت صديقتنا البائسة في اللحظة نفسها أنفاسها .

انت تتذكرين لدى رحلتك الاخيرة إلى هنا منذ سنة اننا تحدثنا عن بعض الاشخاص الذين يتمتعون بسعادة اكيدة . وقد استشهدنا بهذه المرأة نفسها التي نبكي اليوم تعاستها وموتها . فلقد كانت على قدر بالغ من الفضائل ، والخصال الحميدة ، والظرف، واللطف. وكانت ذات طباع عذبة وسهلة، وذات زوج تحبه ويعبدها ، ومجتمع عذب ترتاح اليه ويرتاح اليها . ووجه جميل فاتن ، وفتوة عارمة ، وثروة طائلة، كل ذلك كان متجمعاً لديها ، فاذا بها تفقدها جميعها بسبب قلة إحتراسٍ واحدة! آه ايتها العناية الآلهية. يجب بدون شك أن نعبد مشيئتك! ولكن كم تبدو لنا غير مفهومة ، انني اتوقف هنا خشية ان أزيد من تعاستك بسبب استسلامي الى تعاستي .

اتركك الآن لأذهب فأرى ابنتي . وهي متوعكة الصحة قليلاً . اذ انها بعد ان بلغها نبأ هاتين الفاجعتين عن شخصين معروفين لديها ، شعرتْ بكثير من الأسى والانزعاج ، فطلبتْ . اليها أن تلزم الفراش . وآمل مع ذلك الا يكون لهذا العارض اي ذيول . وهي ليست معتادة في هذه السن على تحمل الاحزان ، ولذلك يصبح تأثيرها اشد حدة وقوة . ولاشك بأن هذه الحساسية النشيطة هي مزية محمودة ، ولكن كم يجعلنا ما نطلع عليه كل يوم من شؤون وشجون نخشاها . الوداع يا صديقتي العزيزة المحترمة .

١٦٦

من السيد برتران الى السيدة دي روزموند

باريس في ١٠ كانون الاول ؟؟ ١٧ .

سيدتي

نتيجة للاوامر التي شرفتِني بتوجيهها إليّ، ذهبتُ لمقابلة السيد الرئيس ه . .

وأطلعته على رسالتك ، كما أعلمته أنني ، حسب رغباتك ، لن افعـــل شيئاً إلا بعد نصائحه .

وقد كلفني هذا القاضي المحترم بأن الفت انتباهك إلى أن الدعوى التي تنوين اقامتها على الفارس دانسني ، ستورط ايضاً ذكرى ابن شقيقك الراحل ، وان شرفه سيُلـّطخ اكيداً بما قد يتضمنه قرار المحكمة ، مما سيؤدي الى إثارة فضيحة كبرى ، وأن من رأيه الامتناع عن القيام بأي مسعى ، وانه اذا كان لا بـد من القيام بأي عمل فهو رجاء النائب العام عدم اثارة هذه القضيـــة المؤسفة التي احدثت حتى الآن ضجة كبرى في باريس .

وقد بدت لي هذه الملاحظات مفعمة بالحكمة ، ولذلك قررت انتظـار أوامر جديدة من جانبك .

إسمحي لي ان ارجوك يا سيدتي عند التلطف بابلاغي اياها أن تضيفي اليهـا كلمة تطمأنيني فيها عن صحتك الغالية التي اخشى ان تكون قد أثّرتْ فيهـــا الأحزان . وآمل ان تغفري لي هذه الحرية الناتجة عن تعلقي وحميتي .

انني يا سيدتي بكل احترام ... الخ ..

١٦٧

رسالة مغفلة الى السيد الفارس دانسني

باريس في ١٠ كانون الاول ؟؟ ١٧

سيدي

لي الشرف ان أحذرك يا سيدي انه دار بحث في دار العدل هذا الصباح بين السادة القضاة بصدد قضية وقعت اخيراً بينك وبين السيد الفيكونت دي فالمون ، وانه يُخشى أن يقيم النائب العام دعوى ضدك أمام القضاء . واظن ان هـــذا التحذير قد يفيدك إما لكي تسعى لاتخاذ الاحتياطات اللازمة ، وايقاف هـذه النتائج المزعجة ، وإما اذا لم تتمكن من ذلك ، لكي تتخذ بنفسك حمـــاية

twitter @baghdad_library

سلامتك الشخصية .

واذا سمحت لي بنصيحة ، فأعتقد أنك حسناً تفعل لو حاولت ان تظهر أقل ما يمكن بين الناس خلال فترة من الزمن ، بدلاً مما تفعل حتى الآن . وعلى الرغم من ان القضاء هو عادة متسامح في هذه الانواع من القضايا ، فان علينا مع ذلك ان نحترم القانون .

وان هذا الاحتياط يصبح أشد ضرورة لك بعد ان قيـــل ان امرأة تدعى السيدة دي روز موند يُعتقد بأنها عمة السيد دي فالمون تريـد ان تقيم الدعوى عليك . وعندئذ لا تستطيع النيابة العامـة ان ترفض القاء القبض عليـــك . وسيكون ربما من المناسب أن تتمكن من التوسط لدى هذه المرأة .

هنالك اسباب خاصة تحول بيني وبين توقيـع هذه الرسالة ، ولكنني اظن – بسبب عدم معرفتك من اين جاءتك هـذه الكلمة – انك لن تقلل من انصافك للعاطفة التي املتها .

لي الشرف ان اكون ... الخ ...

١٦٨

من السيدة دي فولانج الى السيدة دي روزموند

باريس ١١ كانون الاول ?? ١٧

تنتشر هنا ، يا سيدتي العزيزة المحترمة ، اشاعات مدهشة ومؤسفة عن السيدة دي ميرتاي ، ومن المؤكد انني ابعد الناس عن تصديقها ، واراهن على انها ليست سوى اراجيف وافتراءات قذرة . ولكنني اعلم جيداً ، مع ذلك ، كم ان هـذه الاراجيف اللئيمة ، حتى ولو كانت لا اساس لها من الصحة ، تستطيع ان ترسخ في اذهان الناس ، وكم ان التأثير الذي تخلّفه لا يمكن ازالته الا بصعوبة كبرى وهذا ما يجعلني ازداد ذعراً من هذه الاقوال مهما كان من السهل تحطيمها . وانني لأتمنى ان تقف هذه الشائعات عند حدها بصورة مبكرة ، قبل ان تزداد انتشاراً .

ولكنني لم اعلم سوى بالامس فقط ، وبصورة متأخرة نبأ انتشار هذه الاشاعات التي تلوكها الالسن وتتناقلها الشفاه . وحين أوفدت خادمتي هذا الصباح لأسأل عن السيدة دي ميرتاي في بيتها قيل لي انها سافرت الى الريف لتمضيـــة يومين هناك . وقالت لي خادمتها الثانية التي استدعيتها لأتحدث معها : انها لا تعرف الى اين قصدت ولم تذكر سيدتها الاشخاص الذين ذهبت لتراهم . بـــل كل ما في الامر انها طلبت اليها فقط ان تكون في انتظارها يوم الخميس المقبل ، كما لا يعلم أحد من اتباعها الذين ابقتهم هنا اكثر من ذلك . وانا نفسي لا استطيـع ان افترض اين يمكن ان تكون ، ولا اذكر احداً من معارفهـا ما زال متأخراً الى هذا الوقت في الريف .

ومهما يكن ، تستطيعين كما آمل ، ان تزوديني ، من الآن حتى عودتهـــا بالتوضيحات التي يمكن ان تكون مفيدة ، لأن الناس هنا يسندون هذه الحكايات التي لا تطاق عن السيدة دي ميرتاي الى ظروف وفاة السيد دي فالمون الذي لا بد ان تكوني قد اطلعتِ عليها كما يلوح لي ، فاذا كانت صحيحة ، أو من السهل عليك أن تبلغيني اياها ، فانني سأكون شاكرة فضلك . واليـــك ما يذيعونه عنها ، أو بالاحرى ما يتناقلونه بصورة سرية ايضاً . ولكنه لن يلبث اكيـداً حتى ينفجر بصخب وضجة :

لقد قيل ان المبارزة التي وقعت بين السيد دي فالمون والفارس دانسني هي نتيجة تحريض السيدة دي ميرتاي التي كانت تخدعهما معاً كلا الاثنين . وانه كما يحدث دوماً في مثل هذه الحالة ، اخذ الخصمان يتعاركان ، وانهما لم يتوصلا إلا فيما بعد الى التوضيحات التي ادت الى المصالحة الصادقة بينهما . وان الفيكونت دي فالمون ـ لكي يكمل تعريف السيدة دي ميرتاي على حقيقتها إلى الفارس دانسني ويبرر موقفه تماماً ازاء خصمه ـ قد دعم اقواله بحشد لا يُحصى من رسائل تشكل مجموعة المراسلة المنتظمة التي كانت تقوم بينه وبينهـا . وتروي هذه فيها عن نفسها وبأسلوب اكثر حرية ، القصص الفاضحة المشينة .

ويضيف الناس الى ذلك قائلين ان دانسني قد أطلع هذه الرسائل عند فورة

twitter @baghdad_library

غضبه الاولى ، على كل من شاء ان يراها ، وان هـذه الرسائل اخذت الآن تتخاطفها ايدي الجميع في باريس .. ويستشهد النـــاس بصورة خاصة برسالتين منها * تروي في احداهما سيرة حياتهـا التامة ومبادئها التي انتهجتها في المجتمـع وهي مليئة بأقصى ما يمكن من القذارات المرعبـــة . وفي الاخرى تبرر كل التبرير السيد بريفان الذي تذكرين حكايته معها بالدليل الذي كتبته بخط يدها ، وهو يثبت ان بريفان على العكس لم يفعل سوى انـه استسلم الى الاغراءات الملحوظة التي نصبتها السيدة دي ميرتاي له ، وان الموعد بينهما كان متفقاً عليه .

ولحسن الحظ توجد لديّ اسباب قوية تحملني على الظن بأن هذه الأراجيف هي ايضاً مزورة وكريهة . لأننا نعلم اولاً ان السيد دي فالمون لم يكن مشغولاً بحب السيدة دي ميرتاي ، وهناك كل ما يحملني على الاعتقاد أن دانسني لم يكن يحبها هو الآخر . وهكذا يلوح لي انهـــا لم تكن موضوع ولا سبب المعركة بينهما . ولا أدرك ايضاً ما هي المصلحة التي يمكن ان تكون للسيدة دي ميرتاي المفروض بأنها كانت على اتفاق مـع السيد دي بريفـــان ، في إثارة فضيحـة ضده ، وهي فضيحة لا يمكن الا ان تعود عليهـــا بأوخم العواقب ، نظراً لما سببته من ضجة وصخب ، ولأنها تجعل بذلك من نفسها عـــدوة لدودة لرجل تعرف انه يملك سرها ، وله انصار عديدون . غير ان ما يلاحظ بهذا الصدد انه منذ حدوث هذه المغامرة ، لم يرتفع صوت واحد مؤيـداً السيد بريفان ، كما انه من جهته هو ، لم يقم بأية محاولة لدحض التهمة عنه .

ولذلك تدفعني هذه الملاحظات الى الاشتباه بأنه هو نفسه مطلق هـــذه الاشاعات التي تنتشر اليوم ، وانا اعتبر هذه الاساءات ليست الا نتيجة لكراهيته وانتقامه . وقد قام بها املاً منه في إشاعة الشكوك حولها على الأقل ، وفي تحويل الانظار عن التهمة الملصقة به .

ولكن مهما كانت الجهة التي صدرت عنها هذه التخرصات ، فان من الأفضل الاسراع بتحطيمها والقضاء عليها . وهي ستتداعى من تلقـاء نفسها لو ثبت كما

* الرسالتان ٨١ و ٨٠

هو محتمل ان السيدين فالمون ودانسني لم يتحدثا معاً على اثر مغامرتها التعيسة ، ولم تكن هناك اوراق متبادلة بينهما .

وهكذا نظراً لفرط نفاد صبري للتحقق من هذه الاحداث ، فقد أوفدت خادمي للسؤال عن السيد دانسني. ولكنه لم يكن موجوداً هو الآخر في باريس، وقال خاصته لخادمي انه سافر في الليلة الماضية بناء على نصيحة تلقاها أمس ، وان مكان اقامته هو سر لا يمكن البوح به ، ويلوح ظاهرياً انه يخشى ذيول قضيته . وهكذا فلن يتسنى لي يا صديقتي العزيزة المحترمة ان أحصل على التفاصيل التي يهمني أمرها الا بواسطتك أنت ، والتي يمكن ان تكون ضرورية للسيدة دي ميرتاي . أنني اجدد رجائي اليك بان تعملي على ارسالها إليّ في أقرب فرصة ممكنة .

لقد كان العارض الصحي الذي المّ بابنتي قليل الشأن ، وهي تقدم اليك احتراماتها .

١٦٩

من الفارس دانسني الى السيدة دي روزموند

باريس في ١٢ كانون الأول ?? ١٧

سيدتي

لعلك تجدين هذا المسعى الذي اقوم به اليوم غريباً ، ولكنني اناشدك ان تصغي اليّ قبل ان تحكمي عليّ ، وألا تجدي في ذلك اية جرأة أو تهور بل بالاحرى كل ما انت خليقة به من الاحترام والثقة . انني لا انكر الاخطاء التي ارتكبتها تجاهك ، ولن اغفرها لنفسي طوال حياتي ، كلما فكرت لحظة انه كان من الممكن ان اتلافى الوقوع فيها . كوني كذلك متأكدة لكي تجديني معفى من الملامات بأنني لست معفى من الحسرات والندامات . واستطيع ان أضيف الى ذلك بكل اخلاص ان تلك التي اسببها لك تعود كثيراً إلى ما اشعر به . ولكي

twitter @baghdad_library

تصدقي هذه المشاعر التي اجرأ على تأكيدها لك حسبك ان تكوني عادلة ومنصفة كما ينبغي ، وان تعلمي رغم انه لم يحصل لي الشرف بأن تتعرفي عليّ بأنني اعرفك كل المعرفة .

ومع ذلك بينما أجأر من القدر الذي سبب في آن واحد اشجانك وتعاساتي، شاء بعض الناس ان يجعلوني أخشى بأنك تحاولين - تحت تأثير رغبتك في الانتقام - بشتى السبل ارضاء هذا الانتقام عن طريق صرامة القوانين .

فاسمحي لي ياسيدتي ان الفت نظرك بهذا الصدد إلى أن احزانك تطغى عليك وتستغلك ، لأن مصلحتي في هذه القضية مرتبطة كل الارتباط بمصلحة السيد دي فالمون، وأنه سيكون هو الآخر معرضاً مثلي للادانة التي شئت ان تثيريها ضدي. وسأعتقد اذن يا سيدتي انني استطيع على العكس ان اعتمد على المساعدة اللازمة من جانبك - بدلاً من وضع العراقيل - للعمل على بذل الجهود التي سأكون مضطراً اليها، حتى يبقى هذا الحادث التعيس مدفوناً في طيات الصمت والكتمان.

بيد ان هذه الطريقة التي تتفق مع المذنب والبريء في آن واحد ، لا يمكن ان تكفي لارضاء كرامتي. وانني اذ أرغب في ابعادك عن القضية كطرف ثالث، اطالبك بأن تكوني في آن واحد الخصم والحكم . لأن تقدير الأشخاص الذين نحترمهم هو ثمين جداً حتى أدع نفسي أُستَلبُ احترامك دون ان ادافع عن ذلك. واعتقد انني املك الوسائل اللازمة .

فاذا وجدت بالفعل ان الانتقام مسموح به ، أو بالأحرى مفروض علينا حين نكتشف اننا قد خُدعنا في حبنا وصداقتنا وبصورة خاصة في ثقتنا ، اجل اذا وجدت ذلك فان ذنوبي ستزول كلها بنظرك ، وارجوك الا تأخذي بأقوالي وحسب ، بل اقرأي اذا كانت لديك الشجاعة الكافية هذه المراسلة التي اضعها بين يديك * . وان الكمية الكبرى من الرسائل التي توجد

* إننا بفضل هذه المراسلة ، والمراسلة التي سلمت كذلك عند وفاة السيدة دي تورفيل ، والرسائل التي عهد بها الى السيدة دي روزموند من قبل السيدة دي فولانج ، استطعنا أن نؤلف هذه المجموعة الحاضرة من الرسائل التي بين يدي القارىء ، والتي ما زالت أصولها المخطوطة موجودة في حوزة ورثاء السيدة دي روز موند .

فيها بأصولها تجعل من تلك التي لا توجد سوى نسخ عنهـــا ، صحيحة ثابتة . وفي الحقيقة لقد تسلمتُ هذه الرسائل كما لي الشرف بأن اوجهها اليك من السيد دي فالمون نفسه . ولم اضف عليها شيئاً ، ولم انتزع منها سوى رسالتين ، سمحت لنفسي بنشرهما .

إحداهما كانت ضرورية لانتقامنا المشترك – السيد دي فالمون وانا – الذي لنا الحق به كلانا ، وقد كلفني به بإلحاح قبل موته . وقد خيّل اليّ ، بالاضافة إلى ذلك ، انني اسدي خدمة حقيقية الى المجتمع بكشفي النقـــاب عن امرأة خطيرة كالسيدة دي ميرتاي كانت – كما سيتسنى لـــك ان تستنجي بنفسك – السبب الوحيد الحقيقي لكل ما حدث بين السيد دي فالمون وبيني .

كما أن شعوراً من الانصاف حملني على أن انشر الاخرى ، لتبرير موقف السيد دي بريفان الذي لا أكاد أعرفه . والذي لم يستحق ابداً المعاملة القاسيـــة التي تعرض لها ، ولا قساوة حكم المجتمع . مما هو اكثر مخافةً أيضاً ، وما زال يئن من تأثيره منذ ذلك الحين الى اليوم ، دون ان يكون لديه ما يدافع به عن نفسه .

ولذلك لن تجدي سوي نسختين عن هاتين الرسالتين اللتين ينبغي ان احتفظ بأصليها لنفسي ، اما بقية الرسائل فأظن انني لا استطيع ان أجد آمن من يديك لأضعها بينهما والتي ربما يهمني ألا تُتلف ، ولكنني أخجل من استغلالها . اعتقد يا سيدتي انني بوضع هذه الرسائل في عهدتك أخدم ايضاً الاشخاص الذين تعنيهم وانني انقذهم بذلك من الارتباك الذي قد يحدث لهم لو تسلموها من جانبي ، ومن معرفة انني مطلع على مغامرات يرغبون في ان يجهلها جميع الناس .

اظن ان من واجبي تحذيرك بهذا الصدد ، أن هذه المراسلة المرفقة طيه ليست الا جزءاً من مجموعة أضخم كان ان انتزعها السيد دي فالمون منها امامي ، وان عليـــك إن تستولي عليها ما ان يتم رفع الحجز عن منزله وتجدينها تحت عنوان « حساب مفتوح بين المركيزة دي ميرتاي والفيكونت دي فالمون » . وعندئذ تتخذين في هذا الصدد ، القرار الذي يقضي به احتراسك .

انني بكل احترام يا سيدتي ، الخ ...

twitter @baghdad_library

لقد حملتني بعض الآراء والنصائح من قبـــل اصدقائي على التغيب عن باريس خـلال فترة من الزمن : ولكن مكان عزلتي الذي لا ابوح به إلى احد ، لن يكون مجهولاً عليك. واذا شئت ان تشرفيني بجواب أرجوك ارساله الى قيادة... بواسطة ب... باسم القومندان دي ... الذي لي الشرف بان اكتب اليـك من عنده .

١٧٠

من السيدة دي فولانج الى السيدة دي روزموند

باريس في ١٣ كانون الأول ؟؟ ١٧

إنني أسير ، يا صديقتي العزيزة ، من مفاجـأة الى مفاجـــأة ومن أسى الى أسى . ولا بدّ ان تكوني أماً لكي تأخذي فكرة عما عانيته امس من عذاب . واذا كانت وساوسي القاسية قـد هدأت قليلاً منذ ذلك الحين فقد ظلت لدي لواعج حادة ، لا استطيع ان اتوقع نهايتها .

لقد دهشتُ حوالي الساعة العاشرة من صباح امس لكوني لم أر ابنتي بعد ، فأوفدتُ خادمتي لمعرفة ماذا يمكن أن يعوق هـــذا التأخر . فعادت اليّ بعد قليل وهي مذعورة ، ثم أذعرتني اكثر حين اعلمتني ان ابنتي لم تكن موجودة في غرفتها ، وان خادمتها لم ترَ لها وجهاً منذ الصباح. تصوري موقفي ! فاستدعيت جميع خدمي ولا سيما بوابي ، وقـد أقسموا لي جميعهم بأنهم لا يعلمون شيئاً ولا يستطيعون ان يفيدوني بشيء عن هذا الحادث . وعلى الأثر قصدتُ غرفة ابنتي ، فأعلمتني الفوضى السائدة فيهـا بأنها ظاهرياً لم تخرج إلا عند الصباح . ولكنني لم اعثر على اي ايضاح . ففتشت خزائنهـا ، ومكتبها ، فوجدتُ كل شيء في مكانه ، باستثناء الثوب الذي خرجتْ بـــه ، ولم تأخذ حتى القليل من الدراهم الذي كان لديها .

ونظراً لأنها لم تعلم سوى امس فقط بكل ما يقال عن السيدة دي ميرتاي وهي متعلقة بها جداً ، الى درجة انها لم تكفّ عن البكاء طوال السهرة ، وبما انني تذكرتُ انها لا تعلم ان السيدة دى ميرتاي قد قصدت الريف . فقد كانت اول فكرة خطرت في بالي انها ارادت ان ترى صديقتها ، وانها ارتكبت حماقة الذهاب وحدها . ولكن الوقت الذي انقضى دون ان تعود، جعل وساوسي تعاودني من جديد . وكانت كل لحظة تمر تزيد من عذابي ، ومع انني كنت اتحرق لمعرفة ماذا جرى لها، لم اجرأ على محاولة الحصول على اية معلومات خشية ان يؤدي مسعاي الى اثارة ضجة ربما اريد على اثرها ان اخفيه عن جميع الناس . كلا انني لم اعانِ في حياتي ابداً مثل هذا العذاب .

واخيراً كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر حين تلقيتُ في آن واحد رسالة من ابنتي واخرى من رئيسة دير «...» وقد جاء في رسالة ابنتي فقط انها خشيت ان اعترض على الدافع الالهي الذي شعرتْ به لتصبح راهبة ، ولذلك لم تجرأ على اعلامي بالأمر . وكانت بقية الرسالة عبارة عن اعتذارات لكونها اتخذت دون اذني هذا القرار الذي سوف لا اثنيها عنه اكيداً ، لو عرفت الاسباب التي حدت بها الى ذلك ثم رجتني ألا اسألها عن هذه الاسباب .

وابلغتني الرئيسة انها اذ شاهدت فتاة تصل وحدها الى الدير رفضت في البداية استقبالها ، ولكنها بعد ان استجوبتها وعلمت من هي ، خيّل اليها انها تسدي إليّ خدمة ، بتوفير ملجأ لابنتي لكي لا تعرضها إلى مساع اخرى بدت انها مصممة عليها . وقد دعتني الرئيسة وهي تعرض عليّ ان تعيد ابنتي اليّ اذا طلبتها ، إلى عدم الاعتراض على دافع الهي يبدو انه صادر عن عزم وتصميم . وقالت لي ايضاً انها لم تستطع ان تعلمني بصورة أبكر عن هذا الحادث بسبب العناء الذي كلفتها حمل ابنتي على الكتابة إليّ . لا سيما وان مشروعها كان يقضي أن يجهل الجميع اين التجأت . انه لأمر قاس جداً منطق الاطفال !

وعلى الفور قصدت هذا الدير ، وبعد أن قابلت الرئيسة طلبت اليها ان اشاهد ابنتي ، ولكن هذه لم تأت إلا بعد لأي وهي ترتجف . وقد تحدثت اليها

twitter @baghdad_library

امام الراهبة . ثم تحدثت اليها على انفراد ، وكل ما استطعت معرفته منها ، خلال الدموع ، انها لا يمكن ان تكون سعيدة الا في الدير . فقررتُ اذن ان اسمح لها بالبقاء فيه ، ولكن دون ان تكون في صف المرشحات للرهبنة كما تريد . وأخشى ان يكون موت السيدة دي تورفيل ووفاة السيد دي فالمون ، قد أثّرا في عقل هذه الصغيرة . ومهما كان احترامي شديداً نحو هذا الدافع الديني ، فانني لـــن استطيع أن اتصور ابنتي تنهج هــذا السبيل ، دون أن أشعر بالأسى والوجل . ويلوح لي ان لدينا واجبات كافية لكي نؤدّيها في هذه الحياة دون حاجة إلى ان نخلق لأنفسنا واجبات جديدة . ثم اننا لا نتمكن في مثل هذا العمر أن نعرف ما يلائمنا أم لا .

ان ما يضاعف ارتباكي هي عودة السيد دي جيركور التي باتت قريبة جداً . إذ ينبغي ألاّ الغي هذا الزواج الممتاز ؟ وكيف يجب ان نحقق سعادة اولادنا ، اذا لم تكن الرغبة الموجودة لدينا ، ولا الجهود التي نبذلها في هذا السبيل كافية ؟ انني مضطرة للتساؤل عما يمكن أن تفعليه لو كنتِ في مكاني ؟ ولا استطيع أن اتوقف عند أي قرار . كما لا أجد أصعب ولا أشد خوفاً من تقرير مصير الآخرين . وأخشى بهذه المناسبة ان أضع كل صرامة القاضي ، او كل تخاذل الأم .

انني ألوم نفسي باستمرار لكوني زدت من اشجانك ، بتحدثي اليك عـــن اشجاني ، ولكنني أعرف قلبك : وان العزاء الذي يتسنى لك منحه إلى الآخرين سيصبح اكبر عزاء يمكن أن تتلقيه .

الوداع يا صديقتي العزيزة المحترمة . انني انتظر جوابيك على احر من الجمر .

١٧١

من السيدة روز موند الى الفارس دانسني

قصر... في ١٥ كانون الأول ؟؟ ١٧

بعد كل ما أعلمتني اياه ، يا سيدي ، لم يبق لي الا البكاء والصمت . ونحـــن نتأسف لكوننا ما زلنا نعيش حتى نطلّع على مثل هذه القذارات المرعبـــة .

ونخجل لكوننا نساء حين نرى واحدة منـــا قادرة على ارتكاب مثل هـــذه المبالغات المماثلة .

أنني مستعدة بكل طيبة خاطر ، يا سيدي ، في ما يتعلق بي ، إلى أســدال ستار من الصمت والنسيان على كل ما يمكن ان تكون له علاقـــة أو يؤدي الى ذيول بصدد هذه الاحداث المؤلمة . واتمنى ايضاً الا تسبب لك أية احزان أخرى ، باستثناء تلك التي لا تنفصل عن تغلبك على ابن شقيقي المسكين . وعلى الرغم من اخطائه التي اجد نفسي مضطرة للاعتراف بها ، فانني أشعر انني لن أتعزى ابداً عن فقدانه . ولكن لواعجي الابدية ستكون هي الثأر الوحيد الذي اسمـــح لنفسي بأن انتزعه منك ، وان قلبك وحده يستطيع أن يقدر مداها .

اذا سمحت لي وانا في سني بان أبدي ملاحظة اليـك وأنت في سنك ، فهي اننا لو شئنا ان نطلع على سعادتنا الحقيقية لما كنا بحثنا عنها خارج الحـدود التي نصت عليها القوانين والدين .

تستطيع ان تكون متأكداً انني سأحافظ بأمانة على المستودع الذي عهدت به إليّ ، ولكنني اطلب اليك ان تسمح لي بالا أسلمه الى أحد ، لا بل حتى اليك أنت ، اللهم الا اذا كان ذلك ضرورياً لتبرير موقفك . واجرأ على الاعتقاد بانك لن تخيب لي هذا الرجاء ، ولن تشعر بانك ستندم عليـه ، حتى ولو كان بودك الانتقام العادل .

إنني لا أتوقف عن طلباتي ، ونظراً لاقتناعي بما تتحلى به من أريحية وشهامة ، فانك ستكون جديراً بهما لو سلمتني ايضاً رسائـل الآنسة دي فولانج الموجودة لديك على ما يظهر ، وهي بدون شك لم تعد تهمك . انا اعلم ان هذه الفتاة الصغيرة قد اخطأت بحقك ، ولكنني لا اظن بانك تفكر في معاقبتها ، عـــلى الأقل من قبيل الاحترام لنفسك ، حتى لا تذل شخصاً طالما احببته حباً جماً : ولست بحاجة اذن الى ان اضيف بانك مدين بهذه اللياقات التي تقوم بها نحو ابنة قد لا تستحقها ، الى والدتها هذه المرأة المحترمة التي قد تكون بحاجة إزاءها الى تدارك هفوتك على أهون سبيل : لأنه اخيراً مهما كان الوهم الذي نبحث عنه لتـــبرير رهافة

twitter @baghdad_library

المشاعر ، فان الأول الذي يحاول اغراء قلب ما زال شريفاً وبسيطاً ، يجعل من نفسه بهذه الطريقة سبباً لفسادها ، وينبغي ان يكون مسؤولاً عن العواقب التي تنتج عن هذا الفساد .

فلا تدهش يا سيدي لمثل هذه الصرامة من جانبي ، وهي اكبر دليل يمكنني ان امنحك اياه على تقديري التام . وستحصل على حقوق جديدة ايضاً اذا شاركت كما آمل في المحافظة على سر سيسيء نشره اليك ، ويحمل الهم والموت الى قلب سبق لك ان جرحته . واخيراً ارغب يا سيدي في ان أسدي هذه الخدمة إلى صديقتي ، واذا تسنى لي ان أخشى رفضك تقديم هذا العزاء لي، فأنني اطلب اليك ان تفكر قبل الرفض بانه الوحيد الذي تركته لي .

لي الشرف أن اكون الخ . .

١٧٢

من السيدة دي روزموند الى السيدة دي فولانج

قصر ... في ١٥ كانون الأول ؟؟ ١٧

لو كنتُ قد اضطررتُ يا صديقتي العزيزة الى استحضار وانتظار التوضيحات التي تطلبينها في ما يختص بالسيدة دي ميرتاي ، من باريس ، لما كان من الممكن لي ان اقدمها إليك الآن . وبدون شك لما كنتِ تلقيتِ سوى توضيحات غامضة وغير اكيدة : بيد انه وردتني توضيحات بشأنها لم اكن اتوقعها مطلقاً ولم يكن هناك مجال لانتظارها . وهي تتضمن اكثر من تأكيدات صحيحة . آه يا صديقتي ! كم خدعتك هذه المرأة .

إنني استنكف عن الخوض في أية تفاصيل بصدد هذه الكومة من القذارات البشعة ، ولكن مهما افتضح من أمرها، فكوني متأكدة انه أقل بكثير من الحقيقة . آمل يا صديقتي العزيزة ان تكوني تعرفينني جيداً حتى تصدقيني حسب اقوالي، وانك لن تطلبي مني أي دليل ، إذ يكفيك أن تعلمي أنه توجد بين يدي في

الوقت الحاضر الوف البراهين والدلائل على إنحطاط هذه المرأة .

وانني اتقدم اليك بالرجاء نفسه — ولكن ليس دون عناء بالغ — بان لا تضطريني إلى تبيان السبب الذي يحملني على إسداء النصيحة التي تطلبينها مني في ما يتعلق بالآنسة دي فولانج . بل أدعوك فقط إلى عدم الاعتراض على الدافع الديني الذي حدا بها إلى دخول الدير . من المؤكد أنه ليس هناك من سبب يمكن ان يسمح باجبار احد على سلوك طريق الرهبنة حين لا يكون الشخص مدعواً إلى ذلك : ولكن هذا السبيل يشكل في بعض الاحيان سعادة كبرى . وأنت ترين ان ابنتك نفسها تقول لك أنك لن تثنيها عن عزمها لو عرفت أسبابها .. وان الذي يوحي الينا بعواطفنا يعلم اكثر من حكمتنا الباطلة ما يلائم كل منا . وان ما يبدو غالباً دليلاً على قساوته ليس على العكس الا دليلاً على عفوه وتسامحه .

واخيراً فمن رأيي الذي أشعر جيداً انه سيفجعك ، ومن هنا ينبغي عليك ان تعتقدي انني لا أبديه لك الا بعد ان فكرت به جيداً ، هو ان تدعي الآنسة دي فولانج في الدير ، ما دام هذا القرار هو حسن الاختيار . وان تشجعيها بدلاً من أن تعاكسيها على هذا المشروع الذي يبدو أنها صممت عليه . وفي انتظار تنفيذه لا تترددي ابداً في الغاء الزواج الذي قررته .

انني بعد أن أديت هذه الواجبات القاسية التي تحتمها الصداقة ، ونظراً للعجز الذي انا فيه عن أضافة أي عزاء آخر فان الفضل الذي بقي عليّ أن أطلبه منك ، يا صديقتي العزيزة ، هو ألا تستجوبيني ابداً عن أي شيء له علاقة بهذه الاحداث المؤلمة : ولندعها في غمرة النسيان ، وهو ما يلائمها ، ونستسلم — دون أن نبحث عن استنارات مشجية وغير مجدية — الى مشيئة العناية الآلهية ، ولنؤمن بحكمة قراراتها ، حتى ولو لم يكن مسموحاً لنا بأن نفهمها . الوداع يا صديقتي العزيزة .

twitter @baghdad_library

١٧٣

من السيدة دي فولانج الى السيدة دي روزموند

باريس في ١٨ كانون الأول ؟؟ ١٧

آه يا صديقتي ! بأي ستار مفزع تغلفين مصير ابنتي !وكم تخشين كما يلوح، من ان ازيح هذا الستار ! فماذا يُخفى عني اذن ممـــا يمكن ان يفجع قلب أمّ اكثر من الظنون التي تسلمينني اليها ؟ كلما عرفت صداقتك وتسامحك ، كلمـــا تضاعفت وساوسي: عشرون مرة، منذنهار أمس وددتُ الخروج من هذه الظنون القاسية، والطلب اليك أن تعلميني بكل شيء دون مسايرة او موارية .

إنني كل مرة أرتجف خوفاً ، وانا افكر بالرجاء الذي تقدمتِ به اليّ لكيلا استجوبك . واخـيراً فأنني اتوقف عند قرار ما زال يدع لي شيئاً من الأمل . وأنتظر من صداقتك بالا ترفضي رجائي: وهو ان تبلغيني عما اذا كنت قد فهمت تقريباً ما يمكن ان تقوليه لي ، وألاّ تخشي من اطلاعي على كل مـــا يمكن لسعة صدر الأم أن تستوعبه وتستره ، وليس من المستحيـل تداركه . أما اذا كانت تعاساتي تتجاوز هذا الحد ، فسأوافق عندئـذ على أن أدعك بالفعل تمتنعين عن الايضاح عن طريق صمتك. واليك إذن ماذاعرفته في السابق وإلى اي حد يمكن لمخاوفي أن تذهب بعيداً .

لقد أظهرتْ ابنتي أن لديها ميلاً نحو الفارس دانسني ؛ وقد بلغني انها مضت في ذلك إلى درجة تلقي رسائل منـه وحتى اجابته عليها . ولكنني اعتقد أنني توصلتُ إلى الحيلولة دون ان يكون لهذه الهفوة الصبيانيـة أية عاقبة خطيرة : واليوم وانا أخشى كل شيء ، فأنني ادرك انه من الممكن أن تكون مراقبتي قد خُدعت ، واخاف أن تكون ابنتي قد أُغريت وبلغت اوج ضلالها .

وأنني اتذكر ايضاً عدة ظروف تستطيع أن تدعم هذا الخوف . لقد كنت قد اعلمتك ان ابنتي قد اصيبت بوعكة لدى تلقيها نبأ النكبة التي وقعت للسيد دي فالمون. ولعل شدة هذه الحساسية كانت ناتجة عن فكرة الأخطار التي تعرض

لها السيد دانسني خلال المعركة .

ثم حين بكت كثيراً لدى اطلاعها على كل ما يقال عن السيدة دي ميرتاي ، ربما خيل اليّ ان حزنها على الصداقة ليس الا من تأثـــير الغيرة أو الندم لأنها وجدت في عشيقها رجلاً خائناً. وهكذا فان مسعاها الاخير يمكن كما يبدو لي ان يفسرّ بالسبب نفسه. وغالباً ما تظن احداهن ان الخالق يدعوها لخدمته ، بسبب ثورتها ضد الرجال . واخـيراً على افتراض أن هذه الوقائع هي صحيحة ، وأن تكوني قد اطلعت عليها ، هل تجدينها كافيـة لكي تسمح لك بالنصيحة الصارمة التي تسدينها إليّ .

وفي الاثناء اذا كان الأمر كذلك فأنني مع تأنيب ابنتي، أعتقد انه يجب عليّ نحوها مع ذلك ان اجرب أيضـاً جميع الوسائل لانقاذها من هـــذه الوساوس والاخطار التي لا تنفصل عن دعوة ربانية وهمية عابرة . واذا كان السيد دانسني لم يفقد اية عاطفة شرف ، فهو لن يرفض ابداً تدارك هفوة هو الوحيد المسؤول عنها . وأستطيع أن أعتقد أن زواجه من ابنتي هي صفقة رابحة له حتى لا يستطيع إلا أن يفخر بها هو وعائلته ..

هذا هو يا صديقي العزيزة المحترمة الأمل الوحيـد الذي يبقى لي . فسارعي الى تأكيده لي إذا كان ذلك ممكناً . انـــك تتصورين كم ارغب في ان تجيبيني بسرعة ، وأية صدمة قاسية سيتركها في نفسي صمتك .

كدت اقفل هذه الرسالة ، حين حضر رجل من معارفي الى زيارتي وروى لي المشهد القاسي الذي وقع للسيدة دي ميرتاي أمس الأول . وبما أنني لم اقابل أحداً هذه الأيام الأخيرة ، فلم أكن أعلم عنها شيئاً حتى هذه اللحظة، واليك ما حدث كما رواه لي شاهد عيان بنفسه .

بعد أن وصلت السيدة دي ميرتاي من الريف أمس الأول قصدت مسرح « الكوميديا الايطالية » . حيث لديها مقصورة خاصة بهـــا ، وقد بقيت فيها وحدها . ولعل ما بدا لها غريباً جداً هو أنه لم يتقدم أحد من الرجـال للسلام عليها أو التكلم معها طيلة الحفلة . ولدى خروجها دخلت حسب عادتهـــا الى

twitter @baghdad_library

الصالون الصغير الذي كان يعجُّ بالقوم . وعلى الأثر ارتفعت جلبة بصددهـــا ، ولكنها بدت ظاهرياً كمن لم تظن أنها المقصودة . ولاحظتْ أن هناك مقعـــداً فارغاً على أحد الأرائك الطويلة ، فذهبت لتجلس . ولكن جميع النساء اللواتي كن يجلسن فوقها ما لبثن أن نهضن دفعة واحدة، وتركنها وحدها . وقد قوبلت هذه الحركة الملحوظة من الاهانة العامة، بالتصفيق الحاد من جانب جميع الرجال، ثم ضوعفت بالوشوشات التي بلغت حدّ الجلبة الساخرة .

وقد شاء حظها العاثر ، لكي تكون اهانتها كاملة ، ان دخـــل السيد دي بريفان – الذي كان قد انقطع عن الظهور في اي مكان منـذ مغامرته معها – في اللحظة نفسها الى الصالون الصغير . وما أن لوحظ وجوده حتى حفّ به الجميع نساء ورجالاً وهتفوا له مرحبين. ووجد نفسه محمولاً اذا صحّ هذه التعبير على مقربة من السيدة دي ميرتاي من قبل الجمهور الذي ألّف حلقة حولها . وأكد أن السيدة دي ميرتاي ظلت محافظة على مظهرها الأمين وكأنها لم تر او تسمع شيئاً، ولم تبدّل شيئاً من تقاطيع وجهها . ولكنني أعتقد ان في هذا الوصف شيئاً من المبالغة ! ومهما يكن من امر فان هذا الموقف المخزي حقيقةً بالنسبة لها استمر طول الوقت حتى أُعلن عن وصول عربتها . ولدى رحيلها وُدّعت ايضاً بصخب فاضح مضاعف . وانه لمن المؤلم لي ان اكون أُمتّ بصلة القرابـة الى مثل هذه المرأة . وقيل أن السيد بريفان قد استُقبل خلال قلك السهرة بترحاب بالغ من قبل جميع زملائه ضباط فرقته الذين كانوا حاضرين . ولا يشكُّ أحد في أن رتبته ومركزه سيعادان اليه قريباً .

كما أن الشخص الذي نقل إلي تفاصيل هذه الحادثة أخـبرني أن السيدة دي ميرتاي أصيبت في الليلة التالية بحمّى قوية جداً ، ظُنّ في البداية أنها ناجـة عن تأثير الموقف العنيف الذي وجدت فيه نفسها قبلاً . ولكن تبين منذ مساء أمس انه ظهرت عليها امارات مرض الجدري بشكل شديد وسيء . وفي الحقيقـــة ستكون سعادة كبرى لها اذا ماتت بهذا الداء .

ويقال ايضاً ان كل هذه المغامرة ستسيء كثيراً الى دعواها المعروضـة أمام

المحكمة ، والتي اصبح صدور الحكم فيها وشيكاً ، وهي بحاجة كما يُزعم الى كثير من الاستعطاف والمراضاة .

الوداع يا صديقتي العزيزة المحترمة ، انني ارى في كل ذلك ان الاشرار قد عوقبوا ، ولكنني لا اجد اية مؤاساة لضحاياهم التعساء .

١٧٤

من الفارس دانسني الى السيدة دي روزموند

باريس في ١٧ كانون الاول ؟؟ ١٧

انكِ على صواب يا سيدتي ، ومن المؤكد انني لن ارفض شيئاً يتوقف البت فيه عليّ وتبدين انك تعلقين عليه بعض الأهمية ، وان الرزمة التي لي الشرف بان أبعث بها اليك تتضمن جميع رسائل الآنسة دي فولانج ، واذا قرأتِها بعناية ، فستجدين – ربما دون دهشة – كيف يمكن جمع هذا القدر من سلامة الطوية مع هذا القدر من المكر والخداع، وهذا على الاقل ما ادهشني كل الدهشة لدى تلاوتي اياها للمرة الاخيرة .

ولكن هل يمكن لأحد ان يمنع نفسه من الشعور بأشد السخط ضد السيدة دي ميرتاي حين يتذكر باية متعة شنيعة كانت تبذل كل اهتمامها لاستغلال هذا القدر من البراءة والسذاجة ؟

كلا ، لم يبق لديّ اي حب ، ولا احتفظ بشيء من عاطفة خُذلت بها بهذا الشكل المهين ، وليست هذه العاطفة هي التي تجعلني احاول تبرير الآنسة دي فولانج ، ولكن مع ذلك أفلم يكن من الممكن توجيه هذا القلب البسيط جداً، وهذه الطباع العذبة السهلة نحو الخير بدلاً من دفعها الى حومة الشر ؟ وأية فتاة اخرى تخرجت مثلها من الدير ذاته ، دون خبرة لا بل دون اية افكار ، ولا تحمل أية فكرة من المجتمع – كما يحدث دائما في مثل هذه الأحوال – سوى جهل متساوٍ بين الخير والشر . أقول أية فتاة غيرها ، كان يمكن ان تقاوم اكثر منها

twitter @baghdad_library

ازاء هذه المكايد المذنبة ؟ آه ! حسبي لكي اكون متسامحاً انافكر كم انالتعاقب الدوري بين رقة الضمير وفساد الشعور يتوقفان على ظروف مستقلة خارجة عن ارادتنا . إذن انت تنصفينني يا سيدتي حين تفكرين بأن ذنوب الآنسة دي فولانج نحوي التي شعرت بها بقساوة مريرة ، لا توحي اليّ مع ذلك بأية فكرة انتقام . وان هذا وحده يكفي لكي اكون مضطراً الى الإقلاع عن حبها ، كما ان كرهها سيكلفني ايضاً كثيراً من العناء .

لم اكن بحاجة الى اي تفكير لكي أرغب في ان يبقى كل ما يتعلق بها ، وكل ما يمكن ان يؤذيها مجهولا من جميع الناس . واذا كنتُ قد بدوت بانني ارجأت الى بعض الوقت تلبية رغباتك بهذا الصدد ، فاعتقد انني لا استطيع ان اخفي عنك السبب . وهو انني اردت ان انتظر حتى اكون متأكداً من انني لن اقلق بشأن ما قد تجره قضيتي البائسة من ذيول ، اذ فيما كنت اطلب تسامحك وعفوك – واجرأ على الاعتقاد ان لديّ بعض الحقوق في ذلك – خشيتُ أن أبدو كمن يشتري هذا التسامح مقابل تسليمك هذه المراسلة من جانبي . بيد أنني وقد تأكدت من نقاوة هذه الأسباب ، اعتراني الفخر – واعترف بذلك – لكوني وددتُ الا ترتابي في ذلك . وآمل ان تغفري لي هذه الرقة في الشعور ، وهي عندي ربما حساسة اكثر من اللزوم ازاء الاجلال والاكبار اللذين توحينهما لي ، بالنظر لما تمنحيني اياه من احترامٍ .

ان هذا الشعور نفسه يحدو بي الى ان اطلب اليك مِنّة اخيرة . وهي ان تتلطفي بإعلامي اذا كنتُ قد أديتُ جميع الواجبات التي تحتمها عليّ الظروف التعيسة التي وجدتُ نفسي فيها . ومتى أصبحت مطمئناً من هذه الناحية ، فان قراري قد اُتخذ . سأرحل الى مالطة ، وسأذهب لأعمل هناك بسرور ، وأحقق فيها بتدين أمنيات ستفصلني عن عالم ، كان عليّ رغم حداثة عمري أن اشكو منه أمرّ الشكوى ، سأذهب اخيراً لأحاول هناك ان انسى تحت سماء غريبة فكرة كثير من القذارات المتراكمة ، والتي لا يمكن لذكراها إلا ان تحزن روحي وتذويها .

انني يا سيدتي بكل احترام الخ ...

١٧٥

من السيدة دي فولانج الى السيدة دي روزموند

باريس في ١٤ كانون الثاني ؟؟ ١٧

يبدو أن مصير السيدة دي ميرتاي قد تحدد أخيراً يا سيدتي العزيزة المحترمة، وقد وصل الى درجة أصبح معهـا ألد أعدائها منقسمين نحوها بين الكراهية التي تستحقها وبين الشفقة التي توحي بها. وقد كنت على صواب حين قلت انه ستكون سعادة كبرى لها اذا ماتت بدائها . لقد عادت ، وهذا صحيح ، ولكنها مشوهة بشكل بشع جداً .

وقد فقدت من جراء الجدري احدى عينيها تقريباً. وتستطيعين ان تصدقيني بأنني لم أرها ثانية منذ ذلك الحين ، ولكن قيل لي انها أصبحت على مبلغ كبير من البشاعة الرهيبة .

وكان المركيز دي ... الذي لا يدع فرصة تفوتـــه دون ان يطلق احدى «تشنيعاته» يقول أمس وهو يتحدث عنها ان المرض قد قلب بشرتها قفاً لجيد . وان روحها أصبحت ظاهرة الآن على وجهها . ولسوء الحظ وجد الناس جميعهم ان عبارته صحيحة .

وهناك حادث آخر وقع لها وأضيف الى نكباتها ومصائبها . فقد صدر الحكم في قضيتها ، وكان ان خسرت كل شيء بصوت واحد . وقد حكم عليها باعادة النفقات والتعويضات والفوائد ، وارجاع المنافع والاملاك إلى القُصَّر بحيث أن القليل من ثروتها الذي لم يُورَّط في هذه الدعوى قد أنفق على المصاريف .

وما ان علمتْ بهـــذا النبأ ، حتى اتخذت ترتيباتها حالاً — رغم مرضها — وسافرت وحدها . ويقول خدمها اليوم أنه لم يشأ اي واحد منهم ان يلحق بها . ويُعتقد أنها قصدت هولندا .

twitter @baghdad_library

وقد أثار هذا السفر ايضاً ضجة اشد من السابق ، لأنها حملت معها مجوهراتها وكل ما خف حمله وغلا ثمنه مما يجب ان يعود الى ميراث زوجها ، هذا فضلاً عن تحفها الخاصة وحلاها . واخيراً كل ما قدرت عليه ، وتركت وراءها ديوناً تقدر بـ ٥٠,٠٠٠ ليرة . وهذا إفلاس احتيالي حقيقي .

وعلى أفراد الأسرة ان يجتمعوا غداً ليروا ماذا يمكن اتخاذه من تدابير مع الدائنين. وعلى الرغم من انني قريبة بعيدة جداً فقد عرضت المساهمة معهم في ذلك . ولكنني لن أحضر هذا الاجتماع لاضطراري الى حضور احتفال أشد كآبة أيضاً . اذ أن ابنتي سترسم غداً راهبة . وآمل انك لا تنسين يا صديقتي انني في هذه التضحية الكبرى التي أقوم بها ليس لديّ من سبب آخر لكي اعتقد انني مضطرة إليه سوى الصمت الذي احتفظت به تجاهي .

لقد غادر السيد دانسني باريس منذ حوالي خمسة عشر يوماً. ويقال انه سيذهب الى مالطة حيث قرر ان يقيم فيها. فهل فات الأوان للحيلولة بينه وبين ذلك؟ آه يا صديقتي ... إن ابنتي اذن مذنبة ؟ ستغفرين بلا ريب لأم لا تستطيع ان تستسلم إلا بصعوبة لمثل هذه الحقيقة الرهيبة .

وأي قدر انتشر منذ بعض الوقت حولي ، فضربني في اعز ما لدي : ابنتي وصديقتي !

ومن الذي لا يستطيع أن يرتجف رعباً وهو يفكر بالمصائب التي يمكن ان تنتج عن علاقة خطرة واحدة ! وأية متاعب كان بالامكان تلافيها لو فكر الجميع فيها بتعقل ! وأية امرأة لا تهرب لدى أول محادثة من جانب رجل غاو ؟ وأية أم تستطيع – دون أن ترتجف خوفاً – ان ترى شخصاً آخر سواها يتحدث الى ابنتها ؟ولكن هذه الملاحظات التي فات أوانها لا تأتي إلا بعد وقوع الكارثة .

الوداع يا صديقتي العزيزة المحترمة . أشعر في هذا الحين ان منطقنا الذي لم يكن كافياً في السابق لتلافي نكباتنا ، هو ايضاً غير كاف لكي يعزينا عنها .

انتهت

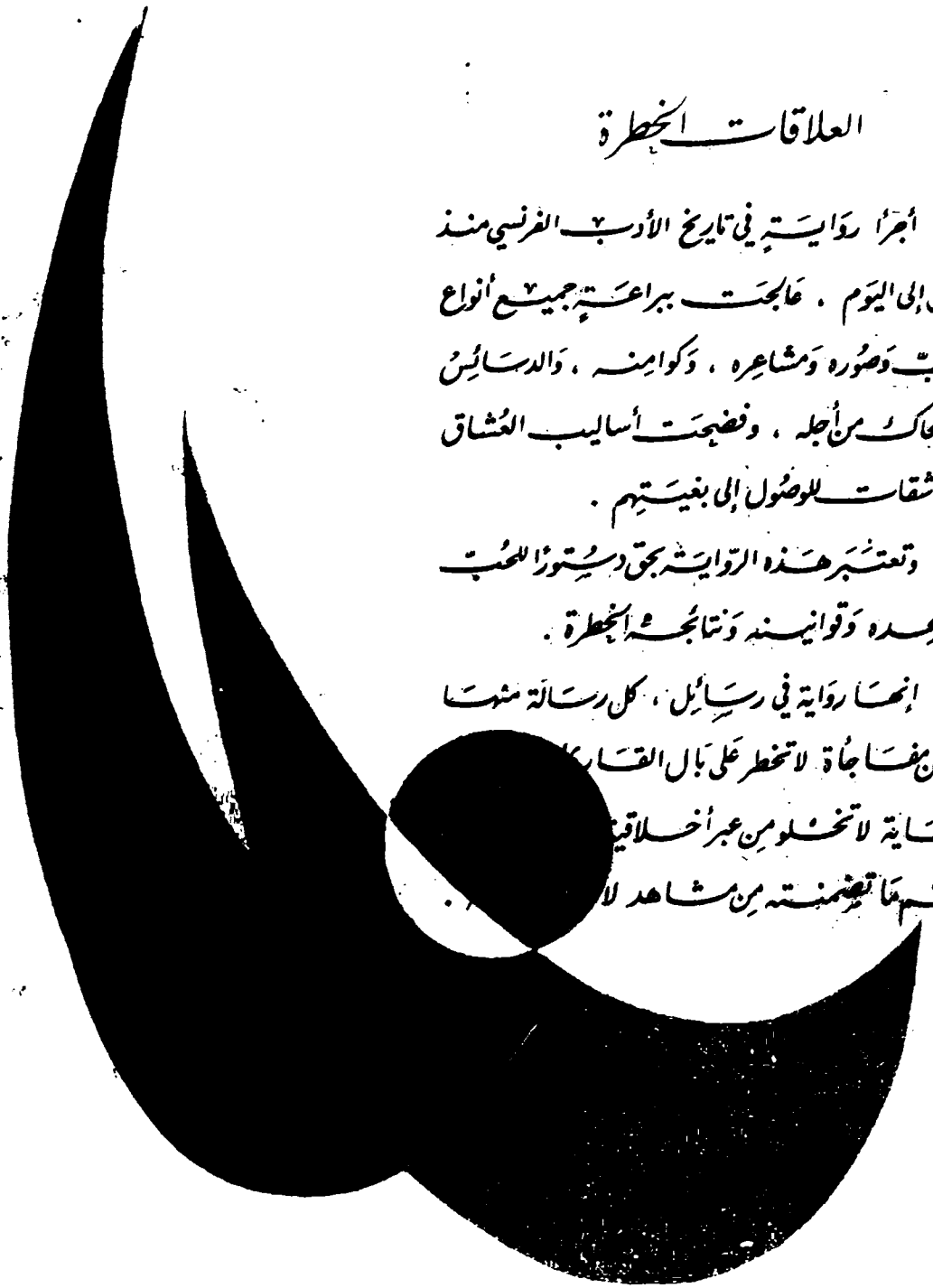

العلاقات الخطرة

أجرأ روايةٍ في تاريخ الأدب الفرنسي منذ قرنين إلى اليوم . عالجت ببراعةٍ جميع أنواع الحب وصوره ومشاعره ، وكوامنه ، والدسائس التي تحاك من أجله ، وفضحت أساليب العشاق والعاشقات للوصول إلى بغيتهم .

وتعتبر هذه الرواية بحق دستوراً للحب وقواعده وقوانينه ونتائجه الخطرة .

إنها رواية في رسائل ، كل رسالة منها تتضمن مفاجأة لاتخطر على بال القارئ ... النهاية لاتخلو من عبر أخلاقية رغم ما تضمنته من مشاهد لا ...

منشورات : المكتب التجاري - بيروت

twitter @baghdad_library